الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الحاج لخضر – باتنـة –

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية وآدابها



صـــورة المرأة في الشعر المغربي

حتى نهاية القرن الثامن الهجري

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب المغربي القديم

إعداد الطالب :
إبراهيم قادة

إشراف الدكتور :
عبد الحميد بن صخرية

أعضـاء لجـنة المنـاقشة

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة	الصفة
العربي دحو	أستاذ محاضر	باتنة	رئيسا
عبد الحميد بن صخرية	أستاذ محاضر	باتنة	مشرفا ومقررا
إسماعيل زردومي	أستاذ محاضر	باتنة	عضوا مناقشا
الصالح مفقودة	أستاذ التعليم العالي	بسكرة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية

1429-1430 هـ/2008-

2009



إهــــــــــداء :

إلى كل المثابرين والعاملين في ميدان التثقيف والتوعية

إلى كل الذين يبنون صرح الحضارة بجهودهم المضنية

إلى كل المجاهدين الذين يروون الأرض بدمائهم الزكية

إلى كل من ذرفت عيناه على ألحانه الشجية

إلى كل من رفض الخنوع بجزمة وبندقية

وسطر اللاءات في بلاد العنجهية

إلى أمي وأبي – أطال ا في عمرهما –إلى إخوتي وأخواتي

إلى أبناء وبنات عمي – رحمه ا –

إلى أستاذينا الفاضلين علي عالية وعبد الحميد بن صخرية أبقاهما ا ذخرا لطلبة العلم ، وجزاهم عنا كل خير .

إلى كل الأوفياء ...نهدي ثمرة جهدنا هذا .

إبراهيم قادة

مقـدمـة :

إن الناظر في المكتبة الأدبية العربية وما تتضمنه من مصنفات يعتقد جازما بأنها مكتبة أعدت للأدب المشرقي منه – أدب شبه الجزيرة والشام ومصر - ، فجل الكتب و التصانيف عنت بالتعريف بأدب ونقد وتراجم المشارقة وأغفلت جزءا هاما من تراث الأمة العربية ألا وهو أدب البيئة المغربية ، ونحن إزاء هذا الإغفال الكبير لتراث هام وجدير بالدراسة نتساءل: هل كان هذا الإغفال سهوا أدبيا أم كان تناسيا مقصودا ؟ وبالتالي فهو كبوة تاريخية تحسب على منظري ونقاد الأدب العربي على مر العصور خاصة أنهم لم يغفلوا بالمرة أدب البيئة الأندلسية ، وقد تناولوه بالشرح والتصنيف مما ضمن لمؤلفات هذه الأخيرة الشهرة والسيرورة ، ولشعرائها ونقادها المنزلة الرفيعة ، وربما كان اعتناؤهم بالأدب الأندلسي جزءا لا يتجزء من اهتمامهم بالأدب في ربوع المشرق طالما أن أحفاد الأمويين كانوا هم من مثله وحمل لواءه .

وبين عين ترمق للمشرق تستجيد أدبه وتقعد لفنه ، وأخرى تبصر الأندلس تستعذب غزله ومجالسه وترفل في موشحه ظل الأدب في الأرض المغربية أسير النسيان طريدا لا يعتد به ولا يؤبه له ، ولولا جسارة بعض الكتاب والمؤرخين في بداية العصر الحديث الذين نفضوا الغبار عن كنوز الأدب المغربي واعتنوا بتآليفه دراسة وتحقيقا لظللنا نجتر مقولات الأدب المشرقي دونما علم بالإضافات الجليلة التي أسهم بها المغاربة قديما ، هذه النصوص التي كونت في مجملها ما اصطلح على تسميته "بالأدب المغربي القديم" .

ومن الصور الكثيرة التي يعرضها التراث الشعري للمغرب القديم في مجال البيئة الاجتماعية والثقافية نجد صورة المرأة ، وقد ظلت المرأة منذ القدم الكيان الذي يؤثر في أفعال الرجل وأقواله ، وقد حاول التعبيرعن مشاعره اتجاهها بكل ما أوتي من حيلة وبراعة ، فالرسام بريشته والنحات بمجسماته ، والموسيقي بألحانه ، والقليل فقط كانت تؤتى لهم براعة النظم ، وتذلل لهم ناصية اللغة فتصدح قرائحهم بالشعر الذي يعبر عن هذه الأحاسيس السامية .

وكان لموجة التعريب التي اكتسحت أرض المغرب الفسيح منذ الفتح الإسلامي أثرها في الإبداع الشعري ، فالشعراء المغاربة سحرهم البيان العربي ، واستفزهم الشعر المشرقي ، فأكبوا على اللغة يدرسونها ويتعلمون نحوها وصرفها وغريبها حتى تتأتى لهم آلة التعبير عن أحاسيسهم ومشاعرهم كما عبر عنها فحول الشعراء الجاهليين والإسلاميين ، ولعل

التفات الشاعر المغربي للمرأة لم يكن كثيرا بسبب الأوضاع السياسية المتأزمة والتي أحالت المغرب إلى ميدان كبير للقتال والتناحر حقبة طويلة من الزمن ، وذلك أن أرض المغرب كانت مسرحا للثورات والشغب ولم يكد يشهد استقرار حاكم أو أمير بإمارته أو إقطاعه إلا وتدور عليه الدوائر فيسقط صريعا بأرض المعارك ، وكذلك كانت الحركات الدينية الناشئة به ، فإنها ظلت تدعم هذا الحاكم أو ذاك ، والشعراء المغاربة لم يكونوا بعيدين عن هذه الأجواء فالأدب ابن بيئته .

وإذًا فصورة المرأة في الشعر المغربي بدأت تتشكل تدريجيا بتوالي السنين وتمكن المغاربة من اللسان العربي وهجرهم التدخل في الأمور السياسية ، وهل كان الشاعر إلا أبا أو زوجا أو حبيبا أو أخا أو ابنا ، وهل كان يحيا إلا للأم التي ربته ورعته؟ ، أو للزوجة التي صانته وحفظته وأحبته؟ ، أو للحبيبة التي عشقته وكابدت شوقها وهو ينمى في جوانحها فيمنع رقادها ويطيل سهادها؟ ، أو للأخت التي تحزن لحزنه وتفرح لفرحه ، أو للبنت التي يسهر على رعايتها ويحرص على شرفها ، ويذود عن حماها كل خطر يتهددها؟ ، ولما كان الشاعر أقدر على نقل هاته المشاعر وأبرع على صوغها في قالب نظمي بديع فإنه نقلها لنا بكل صدق وأمانة .

وعبر جهد متوصل للشعراء المغاربة ، وقدر غير هين من الكلام المنظوم تشكلت لنا صورة المرأة - في مجمل أحوالها في - الشعر المغربي القديم .

وقد ارتأينا – بحول ا تعالى – أن نقدم في هذه المذكرة دراسة حول صورة المرأة في الشعر المغربي القديم منذ فاتحة العهد الإسلامي بهذه الأرض وحتى نهاية القرن الثامن الهجري .

ولعلنا لا نجانب الصواب حين نقول أن معظم الدارسين والباحثين في مجال التراث الأدبي المغربي ولوا وجوههم شطر الموضوعات الرائجة في البيئة الأدبية المغربية ، فتناولوا بالدرس أدب الزهد والفلسفة والوصف والرثاء وما يتصل بها ، وكأن المتصفح لهذا الأدب لا يجب أن يحيد في اطلاعه على تلك المضامين التي نالت الأولوية في اهتمامات هؤلاء ، بينما عانت مواضيع هامة من الإغفال أو التهميش ، ربما لم يروا فيها ذات بال كبير ، في حين أنها تمثل تراثا شعريا رائعا لم ينل حظه من الدراسة ولا يجب إغفاله أكثر من هذا .

وإذا عزم الباحثون على تدارس قضية المرأة في الشعر فأنهم يخصون المرأة الحبيبة بالدراسة لا غير ، وكأن المرأة هي ذلك الإنسان المعشوق فقط ، فهم يدرسون جانبا ضيقا من المشاعر الإنسانية ويختزلونها بالحب وأماراته ، والحقيقة أن علاقة الذكر بالأنثى أسمى من هذا بكثير ، وليس هذا الحب العارض بالإنسان إلا جانب ضئيل من العلاقات الإنسانية في ذروة تلاحمها وانسجامها .

إن اختيار مثل هذا الموضوع لم يكن وليد الصدفة أو تفكيرا عارضا ، بل كان بعد إعمال فكر، ومحاولة لإظهار مختلف الطبوع التي زينت الساحة الشعرية المغربية وبالتالي رأب صدع الدراسات التي سارت في اتجاه واحد كما أسلفنا الذكر ، وقد تكون محاولة يائسة ، أو تعتريها الأخطاء وتعتورها النقائص إلا أنه لا مناص منها ومن غيرها حتى تتضح ملامح الصرح الشعري المغربي كاملة ،ودراسة التراث كاملا غير منقوص .

إن هذه الدراسة ستحاول الإجابة عن جملة من التساؤلات منها :

- كيف كانت صورة المرأة في الشعر المغربي طوال فترة الخمسة قرون الأولى ؟ وما هي ميزة تلك المقطوعات الشعرية على الرغم من أنها كانت تبدو محتشمة ؟ .
- ما هو التجديد الذي طرأ على المعاني الغزلية في القرون الثلاثة اللاحقة أي إلى نهاية القرن الثامن الهجري ؟
- ما هي جملة العلائق والوشائج التي تربط بين فن الغزل في العصر العباسي بالمشرق وبين نظيره في البلاد المغربية ؟.
- ما مدى تأثير حركة المتصوفة والفرق الكلامية الدينية في الحد من الانطلاقة الغزلية المغربية ؟ ، وهل صحيح أن الحركة الرافضة للغزل بالبلاد المغربية جوبهت بردة فعل معاكسة حيث أن الجميع أصبح ينشد المرأة إما نكاية على طريقة أبي نواس ومسلم بن الوليد ، أو تبرما على طريقة عمر بن أبي ربيعة والمتنبي ؟.
- هل يمكن القبول بالطرح الذي يرى أن المغاربة ولعوا بفن هجره أهله ،إذ كان تأثرهم – في القرون المتأخرة – بغزليات عمر بن أبي ربيعة والأحوص ومسلم بن الوليد في حين كان المشارقة قد تجاوزوا تأثيرات هاته الأشعار وذهبوا في الغزل مذاهب لم يكن حتى للأمم الأخرى عهد بها ؟ .

- هل كان للمرأة تأثير على صعيد الحياة السياسية ، وجهد ذا بال في إرساء السلام أو إثارة الحروب ؟ ، وما مدى مساهمتها في تنشيط الحركة الثقافية وإثراء ديوان الشعر المغربي ؟ .

ولقد كان لزاما علينا اتباع المنهج التكاملي الذي يجمع بين مختلف المناهج ، فالمنهج التاريخي يفرض نفسه لأن الموضوع يشمل فترة زمنية ليست بالهينة ولابد من دراسة وتحليل الأحداث والمعطيات وفق التسلسل الزمني حتى لا يقع شرخ أو تناقض في التحليل ، بينما يكون المنهج الوصفي–التحليلي الأساس الذي يُنطلق منه لإثراء النصوص الشعرية بالدراسة والتحليل ، فهو من يضمن حضور الطالب وسط زخم المعلومات ، وللمنهج النفسي مكان لا يمكن تجاهله أو تجاوزه ، ذلك أن الأدب مرتبط أشد الارتباط بالجانب النفسي للمبدع ولابد من سبر أغوار النفس البشرية في لحظات الانشراح والانقباض حتى تكون للأحكام التي تطلق على النص الشعري جانب من الموضوعية أو المصداقية .

وقد كانت الخطة بأن تفتح بمدخل يعرض لأثر الإسلام في المعتقد والحياة الاجتماعية فالتعاليم التي أتى بها كانت كافية لقلب الأوضاع السائدة ، كما أن ضرورة إتقان اللغة العربية لفهم الكتب المنزل وتلاوته كانت أهم عامل في إطلاق القرائح الشعرية لشعراء المغرب الذين استفزهم البيان العربي فراحوا ينظمون المقطوعات والقصائد .

ثم جاء الحديث في الفصل الأول عن مكانة المرأة في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية ، ذلك أنه لن تنجلي أي محاولة لرصد صورة المرأة من خلال الشعر المنظوم إلا بمعرفة الوسط الذي تحيا فيه والوضع الذي تكابده ، فالشاعر لا يمكنه نقل صور زائفة عن حالة المرأة أو عن مشاعره اتجاهها خاصة إذ علمنا أن المادة الأدبية تعتبر ركيزة البحث التاريخي الجاد فهي التي تمده بكل المعلومات عن الواقع الاجتماعي والثقافي للفترة المراد دراستها .

ليأتي الفصل الثاني الذي كان مدار الحديث فيه عن صورة الأم من خلال أشعار المغاربة ، ونلمس عظم المكانة التي احتلتها في النفوس لما نتصفح المراثي التي نظمت فيها ، كما استغلت بعض المراثي للتعبير عن التوجهات السياسية والدينية للشاعر ، ومنه نخلص بأن رثاء الأمهات لم يكن بريئا عفويا دائما .

ثم الفصل الثالث الذي عرضنا فيه لصورة الحبيبة ، ذلك الكيان الذي أرق الشاعر وأطال سهاده ومنع نومه ، وفيه نلمس مظاهر الجمال الجسدي والنفسي للحبيبة ، وعاطفة الحب عبر عنها الشعراء في كل زمان وبكل شكل تعبيري أتيح لهم .

والفصل الرابع رصد صورة المرأة الشاعرة من خلال القصائد التي نظمتها ، وقد اختلفت التجربة الشعرية من شاعرة لأخرى تبعا للأمر الذي يشغل بال كل واحدة منهن ، فهذه متيمة بحب الرجل ، وأخرى تفتقد الأهل والوطن ...

ويعقبه الفصل الأخير الذي خصص لصور أخرى متفرقة عن المرأة .

وقد كان لنا الحظ إذ أفدنا من بعض المصادر والمراجع الهامة التي كانت العضد الذي قوى من عزيمتنا ، منها تاريخ ابن خلدون ، والبيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشي، وتاريخ المغرب وحضارته لحسين مؤنس ، وكتاب المرأة في الشعر الجاهلي لأحمد محمد الحوفي الذي أعطانا صورة عن هيكل البحث ، كما كانت دواوين الشعراء المغاربة عدتنا ومدار حديثنا منها : ديوان ابن هانئ الأندلسي ، وديوان ابن رشيق ، وديوان ابن حمديس الصقلي ، وديوان ابن الأبار ...

ولا تخفى الصعوبات التي تواجه أي باحث وخاصة في الأدب المغربي الذي يصطدم بعقبة ندرة المصادر والمراجع والمخطوطات ، وقد حاولنا الإلمام بأكبر قدر منها والاطلاع على ما أمكن فيها .

ولا يفوتنا الحديث دون شكر الدكتور عبد الحميد بن صخرية على توجيهاته ونصائحه والدكتور علي عالية الذي قام بمجهود كبير وجبار وأفادنا بالمراجع اللازمة ، واحتمل معنا عناء القراءة والبحث ، وحمل عنا ثقلا كنا ننوء بحمله ، فكان هذا العمل في الحقيقة عمله ووجب أن ينسب له ، كما نتوجه بالشكر إلى القائمين على رئاسة ونيابة قسم اللغة العربية وآدابها وإدارة الكلية بجامعة الحاج لخضر بباتنة بشكل عام على التسهيلات التي قدموها لنا نرجو من ا التوفيق والسداد .

مدخـــــل

الإسلام وأثره في المعتقد والحياة الاجتماعية

الإسلام و أثره في المعتقد والحياة الاجتماعية :

الإسلام هو الدين الذي جاء به خاتم النبيين محمد بن عبد ا ، النبي العربي– صلى ا عليه وسلم –وهو من أشهر الأديان وأكبرها شأنا وأقواها على الشبه وأبعدها عن الشكوك. أوحي هذا الدين في القرن السادس ميلادي ، أي في عصر كان فيه العقل الإنساني قد بلغ رشده ، واستعدت فيه النفوس لقبول وحي يوفّق بين الدين والدنيا .

ومما يميز الإسلام عن سواه من الأديان التي تقدمته تصريح كتابه بأنه دين عام ، قال تعالى : << **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافةً لِلناس بَشِيرًا وَنَذِيرًا** >>[1] ، وقد كاتب النبي ملوك الممالك المعروفة لذلك العهد يدعوهم إلى الإسلام باسم هذا النص ، قال " جون لابوم " الفرنسي في مقدمة الفهرس الذي وضعه للقرآن الكريم المترجم إلى اللغة الفرنسية << لأجل أن يفهم الإنسان تمام الفهم مرعى دعوة من الدعوات يلزمه أولا الإلمام بحال الداعي في ذاته ، ولأجل أن يقدر قدر دعوته يجب عليه أن يدرس الجهة البشرية التي وجه همته للتأثير عليها >> [2] .

كان جو العالم ملبدا بغيوم الاضطرابات والفتن والحروب ، وكان اعتماد الناس على وسائل الشر أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير ، وكان أجمع الرؤساء للثقة والطاعة أشدهم صيحة في إصلاء نار الحروب والمعارك ، ولم يكن يؤخذ بعواطف القلوب بل كان [1]الاهتمام بالغنيمة وسلب الأمم والشعوب والمدائن والأعيان ورجال الحروب وفقراء الحراثين والبسطاء المتسولين ، ولولا شعاع ضئيل من الحكمة كان يتأنق في بعض صوامع الكهنة وبعض الجراثيم الفلسفية لكانت البربرية أسرعت في خطاها مقودة بغطرسة زعماء البهيمية .

وكانت المدنيات الموجودة آنذاك (الروم والفرس) مطبوعة بطابع الوحشية، وكانت في أكمل أدوارها ، بحاجة إلى التعديل والتقويم ، بل إلى قارعة سماوية تحل بها فتقلبها رأسا على عقب ، جاء في دائرة المعارف: << ماذا كانت نظامان الرومان على وجه الإجمال ؟! ، كانت عين الوحشية والقسوة مرتبة في صور قوانين ، أما من جهة فضائل روما مثل الشجاعة والمكر والتبصر والنظام والإخلاص المطلق للجماعة فهي بعينها فضائل قطاع الطرق واللصوص ، أما وطنيتها فكانت لابسة لبوس الوحشية فكان لا يُرى فيها إلا شرها

---

(1) سبأ: 28 .

(2) محمد فريد وجدي : دائرة معارف القرن العشرين ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، د ت ، ج5، ص242.

1

مفرطا وحقدا على الأجنبي ، وضياعا لعاطفة الشفقة الإنسانية ، أما العظمة في روما والفضيلة فيها فكانت عبارة عن إعمال السوط والسيف في العالم والحكم على أسرى الحروب بالتعذيب أو بالأسر ، وعلى الأطفال والشيوخ بجر عربات النصر >> [1].

ومع هذا كله كان هنالك ركن من أركان الأرض لم تصبه لفحة من هذه الحركة ... ذلك الركن هو شبه جزيرة العرب ، وكان للعرب اعتقاداتهم .. وأنهم مغرمون بشرب الراح ولعب الميسر، و كان من عوائدهم أن الرجل له أن يتزوج من النساء بقدر ما له به وسائله المعيشية ، وكان له أن يطلقهن متى شاء هواه ، وكانت الأرملة تعتبر من ضمن ميراث زوجها ، ومن هنا نشأت تلك الارتباطات الزوجية بين أولاد الزوج ونساء الأب وقد حرم ذلك الإسلام وعدة زواجا ممقوتا .

ونجد الأصول الجديدة التي أتى بها الإسلام ممثلة في:

1- التخليص بين الإنسان وخالقه (لا وصاية لكاهن) قال تعالى : << **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِي فَإِنِي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الداعِي إِذَا دَعَان فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلهُمْ يَرْشُدُونَ** >> [2] .

2- تقرير المساواة العامة: قال تعالى: << **يَاأَيهَا الناسُ إِنا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِن أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِن اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** >> [3] .

3- تقرير مبدأ الشورى في الحكومة : قال تعالى : << **وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ** >> [4]
وقال أيضا : << **وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ** >> [5] .

4- تعليق السعادة والشقاوة في الآخرة على الأعمال والصفات الذاتية لا على الشفاعات والقرابات ، قال تعالى : << **كُل نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ** >> [6] ، وقال : << **وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلا مَا سَعَى وَأَن سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى** >> [7] .

---

(1) محمد فريد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين ، ج5 ، ص244 .
(2) البقرة 186 .
(3) الحجرات : 13 .
(4) آل عمران : 159
(5) الشورى : 38
(6) المدثر : 38 .
(7) النجم : 39- 40 .

5- الاعتراف بحقوق العقل والعلم : قال تعالى : << **أَفَلاَ تَعْقِلُونَ** >>[1] وقال أيضا :

<< **وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلناس وَمَا يَعْقِلُهَا إلا العَالِمُونَ** >>[2] .

6- المؤاخاة بين الدين والمدنية : قال تعالى : << **قُلْ مَنْ حَرمَ زِينَةَ اللهِ الَتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطيبَاتِ مِنَ الرزْق** >>[3] وقال : << **وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدنيَا** >>[4] .

7- تنبيه الإنسان إلى أن للوجود الإنساني سننا لا تتبدل ، قال تعالى : << **سُنةَ اللهِ فِي الَذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنةِ اللهِ تَبْدِيلاً** >> [5]

8- توحيد العالم في دائرة المعاملات : قال تعالى : << **لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدين وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَروهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ** >>[6]

9- الاعتراف بناموس الترقي : قال تعالى : << **وَقُلْ رَب زِدْنِي عِلْمًا** >>[7]

10- تقرير أن الدين شرع لخير الناس والانسان ومصلحته لا لتسخيره وإذلاله .

11- حرية البحث والنظر (التجديد) في التشريع بمقتضى تغير الأحوال [8].

لقد جاء الإسلام وأخذ في الانتشار في جزيرة العرب ، حمل هذا الدين إلى عرب شبه الجزيرة قيما ومعتقدات سامية أو على الأقل " جديدة " كما كانوا ينظرون إليها هم في البداية ، وما فتئ يرسم لهم معالم العقيدة الحقة عبر النص السماوي المنزل وهو القرآن الكريم ، والذي تولى طرحه وتبليغه النبي المصطفى محمد – صلى ا عليه وسلم – فأخذ يثبت دعائم العقيدة حتى لا تزيغ النفوس وتحيد مجددا عن عبادة ا إلى عبادة الأوثان أو الشرك ، ودل على الوسيلة التي يتحقق بها الإنسان من ربوبية ا تعالى ، وهي نفسها التي يفهم بها مقاصد التشريع ، ويدرك بها غاياته وأحكامه، ألا وهي "العقل "

---

(1) الأنبياء : 10 .

(2) العنكبوت : 43 .

(3) الأعراف : 32 .

(4) القصص : 77 .

(5) الأحزاب : 62 .

(6) الممتحنة :08 .

(7) طه : 114 .

(8) محمد فريد وجدي : دائرة معارف القرن العشرين ، ، ج5 ، ص 241 ...291 .

- حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ط6 ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، مصر ، 1962 ، ج1 ، ص12 .

الذي وهبه ا تعالى للإنسان ، هذا العقل الذي يتدبر ويتأمل به ملكوت ا تعالى ، وينحي الذكر الحكيم باللائمة على من لا يستخدمون عقولهم فيشبههم بالأنعام التي لا تعقل ويرى أنهم لا يختلفون في شيء عن الصم البكم العمي قال تعالى : << **لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ** >> [1] .

فالإسلام << رفع من شأن العقل الإنساني إذ جعله الحَكَم في فروع الشريعة ، وحثه على استكمال سيطرته على الطبيعة وقوانينها ، وفتح الأبواب واسعة أمامه كي يجتهد في مسالك الدين العملية ، فلا عجب – بعد ذلك- إذا رأينا المسلمين يتحولون مع الفتوح إلى معرفة كل ما لدى الأمم المفتوحة من تراث عقلي >>[2] .

ولذلك كان إقبال البشر على الدين الجديد فتحا عقليا بالدرجة الأولى خلّص الإنسانية من شرور و زيف كبيرين << فالوحي لديه كل العلامات التي تدل على أنه مجموعة من العقائد قامت على أسس المنطق والعقل ، وكان من المتوقع لعقيدة محددة كل التحديد - خالية كل الخلو من التعقيدات الفلسفية ثم هي تبعا لذلك في متناول إدراك الشخص العادي - أن تمتلك ، وإنها لتملك فعلا قوة عجيبة لسلوك طريقها إلى ضمائر الناس >> [3] .

وبذلك أتاح الدين الإسلامي حرية الانطلاق والاعتقاد للوصول إلى اليقين ، وبالمقابل :

<< الدين ليس معرفة التمرد وشق عصا الطاعة بل هو التسليم التام والإنفاذ الكامل لما حكم به ، قال تعالى : " **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُم لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِما قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** " [4] .

وكلمة الإسلام في مدلولها اللغوي ، وفي مصطلحها الشرعي تعني هذا ، إنها لا تعني الخضوع الجزئي ، أو الخضوع المشروط ،أو الخضوع الكاره .. إنها خضوع ، ينقل

---

[1] الأعراف : 179 .

[2] د شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، العصر الإسلامي ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر، ط9 ،1981 ، ج2 ، ص 18 .

[3] لجنة من الأساتذة : الاجتهاد والتجديد في التشريع الإسلامي ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، ص 262 .

[4] النساء : 65 .

الإيمان المستكن في القلب إلى عمل تصطبغ به الجوارح ، ويترجم اليقين الخفي إلى طاعة بارزة في الحياة الخاصة والعامة>> [1] .

وعبر تنمية الجانب العقلي في الإنسان ، انبرى الإسلام لإرساء القواعد الاجتماعية التي تحدد حقوق وواجبات كل فرد اتجاه نفسه وغيره من الأفراد حاكمين أو محكومين ، هذا النظام الذي سيضفي إلى إقامة عدالة اجتماعية لا يحس فيها الفرد بأي شكل من أشكال الظلم أو التعسف كما كان الأمر في الجاهلية العربية أو لدى الأمم الأخرى ، هذه العدالة التي يجب أن تتحقق بين مختلف أطياف المجتمع : بين الغني والفقير ، المستخدِم والمستخدَم ، بين الرجل والمرأة .

وقد نظم الإسلام حقوق المرأة ورعاها حق رعاية ، إذ كانت مهضومة الحقوق في الجاهلية فرد إليها حقوقها ، وجعلها كفؤا للرجل لها ما له من الحقوق ، يقول تعالى : << **وَلَهُن مِثْلُ الذِي عَلَيْهِن بِالمَعْرُوفِ** >>[2] ،

وأيضا لهن مثل ما للرجال من السعي في الأرض والتجارة ، ولكن بضوابط حددها قال تعالى : << **لِلرجَال نَصِيبٌ مِما اكْتَسَبُوا وَلِلنسَاءِ نَصِيبٌ مِما اكْتَسَبْنَ** >>[3] .

وقد شرع الإسلام الزواج ، وحث عليه لما في ذلك من تحصين للمجتمع الناشئ وإبعاده عن الرذيلة والفواحش ، قال تعالى : << **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَودةً وَرَحْمَةً** >> [4] .

وفي هذا المعنى أحدث الإسلام " وثبة نفسية " جديدة لمن أراد تكوين أسرة مسلمة ، ذلك أنه قضى على النزوات العابرة التي كانت تمثل السبب الرئيسي للزواج في الجاهلية وجعلت الطرفين المرشحين للزواج يختاران بعناية ودقة جل التفاصيل الحياتية المنشودة في الطرف الآخر ، وفي هذا تكريم خاص للمرأة التي كانت " تساق " قديما إلى الرجل كما تساق السبية لسابيها ، لا يميزها عن الإماء شكليا سوى المهر الذي امتهرته .

فلم يكن يؤخذ كثيرا برأي المرأة في الزواج طالما أن الأب أو سيد العشيرة سيفصل نهائيا في المسألة بقبول أو رفض الطالب ، ولذلك جاء الإسلام ورفض القسر أو الإرغام فلا وصاية لأحد على أحد خاصة فيما يخص الحقوق المشروعة كاختيار الزوج المناسب

---

[1] محمد الغزالي : الجانب العاطفي من الإسلام ، دار الشهاب ، الجزائر ، 1990 ، ص 55 .

[2] البقرة : 228 .

[3] النساء : 32 .

[4] الروم : 21 .

من الطرفين << فالدين لا يكبت مطالب الفطرة ، ولا يصادر أشواق النفس إلى الرضا والراحة والبشاشة ، وللإنسان عندما يقرر الزواج أن يتحرى عن وجود الخصال التي ينشدها ، وأظن ذلك حق المرأة فيمن تختاره بعلا ، فإذا صدق الخُبْر الخَبَر صح الزواج وبقي ، وإلا تعرض مستقبله للغيوم ، وقد [لاحظت] أن الخاطب قد يتكلف أحيانا إلى حين !فإن كان غضوبا تصنع الحلم ، وإن كان شحيحا تصنع الكرم ! حتى إذا زفت إليه امرأته انكشف المخبوء ، وبدت أخلاقه الطبيعية ، وفوجئت المرأة بما لم تكن تعهد، فإذا هي تقول مع الشاعر المدهوش : [من الخفيف]:

كُل يَوْمٍ تُبْدِي صُرُوفُ الليَالِي خُلُقًا مِنْ أَبِي سَعِيدَ عَجِيبَا [1]

ولهذا حث الإسلام على المصارحة وعدم التملق ، وكشف ما أمكن من الطبائع قبل الزواج ، وقد كرمت المرأة أيما تكريم ولم تعد سهلة المنال مبتذلة في دور اللهو والمجون ، وذلك عبر إقرار الحدود والعقوبات التي تنزل بمنتهكي الأعراض وناشري الرذيلة ، قال تعالى : << **الزانِيَةُ وَالزانِي فَاجْلِدُوا كُل وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذُكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ المُؤْمِنِينَ** >>[2] .

وحث على العفاف وحفظ الفروج وستر الحرمات ، قال تعالى للعزّاب : << **وَلْيَسْتَعْفِفِ الذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتى يُغْنِيهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ** >>[3] .

وقضى على سنن الرذيلة التي كان الإنسان يحياها ويقرها قال تعالى : << **وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلى البِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الحَيَاةِ الدنيَا** >> [4] .

لأن << اشتهاء الدنيا بطغيان وجنون يكاد يختلط بدماء الناس ولحومهم ، ويخرج بهم عن جادة الاعتدال والحكمة ، والإنسان مجادل طويل اللسان في تسويغ شهواته ،

---

(1) محمد الغزالي : قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة ، دار ريحانة ، الجزائر 1999 ، ص 119 .

(2) النور : 2 .

(3) النور : 33 .

(4) النور : 33 .

وبسط حاجاته ، وتحقير ما عنده ، وإعلان التمرد عليه ونعته بأقبح النعوت >> [1] .
وقد جاء الحديث النبوي الشريف ليؤكد مضامين الآيات القرأنية من دعوة للعفاف وحفظ مكانة المرأة وشرفها من الأقاويل ، وحث الشباب على مجاهدة النفس ، قال المصطفى :
<< **يَا مَعْشَرَ الشبَابِ مَن اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوجْ فَإِنهُ أَغَض لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرَجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصوْمِ فَإِنهُ لَهُ وِجَاءٌ** >>[2] .
وقد سما الإسلام بالمرأة عن درن الأقدمين الذين عدوها في جملة " سقط المتاع " الذي يباع ويشترى ، وحتى الزواج الذي كان يقوم على أساس العصبيات ، والأنماط القبلية المتوارثة (العلية والأشراف للشريفات) لم يستحسنه الإسلام، بل وحذر من التفاخر والتبجح بين الزوجين لأنه قد يقود إلى نتائج عكسية ، وأكد بأن العبرة في تقوى المرأة دينها وليس في حسبها أو نسبها ، ولهذا بالغ رسول ا في التحريض على ذات اليدين فقال : << **تُنْكَحُ المَرْأَةُ : لِمَالِهَا ، وَجَمَالِهَا ، وَحَسَبِهَا ، وَدِينِهَا ، فَعَلَيْكَ بِذَاتِ الدين تَرِبَتْ يَدَاكَ** >> [3] ، وقال أيضا : << **تَخَيرُوا لِنُطَفِكُمْ** >> [4] .
وحث على صون المرأة وتخيرها << فما قيمة امرأة لا ترد يد لامس وما قيمة بيت يبنى على هذا الجرف المنهار ؟ إن الزواج وسيلة لا غاية ، وسيلة لامتداد النوع الإنساني العالي ، وليس مقرا فقط لإشباع النهمة ، وتحصيل المتعة >> [5] ، وقد قال الشاعر :
[من الطويل]:

عَلَى وَجْهِ مَي مَسْحَةٌ مِنْ مُلاَحَةٍ	**وَتَحْتَ الثيَابِ الخِزْيُ لَوْ كَانَ بَادِيَا**
أَلَمْ تَرَ أَن الـمَـاءَ يَكْـدُرُ لَوْنُهُ	**وَإِنْ كَانَ لَوْنُ المَاءِ أَبيَضَ صَافِيَا**

---

[1] محمد الغزالي : الجانب العاطفي من الإسلام ، ص 226 .
[2] أبو عبد ا محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري الجعفي : صحيح البخاري ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، دت . ج2 ، ص149 .
[3] أبو عبد ا محمد بن يزيد القزويني : صحيح سنن ابن ماجة ، مراجعة : محمد ناصر الدين الألباني ، مكتبة المعارف ، الرياض ، السعودية ، ط1 ، 1417هـ/1997م ، ص127 .
[4] << المرأة إذا كانت مع الفساد جميلة ، كان بلاؤها أشد ، إذ يشق على الزوج مفارقتها فلا يصبر عنها ، ولا يصبر عليها ويكون كالذي جاء إلى رسول ا وقال : " يارسول ا إن لي امرأة لا ترد يد لامس ، قال : طلقها ، فقال : إني أحبها ، قال : امسكها "، وإنما أمره بإمساكها خوفا إذا طلقها أتبعها نفسه ، وفسد هو أيضا معها ، فرأى في دوام نكاحه مع دفع الفساد عنه مع ضيق قلبه أولى >>
- محمد بن أبي حامد الغزالي : إحياء علوم الدين ، وبذيله كتاب الإملاء في إشكالات الإحياء للإمام الغزالي ، ط1 ، دار الثقافة ، الجزائر العاصمة ، الجزائر ، ج2 ، 1991م ، ص 92 .
[5] محمد الغزالي : قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة ، ص 102 .

و ملخص واجبات المرأة حيال زوجها يمثله الحديث الشريف : << **مَا اسْتَفَادَ الْمُؤْمِنُ بَعْدَ تَقْوَى اللهِ خَيْرًا مِنْ زَوْجَةٍ صَالِحَةٍ إِنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ ، وَإِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ ، وَإِنْ أَقْسَمَ عَلَيْهَا بَرَّتْهُ ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ** >> [1] .

والمرأة إذا كانت مع الفساد جميلة كان بلاؤها أشد ، إذ يشق على الزوج مفارقتها فلا يصبر عنها ولا يصبر عليها ، ويكون كالذي جاء إلى رسول ا وقال : يا رسول ا عن لي امرأة لا ترد يد لامس ، قال : **طَلِّقْهَا** ، فقال : إني أحبها ، قال : **أَمْسِكْهَا** ، << وإنما أمره بإمساكها خوفا إذا طلقها أتبعها نفسه ، وفسد هو أيضا معها فرأى في دوام نكاحه مع دفع الفساد عنه مع ضيق قلبه أولى >> .

وإذًا فإن مكانة المرأة في قلب الرجل عظيمة ولا ينفيها أحد ، والإسلام عزز هذه المكانة لأنها وسيلة التلاحم الإنساني وفرصة لتهذيب الطبائع وتليين القلوب ، وقد كانت منزلة الزوجات عظيمة في قلوب الأزواج ويؤكدها الجاحظ في قوله : << ومما يستدل به على تعظيم شأن النساء أن الرجل يستحلف با الذي لا شيء أعظم منه ، وبالمشي إلى بيت ا الحرام ، وبصدقة ماله ، وعتق رقيقه ، فيسهل ذلك عليه ولا يأنف منه ، فإن استحلف بطلاق امرأته تربد وجهه ، وطار غضبه في دماغه ، ويمتنع ويعصي ، ويغضب ويأبى ، وإن كان المحلف سلطانا مهيبا ، ولو لم يكن يحبها ، ولا يستكثر منها ، وكانت نفسها قبيحة المنظر ، دقيقة الحسب ، خفيفة الصداق ، قليلة النسب ، ليس ذلك إلا لما عظم ا من شأن الزوجات في صدور الأزواج >> [2] .

وقد دفع الإسلام العرب دفعا للتخلي عن أعرافهم الناشزة ، وعاداتهم المستهجنة ، من ذلك الوأد الذي كان يتم في أبشع الصور وأدماها للقلوب << فقد كان الوأد يتم في صورة قاسية ، إذ كانت البنت تدفن حية ! وكانوا يتفننون بشتى الطرق ، فمنهم من كان إذا ولدت له بنت تركها حتى تكون في السادسة من عمرها ، ثم يقول لأمها : طيبيها وزينيها حتى

---

[1] ابن ماجة : صحيح سنن ابن ماجة ، ص147 .

[2] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : رسائل الجاحظ ، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 1399 ه / 1979 م ، ج3 ، ص 147 .

أذهب بها إلى أحمائها !وقد حفر لها بئرا في الصحراء فيبلغ بها البشر فيقول لها : انظري فيها وردمتها ، وإن كان ابنا قامت به معها >> [1] .

قال تعالى واصفا أولئك الوائدين : << **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ، يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** >> [2] .

ومن غير شك أن ليس للإسلام – بعدما قرره من ضوابط ونواه- يد في حالة التبذل والانحلال الذي أصاب المجتمع في العصر العباسي ، فالإسلام قد أجل المرأة وقدرها ، ولكن باختلاط الأمم والشعوب وتبعا لظروف سياسية معينة سار المجتمع إلى دركات دنيا لم ينفع فيها وعظ أو زجر ، فحياة المرأة في العهد الإسلامي الأول لم تكن ذاتها بعد العصر الأموي حيث ازدحمت الجواري في القصور وكثر المريدون والمريدات ، << حتى إننا نراها في الصدر الأول من العصر الإسلامي تشارك في الأحداث السياسية على نحو ما هو معروف من موقف السيدة عائشة [3] أم المؤمنين في حروب علي وطلحة والزبير، وكانت هي نفسها مصدرا كبيرا من مصادر الحديث النبوي وهدي الرسول الكريم >> [4] .

---

[1] د. النبوي عبد الواحد شعلان : الحياة الأدبية في عصر النبوة والخلافة ، دار قباء ، القاهرة ، مصر ، ط2 ، 1998 ، ص 29 .

[2] النحل : 58-59 .

[3] يشير هنا إلى وقعة الجمل ، وهي معركة جرت بين علي بن أبي طالب من جهة ، وطلحة والزبير بن العوام وعائشة أم المؤمنين من جهة أخرى سنة 36هـ / 656 م ، سميت الوقعة كذلك لأن السيدة عائشة كانت تثير حماس المناوئين لعلي وهي على جملها .

ذكر الذهبي : لما قتل عثمان ، سقط في أيدي أصحاب النبي وبايعوا عليا ثم إن طلحة بن عبيد ا والزبير بن العوام ، وأم المؤمنين عائشة ، ومن تبعهم رأوا أنهم لا يخلصهم مما وقعوا فيه من توانيهم في نصرة عثمان ، إلا أن يقوموا في الطلب بدمه ، والأخذ بثأره من قتلته ، فساروا من المدينة بغير مشورة من أمير المؤمنين علي وطلبوا النصرة ، قال المطلب بن زياد : : شهد مع علي يوم الجمل مائة وثلاثون بدريا ، وسبعمائة من أصحاب النبي (ص) وقتل بينهم ثلاثون ألفا ، لم تكن مقتلة أعظم منها ،ثم أنها ندمت (عائشة) ، وندم علي لأجل ما وقع .

- شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : سير أعلام النبلاء ، وبهامشه إحكام الرجال من ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، للمؤلف : تحقيق : أبو سعيد عمرو بن غرامة العمروي ، ط1 ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، 1997 ، ج1 و 2 ، ج2 ، ص 638-639 -642 .

[4] د. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، ج2 ، ص 22 .

وإذا كانت أحوال المرأة في المشرق - حيث مهبط الوحي- قد تغيرت جذريا بظهور الإسلام والأحكام التي أقرها والحقوق التي منحها لها وردها إليها ، فإن أوضاع المرأة في المغرب ظلت على حالها : بؤس وشقاء ، بداوة ووحشة ، سحر وشعوذة ، ولم يتجه المسلمون مبكرا لفتح المغرب بسبب احتدام الصراع على الحكم بين علي ومعاوية ، ونشوء فرق الخوارج والمناهضين الذين أضعفوا قوة الجيش الإسلامي ، ولم يكن من السهل أن يغامر القادة بجند المسلمين في هذه الأرض الوعرة والتي استعصت حتى على أباطرة الروم والقوط والوندال ، وكان لابد من الانتظار حتى يلتئم الشمل ، وتستجمع الجيوش الإسلامية قواها وتوجه همتها لفتح هذه البلاد العصية .

وإلى ذلك العهد ظلت المرأة المغربية غير بعيدة عن حياة البداوة وما يطبعها من جفاء ، ولا نبالغ حين نقول أنها كانت تعمل ببالغ المهانة والقسوة من طرف البربر أنفسهم ، وكان حظها من الرجل الازدراء ، عدا بعض النساء اللائي برعن في ممارسة الشعوذة وطقوس السحر وقد تمتعن بمكانة لائقة نظرا لأنهن يصنعن التعاويذ والتمائم ويطلعن "على الغيب" ويقدمن نبوءات النصر أو الهزيمة لقادة القبائل البربرية المتناحرة ، وتبعا لذلك كان جانبهن متقى لاعتقاد البربري بصحة وفعالية الطقوس التي يراها .

وبعد أن وضع المسلمون موطئ قدم بأرض المغرب انبروا لمحو تلك الضلالات وإزالة مظاهر الشرك با ، وتعليم البربر – نساءً ورجالا - مبادئ الدين الحنيف ووضع حدود تضبط علاقة الذكر بالأنثى وفق ما أقره الشرع الحنيف ، وبدأت أحوال المرأة بالتحسن تدريجيا لتخرج من ظلمات الجهل إلى نور الهداية والعلم ، ثم تكتب لها صفحات مشرقة من تاريخ المشاركة السياسية والاجتماعية والثقافية في المغرب الإسلامي .

وستحاول الدراسة نفض الغبار عن تلك الصفحات ، ورسم عالم واضحة لصورة المرأة في الشعر المغربي منذ فاتحة العهد الإسلامي بهذه الأرض إلى نهاية القرن الثامن الهجري .

الفصـل الأول

مكانة المرأة في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية

أ- في الحياة السياسية

* المرأة المغربية والإسلام
* المرأة المغربية والفتوحات : الكاهنة .
* المرأة والسحر
* المرأة والجهاد :
*المرأة والسياسة : كنزة البربرية

أم ملال

زينب النفزاوية

حبابة الرومية

* السياسة وانعكاساتها السلبية على المرأة

ب – في الحياة الاجتماعية والاقتصادية

* اللباس
* تقاليد الزواج
* طقوس الموت
* السحر والكهانة
* المرأة والعمل

ج- في الحياة الثقافية

* المرأة وبناء الصروح المعرفي : أم البنين الفهرية
*المرأة والتأليف
* المرأة والأعمال الخيرية:فاطمة الحاضنة

أ/ في الحياة السياسية :

إن تدخل المرأة في الحياة السياسية ومساهمتها في تدبير شؤون الحكم ببلاد المشرق كان أمرا محسوما ، فمنذ أن سطع نور الإسلام على صحراء العرب انقلبت حياة المرأة إلى حال آخر، وقد حملت تعاليم الدين الجديد ما يرسخ المكانة اللائقة التي يجب أن تتبوأها المرأة في المجتمع الإسلامي من حيث هي أم وجب طاعتها وبرها [1] ، أو أخت وجب حمايتها والذود عنها [2] ، أو زوجة وجب عشرتها [3] ، وبنت وجب صونها والقيام بشأنها [4] ، أو وافدة وجب إكرامها .

---

[1] قال تعالى **وَقَضَى رَبكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلا إِياهُ وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِما يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبي ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبيَانِي صَغِيرًا** "

- الإسراء : 23-24 .

[2] نجد أن حماية الضعينة من الخلال التي انفرد بها العرب في الجاهلية ، فالعرب تقول : " كل ذات صدار خالة " : والصدار كالصدرة تلبسها المرأة ، ومعناه أن الغيور إذا رأى امرأة عدها في جملة خالاته لفرط غيرته ، وهذا المثل من قول همام بن مرة الشيباني وكان أغار على بني أسد وكانت أمه منهم ، فقالت له النساء : أتفعل هذا بخالاتك ؟ . فقال : كل ذات صدار خالة .

- أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني : مجمع الأمثال ، دار مكتبة الحياة ، بيروت .لبنان ، دت ،ج2 ،ص 233 .

[3] قال تعالى : " **وَعَاشِرُوهُنَّ بِالمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** "

- النساء الآية 19 .

[4] قال تعالى : " **وَعَلَى المَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالمَعْرُوفِ ، لا تُكَلفُ نَفْسٌ إِلا وُسْعَهَا** "

- البقرة : الآية 233 .

ويقول إسحاق بن خلف البهراني أحد فرسان الخوارج ذاكرا ابنته وخشيته عليها وهو خارج إلى القتال : [من البسيط] :

لَوْلاَ أُمَيْمَةُ لَمْ أَجْزَعْ مِنَ الـ ـعَدَمِ — وَلَمْ أُقَاسِ الدجَى فِي حَالِكِ الظُّلَـ ـمِ

وَزَادَنِي رَغْبَةً فِي العَيْشِ مَعْرِفَتِـي — ذُل اليَتِيمَةِ يَجْفُوهَا ذَوُو الرحِـ ـ ـمِ

أُحَاذِرُ الفَقْـرَ يَوْمًـ ـا أَنْ يُلِم بِـهَا — فَيُكْشَفَ السِتْرُ عَنْ سَاقٍ عَلَى وَضَـمِ

- أبو زكريا يحي بن علي التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، دت ، ج1 ، ص 38 .

ومن ثمة فقد احتلت المرأة مكانة عظيمة في نفوس المسلمين ، ونافحت –بدورها- عن الدعوة الإسلامية وساندتها ، وعظم تأثيرها ، بل وأضحت بعضهن تحمل قداسة في نفوس المسلمين كالسيدة فاطمة [1] أم السبطين الحسن والحسين،ولا غرو أن نجد الشيعة [2]

---

[1] **فاطمة** :بنت رسول ا صل ا صلى ا عليه وسلم : مولدها قبل المبعث بقليل ، وتزوجها الإمام علي بن أبي طالب في ذي القعدة من سنة اثنين بعد وقعة بدر ، فولدت له الحسن والحسين ومحسنا وأم كلثوم وزينب ..، كان الرسول عليه السلام يحبها وقال : " **نَزَلَ مَلَكٌ فَبَشرَنِي أَن فَاطِمَةَ سَيدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنةِ** " ، وكان يقول : " **فَاطِمَةُ مُضْغَةٌ مِني** " ، وقد توفيت بعد النبي بخمسة أشهر أو نحوها ، وعاشت أربعا أو خمسا وعشرين سنة .

- شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : سير أعلام النبلاء ، وبهامشه إحكام الرجال في ميزان الاعتدال في نقد الرجال له ، اعتنى به : محمد بن عيادي بن عبد الحليم : ط1 ، مكتبة الصفا ، القاهرة ، مصر ، 2003 م ، ج3 ، ص 61-62

[2] **الشيعة** :

لغة : القوم الذين يجتمعون على الأمر ، وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة ، وأهل الشيعة الفرقة من الناس . وقد غلب هذا الإسم على من يتولى عليا وأهل بيته رضوان ا عليهم أجمعين ، حتى صار لهم إسما خاصة .

- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري : لسان العرب ، تحقيق : خالد رشيد القاضي ، دار الصبح ، بيروت ، لبنان ، ودار إيديسوفت ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط1 ، 2006 ، ج7 ،ص235 .

نشأة المذهب : اعتقد أنصار علي بن أبي طالب أنه أحق بالخلافة ، وأن أبا بكر وعمر وعثمان أخذوا حق الإمامة المقدس من علي ، وأتاح تذمر المسلمين من سياسة عثمان الفرصة لأنصار علي لتحويل الخلافة لأهل البيت ، وأذكى نيران الثورة أبو ذر الغفاري بتحريض ابن سبإ الذي أخذ يتنقل بين الولايات الإسلامية ووضع عقائد مذهب الشيعة الغالية في الإسلام ... ثم قتل علي وتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية ، وفي عهد يزيد بن معاوية يقتل الحسين بن علي من قبل عامل يزيد عبيد ا بن زياد سنة 61 هـ بأرض كربلاء التي أصبحت ملطخة بدمائه ودماء أهل بيته، وكان لمقتله أثر بعيد في إذكاء نار التشيع في نفوس الشيعة وتوحيد صفوفهم ، وكانوا قبل ذلك متفرقي الكلمة مشتتي الأهواء إذ كان التشيع قبل مقتله رأيا سياسيا نظريا لم يصل إلى قلوب الشيعة ، فلما قتل الحسين امتزج التشيع بدمائهم وتغلغل في أعماق نفوسهم وأصبح عقيدة راسخة في نفوسهم .

- د. حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، الدولة العربية في الشرق ومصر والمغرب والأندلس ، ط14، دار الجيل، بيروت . لبنان، ومكتبة النهضة العربية القاهرة ، مصر ، 1996 م ، ج1 ، ص 322-323-324-325-326 .

ويذكر ابن خلدون أثر مقتل الحسين فيقول : << وكان من خروج الحسين وقتله ماهو معروف ، فكانت من أشنع الوقائع في الإسلام ، عظمت بها الشحناء ، وتوغل الشيعة في شأنهم ، وعظم النكير والطعن على من تولى ذلك أو قعد عنه ، ثم تلاوموا على ما أضاعوه من أمر الحسين ، وأنهم دعوه ولم ينصروه فندموا ورأوا أن لا كفارة في ذلك إلا الاستماتة دون ثأره ، وسموا أنفسهم التوابين ...وفشا التعصب لأهل البيت في الخاصة والعامة بما خرج عن حدود الحق >> .

- ابن خلدون : العبر : ج5 ، ص 366 -367 . =

....

= الاستماتة دون ثأره ، وسموا أنفسهم التوابين ...وفشا التعصب لأهل البيت في الخاصة والعامة بما خرج عن حدود الحق >> .

- أبو زيد عبد الرحمن ولي الدين ابن خلدون المغربي: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، مصر ، ودار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان ، 1420هـ/1999م ، ج5 ، ص 366 -367 .

أما فرق المذهب الشيعي فمنها : السبئية والغرابية والكيسانية والزيدية والإمامية [الاثناعشرية] ، والإمامية الإسماعيلية ، والحاكمية والدروز >> .

- أبو زيد أحمد بن سهل البلخي : كتاب البدءوالتاريخ ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط1 1997 ، ص 176 وما بعدها .

ولم تشذ المرأة في بلاد المغرب [1] عن نظيرتها في بلاد المشرق الإسلامي ،

---

[1] **بلاد المغرب** : لغة : الغرب والمغرب : بمعنى واحد ، والغرب خلاف الشرق ، والمغرب في الأصل : موضع الغروب ثم استعمل في المصدر والزمان ، وقياسه الفتح ، ولكن استعمل بالكسر كالمشرق والمسجد ، وغرّب القوم :ذهبوا في المغرب ، وأغربوا : أتوا الغرب ، وتغرّب : أتى من قبل الغرب .

- ابن منظور : لسان العرب ، ج 10 ، ص 28 .

<<ولقد أجمع المؤرخون والجغرافيون العرب على أن بلاد المغرب تمتد من طرابلس (ليبيا) شرقا حتى المحيط الأطلسي غربا ، وإن من طرابلس إلى الشرق لا يدخل في اصطلاح المغرب >> .

- د. سوادي عبد محمد وصالح عمار الحاج : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ، ط1 ، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات ، القاهرة ، مصر ، 2004 م ، ص 21 .

ويضيف الدكتور حسين مؤنس : << فأما مصطلح المغرب فيطلق على كل ما يلي مصر غربا من بلاد الشمال الإفريقي حتى المحيط الأطلسي ، وبعض كتاب العرب مثل علي بن سعيد المغربي صاحب كتاب – فلك الأرب المحيط على لغة العرب – يدخل مصر في بلاد المغرب في كتابه هذا ، ولكن بقية المؤلفين العرب يدخلون مصرفي المشرق ، ويبدءون بلاد المغرب من إقليم برقة الذي يعرف اليوم بولاية بنغازي >> .

- د. حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، من قبيل الفتح العربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر ، من القرن السادس إلى القرن التاسع عشر الميلاديين ، ط1 ، دار العصر الحديث ، بيروت ، لبنان ، 1992 م ، ج1 ، ص 17 .

ومن الجدير بالذكر أن الجغرافيين المسلمين تناولوا في كتبهم وتآليفهم اصطلاح المغرب ، فيشير المؤرخون والجغرافيون المغاربة ومنهم ابن عبد الحكم إلى أن المغرب هي << البلاد التي تلي بجاية حتى بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) >> .

- أبو القاسم عبد الرحمن بن عبيد ا ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، تحقيق وتقديم : علي محمد عمر ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، مصر ، 1425هـ/2004م ، ص 34-42 .

ويحدد البكري إفريقية طولا من << برقة شرقا إلى طنجة في المملكة المغربية غربا >> .

-أبو عبيد ا بن عبد العزيز محمد بن أيوب بن عمر البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، مكتبة المثنى ، بغداد ، العراق ، دت ، ص 21 .

أما الحدود التي رسمها ابن عذارى لبلاد المغرب فهي << من تاهرت (عاصمة الرستميين) إلى مدينة سلا ويسميها بلاد طنجة ويدخل الأندلس في هذا الإقليم >> .

- أبو عبد ا محمد ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق : ج-س كولان وليفي بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان 1983 . ج1 ، ص 05 .

يقول د. حسين مؤنس : << وابن عذارى من الذين يدخلون في بلاد المغرب بلاد الأندلس ، ويراد بها ما دان للإسلام من شبه الجزيرة الأيبيرية ، ويعدون منه كذلك الحوضين الأوسط والغربي من البحر المتوسط وجزائرهما ، وأكبرها صقلية والجزائر الشرقية المعروفة بالبليار وكذلك سردينية >> .

- د. حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، ج1 ، ص 17 . =

= وكان أغلب الجغرافيين والمؤرخين لا يدخلون مصر والأندلس في بلاد المغرب ، فياقوت الحموي يحدد بلاد المغرب بقوله : << المغرب : بالفتح ، ضد المشرق ، وهي بلاد واسعة كثيرة ووعثاء شاسعة ، قال بعضهم : حدها من مدينة مليانة وهي آخر حدود إفريقية إلى آخر جبال السوس التي وراءها البحر المحيط ، وتدخل فيه جزيرة الأندلس و إن كانت إلى الشمال أقرب ما هي>> .

- شهاب الدين أبي عبد ا ياقوت بن عبد ا الحموي الرومي البغدادي : معجم البلدان ، تحقيق : فريد عبد العزيز الجندي ، دارالكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1410هـ/1990م ، ج5 ، ص 188 .

ومما يلاحظ هو ربط الجغرافيين المغرب بجنوبه من الصحراء الإفريقية أكثر من ربطه بالأندلس ، فتدخل الصحراء الكبرى حتى حدود النيجر جنوبا والسنغال غربا في نطاقه ، يقول د.يوسف فضل حسن : << ومع أن المغرب صار جزء لا يتجزأ من الوطن العربي إلا أن موقعه الجغرافي جعله يرتبط ارتباطا عضويا بالكيان الإفريقي الممتد من دارفور حتى نهر السنغال يؤثر فيه ، ويتأثر به اقتصاديا وحضاريا ، ولم تحجب الصحراء الكبرى ، رغم وعورة مسالكها ، التواصل بين شمال إفريقيا وبلاد السودان ، إذ كانت الصحراء بمثابة البحر المحيط الذي يربط بين ساحلين ، وكانت سفن الصحراء – الإبل – وسيلة الاتصال التجاري بين الساحلين من أقدم العصور ، وحتى مطلع القرن العشرين ، وكان البدو من العرب والبربر (الزغاوة) عماد تلك التجارة >> .

- يوسف فضل حسن وآخرون : العرب وإفريقيا ، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون منتدى الفكر العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1984 ، ص 39 .

ونجد ابن خلدون مع الاتجاه الذي يقول بخروج الأندلس ومصر عن أرض المغرب، يقول : << إن المغرب قطر واحد مميز بين الأقطار ، فحده من جهة الغرب بحر المحيط (المحيط الأطلسي) ، وعليه كثير من مدنه مثل طنجة وسلا وآزمور ، وأنفي وآسفي وهي من مدن المغرب وحواضره ، وعليه أيضا مسجد ماسه وبلد تاقوصت ونول من بلاد السوس ، وهي كلها من مساكن البربر وحواضره ...أما حدّه من جهة الشمال فالبحر الرومي (يريد البحر المتوسط) المتفرّع من هذا البحر المحيط ... وأما حده من جهة القبلة والجنوب ، فالجبال المتهيلة الماثلة حجزا بين بين بلاد السودان وبلاد البربر وتعرف عند الراحلة البادية بالعرق ، وهذا العرق سياج على المغرب واحد إلى أن يعترضه النيل الهابط من الجنوب إلى مصر ، فهناك ينقطع وعرضه ثلاث مراحل وأزيد >>.

- ابن خلدون : العبر ، ج 6 ، ص 400 .

وكذلك ابن حوقل الذي يرسم حدوده بقوله : << وحده من مصر الإسكندرية عل النيل وأرض الصعيد حتى يمضي على ظهر الواحات إلى برية تنتهي إلى أرض النوبة ، آخذا إلى البحر المحيط وممتدا إلى الغرب بنواحي أرض غانة وأرض أودغست ، ثم يستمر عاطفا إلى الشمال مارا على بلاد برغواطة وماسة إلى فوهة بحر الروم الذي يأخذ من البحر المحيط بين أرض طنجة ، وراجعا حده من الانكبرذة ثم إلى بلاد بشكونس ثم بلاد الجلالقة حتى ينتهي إلى البحر >>

- أبو القاسم بن حوقل النصيبي : صورة الأرض ، منشورات دار المكتبة الحياة ، بيروت . لبنا ن ، د ت ط ، ص 64-66 .

ومنذ بداية الفتح [1]الإسلامي لبلاد المغرب سنة 22 ه/ 643 م ، نجد المرأة تتبوأ مكانة لا يستهان بها على الصعيدين السياسي والعسكري خلال القرنين الأول والثاني الهجريين

---

[1] بدأ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب عبر برقة (ليبيا) حيث هاجمها عمرو بن العاص سنة 22 هـ / 643 م بعد أن أتم فتح الإسكندرية سنة 21 ه/ 642 م ، ثم فتح طرابلس سنة 23 هـ / 644 م ، وجد بعد ذلك عبد ا بن أبي سرح (27 – 29 هـ) ومعاوية بن حديج (34 -45 هـ) في الحفاظ على تلك المكاسب والقضاء على أطماع الروم في استعادة الأرض المفتوحة ، وبمجيء عقبة بن نافع الفهري سنة 50 هـ / 670 م تبدأ مرحلة جديدة من تثبيت للحكم ، وإرسال للجيوش لفتح ما تبقى من أرض المغرب بعدما اختط عقبة القيروان للمسلمين ، ولكن ثائرا بربريا يدعي كسيلة بن لمزم جمع قبيلته " أوربة " البرانسية وبعض جند الروم ، وتربص بعقبة وهو راجع إلى القيروان – بعد أن سرح معظم جنده – ودارت بينهما معركة حامية استبسل فيها عقبة وأبو المهاجر دينار إلى أن قتلا ومن معهما من جند المسلمين في أرض " تهودة " بنواحي بسكرة سنة 63 هـ .

ومضى كسيلة بجموعه إلى القيروان فطرد المسلمين منها سنة 64 هـ ، ولم يكتب للمسلمين النصر إلا بعد المدد الذي أرسله الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان لزهير بن قيس البلوي (عامل القيروان من قبل عقبة) ، فدارت المعركة بين جيشي كسيلة وزهير قرب " ممس " انجلت عن قتل كسيلة وخلق كثير من أتباعه .

وبمجيء حسان بن نعمان الغساني سنة 73 هـ / 692 م نفر المسلمون لفتح المغرب الأوسط (الجزائر) ، وقد فوجئوا بمقاومة عنيفة من قبل امرأة بربرية (من قبيلة جراوة الزناتية) تدعى الكاهنة وتسمى " دهيا " وقد هزمت جيوش حسان بنواحي تبسة ، واضطر حسان إلى الانسحاب حتى نواحي برقة ، وظل يتربص خمس سنوات منتظرا المدد من دمشق ، وجاءه المدد سنة 80 هـ / 699 م ، فأوقع بجيش الكاهنة وقتلها سنة 84 هـ / 703 م .

ويأتي موسى بن نصير سنة 86 هـ / 705 م فيتم فتح الجزائر والمغرب الأقصى كلية ويعد عهده نهاية الفتح العربي للربوع المغربية ونشر الإسلام في جميع أرجائها .

- ابن خلدون: العبر ، ج5 ، ص 21-22 -291-293-295-362.
- أبوعبيد البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب : ص 123 .
- ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب : ج 1 ، ص 10 .
- د. حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام : ج 1 ، ص 229-230 .

هذه الفترة امتازت بكثرة الحروب والفتن أذكى نارها الخوارج [1] الصفرية [2] الناقمون على ولاة الأمويين بأرض المغرب ، إضافة إلى الثورات المختلفة هنا وهناك .

---

[1] **الخوارج** : ظهر الخوارج عقب التحكيم بين علي ومعاوية وما كان من رضى علي به ، فقد تنادى فريق من جيشه " لا حكم إلا " وبذلك شقوا عصا الطاعة عليه ، ولم يلبثوا أن عدوه ومن معه ضالين وتجب الهجرة عنهم كما هاجر رسول ا صلى ا عليه وسلم عن أهل مكة ، وفعلا هاجروا إلى حروراء بالقرب من الكوفة ، ولذلك سموا الحرورية وسموا أيضا الخوارج لأنهم خرجوا على الجماعة أو لعلهم هم الذين سموا أنفسهم بذلك أخذا من قوله تبارك وتعالى << **وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ المَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللهِ** >> [النساء : 100] ، وسموا أنفسهم الشراة أخذا من قوله تعالى << **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ** >> [البقرة : 207] ، وناهض الخوارج بني أمية وعدّوهم غاصبين للحكم ، إذ أن الخلافة عندهم لا تقتصر على قريش ، بل تجوز في أي مسلم ولو كان عبدا ،وقد تفرق الخوارج عشرين فرقة كل منها تخالف الأخرى في تعاليمها كلها أو بعضها فمن فرقهم :

الأزارقة : أصحاب نافع بن الأزرق وهي الفرقة الأكثر تشددا ، ومنها النجدية : أتباع نجدة بن نافع الحنفي .

والإباضية : أصحاب عبد ا بن إباض التميمي وهي الأكثر اعتدالا ، ومنها الصفّرية : أصحاب زياد بن الأصفر .

- د. حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، ص 307 وبعدها .

ويضيف محمد أبو زهرة : << واتصفوا بالفصاحة وطلاقة اللسان ، والعلم بطرق التأثير البياني ، وكانوا ثابتي الجنان ، وكانوا مع فصاحتهم يطلبون علم الكتاب والسنة ، وفقه الحديث وآثار العرب في ذكاء شديد وبديهة حاضرة ...[ومع ذلك] فقد كان التعصب يسود جدلهم ، فهم لا يسلمون لخصومهم ولا يقتنعون بفكرة مهما تكن قوية من الحق أو واضحة الصواب ، بل لا تزيدهم قوة الحجة إلا إمعانا في اعتقادهم >>.

- محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية : ص 67-68-69 .

أما فرقهم ، فقد ذكر البلخي منها واحدا وعشرين فرقة .

- أبو زيد أحمد بن سهل البلخي : كتاب البدء والتاريخ : ص 182 .

ويفصل ابن خلدون في فرق الخوارج بقوله << ومن هنا افترقت الخوارج على أربع فرق : الأزارقة أصحاب نافع بن الأزرق الحنفي وكان رأيه البراءة من سائر المسلمين وتكفيرهم ، والاستعراض وقتل الأطفال واستحلال الأمانة لأنه يراهم كفارا ، والفرقة الثانية النجدية وهم بخلاف الأزارقة في ذلك كله ، والفرقة الثالثة الإباضية أصحاب عبد ا بن إباض المري، وهم يرون أن المسلمين كلهم يُحكم لهم بحكم المنافقين ،فلا ينتهون إلى الرأي الأول ، ولا يقفون عند الثاني ، ولا يحرمون مناكحة المسلمين ولا موارثتهم ، ولا المنافقين فيهم وهم عندهم كالمنافقين ، وقول هؤلاء أقرب إلى السنة ، ومن هؤلاء البيهسية أصحاب أبي بيهس هيصم بن جابر الضبعي ، والفرقة الرابعة الصفرية وهم موافقون للإباضية إلا في العقدة ، فإن الإباضية أشد على العقدة منهم ، وربما اختلفت هذه الآراء من بعد ذلك واختلف في تسمية الصفرية فقيل نسبوا إلى ابن صفار ، وقيل اصفروا بما نهكتهم العبادة ، وكانت الخوارج من قبل هذا الافتراق على رأي واحد لا يختلفون إلا في الشاذ من الفروع ، وفي أصل اختلافهم هذا مكاتبات بين نافع بن الأزرق وأبي بيهس وعبد ا بن إباض ذكرها المبرد في كتاب الكامل فلينظر ذلك >> .

-ابن خلدون : العبر : ج 1 ، ص 310-311 .

[2] **الصفّرية** : نسبة إلى زعيمهم عبد ا بن صفّار الصريمي التميمي (؟ - نحو 60 هـ / ؟ - 680 م) ، رئيس الصفرية ، وفي صحة رئاسته لهم خلاف طويل .

- الزركلي : الأعلام ، ج4 ، ص 39

وأول ما يطالعنا عنها مشاركتها الفعالة في أبرز الأحداث السياسية التي انجلت بعد عزم الفاتحين على ولوج بلاد المغرب إلى أقصاه ، وكان البربر [1] قد عرفوا منذ القـدم

---

[1] **البربر** : لغة : البربرة : كثرة الكلام والجلبة باللسان ...والبربري : الكثير الكلام بلا منفعة ، والبربرة : التخليط في الكلام مع غضب ونفور .

وبربر : جيل من الناس يقال إنهم من ولد بر بن قيس بن عيلان .

- ابن منظور : لسان العرب ،ج1 ، ص 356 .

و" البربر " لفظة تحمل معنيين :

أ- البربر بمعنى " البر" العربي يعني الشاطئ ، إن العبارة فيما يروى وردت مؤكدة حين استعملت إذا لفظها المتحدث مرتين : بر بر ، وقيل انطلقت من شفتي قائد سفينة داهمته الأمواج على ضفة خطيرة فقال لأصحابه أولأبنائه : بر بر أي " إلى البر إلى البر " مريدا نجاتهم من هذه العاصفة .

ب- بربر بالمعنى المنسوب إلى اليونان والرومان يعني : المتوحشون ، ويرى أندري جوليان عن عبارة بربر أنه << لم يطلق البربر على أنفسهم هذا الاسم ، بل أخذوه – من دون أن يروموا استعماله – من الرومان الذين كانوا يعتبرونهم أجانب عن حضاراتهم وينعتونهم بالهمج >> ، وإذا لطفت العبارة عندهم – مراعاة لمشاعر السكان – قالوا : إنها عبارة أطلقت من طرف اليونانيين على كل من لا يعرف لغتهم .

- د. العربي دحو: مدخل في دراسة الأدب المغربي القديم ، دار الشهاب ، باتنة.الجزائر، 1986، ص 17 .

أما عن أصلهم ونسبتهم ، فهناك رواية تقول أن البربر من أصل عربي ، وأن سبب عجمتهم هي أن جدهم بربر بن قيس توجه من الحجاز إلى بلاد المغرب بعد أن أصم مع أبيه وإخوانه ، فقال الناس : " بربر " : أي ارتحل في البراري ، يقول الشاعر : [من الطويل] :

وَشَطَّـتْ بِبُرّ دَارُهُ عَنْ بِلادِنَـا — وَطَـرّحَ بِرٌ نَفْسِهِ حَيْثُ يَحـْـياْ

وَأَزْرَتْ بِبُر لكـنةٌ أَعْجَـمِيَـةٌ — وَما كـان بُرٌ فِي الحِجَازِ بِأَعْجَـمَا

- سوادي عبد محمد وصالح عمار الحاج : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ، ص 286 .

ولكن ابن خلدون وابن حزم ينفيان نسبة البربر إلى العرب .

يقول ابن حزم : << قال قوم : إنهم من بقايا ولد حام بن نوح عليه السلام ، ادعت طوائف منهم إلى اليمن ، إلى حمير ، وبعضهم إلى بر بن قيس بن عيلان ، وهذا باطل لا شك فيه >>.

- أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي : جمهرة أنساب العرب ، مراجعة لجنة من العلماء بمعية الأستاذ عبد السلام هارون ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان ، 1983 م ، ص 495 .

ويؤكد ابن خلدون قائلا : << وبعضهم ينسب إلى بربر بن قيس وهذا كله باطل لا شك فيه ، وما علم النسابون لقيس بن عيلان ابنا اسمه بر أصلا ، وما كان لحمير طريق إلى بلاد البربر إلا في تكاذيب مؤرخي اليمن >> .

- ابن خلدون : العبر، ج 11 ، ص 191 .

ويضيف : << والحق الذي شهد [تشهد] به المواطن والعجمة أنهم بمعزل عن العرب ، إلا ما تزعمه نسابة العرب في صنهاجة وكتامة وعندي أنهم من إخوانهم وا أعلم >> .

- المصدر نفسه : ج 11 ، ص 192 .

بالاستماتة في الذود عن أرضهم ، ولا عجب ، فقد حاولت جميع القوى المعروفة في حوض المتوسط – قبل مجيء الإسلام – من مثل الرومان والوندال السيطرة عليهم وإخضاعهم واستغلال خيراتهم [1] إلا إنهم كانوا ينتفضون في كل مرة ، واشتهر منهم قادة عظام من أمثال ماسينيسا[2] ويوغرطة [3] وخاصة في منطقة نوميديا [4] .

---

(1) د. حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ،ج1 ، ص 65 وما بعدها .

(2) **ماسينيسا** : (227-149 ق م) مصينسا أو ماسنيسا ، من أشهر ملوك البربر الجزائريين البارزين أبوغولا ملك نوميديا وعاصمته سيرتا – قسنطينة -.

نشأ مسنيسا محبا لوطنه غيورا عليه مدافعا عنه ، وقد شارك في محاربة خصم والده ومنافسه الملك (صيفاقس) أكبر رئيس عرفه التاريخ بنوميديا الغربية وسنه حينذاك لم يتجاوز 17 سنة ، ثم خلف أباه – بعد وفاته – على العرش ، وكان في أول أمره مواليا للفينيقيين ، ولما رأى من قرطاجنة تهاونها بشأنه وعدم مبالاتها بحقوقه الشرعية في الولاية على عرش أبيه- حتى كاد الأجانب أن يستولوا عليه أيام خروجه غازيا مدافعا عن حياض قرطاجنة -غضب لذلك وعاد من فوره مطالبا بملك أبيه الضائع ... وكان ذلك سببا في خروجه عن طاعة قرطاجنة وإعلانه استقلال الجزائر وكان يحضر المعارك الحربية ويقودها بنفسه رغم تقدمه في السن ، واستمر في الكفاح ضد الاستبداد الفينيقي حتى ظفر بالنصر واستقل بعرش الجزائر سنة 158 ق م، ودانت له البلاد إلى الحدود التونسية ...وعمل على توحيد الشمال الإفريقي .

-عبد الرحمن بن محمد الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط 7، 1994 م ج 1 : ص 62-63 .

(3) **يوغرطة jugurtha** (118 -105 ق م) : ملك نوميديا ، حارب الرومان وانتصر عليهم في المعركة المشهورة باسم وقعة " سوتول " ، بالقرب من مدينة " قالمة " تبوأ عرش سيرتا سنة 112 ق م ، أعلن استقلال الجزائر التام ، ولكنه انهزم أمام القائد يوكوس الذي قبض عليه وسلمه إلى الرومان سنة 104 ق م ، وذهب به هؤلاء إلى سجن روما فمات به بعد أن عمر حوالي 52 سنة .

- المرجع نفسه : ص 70-71 .

(4) **نوميديا** : نسبة إلى النوميد (هم السكان البدو) ، وهي عبارة عن ولاية قسنطينة بما انضم إليها من ولاية الجزائر في الغرب والقطر التونسي في الشرق ، وهي تكون شبه وحدة جغرافية وجنسية وتاريخية ، وقد كانت لها وحدة سياسية في عهد الممالك البربرية المستقلة قبل الإسلام ، ثم على يد بني زيري بن مناد .

- عثمان الكعاك : موجز التاريخ العام للجزائر ، من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي ، تقديم ومراجعة : نخبة من الباحثين ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2003 ، ص 25 .

ولم تكن المرأة بعيدة عن أجواء الحروب ، فقيادة الجيوش لم تقتصر على الرجال من البربر فقط ، بل تعدتها إلى المرأة << فقد كانت المرأة البربرية على جانب كبير من الحمية ، فهي تحارب أحيانا بجانب زوجها >> [(1)] .

وبمجيء الفاتحين تبرز شخصية نسوية بربرية من قبيلة جراوة الزناتية [(2)] عدّت أكبر تحدّ واجهه العرب الفاتحون أثناء فتحهم لبلاد المغرب ، هذه المرأة ما إن سمعت بقدوم الوافدين الجدد حتى أخذت تجمع إليها شتات البربر بعد أن تفرقت جموعهم عقب الحرب التي شنها زهير بن قيس البلوي [(3)] عليهم ، والخوف الذي انتابهم منه [(4)] .

---

(1) حنا الفاخوري : تاريخ الأدب في المغرب العربي ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1417هـ/1996م ، ص 34 .

(2) **زناتة** : من البربر البتر وهم البدو الذين أقبلوا من داخل القارة واستقروا في برقة و طرابلس ثم انتشروا في أقاليم الجريد والقبلات والصحاري المحيطة بالمغرب من الجنوب ، وأهم قبائل زناتة : لواتة وهوارة (أو جراوة) ونفوسة ، يقول د ، حسين مؤنس : << وانتشر الزناتيون في بلاد الزاب والجزء الشرقي من جبال الأطلس المعروفة بالأوراس ، فهناك كانت تقوم قبيلة جراوة ، قبيلة الكاهنة التي كان لها دور كبير في مقاومة الفتح العربي >> .

- د. حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته، ج 1 ، ص 53 – 59 .

(3) **زهير بن قيس البلوي** (؟ -76 هـ / ؟ - 695 م) : أمير ، من القادة الشجعان الفاتحين ، يقال إن له صحبة ، شهد فتح مصر ، وولاه أميرها عبد العزيز بن مروان على برقة سنة 69 هـ ، فكانت له مع البربر والروم وقائع ، وأقام في القيروان مدة ، فوجه الروم من القسطنطينية مراكب إلى برقة ، فعاد إليها وقاتلهم ، فكثرت عليه جموعهم فثبت إلى أن قتل على أبوابها ، و " البلوي " نسبة إلى بَلِيّ (كعلي) وهي قبيلة من قضاعة .

- الزركلي : الأعلام ، ج 3 ، ص52 .

(4) يقول ابن خلدون : << وزحف زهير بن قيس البلوي في ولاية عبد الملك للثأر بدم عقبة سنة سبع وستين ، وجمع له كسيلة سائر البربر ، ولقيه بجيش من نواحي القيروان فاشتد القتال بين الفريقين ، ثم انهزم البربر وقتل كسيلة ومن لا يحصى منهم ، وأتبعهم العرب إلى مرمجنة ثم إلى ملوية ، وفي هذه الواقعة ذل البربر وفنيت فرسانهم ورجالهم وخضدت شوكتهم واضمحل أمر الفرنجة فلم يعد ، وخاف البربر من زهير ومن العرب خوفا شديدا فلجأوا إلى القلاع والحصون >> .

- ابن خلدون : العبر ،ج 11 ، ص 217 -218 .

ويلخص ابن خلدون هذا الجو المشحون مع بروز شخصية الكاهنة وتأثيرها في الساحة السياسية فيقول : << واضطرمت إفريقية نارا وافترق أمر البربر وتعدد سلطانهم في رؤسائهم ، وكان من أعظمهم شأنا يومئذ الكاهنة دهيا بنت ماتية * بن تيفان ملكة جبال أوراس وقومها من جراوة ملوك البتر وزعماؤهم >> [1] .

ولابد أن اختلاف البربر وتعدد السلطان في رؤساء قبائلهم – وبالتالي عدم وجود سلطة موحدة توكل إليها مهمة الدفاع عن أي خطر يتهدد البربر قاطبة – كان عاملا مشجعا لمركز الخلافة الأموية بدمشق على عهد الخليفة عبد الملك بن مروان حتى تستكمل فتح بلاد المغرب – وخاصة جزئيه الأوسط والأقصى – بعد أن توقف لفترة بسبب انشغال جيوش الخلافة بحرب الخوارج والزبيريين في الحجاز ، ومعاناة ولاتها على القيروان من مشكل المؤونة ونقص المدد في مواجهة الثوار البربر من أمثال كسيلة بن لمزم ، هذا الأخير الذي مافتئ يضرب جند المسلمين حتى أمكن ا الفاتحين النصر عليه وعلى أتباعه من البربر والروم [2] .

---

* وقيل : تابتة ، وفي الاستقصا : << داهيا الزناتية صاحبة جبل أوراس >>.

- أبو العباس شهاب الدين أحمد بن خالد بن حماد الناصري الدرعي السلاوي : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، اعتنى به : محمد عثمان ، دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان، ط 1 ، 2007 م ، ج 1 ، ص 80 .

[1] ابن خلدون : العبر، ج 11 ، ص 218 .

[2] لما قتل كسيلة عقبة بن نافع الفهري بتهودة (من أرض الزاب) سنة 62 ه / 681 م زحف للاستيلاء على القيروان وحاول زهير بن قيس التصدي له لكن حليفه حنش بن عبد ا الصنعاني رفض فكرة التصدي وعاد إلى مصر ، فاضطر زهير إلى العودة لبرقة وتبعه أكثر الناس .

- عز الدين أبو الحسن علي بن محمد ابن الأثير الجزري : الكامل في التاريخ ، راجعه وصححه : محمد يوسف الدقاق ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط4 ، 2006م ، ج3 ، ص 309 .

وأصبح كسيلة الحاكم الفعلي للقيروان ، وعزم بعدها زهير على استرداد القيروان والإيقاع بكسيلة ، فطلب المدد من الخليفة وأجابه هذا الأخير لطلبه، فزحف عليها سنة 69 ه / 688 م ففر منها كسيلة مذعورا إلى موضع يسمى " مَمْس" وعسكر هناك والتقى الجيشان ، ودارت معركة طاحنة طال أمدها أسفرت عن هزيمة ساحقة للبربر ومقتل زعيمهم كسيلة ، وقد أفاض المؤرخون العرب في وصف الخسائر التي لحقت بالبربر هناك ، يقول ابن الأثير: << وفي هذه الوقعة ذهب رجال البربر والروم وملوكهم وأشرافهم >> . (المصدر نفسه : ج3 ،309)

ويضيف السلاوي : << وفي هذه الوقعة هلك البربر وفنيت فرسانهم ورجالهم وخضدت شوكتهم واضمحل أمر الفرنجة فلم يعد ، وخاف البربر من زهير والعرب خوفا شديدا فلجأوا إلى القلاع والحصون ، وكسرت شوكة أوربة من بينهم واستقر جمهورهم بديار المغرب الأقصى >> .

- السلاوي : الاستقصا ، ج1 ، ص 79 .

ولم يتأخر القرار الأموي ، إذ أوكل الخليفة عبد الملك لعامله حسان بن النعمان الغساني[1] مهمة استكمال الفتح ، يقول ابن خلدون : << فبعث عبد الملك إلى حسان بن النعمان الغساني – عامله على مصر – أن يخرج إلى جهاد إفريقية ، وبعث إليه بالمدد وزحف إليها [إلى الكاهنة] سنة تسع وسبعين ، ودخل القيروان وغزا قرطاجنة وافتتحها عنوة ، وذهب من كان بقي بها من الفرنجة إلى صقلية وإلى الأندلس >> [2].

ويفصل في موضع آخر نسبها في قبيلتها جراوة مبرزا قوة زناتة حين قدم الفاتحون :

<< وافترقت رياسة البربر في شعوبهم ، وكانت زناتة أعظم قبائل البربر وأكثرها جموعا وبطونا ، وكان موطن جراوة منهم بجبل أوراس ، وهم ولد كراو بن الديرت بن جانا ، وكانت رياستهم للكاهنة دهيا بنت ماتية بن تيقان بن باورا بن مصكسري بن أفرد بن وصيلا بن جراو ، وكان لها بنون ثلاثة ورثوا رياسة قومهم عن سلفهم وربوا في حجرها ، فاستبدت عليهم وعلى قومها بهم ، وبما كان لها من الكهانة والمعرفة بغيب أحوالهم وعواقب أمورهم فانتهت إليها رياستهم .

قال هاني بن بكور الضريسي : ملكت عليهم خمسا وثلاثين سنة وعاشت مائة وسبعا وعشرين سنة >>[3] .

---

[1] **حسان بن النعمان** : (؟-بعد 86 هـ / ؟ - بعد 705 م) : حسان بن النعمان بن عدي الأزدي الغساني ، من ملوك أولاد غسان : قائد ، من رجال السياسة والحرب ... ولي إفريقية في زمن معاوية بن أبي سفيان ، ثم كان عاملا على مصر في أيام عبد الملك بن مروان ، واضطربت إفريقية بعد مقتل زهير البلوي سنة 76 هـ ، فأمره عبد الملك بالتوجه إليها ، فزحف بأربعين ألف مقاتل ، وكانت له وقائع كثيرة مع الروم في قرطاجنة ، ومع الملكة دهيا (الكاهنة البربرية) في قابس و في جبل أوراس ظهرت فيها بطولته ... ، أقام في القيروان فجدد بناء مسجدها سنة 84 هـ .

- الزركلي : الأعلام، ج 2 : ص 177 .

[2] ابن خلدون : العبر،ج 4 ، ص 218 .

[3] المصدر نفسه : ج 3 ، ص 17 .

أما ابن الأثير فينقل ما نصه :<< لما صلح الناس - أي تعافى الجند من حرب كسيلة - قال حسان : دلوني على أعظم من بقي من ملوك إفريقية ، فدلوه على امرأة تملك البربر تعرف بالكاهنة ، وكانت بربرية وهي بجبل أوراس ، وقد اجتمع حولها البربر بعد قتل كسيلة ، فسأل أهل افريقية عنها فعظموا محلها وقالوا : إن قتلتها لم تختلف البربر بعدها عليك >> [1] ، ويبدو من كلام ابن خلدون وابن الأثير وغيرهما من المؤرخين عن هذه المرأة أنه كان لها مهابة عند البربر من جراوة خاصة وزناتة عامة ، إذ وقبل أن تكون سياسية وخبيرة بقيادة الجند وميادين القتال ، نراها تحيط نفسها بجو رهيب من السحر والكهانة حتى تضمن ولاء البربر وخضوعهم التام لها خاصة وأن السحر والاعتقاد بالخرافات كان لا يزال ضاربا بأطنابه بين جموع البربر ممن رفضوا اعتناق المسيحية التي حاول الرومان فرضها عليهم ونقلها لهم مرارا [2] .

---

[1] ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، ج4 ،ص 135 .

[2] لما اعتنقت روما الديانة المسيحية واتخذتها دينها الرسمي ، أخذت بنشرها – ابتداء من القرن المسيحي الثاني – في إمبراطوريتها (الممتدة في شمال إفريقية) والجزائر ، وساعد على انتشارها فيها الجاليات والأسر الرومانية التي استوطنت المدن الجزائرية ، فبنيت الكنائس والأسقفيات في غير مدينة ، لا في المدن الساحلية فحسب ، بل أيضا في المدن الداخلية مثل قالمة جنوبي عنابة (بونة قديما) وبها آثار رومانية ، مثل بسكرة وكان بها أسقفية ، واشتهر في تلك المدن بعض القديسين مثل أوغسطين قديس بونة في القرن الرابع الميلادي ، ويعد بمواعظه ومؤلفاته من أكبر آباء الكنيسة ووعاظها البارعين.

- د. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، ج10،ص 23

حتى إننا نرى ابن خلدون يجزم بتنصر المغرب فيقول : << فكان البربر بإفريقية والمغرب قبل الإسلام تحت ملك الفرنج ، وعلى دين النصرانية الذي اجتمعوا عليه مع الروم>> .

- ابن خلدون : العبر، ج 11 ، ص 214 .

لكن د. حسين مؤنس يشكك في اعتناق البربر المسيحية فيقول : << المسيحية لم تتعمق قط في البلاد ولا دان بها من البربر قوم يحسب لهم حساب ، ويبالغ مؤرخو الدولة البيزنطية – بصورة خاصة – في تصوير مدى انتشار المسيحية بإقليم إفريقية معتمدين على أن هذه الناحية أطلعت مفكرا من أعظم مفكري المسيحية الأولى وهو القديس أوغسطين صاحب " الاعترافات " المشهورة ومؤلف كتاب" مدينة ا " ، والقديس أوغسطين – دون شك – من أعلام مفكري العصور الوسطى ، ولكنه فرد قائم بذاته في إفريقية ، ثم إنه كان أحد أفراد جالية لاتينية تقيم في إفريقية ، ولم يكن قط من أهل البلاد ، وكان يعيش في بيئة مسيحية لاتينية صرفة بعيدا عن البربر وأهل البلاد ، ولا يمكن اعتباره مفكرا إفريقيا أو تونسيا إلا إذا جاز اعتبار ألبير كامو أديبا جزائريا >> .

- د.حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، ج1 ، ص 66 .

ولا شك أن أول تدليس طبع شخصية هذه المرأة وأضفى هالة من التقديس عليها كان اسمها << فقد ضاع اسم هذه المرأة الحقيقي خلف ستار السحر الذي أضفته على نفسها ، فبعض مؤرخينا يسمونها دَهْيا أو وَهْيا ، وهي تسمية عامية[من التعمية] قريبة من أسماء الساحرات في قصص ألف ليلة و ليلة >> [1] .

ولم تكن أفعالها أقلّ غرابة فقد كانت << تحمل صنما خشبيا ضخما تستعين به على ما تريد من السحر والكهانة ، وكانت ذات شعر عظيم جعد ، تنشره ساعة استحضارها لشياطينها فيما تزعم ،وتدق صدرها بيديها وتحمرّ عيناها فيتملك الناس من حولها رهبة شديدة >>[2]

ولم يكن هذا الجو الذي أحاطت نفسها به من دواع في النفس مريضة كما يظن ولكنه جو سحري قصدت به تخويف البربر وضمان طاعتهم التامة لها في مواجهة ما يطرأ على الساحة من تغيرات قد تهدد مكانتها الراسخة في نفوس هؤلاء ، والملاحظ في شخصية هذه المرأة أنها كانت ذات طموح كبير ، دفعها للتطلع إلى ذلك خبرة سياسية ومقدرة عسكرية غذّت ذاك الطموح في نفسها وفكرها ..، فهي لم تتخذ الكهانة غاية لجمع الثروة أو التشوّف لذوي السلطان والملك – كعادة السحرة والكهنة عبر مختلف الدهور وفي شتى البقاع –بل اتخذتها وسيلة لتحقيق هدفها المنشود وهو ضمان زعامتها الكاملة لفروع البربر ، والظهور بمظهر المدافع عن أرض المغرب في وجه الحملات الأجنبية .

ولقد وجدت الدعوات التي بثتها لمقاومة العرب الفاتحين صدى بين جموع البربر ،ذلك أن البربر ظنوا المسلمين– كغيرهم ممن سبقوهم من الوافدين– جاءوا طمعا في خيرات المغرب وحبا في التملك والسيطرة، وإذلال شعوبه وساعد على ترسخ هذا الاعتقاد سيرة الرومان والوندال مع البربروأهل المغرب عامة وما أذاقوهم من عسف وظلم دائمين [3]

---

[1] د. حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ،ج 1 ، ص 100 .

[2] المرجع نفسه : ج 1 ، ص 100 .

[3] إن روما << استعملت جميع الوسائل لبسط نفوذها على الأهالي لكنها لم تفلح ، فقد اعرضوا عنها ويحق لهم أن ينفروا منها ، فإنها سلبتهم حقوقهم الطبيعية وأهانتهم ، وانتزعت منهم معظم أراضيهم الخصبة ، وأثقلت كاهلهم بالمغارم، وقد قال غروت : أن الرومان ألزموا البربر بالعمل في أراضي المعمرين تحت قوانين ثقيلة >> ، وكذلك الوندال الذين << حكموا البلاد بالاستبداد ، وأضروا بالأهالي وانتزعوا منهم أملاكهم ، وتعسفوا في جميع الضرائب واتبعوا سياسة دينية متطرفة ، واضطهدوا رجال الدين ، ونتج عن تصرفاتهم الوحشية ثورات وطنية خطيرة>> .

- محمد الطمار : تاريخ الأدب الجزائري ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، ط4 ، 2006م، ص 57-58 .

ومن مظاهر الحنكة التي كانت تتميز بها ، أنها كانت تسير في قيادتها لهم بخطى حذرة وجلة ، فهي ربما علمت بإيمان البربر بجدوى ما تقوم به من الذود على الحمى ، ولكنه قد يوجد بين المرؤوسين من البربر من يأنف قيادة المرأة له ، إذ العادة أن تكون المرأة خاف الجيش منقادة تداوي الكلمى وتهيئ الزاد لا أن تكون في المقدمة قائدة والرجال خلفها منقادون ومؤتمرون بأمرها ، وربما دبروا لقتلها والتخاص من "عار قيادة المرأة لهم " ، ولعلمها بما قد تضمره لها النفوس دأبت على إحاطة نفسها بمن يوثق بهم ولا تخشى بوائقهم ، ولن تجد – طبعا – أفضل من الأبناء يحيطون بها ويردون عنها غائلة الأعادي، وقد حدثنا ابن خادون أنه كان لها ثلاثة أبناء ، وهي وقت دعوتها للمّ شتات البربر ورد جيوش العرب لم تكن صغيرة ، وإلا ما كان طموحها جامحا إلى هذه الدرجة << فقد كانت كهلة ، وكان لها أبناء في سن الشباب ، وكان واحد من أولئك الأبناء روميا مما يدل على أنها تزوجت واحدا من الروم وقد تزوجت آخرين فكان لها أبناء كثيرون >>[1] .

ولا يحدثنا المؤرخون كثيرا عن هؤلاء الأبناء ، ولا عن أصول آبائهم ، وأنسابهم في البربر، ولكنه – مما لا شك فيه – أنها حاولت مد نسب أبنائها في اتجاهات عديدة ، وذلك بأن يكون آباؤهم من غير جراوة ، أي من نفوسة ولواتة وغيرها لأنه ربما حسدت بقيـة قبائل البتر جراوة والكاهنة على هذا السؤدد والعز[2] فهاجمتها ، وتحالفت فيما بينها للإيقاع بها وكسر شوكتها قبل أن تقوى وتشتد .

وبذلك نرى " أعين" الكاهنة تمتد للقبائل الأخرى ، وإنها لأعين ثقة ، ونرى من ثمة أن مصير جراوة لم يعد رهن زناتة وزعماء قبائلها المتفرعة ، إنما الذي حصل هو العكس تماما فمصير زناتة أضحى رهن إشارة جراوة والكاهنة طالما أن أولادها أصبحوا مبثوثين في مختلف قبائل زناتة ، والأقرب أنهم كانوا قوادا لقبائلهم يعين بعضهم بعضا فقرار الحرب أو السلم لم يعد يعني جراوة وحدها ، بل قرع طبول الحرب من قبل الكاهنة كان يعني أن تهب زناتة والبتر كلهم معها .

---

(1) د. حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ،ج 1 ، ص 100 .

(2) يقول ابن خلدون ذاكرا عز الكاهنة : << وما كان لدهيا الكاهنة وقومها بجبل أوراس من الملك والعزة والكثرة قبل الإسلام وبعده حتى تغلب عليهم العرب >>.

- ابن خلدون : العبر، ج 11 ، ص 205 .

وعبر هذا النسق من الكهانة والولاء – الذي لا خشية من تحوله في القبائل – أرست الكاهنة قواعد ثابتة لملكها ، ودعائم صلبة لا تهزها الخيانات أو ترجفها الأراجيف .
وربما كانت الكاهنة على دراية بنبل الفاتحين الجدد واختلافهم عن الرومان والوندال ، ذلك أن الأخلاق السامية التي اتصف بها الفاتحون والأعمال الخيرة التي قام بها عقبة بن نافع [1] وأبو المهاجر دينار [2] من عفو عن الأسرى وتعليم للبربر ورفق بالأهالي والمستضعفين- وهم مالم يكن في غيرهم من الوافدين [3] -، هذه الأخبار كانت لابد أن تصل إلى مسامعها وهي في معاقلها بالأوراس ، وكان من الممكن أن يرق قلبها للدين الجديد كما رقت نفوس الكثيرين له [4] ، ولكنها آثرت ملك البربر << فقد أرادت أن تحقق للبربر استقلالا سياسيا ، ومجدا حربيا ، وأن تضرب مثلا شرودا ببسالة المرأة البربرية

---

[1] **عقبة بن نافع** : (1 ق ه – 63 هـ / 621-683 م) :عقبة بن نافع بن عبد قيس الأموي القرشي الفهري : فاتح ، باني مدينة القيروان ، ولد في حياة النبي صلى ا عليه وسلم – ولا صحبة له – وشهد فتح مصر ، وكان ابن خالة عمرو بن العاص ، فوجهه عمرو إلى إفريقية سنة 42 هـ واليا ، فافتتح كثيرا من تخوم السودان وكورها في طريقه ، وعلا ذكره ، فولاه معاوية إفريقية استقلالا سنة 50 هـ وسير إليه عشرة آلاف فارس ، فأوغل في بلاد أفريقية حتى أتى وادي القيروان فأعجبه فبنى فيه مسجدا يعرف بجامع عقبة ،وأمر من معه فبنوا فيه مساكنهم ، وعزله معاوية سنة 55 هـ فعاد إلى المشرق ، ولما توفي معاوية بعثه يزيد واليا على المغرب سنة 62 ه ، فقصد القيروان وخرج منها بجيش كثيف وفتح حصونا ومدنا ، وصالحه آهل فزان ، فسار إلى الزاب وتاهرت ، وتقدم إلى المغرب الأقصى فبلغ المحيط وعاد ، فلما كان في تهودة (من أرض الزاب) تقدمته العساكر إلى القيروان ، وبقي في عدد قليل ، فطمع به الفرنج ، فأطبقوا عليه فقتلوه ومن معه ودفن بالزاب .
- الزركلي : الأعلام ، ج 4 ، ص 241 .

[2] **أبو المهاجر** (؟- 63 هـ / ؟ -682 م) : دينار المعروف بأبي المهاجر ، فاتح ، من القادة ، كان مولىً لبني مخزوم ولما ولي مسلمة بن مخلد مصر وإفريقية استعمله على إفريقية بدلا من عقبة بن نافع فدخلها سنة 55 هـ ونزل بقرب القيروان ، ووجه جيشا افتتح به جزيرة شريك (وعرفت بعد ذلك بالجزيرة القبلية) وقاتله كسيلة البربري بقرب تلمسان فظفر أبو المهاجر وأظهر كسيلة الإسلام ، فاستبقاه واستخلصه ، وإليه تنسب " عيون أبي المهاجر " القريبة من تلمسان ، وهو أول أمير للمسلمين وطئت خيله المغرب الأوسط ، وعزله يزيد بن معاوية سنة 62 هـ وأعاد عقبة بن نافع ، فلما وصل إليها احتفظ بأبي المهاجر ، فكان معه في معركة تهودة بأرض الزاب ، وقد انتفض كسيلة وفاجأ عقبة بجمع من الفرنج فاستشهد عقبة ومن معه جميعا وكانوا زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين .
- المرجع نفسه : ج 3 ، ص 06 .

[3] يقول غوستاف لوبون: << فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ، ولا دينا سمحا مثل دينهم >>.
- د. غوستاف لوبون : حضارة العرب ،دار الجيل بيروت ، لبنان ،1972 ،ص 28 . =

وبعبقريتها الفكرية والسياسية >>[1] .

ولقد كان القادة الفاتحون أيضا ذوي بصيرة ثاقبة ، وعلم دقيق بشأن البربر وكيفية إخضاعهم ، ولما ولي حسان بن النعمان كان قد مضى وقت يسير تمرس فيه العرب على قتال الثائرين من البربر ، وخبروا من ذلك أحوالهم وعرفوا حصونهم وأرضهم ونقاط القوة والضعف في جيوشهم ورؤسائهم ، ولعل حسانا استفاد من تجارب عقبة وأبي المهاجر وغيرهما ممن سبقوه في هذا الميدان .

=[4] وينقل الجيلالي عن المؤرخ :[فون جوت شميت] قوله :<< إن الإقبال الهام على اعتناق دين جديد على إثر فتح أجنبي أمر لا يكاد يعرفه العصر القديم ، ولكن الإسلام يقف وحيدا في هذا الفوز >>.

- عبد الرحمن بن محمد الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ج 1 ، ص 149 .

ويضيف د. حسين مؤنس : << انجفل البربر من نواحي إفريقية إلى القيروان ، وسكنوا حولها ، وكان بعضهم قد شاهد عقبة وهو يختار مكان البلد ، ورأوه يبحث عن القبلة حتى اهتدى إليها بإلهام سماوي فكان لذلك وقع عظيم في نفوسهم فكثر دخول الناس في الإسلام ، وعندما تم بناء المسجد والمدينة في دورهما الأول كانت قد تكونت هناك جماعة إسلامية بربرية سكنت البلد مع العرب وأخذت تتعلم العربية وتستعرب >>.

- د. حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ،ج 1 ، ص 89 .

[1] رابح بونار : المغرب العربي (تاريخه وثقافته) ، دار الهدى عين مليلة الجزائر، ط3 ، 2000 ،ص 14 .

وقد رأى حسان أنه لا يتم له فتح المغرب الأوسط أو الأقاليم التي تلي القيروان غربا وإخضاع من فيه من البربر إلا بحوار رؤسائهم أو منازلتهم إن اقتضت الضرورة ، ذلك أن أهل المغرب من البربر لا يكاد المرء يشهد فيهم الحروب والنزاعات الكثيرة بين بعضهم البعض كما هو الشأن الحاصل بين أهل المشرق [1] ، فإذا علمنا أن ولاء البربري – في جل أحواله – كان لزعيم قبيلته علمنا بخطوة حسان التالية ألا وهي مخاطبة الرئيس لا المرؤوس ، القائد لا المقود ، فقد << سأل عن أعظم ملوك البربر ، فدلوه على الكاهنة وقومها جراوة ، ومضى إليها حتى نزل وادي مسكيانة * ، وزحفت إليه فاقتتلوا قتالا شديدا ، ثم انهزم المسلمون وقتل منهم خلق كثير ، وأسر خالد بن يزيد القيسي ، ولم تزل الكاهنة والبربر في اتباع حسان والعرب حتى أخرجوهم من عمل قابس ، ولحق حسان بعمل طرابلس ، ولقيه كتاب عبد الملك بالمقام فأقام وبنى قصوره وتعرف لهذا العهد به، ثم رجعت الكاهنة إلى مكانها ، واتخذت عهدا عند أسيرها خالد بالرضاع مع ابنيها ، وأقامت في سلطان إفريقية والبربر خمس، ثم بعث عبد الملك إلى حسان بالمدد ، فرجع

---

[1] ربما يفسر ذلك أن أرض المغرب غنية خضراء ، فقد كانت سكنا مريحا لأهلها ، ويذكر ابن خلدون أن أرض المغرب << كانت من طرابلس إلى طنجة ظلا واحدا في قرى متصلة >> .

- ابن خلدون تاريخه : ج 11 ، ص 219 .

ويتضح من هذا القول – على الرغم من وجه المبالغة فيه – أن سكان المغرب الذين انحصر جلهم شمال سلسلة الأطلس والتي كانت << المصدر الدائم لمياه الأنهار والعيون>> .

- د. سوادي عبد محمد وصالح عمار الحاج : دراسات في تاريخ المغرب ، ص 24 .

فهم لم يعانوا كثيرا من أزمة الماء ومشكل توفير الغذاء ، على عكس العرب في شبه الجزيرة ، فقد أفناهم الاقتتال على مضارب الكلأ وموارد الماء ، وربما نجد العداوات بين القبائل تظل كامنة في النفوس ، لتبرز بعد مجيء الإسلام في شكل فتن ونزاعات مذهبية وإن تسترت بغطاء الدين .

* موضع تجمع قوات الكاهنة بالتحديد كان على نهر تسميه المراجع " نيني " بين عين البيضاء وتبسة ، ويغلب على الظن أنه أحد فروع نهر مسكيانة الذي يصب في البحر المتوسط إلى غربي الجزائر ، وقد دار قتال عنيف تكاثر فيه البربر على العرب وقتلوا منهم عددا كبيرا ، واضطر حسان مع بقية قليلة من جنده إلى الانسحاب ،وقد سمي الوادي الذي دارت فيه المعركة بوادي سهر .

- د. حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، ج 1 ، ص 101 .

وقد ذكر ابن عذارى في بيانه أن الملتقى كان بوادي مسكيانة ، ومسكيانة من مدن الزاب بين باغاية ومجلة وإنما هما اسمان مختلفان لوادي نيني الذي ينصب بقرعة الطرف بشمال باغاية وقد ذكره ياقوت .

- الكعاك : موجز التاريخ العام للجزائر ، ص 104 .

إلى إفريقية سنة أربع وسبعين ، وخربت الكاهنة جميع المدن والضياع وكانت من طرابلس إلى طنجة ظلا واحدا في قرى متصلة >> [1] .

أما ابن عذارى فيشرح كيف تم الإخاء بين خالد بن يزيد وولدي الكاهنة وكانت هذه الأخيرة أعجبت بشخصية خالد بن يزيد ، فيقول << وكانت الكاهنة لما أسرت ثمانين رجلا من أصحاب حسان أحسنت إليهم ، وأرسلت بهم إلى حسان ، وحبست عندها خالد بن يزيد فقالت له يوما، ما رأيت في الرجال أجمل منك ، ولا أشجع !، وأنا أريد أن أرضعك فتكون أخا لولدي وكان لها ابنان أحدهما بربري والآخر يوناني ، وقالت له : نحن جماعة البربر لنا رضاع إذا فعلناه نتوارث به فعمدت إلى دقيق الشعير فلثته بزيت وجعلته على ثدييها ، ودعت ولديها ، وقالت : كلا معه على ثديي ؟ ، ففعلا فقالت : " قد صرتم إخوة " >>[2].

وما لبثت أن نشبت المعركة الأولى بين الفريقين ، ولم يكن العرب قد عرفوا أرض المغرب ودروبه ، والحصون والكمائن التي نصبتها الكاهنة لهم ، لذلك كانت بوادر الهزيمة ظاهرة ، وربما أحس حسان بها لكنه لم يستطع حيال ذلك شيئا ، فهو من جهة لا يقدر على التقدم إلى عمق المغرب الأوسط دون أن يزيل عقبة الكاهنة ويبيد جيشها الكثيف وهذا أمر عسير نظرا للظروف التي ذكرناها ، ومن جهة ثانية لم يقدر على التقهقر والانسحاب فيعد ذلك هزيمة ويتشتت جنده ، وربما أدركته الكاهنة فلا تكون مواجهة الإقبال كمواجهة الإدبار .

---

[1] ابن خلدون : العبر ، ج 4 ،ص 218-219 .

[2] ابن عذارى : البيان المغرب ، ج 1 ، ص 37 .

ويعدد د. عبد الحميد حسين حمودة أسباب هزيمة المسلمين ، ويعلل ذلك بكفاءة الكاهنة في الميدان الحربي ، وعدم اغترارها بضخامة الجيش المرافق لها ، وحسن اختيارها لمكان المعركة ، يقول :

<< ـ كان المسلمون مجهدين من آثار حملة قرطاجنة [1] وما تلاها ، ولهذا ضعفت عزائمهم في ميدان القتال [2] .

ـ أن العرب كانوا يقاتلون قوما مثلهم ، واستثارت الكاهنة حماسهم بما لها من مكانة في نفوسهم وبذلك ثبت البربر للعرب .

ـ كانت الكاهنة تتمتع بمزايا قيادية ، فقد كانت مسيطرة على رجالها سيطرة تامة، فاستطاعت أن تثير البربر ، وتحفزهم على القتال بحماسة وإقدام .

ـ سوء تقدير جيش حسان للبربر وقوتهم وعدم معرفتهم ببربر أوراس >>[3] .

---

[1] بدأت هذه الحملة بأمر من الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان حينما استقام له الأمر بدمشق ، فاختار رجلا من خيرة رجال بني أمية وهو حسان بن نعمان الغساني ، وجعله على رأس جيش ضخم من أربعين ألف مقاتل لكي يواصل الفتوح في إفريقية ويستعيدها من فلول الروم، وبذلك لم يكن قتال الكاهنة إلا جزءا من حملة حسان على المغرب ،والتي دامت بين سنوات 73-85 هـ / 692-704 م ، فقد كانت قرطاجنة عاصمة إفريقية البيزنطية مازالت عامرة بالروم وحلفائهم من الأفارقة ،فسار حسان ووقع بينه وبين الروم قتال عنيف انتهى بانهزام الروم ، واقتحم المسلمون المدينة بعد أن أسروا الكثير من رجال الروم ، وفر من نجا من البيزنطيين وحلفائهم إلى مراكبهم الراسية في الميناء ، فحملتهم إلى صقلية وجزائر البحر ، ورأى حسان أن يخرب الميناء حتى لا تعود مراكب الروم إلى البلاد مرة أخرى ، وتم ذلك وبذلك يكون حسان قد قضى على كل أمل للبيزنطيين في العودة إلى إفريقية عن طريق ميناء قرطاجنة ، وتم ذلك سنة 74 هـ / 693 أو 664 م ... ، ، وتتبع حسان فلولا من الروم هربت إلى صطفورة وبنزرت في غربي إفريقية ، ولكن حسان رأى ألا ينهك قوى رجاله في تتبعهم وكانت الجراحات قد فشت في الكثير من رجاله >>.

- د. حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، ج1 : ص 99 .

ـ د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، ص 47-48 .

[2] يقول ابن الأثير : << فعاد حسان إلى القيروان لأن الجراح قد كثرت في أصحابه فأقام بها حتى صحوا >>.

- ابن الأثير : الكامل ، ج4 ، ص 135 .

ويؤكد ذلك د. سعد زغلول عبد الحميد بقوله : << وكانت الجراح قد فشت بين العرب خلال معاركهم العديدة ، فرجع حسان إلى القيروان لتضميد جراح الناس ، ولإصلاح شؤونه >>.

- د.سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، من الفتح إلى بداية عصر الاستقلال ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، مصر ، 1999م ، ج 1 ، ص 223 .

[3] عبد الحميد حسين حمودة : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، منذ الفتح الإسلامي وحتى قيم الدولة الفاطمية ، الدار الثقافية للنشر ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 2007م ، ص 91 .

ويتضح من أقوال المؤرخين دهاء المرأة السياسي والعسكري ، إذ أنها أحسنت استغلال ميدان الحرب وأرض المعركة التي هي أرضها عبر تحصنها في أشد التضاريس وعورة، واختيارها أرضا جبلية ليس من قبيل الصدفة إذ أنها تعلم أن العرب معتادون على الأرض المفتوحة كالصحراء والمنخفضات السهلية أثناء حروبهم وإدارتهم لمواقع الجند فيها ، وميدان معركة جديد كهذا سيزيد من متاعب الفاتحين المنهكين أصلا من كثرة التنقل وجر العتاد ، ثم إن لها مآرب أخرى من وراء ذلك يلخصها الجيلالي بقوله : << فما كادت [الكاهنة] تتسامع بمسير حسان إليها حتى رحلت من جبل أوراس في عدد لا يحصى من قومها جراوة – وجراوة هذه هي إحدى قبائل البتر الحضر المقيمين في الأوراس – فحطت رحالها عند بغاية ، وهي مدينة حصينة على سفح الأوراس قرب خنشلة ، تقوم من الجبال مقام الباب من الدار ، وهي ولا شك تقصد من ذلك أن تكون على مقربة من مواطن جراوة الأصلية في الأوراس لكي تستمد منها العون أو تطلب النجاة فيها إذا دارت الدائرة عليها ، وكان لمجرد وصولها إلى بغاية أن أمرت بهدم أسوارها وحصونها خشية من تحصن العرب بها >>[1].

ومما يلفت النظر أنها حققت نصرا " تكتيكيا أو معنويا " آخر ذلك أن نشوة الانتصار والغلبة لم تخرجها عن حدود التفكير السليم ، كأن تفكر في إبادة الأسرى أو التنكيل بهم ، بل إنها عاملتهم بعكس ماكان منتظرا << فقد أخذت نحو ثمانين من خيار رجاله [رجال حسان] أسرى فأحسنت معاملتهم ، بل اتخذت واحدا منهم واسمه خالد بن يزيد ابنا لها وآخت بينه وبين ولديها >>[2] .

فقد رأت أن تدخرهم لقادم الأيام ، فهي تعرف صبر العرب على أعدائهم وجلدهم في الحروب وصعوبة استسلامهم لأول معركة ، وهي تعرف أيضا أنها كسبت معركة ولم تكسب حربا فكانت ترجو الإفادة من الأسرى عن طريق إمدادها بمعلومات أكثر عن هؤلاء الفاتحين وطرق تفكيرهم وكيفية إدارتهم لحروبهم ، وربما طمعت عبر حسن معاملتها لهم في تأليبهم على العرب ، وبذلك تجعلهم سهاما وحرابا لها ترميهم بالفاتحين إن عادوا لحربها .

---

(1) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ،ج 1 ، ص 135 .

(2) د. حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، ج1 ، ص 101 .

ولعل الهدف من مؤاخاتها بين خالد بن يزيد القيسي وابنيها لا يختلف عما ذكرناه سابقا من تزوجها برجال من قبائل عدة ، فرأت هذه المرة أن تمد ملكها وتوسع سلطانها ليشمل العرب أيضا وليس البربر فقط ، ويلخص د. عبد الحميد حسين حمودة أهداف الكاهنة من وراء حسن معاملتها للأسرى وتعلقها بخالد بقوله :<< وكانت الكاهنة تهدف من حظوتها لخالد بن يزيد أن يكون عينا لها على العرب ليعرفها بأحوالهم ومدى قوتهم ، ومما يسترعي الانتباه إحسان الكاهنة للأسرى المسلمين ، والظاهر أنها فعلت ذلك خشية انتقام البربر المسلمين الذين تغلغل الإسلام في صفوفهم ، كما يبدو أن الإحسان إلى الأسرى كان من تقاليد البربر العريقة * >> [1] .

غير أن مساعي الكاهنة في استدراج الأسرى وكسب رضاهم باءت بالفشل إذ أن الرياح جرت بغير ما تشتهيه سفن دهاء الكاهنة ، وحدث أن خالدا القيسي الذي كانت تريد الاعتماد عليه لتقصي خبر العرب أضحى يؤدي وظيفة خفية ومعاكسة تماما لما كانت تنشده الكاهنة ، فقد راسل حسانا خفية ، ونقل إليه امتعاض البربر من الكاهنة وحثه على السير مجددا لقتالها ، يقول ابن الأثير : << فأرسل حسان رسولا سرا إلى خالد بن يزيد – وهو عند الكاهنة – بكتاب يستعلم منه الأمور ، فكتب خالد جوابه في رقعة يعرفه تفرق البربر ويأمره بالسرعة ، وجعل الرقعة في خبزة وعاد الرسول ، فخرجت الكاهنة ناشرة شعرها تقول : ذهب ملككم في ما يأكل الناس ، فطلب الرسول فلم يوجد ، فوصل إلى حسان وقد احترق الكتاب بالنار، فعاد إلى خالد وكتب إليه بما كتب أولا وأودعه قربوس السرج ، فسار حسان >> [2].

---

* يقول د. حسين مؤنس : << إن البربر – بالفعل – شعب أصيل يتمتع بفضائل كبرى من شجاعة وشهامة وكرم وصبر على العمل واحتمال الشدائد ، وهم كذلك أهل إخلاص وصدق و إيمان ، وقد قاسوا خلال العصور الوسطى من المظالم وسوء الحكم وجهل الحاكمين وقسوتهم شيئا كثيرا ، ولكنهم ظلوا- رغم ذلك كله – محتفظين بفضائلهم الرئيسية التي قواها الإسلام ونماها >>.

- د. حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته، ج1 ، ص 61 .

[1] د. عبد الحميد حسين حمودة : تاريخ المغرب الإسلامي ، ص 92 . نقلا عن : محمد شيث خطاب : قادة فتح المغرب العربي :، ج 1 ، ص 185 .

[2] ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ،1 ص 37 .

ولما كانت الكاهنة عالمة بمراس الفاتحين وصبرهم على عدوهم [1] ، لجأت إلى خيار صعب ألا وهو إحراق الأرض حتى لا يطمع العرب في العودة إليها ، ويذكر ابن عذارى ما طال المغرب من إحراق وتخريب للبنيان وإتلاف للثمر والضياع فيقول : << كانت [إفريقية] ظلا واحدا من إطرابلس إلى طنجة ، وقرى متصلة ومدائن منتظمة ، حتى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات ، ولا أوصل بركات ، ولا أكثر مدائن وحصونا من إقليم إفريقية والمغرب ، مسيرة ألفي ميل في مثله ، فخربت الكاهنة ذلك كله >>[2] .

ويستفاد من قول ابن عذارى أن التخريب مس أوجه الحياة كلها من إتلاف للزرع وتهديم للعمران ، ويؤيد هذا الطرح الدكتور العربي دحو فهو يرى أن << الكاهنة ظنت إن الفاتحين كالروم والبيزنطيين ينشدون المال والأرض ...فأشارت على القوم بتخريب العمران ، والحصن ، والأشجار >> [3] .

ولكن نجد من المؤرخين من يزعم أن التخريب مس المدن والحصون وكل ما له علاقة بحياة الترف والبذخ ، وإن الإفساد لم يطل الشجر والزرع ، فابن الأثير يلمح إلى ذلك حين يقول : << فلما علمت الكاهنة بمسيره إليها – أي حسان- قالت : إن العرب يريدون البلاد والذهب والفضة ، ونحن إنما نريد المزارع والمراعي ، ولا أرى إلا أن أخرب إفريقية حتى ييأسوا منها ، وفرقت أصحابها ليخربوا البلاد فخربوها وهدموا الحصون ونهبوا الأموال وهذا هو الخراب الأول لإفريقية >>[4].

ويذهب ابن عذارى مذهب ابن الأثير فينقل لنا ما حدثت به الكاهنة قومها ، قالت :

---

[1] ليس أدل على ذلك من مكوث حسان بطرابلس خمس سنين منتظرا وصول المدد من الخليفة بدمشق ، وباثا – في الوقت نفسه – عيونه تستقصي له خبر الكاهنة ، ولعل هذا الجلد والإصرار على بلوغ الهدف اكتسبه العرب من حروبهم الكثيرة التي خاضوها ، إنها خصائص نفسية لا تؤتى لكل جنس من البشر ، بل هي طبائع مخصوصة على القليل منهم ، يقول الرافعي واصفا ما يمتاز به العرب : << سكان الفيافي وتربية العراء ، ينبسطون مع الشمس ، ويفيئون مع الظل ، ويطيرون في مهب الهواء ، بل أولاد السماء ما شئت من أنوف حمية ، وقلوب أبية ، وطباع سيالة وأذهان حداد ، ونفوس منكرة ، وقد أصبحت بقاياهم الضارية في بوادي العرب ومصر وسورية- لهذا العهد – موضع العجب لأهل البحث من علماء الطبائع >> .

- الرافعي : تاريخ آداب العرب ، ج 1 ، ص 32 .

[2] ابن عذارى : البيان المغرب ، ج1 ، ص 36 .

[3] العربي دحو : مدخل في دراسة الأدب المغربي القديم ، ص 46 .

[4] ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج4 ،ص 136 .

<< إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة ، ونحن إنما نريد المزارع والمراعي ، فلا نرى لكم إلا خراب بلاد إفريقية كلها ، حتى ييأس منها العرب ، فلا يكون لهم رجوع أليها آخر الدهر >> [1] .

ونجد عبد ا كنون يذهب في هذا الرأي أيضا حين ينقل ما نصه : << ولقد قالت الكاهنة داهية لقومها : إنما تطلب العرب من المغرب مدنه وما فيها من الذهب والفضة ، ونحن إنما نريد المزارع والمراعي ، فالرأي أن نخرب هذه المدن والحصون ونقطع أطماع العرب عنها >>[2] .

إن القول بإحراق الأرض وتخريب العمران معا أمر يكاد يكون محل إجماع بين مختلف المصادر التاريخية ، ويفصل أحمد مختار العبادي في هذه القضية أكثر معطيا تبريرات ونتائج أكثر دقة وأبعد عمقا فيقول : << وهنا تروي المصادر الإسلامية أن الكاهنة رأت أن العرب لا بد وأن يعودوا ثانية إلى إفريقية ، وتصورت أنهم لا يريدون منها سوى مدنها العامرة ، وما فيها من نفائس وخيرات .

فلو أنها قامت بتخريب مراكز التمدن ، وإعادة البلاد إلى طبيعتها الأولى – وهي حالة الرعي والبداوة – فإن العرب لن يفكروا في غزو تلك البلاد مرة أخرى ، وتنفيذا لهذه السياسة اندفعت الكاهنة وقومها نحو المدن والأراضي الشمالية يحرقون أشجار الزيتون والكروم-مصدر ثروتها-، ويخربون المدن والحصون حتى صارت إفريقية أرضا خرابا.

ولا شك أن هذا العمل أثار موجة من الذعر بين سكان تلك البلاد سواء أكانوا من الروم المعمرين أو من البربر البرانس المستقرين هناك ، وكانت النتيجة أن فر بعضهم إلى صقلية وإيطاليا ، بينما حاول البعض الآخر الدفاع عن أرضه مستنجدا بالقائد العربي حسان بن النعمان ، وكان حسان يرقب عن كثب هذا الصراع القائم بين البرانس والبتر وقد سره ذلك أن تضرب قبائل البربر بعضها بعض ففي ذلك إضعاف للفريقين >> [3] .

---

[1] ابن عذارى : البيان المغرب ، ج1 ، ص 36 .

ـ السلاوي : الاستقصا ، ج1 ، ص 81-82 .

[2] عبد ا كنون الحسني : النبوغ المغربي في الأدب العربي ، دار المنصور ، الرباط ، المغرب ، د ت ، ج1 ، ص 45.

[3] د. أحمد مختار العبادي:تاريخ المغرب والأندلس ،دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ، مصر،ط1، 2005، ص 41.

ويرى عبد الرحمن الجيلالي أن ما قامت به الكاهنة هو تطبيق فريد من نوعه لسياسة " الأرض المحروقة " التي تحوز الكاهنة على فضل السبق في إقرارها وتنفيذها لمواجهة الخطر الداهم ، وعنها أخذها الأوروبيون في العصر الحديث فنفذوها أثناء الحروب التي قامت بينهم ، أو بينهم وبين الشعوب التي استعمروها وهجروا أهلها، يقول : << وجهت قومها نحو قطع الشجر وهدم الحصون وذلك ما يسمى بسياسة الأرض المحترقة la terre brûlée مثلما فعلت روسيا في حوادث نابليون سنة 1812 >> [1] .

وهذه السياسة طبعا << تعتبر نتيجة لتصورها الخاطئ في فهم أهداف وحقيقة الفتح الإسلامي >> [2] .

ومن الجدير بالذكر أن مسألة إحراق أرض المغرب أثارت جدلا واسعا بين الدارسين والباحثين من خلال التشكيك في نسبة ذلك الفعل للكاهنة بحيث يرى البعض أن الإحراق قام به العرب أنفسهم .

ومما يلاحظ في هذا الاختلاف الناشئ حديثا أنه يتغذى من توجهات سياسية أو دينية تبعا لأصول أي باحث ، وتم إطلاق الأحكام بعيدا عن الروح العلمية التي تقتضي الحياد ودراسة النصوص التاريخية بترو وتمحيص ، واستخلاص الأحكام استنادا إلى ما أجمع عليه المؤرخون الثقات ، ويلخص حسين مؤنس هذا الجدل الناشئ ، وما أضيف إليه من آراء الغربيين المتطرفة والبعيدة عن الروح الخليقة بالباحث المحقق فيقول : << وقد أنكر نفر من مؤرخي الفرنسيين أن تكون الكاهنة قد فعلت ذلك ببلادها ، لأن هذا يتنافى في رأيهم مع طبيعة البربر من المحافظة على الأشجار والزروع ، وذهبوا إلى أن هذا الخراب إنما حل بالبلاد – فيما بعد- نتيجة لسوء سياسة العرب الاقتصادية ، والحقيقة أن مؤرخي العرب قد بالغوا في تصوير ما فعلته الكاهنة ، لأننا نعرف أن بلاد المغرب – وخاصة المغرب الأوسط والأوراس – كانت مهملة طوال عصور الرومان والبيزنطيين ومتروكة نهبا لتخريب القبائل البربرية في حروبها الطويلة بين بعضها البعض ، والقول بأن بلاد المغرب كانت " ظلا واحدا من برقة إلى طنجة " مبالغ فيه ولا ريب ، ولا ننسى

---

[1] عبد القادر بن محمد الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ج1 ، ص 136 .

[2] هاشم العلوي القاسمي : مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1995 ، ج1 ، ص 172 .

أن الكاهنة من قبيلة جراوة وهي قبيلة زناتة أي بترية بدوية والبتر لا يحرصون على المحافظة على الأشجار والزروع والعمران ، شأنهم في ذلك شأن البدو في كل مكان ، فالذي حدث أن البلاد كانت تسير في طريق الخراب من قبل الفتح العربي ، فزادت الكاهنة ذلك الخراب وأسرعت به ، ثم مرت البلاد بعد الفتح العربي بفترة حروب وثورات أتت على الكثير من عمرانها ، فنسب المؤرخون كله ذلك إلى الكاهنة دفعة واحدة ونسبه بعض المؤرخين الفرنسيين إلى العرب وسياستهم ، وكلا القولين خطأ >>[1] .

إن الدعاية الغربية عبر الأقلام الحاقدة ، حاولت تشويه صورة العرب الفاتحين ومرد ذلك هو الغيظ الكبير والحسرة البالغة التي انتابتها بعد نجاح العرب في تثبيت دعائم الفتح الدين الإسلامي في ربوع تلك المناطق التي استعصت على المسيحيين من الرومان وجماعات الوندال وهذا ما أكده عبد الحميد حسين حمودة بقوله : << وحاول بعض الكتاب الأوروبيين نسبة هذا العمل إلى العرب ، وأن هذا العمل يخالف طباع البربر، ولكنني أستبعد هذا تماما لأنه يشكل جزءا من الدعاية المنظمة في دوائر الاستشراق عن الإسلام والمسلمين ، ولقد فات هؤلاء أن العرب حملوا رسالة الإسلام لنشره في بقاع الأرض وحث الإسلام على التعمير لا التدمير >>[2] .

ونحن بدورنا لا نستغرب هذا الموقف المعادي والمتحامل من البحاثة الفرنسيين طالما أنه وجد من مؤرخي الإسلام من تحامل على العرب وأعطى بذلك مصوغا ودافعا قويا للغرب حتى يغمس أقلامه المسمومة في صفحات تاريخ الدول ، ومنهم ابن خلدون نفسه الشهير بتحامله على العرب ، فهو يقول عنهم في مقدمته : << إنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم ، فصار لهم خلقة وجبلة ...فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب وذلك مناقض للسكون الذي يتم به العمران ومناف له، فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران هذا في حالهم على العموم ، وأيضا فطبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس ، وأن رزقهم في ظلال رماحهم ، وليس عندهم في أخذ أموال الناس حد ينتهون إليه ، بل كلما امتدت أعينهم إلى مال أو متاع أو ماعون انتهبوه ، فإذا تم اقتدارهم على ذلك بالتغلب والملك بطلت السياسة في حفظ أموال الناس وخرب العمران

---

[1] د. حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، ج 1 ، ص 102-103 .

[2] د.عبد الحميد حسين حمودة : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، ص 93 .

وأيضا فلأنهم يتلفون على أهل الأعمال من الصنائع والحرف أعمالهم ... وانظر إلى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الأوطان من لدن الخليقة كيف تقوض عمرانه ، وأقفر ساكنه ، وبدلت الأرض فيه غير الأرض ، فاليمن قرارهم خراب إلا قليلا من الأمصار ، وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذي كان للفرس أجمع ، والشام لهذا العهد كذلك ، وإفريقية والمغرب لما جاز إليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطه خرابا كلها ، بعد أن كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمرانا >>[1].

ويبدو أن ابن خلدون كان يتحسس آلام الماضين من البربر ، ومعاناتهم في بداية الأمر مع قادة بني أمية وعمالهم على بلاد المغرب لذلك أراد أن ينتصف لهم بإيراد مثل هذه الأحكام التي تفتقد إلى الموضوعية ، ونستشف فيها نزعة شعوبية فهو بعد أن شن حربه على العرب نراه << يثني على البربر ثناء مستفيضا فيجعلهم أهل كل فضيلة ، والواضح أنه أسرف في ذلك بعض الشيء عامدا لأن بعض قبائل المغرب الأوسط كانت ملجأه الذي يأوي إليه إذا اشتدت عليه الظروف قبل أن يهاجر إلى المشرق ويستقر في مصر>> [2] .

إن مثل هذه الأحكام تحيل القارئ على فترة غير هينة من تاريخ الإسلام وأثر امتزاج الشعوب والأجناس والصراع الفكري والسياسي الذي احتدم بداية بين العرب وغيرهم من الموالي ، وكان أن أخذ الخلفاء الأمويون يغذون هذا الصراع << فقد كانت الدولة الأموية، دولة عربية لحما ودما ومن ثمة تعصب الأمويون للعرب والعربية ، وأخذوا ينظرون للموالي نظرة الاحتقار والازدراء بما أيقظ الفتنة بين المسلمين وبعث روح الشعوبية في الإسلام،وكان منشأ تلك الحركة اعتقاد العرب أنهم أفضل الأمم وأن لغتهم أرقى اللغات، وإذا نظرنا إلى حركة الشعوبية ألفيناها حربا سلمية اشتبكت فيها الألسنة والأقلام اشتباكا لا يقل عن اشتباك الأسنة والرماح ، وترجع هذه الحركة على ما يظهر إلى الوقت الذي دخل فيه العرب بلاد الفرس وغيرها من بلاد الأعاجم، ولما جاء الأمويون حملوا لواء تلك الحركة طوال خلافتهم ، وانحازوا إلى العرب ولم يساووا بينهم وبين الموالي ، فأجمع

---

[1] ابن خلدون : المقدمة ، ص 151-152 .

[2] د.حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، ج1 ، ص 61 .

هؤلاء أمرهم ، وثاروا على الأمويين في عهد عبد الملك بن مروان ، فأرسل إليهم الحجاج بن يوسف الثقفي ليقضي على حركاتهم >>[1] .

ولكن شوقي ضيف توضيح دقيق في الموضوع إذ يرى أنه << لابد أن نفرق بين معاملة العرب للموالي ومعاملة الدولة لهم ، فإن الدولة إذ كانت قد تعسفت معهم أحيانا فإن العرب ظلوا يرعون لهم أخوتهم في الإسلام ، ويسوق المستشرقون دليلا قويا على سوء معاملة الدولة لهم ما حدث أيام الحجاج إذ هاجر كثير من الموالي السواد في العراق إلى البصرة والكوفة ، فأمر بردهم إلى قراهم ونقش أسمائهم على أيديهم حتى لا يبرحوها . وظاهر الحادث عنف شديد في الظلم ، ولكن قد يكون الحجاج قد اضطر إلى ذلك لتعطل الزراعة في السواد ، وبالتالي تعطل الخراج الذي كان ينفق منه على تجهيز الجيوش إلى خراسان وغير ذلك من شؤون ولايته .

وقد عقد ابن عبد ربه فصلا في العقد الفريد صور فيه العرب يسيئون في المعاملة إلى الموالي لعصر بني أمية إساءة بالغة[2] ،غير أن بين أيدينا أخبارا كثيرة تشهد أنهم لم يكونوا يضطهدون أحرارهم ولا أرقاءهم ، فقد ذكر ابن حبيب أن نحو ثلاثين من الرقيق في الكوفة والبصرة نبه شأنهم حتى أصبحوا من أرباب الشرف والسيادة[3] .

والحق أنّ العرب اندمجوا في الموالي منذ الأيام الأولى في الفتوح ، فقد ساكنوهم وتزوجوا منهم وعرّبوهم عن طريق نظام الولاء الذي شرّعه الإسلام ، إذ أدخلوهم في عداد قبائلهم ، وكأنما أرادوا بذلك أن يلغوا جنسياتهم إلغاء فهم عربٌ ولاءً ، واستشعر الموالي ذلك في عمق حتى إذا أحسن نفر منهم نظم الشعر وجدناهم يقفون في صفوف قبائلهم ذائدين عنها ومفاخرين بنفس روح أبنائها الأصليين ، ومن خير ما يصور ذلك زياد الأعجم مولى عبد القيس ، فقد عاش لقبيلته يحامي عنها ويصول[4] .

وكانت القبائل تبادلهم نفس التعصب ، فإذا جنى أحدهم جناية كبيرة وزج به في السجن لم يقر قرار لقبيلته حتى ترد له حريته ، على نحو ما يقصه الرواة من موقف اليمانية من

---

[1] د. حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، ج1 ،ص 278-279

[2] ابن عبد ربه الأندلسي : العقد الفريد للملك السعيد ، دار المؤيد ، دمشق ، سوريا ، 1984م ، ج3 ، ص 403 .

[3] ابن حبيب : المحبر ، ص 340

[4] أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ، ج 13 ، ص 89 .

ابن مفرغ حين زج به عباد بن زياد في سجن سجستان ، فإنها مازالت تشفع فيه عند الخليفة وتتوسل حتى أمر بإطلاق سراحه[1] >> [2] .

ومن هنا يتضح لنا أن نص ابن خلدون – والذي مع الأسف استغله عديد الحاقدين لكي يبرروا اتهاماتهم الباطلة لسيرورة الفتح الإسلامي – ماهو إلا محاولة متأخرة لإثارة النزعة الشعوبية ، وإنها لمحاولة يائسة طالما أن مختلف الأجناس قد انصهرت في بوتقة الحياة العربية الإسلامية ولم يعد هناك مبرر لطرح مثل هذه القضايا حتى يسقط ابن خلدون في مثل هذه المطبات ، والمهم أن آراءه << غير سليمة في جملتها ، وخاصة فيما يتصل بكلامه عن موقف العرب من الحضارة وزعمه أنهم لا يتغلبون إلا على البسائط... وذلك كله ينبغي أن يكون اليوم موضع دراسة جادة منا نحن العرب >> [3] .

ويعد هذا الطرح الذي بيناه عن التاريخ والمؤرخين مهما كونه يميط اللثام عن قضايا جوهرية متصلة اتصالا وثيقا ببلاد المغرب والوقائع التي جرت فيه ، فالمغرب لم يكن بمعزل عن تأثير الأحداث التي جرت بالمشرق بل لعله كان أشد تأثرا بها من أرض المشرق نفسها ، وأراضيه أصبحت ملجأ للفارين من قمع الأمويين والعباسيين وبالتالي انتقال الصراع الميداني من الشرق إلى الغرب.

ونعود للحديث عن الكاهنة وقضية نسبة فعل الإحراق لها، و نجد أن القول الفصل والأقرب إلى الإنصاف ما أورده حسين مؤنس بقوله: << ويذكر المؤرخون العرب وخاصة عبد الرحمن بن الحكم أن إفريقية كانت ظلا واحدا من برقة إلى طنجة فخربت ذلك كله الكاهنة[4] ، هذه أيضا مبالغة وعدم فهم من ابن الحكم :

---

[1] قال ابن قتيبة : إن عبيد ا بن زياد أمر به فحمل إلى سجستان إلى عباد بن زياد ، فحبس بها ..فلما طال حبسه بعث رجلا أنشد على باب معاوية ، واليمن أجمع ما كانت بباب معاوية قوله :

أَبْلِغْ لَدَيْكَ بَنِي قَحْطَانَ قَاطِبَةً   عَضتْ بِأيْرِ أَبِيهَا سَادَةُ اليَمَـن

أَمْسَى دَعِيُّ زِيَادٍ فَقْعُ قَرْقَرَةٍ   يَاللْعَجَائِبِ ، يَلْهُو بِابْنِ ذِي يَزَن

فدخل أهل اليمن إلى معاوية فكلموه ، فوجه رجلا على البريد في إطلاقه ، فصار إلى سجستان ، فبدأ بالحبس فأطلقه..

-أبو محمد عبد ا بن مسلم ابن قتيبة الدينوري : الشعر والشعراء ، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ، دار الحديث ، القاهرة ، مصر ، 1427 ه / 2006 م ، ج1 ، ص 350-351-352 .

[2] د. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، ج2 ، ص 211-212-213 .

[3] د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، دار الرشاد ، القاهرة ، مصر، ط6 .2003 م ، ص 50 .

[4] ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص53 .

فأولا : لم تكن إفريقية بهذا العمران عند الفتح العربي، وثانيا: ليس من المعقول أن تخرب امرأة واحدة ذلك العمران كله ، ونستطيع اليوم تفسير هذه الظاهرة أن نقول : إن الكاهنة بالفعل قامت ببعض أعمال التخريب للأسباب التي ذكرناها ، واستمر التخريب بعد ذلك لسوء الحكم وسياسات الولاة وما سنرى من الصراع السياسي الشديد بين العرب فيما بين بعضهم البعض من ناحية وبين العرب والبربر من ناحية أخرى >> [1] .

ومهما يكن فإذا سلمنا بوقوع مسألة الإحراق وحملنا الكاهنة مسؤوليتها فإنه لا يفوتنا أن نتقصى عن بعض الأهداف الخفية من وراء هذا العمل "الجنوني" << فيبدو أن الكاهنة فعلت ذلك لكي تغلق منافذ المرور إلى جبال الأوراس ، كما كانت تهدف إلى بعد آخر وهو إبادة الأخشاب لكي تضيع على المسلمين خططهم المستقبلية في إنشاء دار لصناعة السفن لحماية المدن الساحلية ، وهو المشروع الذي نفذه حسان بن النعمان بموافقة الخلافة الأموية >> [2].

ويشير السلاوي إلى هذا الموضوع بقوله : << انصرف حسان إلى القيروان مؤيدا منصورا وثبت ملكه واستقام أمره ...، ثم أوعز إليه الخليفة عبد الملك باتخاذ دار الصناعة بتونس لإنشاء الآلات الحربية حرصا على مراسم الجهاد >>[3] .

ولا نستبعد أن تكون الكاهنة على علم بما يحدث في مركز الخلافة والضواحي من خلاف واقتتال على الزعامة بين الأمويين وخصومهم[4] من الخوارج وغيرهم ، وهذا ما يفسر

---

[1] د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ،ص 50.

[2] د. هاشم العلوي القاسمي : مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري ، ج1 ، ص 174-175 .

[3] السلاوي : الاستقصا ،ج1 ،ص 82 .

[4] يقول د. شوقي ضيف : << لم تكن الحياة السياسية في عصر بني أمية هادئة ، بل كانت حياة ثائرة ، إذ كان الأمويون يعدون في رأي كثير من الأمة الإسلامية غاصبين للخلافة ، والبلد الوحيد الذي كان هادئا إلى حد ما هو الشام فقد وجد أهله بني أمية ورثة شرعيين لآل جفنة ، واستطاعوا عن طريقهم أن يحققوا ما لم يكونوا يحلمون به في القديم إذ أشرفوا وسادوا لا على العراق -مركز المناذرة خصومهم في الجاهلية فحسب- بل على العالم الإسلامي كله وإذا تركنا الشام إلى الحجاز والعراق وجدنا فيهما فنونا من السخط على بني أمية وحكومتهم ، وسرعان ما تكون – تحت تأثير هذا السخط – أحزاب سياسية ثلاثة كانت تعارض بني أمية وتخاصمهم وتدعو إلى الانتقاض عليهم ، وهي أحزاب الزبيريين والخوارج والشيعة ، وقد تألفت هذه الأحزاب حول فكرة الإمامة أو الخلافة ومن أحق بها من المسلمين ، أما حزب الزبيريين – وهم أتباع عبد ا بن الزبير – فكان يرى أن تعود الخلافة إلى الحجاز ،وأن يتولاها أحد أبناء الصحابة الأولين لا يزيد بن معاوية ، بينما كان حزب الخوارج في العراق يريد أن ترد الخلافة إلى العرب=

إشارتها عليهم بتدمير القلاع والحصون ظنا منها أن العرب لم تكفهم خيرات الحجاز والشام فأرادوا بسط نفوذهم على المغرب ليكون منهلا جديدا يستقي من معينه القصر الأموي الذي لم يعد يكفه ما تجبيه الجند من بلاد ما وراء النهر ، لهذا << ظهرت إفريقية كولاية مهمة بعد تأسيس القيروان ، وأصبحت محط الطامعين من الولاة ، إذ شعروا أن الاستقرار سيعم تلك الولاية الجديدة ، وأنهم سيظفرون بالغنائم التي يرسل جزء منها إلى دمشق فينالون رضى الخلافة >>[1] .

ومما يدل على وفرة المال والغنائم ما يذكره البلاذري من أن جند عبد ا بن أبي سرح نزلوا حصن الأجم فحاصرته ثم دخلته :<< فأصابوا غنائم كثيرة، واستاقوا من المواشي ما قدروا عليه، فلما رأى ذلك عظماء إفريقية اجتمعوا فطلبوا إلى عبد ا بن سعد أن يأخذ منهم ثلاثمائة قنطار من ذهب على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم فقبل ذلك >>[2]..

أما السلاوي فيذكر أنه : << صالح أهل إفريقية على ألف ألف وخمسمائة ألف دينار>> [3]

هذه الثروة التي باتت – حسب ظن الكاهنة – محل أطماع العرب ومن ثمة توجست خيفة من سيطرتهم عليها .

ولدرء هذا الخطر رأت أن تضرب في عمق هؤلاء الوافدين وذلك بضعضعة صفوفهم ، غير أنه لا يفوتنا الحال دون القول بأن الكاهنة لم تكن تجهل تماما ما يحدث في المشرق ، وامرأة ذات بصيرة نافذة مثلها لن يفوتها – على الأقل – بث العيون وتقصي خبر الوافدين ولعل خبر إبقائها على زهاء ثمانين رجلا من العرب بعد معركتهم الأولى أمامها يندرج في هذا المسعى ، وربما حصلت منهم على معلومات غير قليلة – عبر معاملتها

=والمسلمين جميعا ليولوا أكفأهم وأجدرهم بها ، وكان بجوارهم في العراق أيضا حزب الشيعة وكان يرى أن ترد الخلافة إلى بني هاشم فهم بيت الرسول وأصحابه الحقيقيون . >>.

- د.شوقي ضيف : التطور والتجديد في الشعر الأموي ، ص 85 .

[1] د. سعدون نصر ا : تاريخ العرب السياسي في المغرب ، من الفتح العربي حتى سقوط غرناطة ، دار النهضة العربية ، بيروت . لبنان ، ط 1 ، 2003 ، ص 36 .

[2] الإمام أبي العباس أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري : فتوح البلدان ،حققه وشرحه وعلق على حواشيه وأعد فهارسه وقدم له : عبد ا أنيس الطباع وعمر الطباع ، منشورات مؤسسة المعارف ، بيروت ، لبنان ، 1987 م ، ص 318.

[3] السلاوي : الاستقصا ، ج1 ، ص 68 .

الحسنة لهم – عن أوضاع الخلافة في الشرق والصراع القائم على السلطة هناك ، مما جعلها تؤمن أن محاولات الفتح ليست لنشر ذلك الدين وإنما هي محاولات للسيطرة ونهب خيرات المغرب من طرف القواد والأمراء إرضاء للخليفة الأموي وزلفى تقربهم منه خاصة مع اشتداد التنافس على قيادة الجند بأرض المغرب بين الأمراء على نحو ما وقع بين أبي المهاجر وعقبة بن نافع في بداية الفتوح [1] .

وقد كانت للكاهنة رغبة ملحة في بناء مجد مشدود البنيان ، رغم أمارات الهزيمة التي كانت تطلعها كهانتها عليها ، وعلمها الجازم بأن الدوائر ستدور عليها لا محالة ، ولكن بالرغم من ذلك فقد آثرت أن تقبر بسيوف الفاتحين ، ويقبر معها طموحها الجامح في توحيد بلاد المغرب تحت راية زناتة والبربر قاطبة ، ولعل هذا الطموح هو الذي أدى بها إلى ارتكاب حماقة التخريب و<< لما رأى الناس ما قامت به من التخريب والإتلاف سخطوا عليها سخطا كان أهم أسباب انهزامها >> [2] .

---

[1] لما وصل أبو المهاجر إلى المغرب حقد على عقبة << فأساء عزله وسجنه ، وأوقره حديدا >> .

- ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص224 .

ويفسر أحد الباحثين تصرف أبي المهاجر على هذا النحو بشعبية عقبة في إفريقية بين العرب والبربر لذلك قدر أبو المهاجر أنه << لا يستطيع السيطرة على ولايته بسهولة ويسر ما لم يحجز حرية عقبة ولو لفترة محدودة >> .

- محمود شيث خطاب : عقبة بن نافع الفهري : ص 143 .

ويبدو هذا التفسير معقولا إلى حد كبير .

وتشير المصادر إلى أن عقبة بمجرد فك سراحه مضى إلى قصر الماء – إحدى مناطق القيروان - فصلى ركعتين ثم دعا وقال : <<" اللهم لا تمتني حتى أتمكن من أبي المهاجر" ، فلم يزل أبو المهاجر خائفا منذ بلغته دعوته >> . =

= ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب : ص 224-225 .

ونحن وإن أوردنا ما وقع بينهما من سوء ، فلابد أن نذكر أيضا خبر استشهادهما معا على أيدي فلول البربر بزعامة كسيلة بن لمزم بأرض الزاب عند تهودة (بسكرة) سنة 64 ه / 682 م ، واستشهد عقبة وأبو المهاجر << وسيفاهما بيديهما >> . على حد تعبير المؤرخ عبيد ا بن صالح .

د. أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص 39 .

[2] الطمار : تاريخ الأدب الجزائري ، ص 59-60 .

ويذكر ابن خلدون تفرق أمر البربر على إثر ما قامت به الكاهنة من تخريب وإصرارها على خوض معركة كانت معالم النصر للمسلمين فيها تتجلى شيئا فشيئا ثم يتحدث عن نهايتها فيقول :<< وشق ذلك على البربر [أي إحراق الكاهنة الأرض] فاستأمنوا لحسان فأمنهم ، ووجد السبيل لتفريق أمرها ، وزحف إليها وهي في جموعها من البربر فانهزموا وقتلت الكاهنة بمكان البير المعروف بها لهذا العهد بجبل أوراس ، واستأمن إليه البربر على الإسلام والطاعة ، وعلى أن يكون منهم اثنا عشر ألفا مجاهدين معه فأجابوا وأسلموا وحسن إسلامهم ، وعقد للأكبر من ولد الكاهنة على قومهم جراوة وعلى جبل أوراس فقالوا : لزمنا الطاعة له ، سبقناها إليها وبايعناه عليها وأشارت عليهم بذلك لأثارة [1]من علم كانت لديها بذلك من شياطينها >>[1] .

وينقل الرقيق القيرواني ما قالته الكاهنة لقومها بعد أن أشاروا عليها بالاستسلام أو الرحيل وتفادي مواجهة المسلمين : << كيف أرحل وأفر ، وأنا ملكة والملوك لا تفر من الموت ، فأقلد قومي عارا آخر الدهر >> [2] .

إنه شموخ المرأة البربرية الذي لا يلتفت لدعوات اليأس والهزيمة ويذكر عثمان الكعاك أيضا ما كان يدور بينها وبين قومها من نقاش فيقول: << وكانوا إذ ذاك يلحون عليها في الاستسلام والفرار بنفسها للنجاة وكانت تجيب :الفرار عار وسبة في وجه أمتي والتي قادت البربر والروم والعرب إلى ساحة القتال يجب أن تموت موت الملكات >> [3] ، فهي وإن << قررت أن تحارب حتى الموت >>[4] ، فقد وضعت شريعة خاصة يتوارثها القادة أبد الدهور وهي << أن الملوك لا يستسلمون>>[5] ، ولا ينكر أحد أن موقفها هذا أكسبها احتراما بين القادة المتقدمين والمتأخرين ، والمؤرخين على اختلاف آرائهم ، لأنه موقف من يتشبث بأرضه ويذود عنها إلى آخر رمق << فرغم الطابع الأسطوري لقصة

---

[1] ابن خلدون : العبر ،ج 11 ،ص 219 .

[2] الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والمغرب ،ص 62

[3] د. عثمان الكعاك : موجز التاريخ العام للجزائر : ص 105

[4] السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص 44 .

[5] د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، ص 51.

نهاية الكاهنة فإنها [تبدو] معقولة ، فالمرأة لم ترض بالاستسلام ، ووجدت أن ذلك من العار ، ورضيت أن تقتل حافظة شرفها وشرف قومها >> [1] .

ومما يكشف أيضا دهاء هذه المرأة وحسن تدبيرها في ميدان السياسة والحرب ، رغم ما يوحي إليه إصرارها على المقاومة من تهوّر ، أنها لم تدفع ولديها للهلاك ، بل آثرت أن يرأسها البربر من بعدها ، وإن كان الخضوع للوافدين أمرا محتوما ولابد ، فلا أقل عندها من أن يأتمر البربر بإمرة أفراد من بني عشيرتهم فذلك أدعى للمسرة والطمأنينة لهم ، يقول سعد زغلول عبد الحميد :<< ورغم أن الأقرب إلى المعقول أن يكون أبناء الكاهنة قد طلبوا الأمان بعد القضاء على والدتهم ...أو أن يكونوا قد خرجوا عليها كما خرج غيرهم ممن لم يرضوا عن سياستها ، فان هذا العمل الفدائي (تسليم ولديها) من جانب الكاهنة مقبول بالنسبة لأفكار أهل ذلك العصر(القديم)، بل وهو صحيح أيضا بالنسبة لعصرنا(الحديث)،فالوالد المسن يمثل الماضي الفاني، والأبناء يمثلون الحاضر والمستقبل، وكان المستقبل للعرب والإسلام ، هذا ما أدركته ملكة أوراس الذكية الفدائية >> [2] .

[1] د. سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، ج1 :ص 231 .

[2] د. سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغربي العربي ، ج 1 ، ص 231 .

المرأة والسحر :

ويبدو أن أصول الكهانة كانت متجذرة في نفوس البربر ، وفي النساء منهم بصفة خاصة إذ أن " الكاهنة " لم تكن وحدها في هذا الميدان بل كانت هناك نساء أخريات جارينها في الكهانة من مثل " تالية " التي يحدثنا عنها السلاوي وبجانبها "حاميم " المتنبيء يقول:<< وكانت تالية هذه امرأة كاهنة ساحرة ، وكان حاميم يلقب المفتري وكانت أخته " دبو " كاهنة ساحرة أيضا وكانوا يستغيثون بها في الحروب والقحوط >>[1] .

ولا شك أن النساء عزفن على وتر الكاهنة ردحا طويلا من الزمن لتحقيق بغيتهن في السيطرة على عقول البربر وتوجيههم إلى ما فيه صلاحهن وصلاح أزواجهن أو من يأتمرن بإمرتهم إن كن خاضعات لسلطان الرجل كما هو الحال بالنسبة للمتنبيء "حاميم "، يقول ألفرد بل ALFRED BEL متحدثا عن هذا المتنبيء والنساء اللواتي ساعدنه في دعوته << ولدت ديانة حاميم – متنبيء عمارة – في نواحي تطوان [بالمغرب الأقصى]، لدى مجكسة وهم بطن من غمارة ، وغمارة قبيلة بربرية من مصامدة الشمال ، وكان ذلك حوالي سنة 925 م ، وجده جفوال بن وزروال ..إليه ينتسب بطن من مجكسة هم بنو جفوال[2] . وبينهم ولد حاميم ، وبلده كان على ثلاثة أميال من تطوان وهذا النسب كان كافيا ليجعل حاميم ذا مكانة في قومه ... ،واسم حاميم مأخوذ من القرآن الكريم ، ففيه سور كثيرة تبدأ بالحرفين " حا" و " ميم " ، وكنيته أبو محمد ...

وقد وضع حاميم " قرآنا " باللغة البربرية وشريعة خاصة به[3] ، أورد البكري بعضه فقال : فما ترجم منه بعد تهليل يهللونه : حلني من الذنوب يا من يحل البصر ينظر في

---

[1] السلاوي : الاستقصا ، ج1 ،ص 152.

[2]هذا الاسم البربري جفوال صار أحيانا : ودفل ، وهم جد بطن من قبيلة بني ورنيد في نواحي تلمسان ، وتقصد به بطن بني ودفل .

- أبو عبيد البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص 100 .

[3] من بين الصلوات الخمسة التي فرضها الإسلام لم يبق حاميم إلا على اثنتين : الصبح والمغرب ، وأمر أتباعه بأن يكون سجودهم في الصلاة على أكفهم أما عن الصوم فقد أسقط عنهم صوم سبعة وعشرين يوما من رمضان ، وأبقى فرض صوم الثلاثة أيام الأخيرة من رمضان على أن يفطروا في اليوم الرابع ... وأسقط عنهم الحج ولم يضع فرضا أخر مكانه .

الدنيا ، حلني من الذنوب يا من أخرج موسى من البحر ... و [منه] : آمنت بحاميم ، وبأبي خاف – يريدون أبا حاميم وكذلك كان يكنى – وآمن رأسي وعقلي وما أكنه صدري وآمنت بتانقيت – وهي عمة حاميم أخت أبي خاف من ا – وكانت كاهنة ساحرة " وكانت لحاميم أيضا أخت تسمى " دجو " ، وكانت ساحرة كاهنة من أجمل الناس ، كانوا يستغيثون أليها في كل حرب وضيق ، ويزعمون أنهم يجدون نفعا >> [1].

وقد لقب حاميم " بالمفتري " ، ولاقت دعوته معارضة كبيرة ، وهجا عديد الشعراء هذا المتنبيء وكذلك نساءه و من أعانه على شأنه وقد أورد البكري أبياتا لعبد ا بن محمد المكفوف الطنجي في هجاء حاميم ورهطه [من الطويل] :

وَقَالُوا افْتِرَاءً : إِنَّ حَامِيمَ مُرْسَلٌ إِلَيْهِمْ بِدِينٍ وَاضِحِ الحَقِّ بَاهِـرِ

فَقُلْتُ : كَذَبْتُمْ ، بَدَّدَ اللهُ شَمْلَكُـمْ فَمَا هُوَ إِلَّا عَاهِرٌ وَابْنُ عَاهِـرِ

فَإِنْ كَانَ حَامِيمُ رَسُولاً فَإِنَّنِـي بِإِرْسَالِ حَامِيمِ لَأَوَّلُ كَافِـرِ

رَوَوْا عَنْ عَجُوزٍ ذَاتِ إِفْكٍ فَهِيمَةٍ تُفَاوِقُ فِي أَسْحَارِهَا كُلَّ سَاحِـرِ

أَحَادِيثَ إِفْكٍ حَاكَ إِبْلِيسُ نَسْجَهَـا يُسِرُّونَهَا وَاللهُ مُبْدِي السَرَائِـرِ [2]

ويبدو أنه وعلى الرغم من تمتع بعض النساء بمكانة خاصة نتيجة قرابتهن للقواد والأمراء من زعماء البربر ، إلا أن الغالبية منهنّ كنّ يعانين القهر والعبودية والاستغلال، فقد كانت المرأة تعامل ببالغ المهانة من قبل البربر أنفسهم ، وذلك راجع - ربما – لعدم تمكن تعاليم الدين الجديد الذي يوصي باحترام المرأة من نفوسهم ، فهم إلى ذلك العهد لا

= وفي ميدان الأطعمة أمر ألا يؤكل الحوت إلا بذكاة – أي ذبح شرعي – وحرم عليهم أكل البيض ،وأكل الرأس من كل حيوان ، وأحل لهم أكل الأنثى من الخنزير ، وقال إنما حرم قرآن محمد الخنزير الذكر .

- ألفرد بل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي (من الفتح العربي حتى اليوم) ، ترجمة عن الفرنسية : عبد الرحمن بدوي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان، ط3، 1987 ، ص 185-186 .

(1) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب : ص 100 .

(2) المصدر نفسه : ص 101.

ووردت الأبيات في البيان المغرب مع بعض التغيير في الألفاظ فقد وردت كلمة " بمرسل " مكان " بإرسال " في البيت الثالث ولفظة " بهيمة " مكان " فهيمة " في البيت الرابع ، ولفظة " تجاوز" مكان "تفاوق " في البيت نفسه .

- ابن عذارى : البيان ، ج1 ، ص 192 .

زالوا متمسكين بأطر الحياة البدائية ، وكان المَشاع في النساء أمرا متداولا بينهم إلى وقت قريب ، وأنّ بقايا البدع والضلالات لا زالت منتشرة فيهم حتى محاها المرابطون، و<<أن أحد أولاد حاميم واسمه عيسى ، كان لا يزال مبجلا في قومه غمارة ، وأن الإباحية بين النساء كانت مطلقة ،وأن الرجال كانوا يربون شعورهم كالنساء و يتخذونها ضفائر،ويطيبونها ويتعممون بها >>[1].

ولعلم الثوار البربر والناقمين على التواجد الإسلامي ببلاد المغرب بعقلية البربري الذي تستهويه المشاعية في النساء وميله إلى الحياة الفطرية حيث لا ضوابط أو حدود تضبط علاقة الذكر بالأنثى ، فقد وضعوا امتهان المرأة – بجعلها في متناول الجند أثناء الغارات على المدن والقرى – سلّما يرتقون به للظفر بالقيادة وزلفى للجند الذين سئموا كثرة الحروب والترحال فيضمنوا ولاءهم واستمرارهم في القتال وعدم القعود عنه .

ونجد الخارجي صالح بن طريف[2] ينحو في هذا الاتجاه ، ويتنبأ هو الآخر في قومه ، ويضع لهم شريعة جديدة تملؤها البدع والضلالات ، ويذكر ابن حوقل هذا المدعي بقوله : << ... وذلك أن رجلا كان يعرف بصالح بن عبد ا دخل العراق ودرس شيئا من النجوم وصلحت منزلته في علمها ، إلى أن قوّم الكواكب وعمل التقاويم والمواليد وأصاب في أكثر أحكامه ، وكان له خط حسن وفهم بأطراف من العلم وعاد فنزل بينهم ، وكان بربري الأصل مغربي المولد مضطلعا بلغة البربر ، واحتج بقول ا تعالى : << **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ** >> [3]، وأن محمدا – صلى ا عليه وسلم – نبي حق

---

[1] البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ،ص 102 .

[2] **صالح بن طريف البرغواطي** (؟- نحو 175 هـ / ؟ - نحو 791 م) : متنبيء : من قبيلة برغواطة (من المصامدة) من أهل تامسنا (بالمغرب الاقصى بين سلا و آسفي) كان أبوه من قادة الصفرية في المغرب ، وقيل : إنه تنبأ أيضا وهلك ، فتولى مكانه ابنه صالح ، وكان صالح في بداءة أمره من أهل الخير ، ثم انتحل دعوى النبوة سنة 127 ه.... وقد أنشأ كتابا سماه قرآنا في ثمانين سورة ، زعم أنه أوحي به إليه ، وكثر أتباعه ودامت دولته 47 عاما .

- الزركلي : الأعلام ، ج3 ، ص 192 .

وكما كان اسم حاميم المتنبيء مقتبسا من سورةالقرآن الكريم ، فكذلك صالح **<< وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ>>** [التحريم : 4] .

- د .أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص 250 .

[3] إبراهيم : 4 .

عربيّ اللسان مبعوث إلى قومه وإلى العرب خاصة ، وأنه صادق فيما أتى به من القرآن والأحكام ، وإياه أراد ا عز وجل بقوله : " **وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ**" ووعدهم غير كسوف فوجدوه ، وأنذرهم غير شيء فأدركوه وأصابوه على حكايته ، فأفسد عقولهم وبدل معارفهم ، وافترض عليهم طاعته في سنن ابتدعها وأحوال فرضها واخترعها ، وأوجب عليهم صوم شعبان وإفطار شهر رمضان ، وعمل لهم كلاما رتله بلغتهم وشرع فيه محابّه على نحلتهم فهم يتدارسونه ويعظمونه ويصلون به >>[1] .

أما عما جاء به في الناحية الاجتماعية وبالخصوص ما أقره من أحكام تخص المرأة فهو لا يختلف كثيرا عما جاء به المدعون الآخرون من أمور تسيء للمرأة وتزدريها فقد << أباح لهم أن يتزوج الرجل من النساء ما شاء ولا يتزوج من بنات عمه ، ويطلقون ، ويراجعون ألف مرة في اليوم فلا تحرم عليهم المرأة بشيء من ذلك >>[2] .

ويؤكد ذلك الباحث ألفرد بل مستغربا في ذات الوقت زعم هذا المتنبئ من أن تعاليمه مستوحاة من شريعة الإسلام ، والحقيقة أن مثل هذه " الشرائع" الباطلة إنما وضعت لتخدم مصالح معينة للمدعي بها ، وهي خارجة وبعيدة كل البعد عمّا دعا إليه الإسلام في ناحية تنظيم العلاقات الاجتماعية يقول : << أما عن قواعد القانون المدني والشخصي ، فإن ما نعرفه عنها يختلف كثيرا عما يناظرها في الشريعة الإسلامية ، فمثلا للمرء أن يتزوج أي عدد من النساء بدلا من أربع كما تقضي الشريعة الإسلامية ، وفي مقابل ذلك لا يحق له أن يتزوج بنت عمه ، وكذلك حرّم الزواج بين أتباع هذه الديانة رجالا ونساء وبين المسلمين رجالا ونساء ، وحرم التسري بينما التسري مباح في الإسلام .

وفي شريعة صالح هذه كان تطليق الزوج لزوجته مباحا ، ومراجعتها مباحة وكلاهما لأي عدد من المرات >> [3] .

ولعل هدف صالح من وضعه لهذه الشريعة وخاصة فيما يخص مراجعة النساء بعد تطليقهن دون الاحتكام للشريعة الحقة هو قطع الطريق على العرب حتى لا يحصلوا على

---

[1] أبو القاسم ابن حوقل النصيبي : صورة الأرض ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، 1979م ، ص 82

[2] السلاوي : الاستقصا ، ج1 : ص 97 .

[3] ألفرد بل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ، ص 178 .

نساء البربر ، وألا يحصل امتزاج وتداخل في النسب يضفي إلى تولي العرب قيادة البربر ثم إننا نعلم نقمة البربر على ولاة الأمويين بالمغرب الذين أساءوا السيرة [1] ، وخاصة في أمر امتهانهم لنساء البربر قصد الحصول على رضى الخليفة ، ذلك أن<< الخلفاء أيضا يستحبون طرائف المغرب ونساءه ويبعثون إلى عامل إفريقية بطلبهم ، فكان العامل يحرص كل الحرص على إرسال البربريات المسبيات >>[2].

يقول ابن عذارى : << كان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب ، ويبعثون فيها إلى عامل إفريقية ، فيبعثون لهم البربريات السِنيات ، فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب منّاهم بالكثير وتكلف لهم أو كلفوه أكثر مما كان ،فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة >> [3] .

وهذا ما أدى إلى نقمة البربر، فخرجوا قاصدين دمشق متجشمين عناء السفر لإبلاغ الخليفة هشام بن عبد الملك بالإهانة التي تلحقهم من جراء ذلك وكان مما قالوه لوزيره الأبرش بعد أن صعب عليهم لقاؤه : << إنهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا فقلنا : لم نجد هذا في كتاب ولا سنة ، نحن مسلمون فأحببنا أن نعلم : أعن رأي أمير المؤمنين ذلك أم لا ؟ >>[4] .

---

(1) لقد أساء عمال عبيد ا بن الحبحاب – والي المغرب من قبل هشام – السيرة مع البربر ، واعتبروهم فيئا للمسلمين وعبيدا لهم ، وكان أشد هؤلاء العمال ظلما واستبدادا عامله على طنجة عمر بن عبد ا المرادي الذي : <<أساء السيرة وتعدى في الصدقات والعشر، وأراد تخميس البربر ، وزعم أنهم فيء للمسلمين ، وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله وإنما كان الولاة يخمّسون من لم يجب للإسلام ، فكان فعله الذميم هذا سببا لنقض البلاد ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى كثير من القتل في العباد>> .

-ابن عذارى : البيان ، ج1 ، ص 51-52 .

-السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب الكبير ،العصر الإسلامي : دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، 1981 ، ج2 ، ص 299-300 .

(2) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب الكبير ، ج 2 : ص 299 -300 .

(3) ابن عذارى : البيان المغرب، ج 1 ، ص 52 .

(4) أبو جعفر محمد بن جريرالطبري : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط5 ، 1993م ، ج7، ص 184 .

ولكن على الرغم من التبريرات التي سقناها ، فلم يكن لهذا الخارجي أن يمتهن المرأة بهذه الطريقة التي لا تقل بؤسا عن طرق امتهان الروم والوندال، ولعل سبب هزائم هؤلاء الخارجيين أنهم كانوا يستبيحون أي محظور في سبيل بلوغ مآربهم ولذلك لم تنجح دعوتهم رغم ما عرف عنهم من استماتة في القتال والدفاع عن مبادئهم لآخر رمق[1].

ولابد أن نشير هنا إلى وعي المرأة بتأثير الأحداث السياسية عليها وعلى قومها ، فنراها

---

[1] يقول الإمام محمد أبو زهرة : <<ولم تكن الحماسة والتمسك بظاهر الألفاظ وحدهما ما امتاز به الخوارج ، بل هناك صفات أخرى منها حب الفداء والرغبة في الموت والاستهداف للمخاطر من غير داع قوي يدفع إلى ذلك .. والسبب في هذا فيما أعتقد أن الخوارج كان أكثرهم من عرب البادية ، وقليل منهم كان من عرب القرى ، وهؤلاء كانوا في فقر شديد قبل الإسلام ، ولما جاء الإسلام لم تزد حالتهم المادية تحسنا ، لأنهما استمروا في باديتهم بلأوائها وشدتها وصعوبة الحياة فيها ، وأصاب الإسلام شغاف قلوبهم مع سذاجة في التفكير وضيق في التصور وبعد عن العلوم ، فتكون من مجموع ذلك نفوس مؤمنة متعصبة لضيق نطاق العقول ، ومتهورة مندفعة لأنها نابعة من الصحراء>> .

- محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية ، ص 59-61 .

ويمكن أن نقرأ بوضوح تأثير الخوارج العرب في البربر ، أو تأثير البيئة الصعبة التي نشأ فيها البربري (الجبال) والتي جعلته يحمل لواء الخارجية تماما كما كانت الصحراء العربية دافعا لنظرائهم العرب، ونورد هنا جزءا من خطبة لأبي حمزة الخارجي في وصف أصحابه حتى تتبين مدى المزاوجة بين زهدهم وتدينهم مع فتكهم وجرأتهم :<< شباب وا مكتهلون في شبابهم غبية [غضيضة] عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ... ينظر ا إليهم في جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن .. قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم ، وأنوفهم وجباههم ، واستقلوا ذلك في جنب ا حتى إذا رأوا السهام قد فوقت ، والرماح قد أشرعت ، والسيوف قد انتضيت ... استخفوا بوعيد الكتيبة لوعد ا ، ومضى الشاب منهم قدما حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه ، فأسرعت إليه سباع الأرض وانحطت عليه طير السماء فكم من عين في منقار طائر طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف ا >>.

-أبو عثمان عمر بن الجاحظ : البيان والتبيين ، تحقيق وشرح : د . عبد السلام محمد هارون ، د ط . دار الفكر ، بيروت ،لبنان .ج2 ، ص 125 .

ولنتأمل أبيات قطري بن الفجاءة الخارجي وهو يحدث نفسه بالثبات في ميدان الوغى : [من الوافر] :

أَقُولُ لَهَا وَقَدْ طَارَتْ شَعَاعًـا ... مِنَ الأَبْطَالِ وَيْحَـكِ لَنْ تَرَاعِي

فَإِنكِ لَوْ سَأَلْـتِ بَقَاءَ يَـوْمٍ ... عَلَى الأَجَلِ الَّذِي لَكِ لَنْ تُطَاعِي

فَصَبْرًا فِي مَجَالِ المَوْتِ صَبْرًا ... فَمَا نَيْلُ الخُلُودِ بِمُسْتَطَـــاعِ

وَلَا ثَوْبُ البَقَاءِ بِثَوْبِ عِــزّ ... فَيُطْوَى عَنْ أَخِي الخَنَعِ اليَرَاعِ

سَبِيلُ المَوْتِ غَايَةُ كُلّ حَـيّ ... فَدَاعِيهِ لِأَهْــلِ الحَــيّ دَاعِ

- أبو زكريا يحي بن علي التبريزي : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ،دار الكتب، بيروت، لبنان، د ت ط ،ج1، ص 50.

تشحن عزائم الرجال وتشد على أزرهم لأن انتصارهم يعني سلامتها ودوام عزها ومنعتها وانهزامهم يجر عليها ويلات الترمل والسبي وتجرع كؤوس المهانة والذل .

وهنا يحدثنا التاريخ عن مواقف خالدة للمرأة ، ومساهمتها الفعالة في تغيير مجريات الوقائع الحربية والأحداث السياسية وذلك حين انتقال الفرق الإسلامية من المشرق إلى بلاد المغرب عقب اضطهاد الأمويين لأتباعها وبروز " الصفرية " – وهم من غلاة الخوارج – الذين أذكوا نيران الحروب والفتن في غير موضع ببلاد المغرب على عهد هشام بن عبد الملك [1] ، يقول شوقي ضيف : << ويولي هشام على إفريقية حنظلة بن صفوان الكلبي [سنة 124 ه/ 741 م] ويقدم إلى القيروان ، وسرعان ما يستنفر الصفرية لحربه قائدان صفريان : عربي هو عكاشة بن محصن ، وبربري عبد الواحد بن يزيد الهواري ، وكانا قد اجتمعا بالزاب في الجزائر واتفقا على أن يسير عكاشة مع جيشه في السهول شمالي جبال الأوراس ليهاجم القيروان من الجنوب ، ويسير عبد الواحد من ناحية قسنطينة ليهاجم القيروان من الشمال ، وعرف حنظلة خطتهما ، فأسرع بلقاء عكاشة وهزمه هزيمة ساحقة ، وتقدم عبد الواحد إلى القيروان ، فاستثار حنظلة فقهاءها فخرجوا مع جيشه لمنازلته وخرج معهم نساء القيروان حاملات للسلاح مستبسلات للموت مع الجيش فامتلأ الرجال حمية ودارت الدوائر على عبد الواحد وجيشه من الصفرية ، وحمل رأسه إلى حنظلة فخر ساجدا >>[2] .

ومن المعلوم أن الصفرية كانوا يستحلون المحارم لذلك << قام العلماء بدور كبير في حث أهل القيروان على الجهاد وقتال الخوارج ، وذكروهم بما يفعلونه بالنساء من السبي

---

[1] **هشام بن عبد الملك :** عاشر الخلفاء الأمويون: ولي بين سنوات 105-125 ه / 724 -743 م ، ولي في شهر شعبان سنة 105 ه في اليوم الذي مات فيه أخوه يزيد ، وبقي في الخلافة إلى أن توفي بالرصافة من أرض قنسرين في شهر ربيع الآخر سنة 125 ه ، كان غزير العقل حليما عفيفا ، اشتهر بالتدبير وحسن السياسة ، وكان ابو جعفر المنصور – الخليفة العباسي – يقتدي بهشام في أكثر أموره ومن إصلاحاته اهتمامه بتعمير الأرض وتقوية الثغور ، وحفر القنوات والبرك في طريق مكة ، ومما يؤخذ عليه إمعانه في الانتقام من العلويين والتنكيل بهم .

د. حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، ج 1 ، ص 271-272 .

[2] د. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، عصر الدول والإمارات ، ج 9 ، ص 119 ، و ج 10 ، ص 27-28 .

وبالأبناء من الاسترقاق ، وبالرجال من القتل ، فكسر الرجال أجفان سيوفهم ، وخرجت النساء تحث الرجال على الصمود في ميدان القتال >>[1] .

غير أنه يوجد اختلاف كبير بين مبادئ وآراء الصفرية في المشرق عن نظرائهم في بلاد المغرب ، إذ أن الصفرية ببلاد المشرق<< كانوا أقل تطرفا من الأزارقة ، وأشد من غيرهم ... وهذه الفرقة لا ترى إباحة دماء المسلمين ، ولا ترى أن دار المخالفين دار حرب ، ولا ترى جواز سبي النساء والذرية ، بل لا ترى قتال أحد غير معسكر السلطان>>[2] .

ويمكن القول بإمكانية وقوع خلط في وصف خوارج المغرب بالصفرية طالما أنهم لا يحملون مبادئ غلاة الخوارج من الأزارقة الذين يرون << دار المخالفين دار حرب يستباح فيها ما يستباح في قتال الكفار من نهب أموالهم وسبي الأولاد والنساء >>[3] .

أو أن شدة ما لقيه الخوارج ببلاد المشرق على أيدي الولاة والخلفاء الأمويين جعلهم يتشددون في أحكامهم وينقلون صراعا أكثر دموية إلى بلاد المغرب<< ذلك أن الصراع العنيف في المشرق بين الخوارج وبني أمية ، وبين هؤلاء والزبيريين ، ثم بين القيسية واليمنية ، كان يقذف إلى الولايات بجماعات بعد جماعات من المنهزمين ... وهؤلاء جميعا كانوا ينتشرون بين الناس في الولايات ويعملون على تحريضهم على الثورة على بني أمية .

وقد وصل إلى المغرب جماعات من الأزارقة الذين دعوا إلى إعلان الحرب على الدولة الإسلامية العامة والخاضعين لها جميعا ، وكذلك وصل دعاة من الصفرية والإباضية ، وبعد أن قضى بنو أمية على ثورة أهل الحجاز على الحكم الأموي الشامي في وقعة الحرة سنة 63هـ / 682 م هاجرت جماعات كبيرة من أهل الحجاز والأنصار خاصة إلى المغرب والأندلس ... وكان من بين المهاجرين دعاة سياسيون كثيرون يشاركون البربر تفكيرهم ويؤيدون مطالبهم ، فرحب بهم هؤلاء ، واندسوا بين قبائل البربر يؤلبون الناس ويدعون إلى الثورة على بني أمية ... فتهيأت في بعض أوساط القبائل البربرية أجواء

---

[1] د. عبد الحميد حسين حمودة : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، ص 143 .

[2] محمد ابو زهرة : تاريخ المذاهب الاسلامية : ص 74 .

[3] المرجع نفسه : ص 72 .

ملائمة للثورة ، وكان من الطبيعي أن تظهر بوادرها بين أهل الجبال ، فنجد طلائع الثورة البربرية تظهر في جبال الريف المتاخمة لطنجة وسبتة ... وامتدت في المناطق الجبلية الموازية لساحل المحيط الأطلسي >>[1] .

ومن هنا نرى أن سكان المغرب كانوا متأثرين أو خاضعين- في أغلب الأحيان- لتيارات سياسية مختلفة ومتضاربة ، وربما كان بعض البربر يطمعون في استرداد أرضهم عبر إضعاف الفريقين المتنافسين على أرض المغرب ونقصد بهما أنصار بني أمية ومعارضيهم من الخوارج وغيرهم ، ويقدم الباحث الفرنسي ألفرد بل "Alfred Bel " تصورا دقيقا عن واقع الحياة في المغرب وطريقة تفكير البربري والعوامل التي أدت إلى اعتناقه مبادئ الخارجية ، يقول – موردا آراء العالم الهولندي رينهرت دوزي RENHIRT DOZY في كتابه " تاريخ المسلمين في إسبانيا " حول هذا الموضوع:<< لقد اعتنق سكان شمال إفريقية كل شيء بحماسة لا يبلغ مداها التعبير، كانوا بسطاء جهلاء ، فلم يفهموا شيئا من التأملات النظرية والتدقيقات العقائدية التي استمرأها المثقفون ، ومن العبث إذا أن نبحث عن الفرقة التي فضلوا الانضمام إليها : الحرورية، أو الصفرية، أو الإباضية لأن الإخباريين مختلفون في هذه المسألة، لكنهم فهموا قدرا من مذاهب هؤلاء يكفي لاعتناقهم آراءهم الثورية والديمقراطية، ومشاركتهم آمالهم الخيالية في المساواة الكلية بين الناس... ، ولهذا لم يكن إثما الخروج على المستبد الذي سلبهم أموالهم ونساءهم، بل كانت الثورة عليه حقا وواجبا >>[2] .

وبذلك نرى امتزاج الدم الخارجي الثائر بالدم البربري الثوري ، ولا غرابة في أن نرى جهود البربر والخوارج تتوحد لتقويض أركان الولاية الأموية الناشئة ببلاد المغرب ، وخير دليل غير ذلك ما أوردناه سابقا من هجوم الخارجية على القيروان بزعامة قائدين أحدهما عربي والآخر بربري وهذا ما أكده السلاوي فمبادئ الخوارج تتلاءم مع الطباع الفطرية لبعض سكان المغرب وتتماشى مع نزعتهم الثورية وهذا ما جعل المغرب دائم

---

[1] د. حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، ج 1 ، ص 144 .

[2] ألفرد بل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ، ص 146 .

نقلا عن : رينهرت دوزي : تاريخ المسلمين في إسبانيا ، ج1 ، ص149 .

الاضطراب لا تخمد فيه ثورة إلا وتشتعل أخرى[1] ، يقول : << وحسن موقعها لديهم [أي مبادئ الخوارج بالنسبة لسكان المغرب] بسبب ما كانوا يعانون من وطأة الخلافة القرشية وجور بعض عمالها فلقنهم أهل البدع [أي الخوارج] أن الخلافة لا يشترط فيها القرشية ودسوا إليهم بعض تشديدات الخوارج وتعمقاتهم ، وأروهم ما هم عليه أنما هو من أثر الخشية >> [2].

وعلى الرغم من هذه الآراء المتجاذبة بين الدارسين والمؤرخين حول من تقع عليه مسؤولية إهانة المرأة والدوافع التي أدت بمختلف الأطراف إلى الإمعان في الإساءة إليها حتى حين يظن أن في ذلك حماية لها كما فعل صالح بن طريف البرغواطي << فإن هؤلاء البرغواطيين كانوا في نظر المسلمين مجوسا منحرفين مارقين عن الدين الحنيف ، ولهذا فرضوا قتالهم واستحلوا دماءهم ، وتجمع المصادر التاريخية على أن جميع الملوك والحكام الذين تداولوا حكم المغرب قبل مجيء المرابطين ...قد جاهدوا برغواطة وأنزلوا بها هزائم منكرة وخسائر فادحة حتى أنه ليخيل إلى القارئ أنه قد قضي عليها تماما ، ولكننا مع ذلك نجد أن برغواطة ظلت باقية مستقلة بل كان خطرها يزداد بشدة ، وحدودها تزداد اتساعا على حساب المسلمين المجاورين لها ... >> [3] .

---

[1] وهذا ما جعل المسعودي يقول : << وأما المغرب فيقسي القلب ، ويوحش الطبع ، ويطيش اللب ، ويذهب الرحمة ، ويكسب الشجاعة ، ويقشع الضراعة ، وفي أهله غدر ، ولهم خبث ومكر ، ديارهم مختلفة ، وهممهم غير مؤتلفة ، ولديارهم في آخر الزمان نبأ عظيم ، وخطب جسيم ، من أمر يظهر وأحوال تبهر >> .

- أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، شرح وتقديم : مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، د ت ، ج2 ، ص 68 .

[2] السلاوي : الاستقصا ، ج1 ، ص 123 .

[3] أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص 251 .

ولا يكاد المغرب الإسلامي يعرف الاستقرار حتى بحلول القرن الرابع للهجرة ، وكانت الدويلات الناشئة ضعيفة في مواجهة الثوار البربر الحاملين لفكر الخوارج ، وحتى حينما جاء الفاطميون [1] ، كان لزاما عليهم القضاء على قوى الخارجية والثورات التي لا تهدأ

---

[1] **الفاطميون** : بدأت الدعوة الفاطمية ببلاد المغرب عندما عهد إلى أبي عبد ا الشيعي بنشر الدعوة الإسماعيلية فيه فخرج إلى مكة والتقى هناك ببعض رؤساء كتامة << ولم يزل يشجعهم ويؤلبهم بما أوتي من فضل اللسان وعلم الجدل إلى أن سلبهم عقولهم بسحر بيانه >> ، (ابن عذارى : البيان المغرب ، ج1 ، ص 135) ، ثم سألوه عن مقصده ، فادعى أنه يريد مصر ليعلم بها ، فدعوه إلى بلادهم للقيام بهذه المهمة ، ونزل ببلاد كتامة في منتصف ربيع الأول سنة 280 هـ / 893 م وأخذ يضع لهم التنبؤات بظهور المهدي ، وكثر الداخلون في دعوته من البربر .. ثم شرع سنة 289 هـ / 901 م في مصادماته الحربية مع الأغالبة ، وتغلب عليهم في موقعة كينونة سنة 292 هـ / 903 م ثم دخل مدينة رقادة سنة 296 هـ / 909 م وسقطت الدولة الأغلبية باستيلائه على القيروان ، وكان قبل ذلك قد كتب إلى عبيد ا المهدي بسالمية بأرض حمص يخبره بما فتح ا عليه ، فقدم هذا الأخير إلى القيروان وأعلن نفسه خليفة يوم الخميس 20 ربيع الأول 297 هـ / 8 ديسمبر 910 م (حسين مؤنس : تأريخ المغرب ، ج 1 ، ص 475) .

ثم إن أهل المغرب خاب أملهم في المهدي نظرا للبدع الدينية التي استحدثها (وجوب عصمة الإمام وتقديسه) وتجريحه لكبار الصحابة وأئمة الإسلام والطعن فيهم ، بالإضافة إلى الشطط في جمع الضرائب وسخطهم عليه بعد قتله لداعيته أبي عبيد ا الشيعي ، ولما أحس عبيد ا بنفور أهل المغرب منه ، عزم على مد نفوذه إلى مصر والأندلس بعد أن أيقن أن بلاد المغرب لا تصلح أن تكون مركزا لدولته ، ولكن الموت عاجله سنة 322 ه ليضطلع القائم بأمر ا بمهمة بسط النفوذ والسلطة ولكن أيامه كانت سجالا على الثائر أبي يزيد مخلد بن كيداد ثم انهزم هذا الأخير أمام أبي الطاهر إسماعيل الملقب بالمنصور ، ولما تولى أبوتميم معد الملقب بالمعز لدين ا الفاطمي الخلافة الفاطمية سنة 341 هـ /935 قمع الثورات بواسطة قائديه جوهر الصقلي وزيري بن مناد ، وعزم على فتح مصر ، فأرسل جوهرا على رأس جيش عدته مائة ألف مقاتل سنة 358 هـ / 969 م ، ودخل الفسطاط سنة 361 هـ/ 972 م ثم انتقل المعز إليها ودخل القاهرة سنة 362 هـ / 973 م .

وكان قد ولى بلكين بن زيري أمر إفريقية والمغرب ، وبقيت العلاقة بين الدولة الصنهاجية والدولة الفاطمية قائمة على الولاء إلى أن تولى المعز بن باديس سنة 406 هـ / 1016 م ، هذا الأخير أعلن عودته إلى المذهب السني المالكي ثم قطع الدعوة لهم على المنابر وأعلن خروجه عنهم سنة 440ه / 1050 م ، وبولاية المستنصر الفاطمي حدثت الهجرة الأعرابية بإيعاز من الوزير اليازوري سنة 443 هـ / 1051 م ، وتغلب الأعراب على المعز فانتقل إلى المهدية سنة 449 هـ / 1057 م ثم أخذ نجم الدولة الفاطمية يأفل بوفاة الحاكم بأمر ا سنة 411 ه وتولى بعده خلفاء مستهترون وانتهت الدولة الفاطمية بظهور صلاح الدين الأيوبي الذي وضع حدا لها ، وخلع آخر الخلفاء الفاطميين سنة 576 هـ / 1171 م بعد أن دامت حكومتهم بإفريقية ومصر أكثر من قرنين ونصف قرن .

- د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب الكبير ، ج2 ، ص 593 وما بعدها .
- د.حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، ج1 ، ص 473 وبعد .

هنا وهناك ، والمرأة لم تكن بعيدة عن تأثير تلك الحروب والنزاعات ، فقد كانت مأساتها تشتد بتجدد تلك الثورات .

وتتكرر المأساة نفسها مع المرأة حين ظهرت ثورة مخلد بن كيداد [1] النكاري [2] << فقد أخذ نفسه بالحسبة على الناس وتغيير المنكر سنة 316 هـ ، فكثر أتباعه، ولما مات المهدي الفاطمي سنة 322 هـ ، خرج بناحية جبل أوراس وتلقب بشيخ المؤمنين ، وقاتلته عساكر القائم بأمر ا صاحب المغرب وعظم أمره ، فزحف إلى رقادة في مائتي ألف مقاتل وامتلكها ، وخضعت له القيروان سنة 333 هـ ، وأرسل أحد قواده إلى سوسة فاستباحها ، وحاصر القائم في عاصمته المهدية وجاع أهلها حتى أكلوا الميتات والدواب ، ثم بدأت هزائمه بانتقاض بعض البربر عليه ، فرجع إلى القيروان سنة 334 هـ وغنم أهل المهدية معسكره ، وتوالت المعارك وانتفضت عليه سوسة فعاد إلى حصارها ، و مات القائم وتولى ابنه المنصور فأخفى موت أبيه وخرج من المهدية ، فالتقى بمخلد على سوسة فكانت الحرب سجالا ، ثم انهزم مخلد وقتل من أصحابه خلق كبير ، وتعقبه المنصور في جبال وأوعار ومضايق ، وكلما أدركه ثبت له مخلد قليلا وانهزم إلى أن حوصر في قلعة كتامة ، واستأمن الذين معه فأمنهم المنصور ، و دخل القلعة عنوة وأضرمها نارا فحمل مخلد على أصحاب المنصور حملة منكرة فأفرجوا له وخرج أمر المنصور بطلبه فألفوه جريحا قد حمله ثلاثة من أصحابه فجاءوا به إلى المنصور فمات من جراحه بعد أسره بأربعة أيام >> [3] .

---

[1] **مخلد بن كيداد** (؟- 336 هـ / ؟ - 947 م) : مخلد بن كيداد بن سعد ا بن مغيث الزناتي النكاري ، أبو يزيد، ثائر من زعماء الإباضية وأئمتهم ، بربري الأصل ، كان يغلب عليه الزهد والتقشف ، ويلبس جبة صوف ضيقة الكمين ولد ونشأ بقسطيلة وكانت تابعة لتوزر .. وخالط النكارية (بتشديد الكاف) وهم من الصفرية ، وسافر إلى تاهرت فكان معلما للصبيان فيها ، وانتقل إلى تقيوس ، مات متـأثرا بجراحه سنة 336 هـ .

- الزركلي : الأعلام ، ج7 ، ص 194

[2] **النكارية** : من النكر أو النكر : وهو الأمر الشديد ، والنكارة ، الدهاء

- ابن منظور : لسان العرب : ج 14 ، ص 269 .

ولم يذكر البلخي هذه الفرقة بين الواحد والعشرين فرقة التي أوردها .

- أبو زيد أحمد بن سهل البلخي : كتاب البدء والتاريخ ، ص 182 .

وكل ما نعلمه أنها فرقة من الصفرية .

[3] ابن خلدون : العبر ، ج4 ، ص 40 .

ويذكر شوقي ضيف نقلا عن عديد المؤرخين أن هذا الخارجي كان يبيح لعسكره كل المحظورات حتى يضمن ولاءهم وعدم تخليهم عن معاركه التي لا تكاد تهدأ وبالطبع فقد كان نهب البلاد وسبي النساء أول تلك الأمور المباحة لذلك فقد عانت المرأة كثيرا من حروب لا تنتهي إلا باسترقاقها وإذلالها ، يقول : << كان يبيح لجيشه نهب البلاد وحرقها وسبي النساء وقتل الأطفال ، مما يؤكد أنه لم يكن إباضي العقيدة كما يذكر المؤرخون ، إذ الإباضية لا يستحلون شيئا من ذلك كله ، ومن أجل ذلك نرى أنه كان على مذهب الصفرية من الخوارج لا الإباضية ، ويبدو أنه قرأ على الخوارج الأزارقة المتطرفين الذين كانوا يستحلون سبي النساء وقتل الأطفال فاقتدى بهم وبئس القدوة >> [1] .

---

[1] د. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، ج 10 ، ص 33 .

المرأة والجهاد :

- أم حرام :

ونجد المرأة في الصفوف الأولى لجيوش الفتح بغية الجهاد في سبيل ا ، وبغض النظر عن دورها في الصفوف الخلفية للجيش حيث تقوم بمداواة الجرحى وإعداد الطعام ... ، فإن منهن من عرفن بالإقدام في ميدان القتال ونجد أم حرام[1]من أبرز النساء اللواتي ذكرن في هذا الموضوع ، فقد سارت مع جيوش العرب لفتح المغرب ، وخاضت معهم البحر لفتح قبرص ، يقول ابن خلدون عن هذه الغزوة التي شاركت فيها هذه الصحابية :

<< ثم ألح معاوية على عثمان في غزو البحر فأجابه على خيار الناس وطوعهم ، فاختار الغزو جماعة من الصحابة فيهم أبو ذر و أبو الدرداء ، وشداد بن أوس وعبادة بن الصامت وزوجه أم حرام بنت ملحان ، واستعمل عليهم عبد ا بن قيس حليف بني فزارة وساروا إلى قبرص ، وجاء عبد ا بن أبي سرح [2] من مصر فاجتمعوا عليها وصالحهم أهلها على سبعة آلاف دينار بكل سنة ... وكانت هذه الغزوة سنة ثمان وعشرين وقيل تسعة وعشرين وقيل ثلاثة وثلاثين ، ماتت فيها أم حرام ، سقطت عن دابتها حين خرجت من البحر ، وكان النبي -صلى ا عليه وسلم – أخبرها بذلك >>[3] .

ولا شك أن هناك نساء مغربيات شاركن في الفتوح ولم تذكرهن المصادر التاريخية ، هذه الأخيرة اقتصرت – في مجملها- على تتبع حركة النساء المشرقيات نحو بلاد المغرب

---

[1]**أم حرام** : (؟-27 هـ/ ؟ -647 م) : أم حرام بنت ملحان بن خالد بن يزيد النجارية الأنصارية ، صحابية ، كانت تخرج مع الغزاة وتشهد الوقائع ، وحضرت فتح قبرص فسقطت عن بغلتها ، فاندق عنقها فماتت ، ودفنت في الجزيرة ، قال الزبيدي : << ولها مقام عظيم بظاهر الجزيرة ، اجتزت بها في البحر عند توجهي إلى بيت المقدس، وأخبرت أن على مقامها أوقافا هائلة وخدما ، وينقلون لها كرامات>> ،وقالت جريدة البلاد : قبرها معروف إلى الآن في جزيرة قبرص باسم : قبر المرأة الصالحة .

- الزركلي :الأعلام، ج2 ، ص 172 .

[2] **ابن أبي سرح** : (؟ - 37 هـ /؟-657 م) عبد ا بن سعد بن أبي سرح القرشي ، العامري ، من بني عامر، من أبطال الصحابة وكان من كتاب الوحي للنبي- صلى ا عليه وسلم -وكان على ميمنة عمرو بن العاص حين افتتح مصر، وولي مصر سنة 25 هـ بعد عمرو بن العاص ، غزا الروم بحرا ، وظفر بهم في معركة ذات الصواري سنة 34 هـ ، وقفل إلى المشرق راجعا ومات بعسقلان فجأة وهو قائم يصلي .

- المرجع نفسه : ج4 ، ص 88-89 .

[3] ابن خلدون : تاريخه ، ج4 ، ص1008 .

كما هو الحال بالنسبة لأم حرام ، وأغفلت بالمقابل ذكر النساء المغربيات اللائي قمن بدور جبار – ولا شك– في تلك المرحلة ، ونحن هنا أوردنا شخصية نسوية مشرقية على الرغم من التزامنا بتتبع الحركة النسوية المغربية – التي هي موضوعنا الأساس – وذلك لأننا لا نؤمن كثيرا بالتمايز الجغرافي الذي يحرص الكثيرون على التدقيق فيه وهم على جهل بأسباب وجوده ، فتقسيم الباحثين والمؤرخين للأدباء والأعلام والقادة إلى مشرقي أو مغربي أو أندلسي أو نوبي (حبشي) لا يراد من ورائه إلا تتبع نسبه وموطن نشأته وبالتالي نسبته إليها لتسهيل مهمة التعرف عليه مباشرة كأن يقال: المراكشي ، القيرواني الحموي ، المقري ، البغدادي ...

أما حين يراد تصنيف الأديب أو الفقيه أو العالم على أساس تأثير البيئة والمكان الذي عاش فيه (والذي لا يكون بالضرورة المكان الذي ولد فيه) على أدبه أو فقهه فإن الحواجز الجغرافية تسقط ولا يعترف التاريخ إلا بالمكان الذي احتضن الأديب أو لجأ إليه وأبدع فيه شعره أو نثره و إلا لما نسب الباحثون ابن رشيق إلى القيروان بتونس وهو في الأصل جزائري ولد "بالمسيلة " ، أو أن يدرس النقاد والباحثون شعر ابن هانئ على أنه جزء من الشعر المغربي وهو في الأصل أندلسي ولد " بإشبيلية " .

وعلى هذا النحو إذا نظرنا لشخصية أم حرام أمكن القول أنها امرأة مغربية على الرغم من أصولها المشرقية ذلك أنها مكثت بأرض مصر والمغرب زمنا طويلا ليس بالقليل خاصة إذا علمنا بطء تحركات الجيوش في انتظار تجهيزها وتقويتها بالمدد الذي يلحق تباعا من المشرق، وهناك كانت لأم حرام الفرصة للاتصال بالنساء المغربيات والحديث إليهن ، وإفادتهن بما تعرفه وترويه عن النبي – صلى ا عليه وسلم – وتبصيرهن بفقه العبادات والمعاملات وما تجب على الزوجة اتجاه ربها ثم بعلها وأهلها، كل هذا قصد بعث الروح الإسلامية والنفحات الإيمانية في قلوبهن خاصة ونحن نعلم أنهن كن على جهالة عمياء لا يخرجن عن الكهانة وحياة لا كرامة فيها ووجود بدائي لا يعترف بالخصوصية، ولا يعرف حرمة ولا يصون عرضا ، ولم تكن أم حرام -على هذا القدر من الاتصال بالنسوة المغربيات - بمنأى عن أجواء الحروب والمشاركة الفعالة فيها ، وقد آثرت خوض البحر لإكمال الفتوحات ومشاركة الفاتحين العرب جهودهم ، والشد على

عزائمهم حتى يستتب الأمن في ربوع البلاد المفتوحة، وينبعث شعاع الحضارة الاسلامية ليعم تلك البقاع المظلمة .

المرأة والسياسة :

- كنزة البربرية :

ولا نمر بالدولة الإدريسية في المغرب الأقصى دون أن نذكر شخصية نسوية كان لها تأثيرها الكبير في الساحة السياسية ، إنها " كنزة " التي حملت في أحشائها وريث عرش

الأدارسة : (172 -375 هـ / 788 – 985 م) : نسبة إلى إدريس بن عبد ا بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب – رضي ا عنه – وقد كان فر بعد هزيمة العلويين أمام جيوش العباسيين في معركة " فخ " سنة 169 هـ / 786م وقت خلافة الهادي بن المهدي ، وألح بنو العباس في طلبه<<فخرج به مولاه راشد ، وكان عاقلا شجاعا .. .في جملة الحجاج ...بعد أن غير زيه ، وألبسه مدرعة وعمامة غليظة ، وصيره كالغلام يخدمه ، وإن أمره ونهاه أسرع في ذلك فسلما حتى دخلا مصر ليلا>> . (البكري : المغرب ، ص 118).

وعن طريق مصر استطاع إدريس ومولاه راشد الوصول إلى القيروان ، ثم إلى مدينة تلمسان ، ثم ارتحلا نحو بلاد طنجة ونزلا في مدينة وليلي سنة 172 هـ / 788 م ، وأخذا يدعوان لأمير علوي يحمل راية الإسلام ويخلص الناس من الظلم والزندقة ، فالتف حولهما الكثيرون ، وبعد قليل أصبح إدريس أمير وليلي وزعيم الجناح الغربي من قبيلة أوربة ، وبمعونة إسحاق بن عبد الحميد شيخ أوربة استطاع إدريس إخضاع القبائل حتى امتد سلطانه في أقل من عام من تلمسان إلى ريف تامسنا ، ومن طنجة إلى وادي أم ربيع ...

وقد تنبه بعدها الخليفة العباسي هارون الرشيد إلى خطر قيام الدعوة العلوية ، وأمام استحالة إرسال الجيوش إلى تلك البقاع القاصية ، قرر إرسال رجل يسمى سليمان بن جرير ويلقب بالشماخ لتسميم إدريس ، فحمل الشماخ السم ومضى إلى المغرب ودخل في خدمة إدريس ، ثم تحين الفرصة فدس له السم في هيئة طيب فدخل في خيشومه وانتهى إلى دماغه فمات من ذلك سنة 175 هـ / 791 م ،وكان قبل موته قد ترك جارية تدعى كنزة حاملا ، فقام مولاه راشد بالأمر إلى أن ولدت غلاما سموه إدريس ، ولما بلغ عشر سنين بويع بالإمارة سنة 186 هـ / 802 م ، بعدها قرر إدريس هذا " الثاني " نقل مركز الإدارة إلى مدينة جديدة اختطها وهي " فاس " فأصبحت عاصمة دولة الأدارسة منذ سنة 196 هـ / 811-812 م، وقد نشط لحرب الخوارج وبني الأغاب المتربصين بالإمارة ، وامتدت دولته من تلمسان إلى ساحل المحيط ، ومن طنجة وسبتة إلى إقليم السوس ،وتوفي سنة 213 هـ /828 م ،وتبلغ دولة الأدارسة ذروة مجدها بتولي يحيى بن القاسم سنة 292 هـ / 905 م ، ثم تبدأ مرحلة الضعف والانهيار بظهور الفاطميين سنة 296 هـ / 909 م ، وزلزالهم الذي امتد ليصدع بنيان الأدارسة في المغرب الأقصى ، حيث وجهوا بموسى بن أبي العافية لقتال الأدارسة فهزمهم ، وتشتت جمعهم بخروج يحي بن إدريس بن عمر من فاس سنة 310 هـ / 922 م ، إلى أن قضى المنصور بن أبي عامر صاحب الأندلس على دعوتهم نهائيا .

- ابن عذارى : البيان المغرب ، ج 1 ، ص 210 .
- البكري : المغرب ، ص 115 .
- السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب الكبير ، ج3 ، ص 465 .

الأدارسة بعد موت إدريس الأول مسموما سنة 175 هـ / 791 م ، وقد كانت "جارية بربرية" كما ذكر ابن عذارى [1] غير أن خلو الجو لها وحدها دون سائر الحرائر أو الإماء شجعها على التطلع لأمور الحكم فكانت الآمرة الناهية في القصر ، والذي يدل على دهائها وتبصرها بشؤون السياسة وخبايا الحكم ما أشارت به على حفيدها محمد بن إدريس الثاني من ضرورة تولية إخوته الحكم في المدن والقبائل المترامية التابعة لدولته ، ولا شك أن من وراء هذا الاقتراح الرامي إلى تقسيم الدولة وإقطاع كل منهم أرضا عدة أهداف يمكن حصرها فيما يلي :

1- ضمان عدم تناحر الإخوة ، وذلك أنهم إن بقوا في موضع واحد أي في مركز الإمارة أخذت العداوة بينهم كل مأخذ ، ورمق بعضهم بعضا بعين الحسد ولسان الوشاية ، وقد يقتل بعضهم بعضا ويفنون آخر الأمر في سبيل الظفر بمتاع أو شيء آخر ولا عجب في ذلك فقد قيل قديما " الملك عقيم " [2] .

2- ضمان دوام القيادة في بني إدريس ، فتظل أحداث المدائن والقرى على مرأى ومسمع من الأمير وهو في عاصمة دولته ، ذلك أنه لن يجد الأمانة الحقة في نقل خبر الولايات إلا في إخوته .

وقد لقي هذا الاقتراح من الجدة قبولا لدى الحفيد<< ففرق البلاد على إخوته بأمر جدته >>[3] .

وعلى الرغم من النية الصادقة والبصيرة النافذة اللتين دفعتا الجدة لطرح هذا الاقتراح وفي ذلك – كما ذكرنا – ضمان ألا تخرج الأمور من يد الإخوة المنفردين بالإقطاعات التي وجهوا إليها وحكموا فيها ، إلا أن هذا التقسيم<< كان خطوة خطرة نحو إضعاف الدولة ، لأن الإخوة مهما كان تضامنهم فإنهم لا يمكن أن يكونوا عمالا خاضعين تماما للسلطان المركزي ، بل كان من المتوقع أن يتمرد بعضهم على أخيه الإمام >> [4] .

---

[1] ابن عذارى : البيان المغرب ، ج1 ، ص 210 .

[2] هذا مثل عربي ، ويعني أنه إذا تنازع قوم في الملك انقطعت بينهم الأرحام فلم يبق فيه والد على ولده ، فصار كأنه عقيم لم يولد له .

- الميداني :مجمع الأمثال ، ج 2 ، ص 346 .

[3] ابن عذارى : البيان المغرب ، ج 1 ، ص 211 .

[4] د. حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، ج1 ، ص 387 .

وهذا الذي حدث فعلا حيث تمرد الإخوة في حديث طويل لا طائل هنا من ذكره ، وبالتالي كان التقسيم الذي أشارت به الجدة << بداية الضعف حيث دب الخلاف بين الأدارسة>>[1]

ولا يمكن أن يعزى سبب انهيار الدولة الإدريسية إلى رأي الجدة – كما قد يتبادر إلى أذهان البعض-، ذلك أنه لا ذنب لها في صراع الإخوة والأطماع التي تستهوويهم بما جعلهم يناصبون أخاهم وبعضهم البعض العداء ، فهي أرادت أن تبني لهم عزا شامخا ومجدا مؤثلا إلا أنهم أبوا إلا أن يتتبعوا سقطات بعضهم ، وأن يكونوا عبيدا لأهوائهم ومصالحهم الضيقة مما جعلهم- في نهاية المطاف – هدفا سهلا لسهام الأعداء التي لم تخطئ واحدا منهم .

وعلى كل ، يمكن القول أن هذه المرأة بعثت نفسا جديدا في جسد دولة أوشكت على الفناء ، وأحيت معالم كاد أن يعفو رسمها ، ثم إنها بعد ذلك<< كانت المرشدة والملهمة في تخطيط سياسة الدولة حتى في عهد أحفادها أبناء إدريس الثاني ، فكانت المثال الأعلى لنساء المغرب اللواتي تطلعن إلى تقليدها في تربية أبنائهن خاصة وأن كنزة كانت بربرية الأصل >> [2] .

---

[1] د. عبد الحميد حسين حمودة : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، ص 365 .

[2] د. سعدون عباس نصر ا : دولة الأدارسة في المغرب ، العصر الذهبي (182 -223 هـ / 788 – 835 م) ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1987 ، ص ، 136-137 .

- أم ملال :

وبظهور الدولة الزيرية [1]على ساحة الأحداث كانت المرأة قد تبوأت مكانة لا يستهان بها في قصر الإمارة ، وقد يعزى ذلك إلى أثر الفاطميين في الصنهاجيين بحيث جعلوهم يبجلون المرأة ويحفظون مكانتها وينقادون لرأيها خاصة إذا علمنا التقدير الذي حظيت به المرأة في البلاط الفاطمي [2].

---

[1] **الدولة الزيرية - الصنهاجية** – (362 -543 هـ / 973 – 1148 م) :

عقدت الولاية لأول الأمراء الصنهاجيين يوسف (بلكين) بن زيري بن مناد (358 -374 ه / 968 – 984 م) على إفريقية من قبل الخليفة الفاطمي المعز لدين الله ، وأصبح بذلك أول رئيس إمارة في المغرب الإسلامي من أصول مغربية بربرية ، وأضحى سيد إفريقية والمغرب الأوسط ، وقد كان الفاطميون يستعينون به للقضاء على الثورات التي نشأت هنا وهناك نظرا لموقعه من قبيلة صنهاجة المستقرة بشرق المغرب الأوسط .

وقد حكم في هذه الدولة ثمانية أمراء أشهرهم المعز بن باديس (406 -453 هـ / 1016 -1161 م) الذي أعلن الانفصال عن الفاطميين بقطع الدعوة لهم على المنابر وعودته بأهل المغرب لاتباع المذهب المالكي السني سنة 440 ه / 1048 م ، وهو ما أدى بالفاطميين إلى تحريض الأعراب على غزو المغرب وتخريبه وكان ذلك أهم أسباب زوال الدولة الزيرية التي انتقلت عاصمتها – على إثر ذاك – إلى المهدية سنة 449 ه / 1057 م ، ثم دخول تميم بن المعز في حروب مع الناصر بن علناس صاحب القلعة ومع النورمان المتربصين به أيضا ، لتنتهي دولة بني زيري بالهجوم النورماني الحاسم على المهدية واقتحامهم لها سنة 543 ه / 1148 م على عهد آخر الأمراء الزيريين الحسن بن علي .

- ابن عذارى : البيان المغرب ، ج1 ، ص 228 .

- د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب الكبير، ج2 ، ص641 .

[2] خير مثال على ذلك تمتع " ست الملك " أخت الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله في مصر بمنزلة خاصة في دار الملك أما إجلال الشيعة عامة للمرأة فقديم ، ويظهر أنهم كانوا يقتدون بالحسن والحسين ابني علي – كرم الله وجهه – في إجلالهما لفاطمة بنت رسول الله –صلى الله عليه وسلم - ، وكأنما سن أئمة الشيعة شريعة تقضي بحضور المرأة ومشاركتها في الحكم والنظر في شؤون الدولة كما كانت فاطمة توجه ولديها ، ثم إن الشيعة تأثروا كثيرا حينما سيقت بنات الحسين سبايا ليزيد بن معاوية بعد مقتل الحسين بكربلاء ، فكانت عاطفتا " الإجلال " و " الشفقة " هي ما يدفع الفاطميين لإكبار المرأة ، ونجد ما يدعم هذا الرأي في الرسالة التي وجهها محمد بن عبد الله الملقب "بالنفس الزكية" إلى أبي جعفر المنصور لا مجال هنا لذكرها .

- د. عز الدين إسماعيل : في الشعر العباسي ، الرؤية والفن ، المكتبة الأكاديمية ، القاهرة ،مصر ، ط2 ، 1994 ، ص 39 -40-41 .

ومن النساء اللائي خصصن بمنزلة رفيعة في البلاط الزيري السيدة أم ملال [1] والتي عظم شأنها إلى الحد الذي تولت فيه شؤون الحكم بالإمارة في غياب أخيها نصير الدولة باديس بن أبي الفتح المنصور ، هذا الأخير الذي رحل عن القيروان لحرب حماد صاحب القلعة وجموع الزناتيين ، وكان قبل ذهابه قد <<أخرج عياله و أثقاله وأخته السيدة أم ملال وأولاده وعبيده إلى المهدية >>[2] .

ويبدو أن الأمير نصير الدولة لم يكن يثق إلا في أخته ، فقد كان يراسلها – وهو في أطراف البلاد – ليطمئن منها على أحوال الإمارة ، ومما يلاحظ أن هذه الخدمة تعد من خالص عمل الوزراء والحجاب الذين يستعملهم الملك أو الأمير ، إلا أن الظروف التي مرت بنصير الدولة وخيانة المقربين له [3] جعلته لا يثق بأحد منهم أو من الذين خلفهم بالمهدية .

وهكذا نجد أم ملال تحكم نيابة عن أخيها ، ويكون هذا قد أثار حفيظة رجال الدولة الذين ما فتئوا يكيدون لها لدى الأمير من دون جدوى ، ومن دون أن يغير ذلك في نفس الأمير شيئا نحوها ، لأن ثقته فيها ليست من باب تفضيل القرابة بل كان بفضل الدهاء الذي حازته وحسن التدبير لشؤون الحكم الذي عرفت به، لهذا << أشركها أخوها في تدبير أمره، وانتصح برأيها في سياسة الدولة >>[4] .

---

[1] **أم ملال** : (؟ - 414 هـ / ؟ - 1023 م) : السيدة بنت المنصور بن يوسف الصنهاجي ، أميرة حازمة تولت الملك بالوصاية ، ولدت بقصر المنصورية –على ميل من القيروان – ونشأت في كنف أبيها صاحب إفريقية ، ثم كانت عونا لأخيها نصير الدولة " باديس " بعد وفاة أبيهما واشتركت معه في تدبير الأمور ، وكانت أيامه مملوءة بالثورات والفتن الداخلية فاشتغل بالحروب وجعل لها الإشراف على أعمال الدولة ، ومات باديس سنة 406 ه وخلفه على الإمارة ابنه المعز وهو لم يبلغ التاسعة من عمره ، فأجمع كبراء صنهاجة على إقامتها وصية عليه إلى أن يبلغ سن الرشد ، وتولت تدبير المملكة وحمدت سيرتها ، وليس في تاريخ إفريقية امرأة مسلمة حكمتها غير أم ملال ، واستمرت على ذلك إلى أن توفيت، ورثاها شعراء البلاط وكانوا أكثر من مائة شاعر، ودفنت في المهدية ثم نقلت إلى مقبرة أمراء صنهاجة في المنستير المعروفة "بمقبرة السيدة " نسبة إليها.

- الزركلي : الأعلام ، ج3 ، ص 148 -149 .

[2] ابن عذارى : البيان المغرب ، ج1 ، ص 262 .

[3] من مثل يوسف بن أبي حبوس وإخوته الذين خصهم هو بالهدايا والإقطاعات وجعلهم من خاصته وندمائه ، لكنهم كانوا يدبرون لقتله ونقل الملك لآلهم .

- ابن عذارى : البيان المغرب ، ج1 ، ص 262 .

[4] د.حسن حسني عبد الوهاب : شهيرات التونسيات ، منشورات مكتبة المنار ، تونس ، ط3 ، د ت ، ص 72 .

ولم تكن السيدة أم ملال ضليعة بتتبع الشأن الداخلي للإمارة فقط ، بل كانت تراقب تحركات الدول والإمارات المجاورة ، فهي تمارس ما نسميه اليوم " النظر في الشؤون الخارجية للبلاد " ، وإلى ذلك العهد كانت دولتها تابعة للخلافة الفاطمية بمصر وكان الخطباء بإفريقية يدعون للخليفة الفاطمي على المنابر وتتوالى بيعة أهل القيروان على القسطاط .

واستغلت أم ملال قوة الفاطميين لبسط نفوذها وقمع خصومها ، وبالمقابل لم تدخر مناسبة أو فرصة إلا وأكدت فيها ولاءها التام لهم (أي للفاطميين) ، فقد علمت ببصيرتها النافذة أن دولتها الفتية لا تقوى على صد هجمات الزناتيين وبني حماد أصحاب القلعة [1] لهذا لجأت إلى الاحتماء بقوة الفاطميين إلى الحين الذي تكون فيه جيشا قويا عددا وعدة حيث تستشعر –عبره- القدرة على صد أي هجوم بمفردها .

ويتجلى حذقها وولاؤها المتلازمان حينما يبعث أخوها نصير الدولة بهدية جليلة إلى الحاكم بأمر ا [2] الخليفة الفاطمي بمصر ، وقد << كان فيها مائة فرس ولها سروج محلاة شدت في ثمانية عشر حملا أقفاصا ، وكان فيها ثمانية وعشرون حملا من الخز والسمور والمتاع السوسي المذهب النفيس ، وعشرون وصيفة بارعة الجمال ، وعشرة من الصقالبة ، وغير ذلك >>[3] .

ولم تفوت السيدة أم ملال الفرصة دون أن تسجل حضورها كسيدة القصر الأولى فضمنت المركب الذي حمل هدية الأمير هديتها هي الأخرى والتي وجهتها إلى ست الملك [4] أخت الخليفة الفاطمي ولم يفصل ابن عذارى في محتوى الهدية وإنما اكتفى بقوله : << ووجهت

---

[1] د. حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، ج1 ، ص 579 -580 .

[2] **الحاكم بأمر ا :** ثالث الخلفاء الفاطميين بمصر ، تولى الخلافة سنة 386 ه / 996 م ، وقد أحس بادئ الأمر برغبة نصير الدولة في الانفصال ، فأوعز إلى واليه على برقة بالاستيلاء على طرابلس (وكانت من أعمال إفريقية) لكن نصير الدولة تمكن من هزمه وإخراجه منها فاضطر الحاكم بأمر ا إلى مصانعة الأمير بعدما خبر قوته .

- المرجع نفسه: ج1 ، ص 585 -586 .

[3] ابن عذارى : البيان المغرب ، ج1 ، ص 260-261 .

[4] **ست الملك** : (359-415 ه / 970-1024 م) :

ست الملك بنت العزيز با نزار بن المعز لدين ا ، الفاطمية العلوية : أميرة ، من الفضليات الحازمات المدبرات ، وهي أخت الحاكم بأمر ا الفاطمي (صاحب مصر) كان الحاكم يستشيرها في معضلاته ، ثم تغير عليها وهم بقتلها ، وساءت سيرته بما هو معروف من إحراقه بعض القاهرة وغير ذلك ، فاتفقت ست الملك (كما في الكامل) =

= مع حسين بن دواس (من كبار القواد) على قتله ووعدته بتوليته إدارة الملك ، فاغتيل الحاكم سنة 411 هـ وبويع لابنه علي وهو صبي وجاءها ابن دواس يستنجزها وعدها ، فأوعزت لخادم لها فقتله وصاح : يا لثأر الحاكم ! .

السيدة أم ملال أخت نصير الدولة إلى السيدة أخت الحاكم هدية أيضا >>[1] .

وعلى كل ينم هذا الفعل عن إدراك عميق منها لأهمية إقامة التحالفات وتوطيد العلاقات وكسب ود القوى المهيمنة على الساحة لمواجهة تهديدات الدول والإمارات المجاورة ودرء خطر الثوار الخارجيين .

ومما سبق يتضح أن السلطة الفعلية كانت بيد السيدة أم ملال خاصة حينما هب أخوها لقتال أصحاب القلعة وترك لها مهمة الاضطلاع بالمسؤوليات الجسام ، فكانت المدبرة والمشرفة على شؤون الرعية بما أوتيت من حزم وثقة في النفس ، ولا عجب أن توصف بأنها << الحاكمة الوحيدة التي حكمت إفريقية >> [2] .

والملاحظ أنه لم تكن تستهويها حياة الترف ومظاهر الأبهة كمثيلاتها من النساء في قصور الشرق ، فهي أدركت أن دوام العز لا يمكن إلا بالاهتمام بشؤون الإمارة وترصد خبر العدو خاصة حينما يغيب الرجال .

وقد ظلت طوال حياتها مبعثا للفخر ومحلا للثقة وحسن التدبير ، ومما يدل على سمو منزلتها لدى رجال القصر الجنازة التي خصها بها حفيدها المعز بن باديس[3]،وقبل ذاك لم تمنعه المشاغل وكثرة الحروب والمحن من أن يعودها في مرضها سائلا عنها في كل

ثم قامت بإدارة الدولة مدة أربع سنوات ، أظهرت فيها من القدرة والعدل ما حببها إلى رعيتها وتوفيت بمصر .وفي المؤرخين من ينقض خبر قتلها لأخيها ، ومنهم المقريزي في الخطط .

- الزركلي : الأعلام ، ج3 ، ص 77-78 .

[1] ابن عذارى : البيان المغرب ، ج1 ، ص 261 .

[2] د. حسن حسني عبد الوهاب : شهيرات التونسيات ، ص 75 .

[3] **المعز بن باديس :** (398 -454 هـ / 1008 -1062 م) :

المعز بن باديس بن المنصور الصنهاجي : من ملوك الدولة الصنهاجية بإفريقية ، ولد بالمنصورية (من أعمال إفريقية) ، وولي بعد وفاة أبيه سنة 406 هـ ، وأقره الحاكم الفاطمي ولقبه بشرف الدولة ، وساد الأمن في أيامه ، وبنى بنايات ومساجد وأنفق عليها أموالا وافرة ، وقرب العلماء وأكرمهم ، ونشبت بينه وبين زناتة حروب انتصر في جميعها وكانت خطبتها للفاطميين فقطعها سنة 440 هـ وجعلها للعباسيين ، فوجه إليه المستنصر الفاطمي أعراب بني هلال وبني سليم من قبائل الحجاز وأباح لهم الغارة على المغرب فاحتلوا القيروان ، وحاربهم المعز فتغلبوا عليه ، فتقهقر إلى المهدية ، واستمر وادعا إلى أن توفي فيها من ضعف الكبد ، وهو أول من حمل الناس بإفريقية على مذهب مالك وكان الغالب عليهم مذهب أبي حنيفة .

- الزركلي : الأعلام ، ج7 ، ص 270 .

حين ووقت، يقول ابن عذارى :<<اعتلت السيدة أم ملال بنت عدة العزيز با أياما ، والأمير شرف الدولة يصل إليها في كل يوم عائدا ومفتقدا ، فيجلس عندها ، ويأذن لرجاله وعبيده يدخلون إليها ، ثم ينصرفون ، فلما كان ليلة الخميس منسلخ رجب [سنة 414ه / 1023م] قبضها ا ،وصلي على جنازتها بالبنود والطبول والعماريات، والسيدتان الجليلتان الوالدة والأخت بحال من التشريف لهذه الجنازة ،لم ير لملك ولا لسوقة مثلها >>[1] .

وكأنما أراد المعز من ذلك رد الجميل لمن أسدى للدولة خدمات جليلة ولو بعد الممات ، كما أن عظم هذه الجنازة يبين عظم من حواه القبر .

ولم تكن أم ملال وحدها التي خصت بجنازة مهيبة ، بل سبق وأن أقيمت لزوجة باديس حينما توفيت سنة 412 هـ / 1021 م جنازة مثلها ، وابن عذارى يصف تلك الجنازة بقوله : << توفيت السيدة زوجة نصير الدولة ، وكفنت فيما لم يذكر أن ملكا من الملوك كفن في مثله ، فحكى من حضره من التجار أن قيمته مائة ألف دينار ، وجعلت في تابوت من عود هندي قد رصع بالجوهر ، وكانت لها جنازة لم ير مثلها ، دفنت بالمهدية ، وكانت مسامير التابوت بألفي دينار >>[2] .

وإلى ذلك يشير ابن خلدون حينما يعرض لفترة حكم الصنهاجيين والمعز بن باديس بصفة خاصة بقوله : << واستمر ملك المعز بإفريقية والقيروان ، وكان أضخم ملك عرف للبربر بإفريقية وأترفه وأبذخه ، نقل ابن الرقيق من أحوالهم في الولائم والهدايا والجنائز والأعطيات ما يشهد بذلك ... وإن بعض توابيت الكبراء منهم كان العود الهندي بمسامير الذهب >>[3] .

تلك هي حال أم ملال وغيرها من النسوة اللواتي لم تذكرهن المصادر التاريخية في العصر الزيري وفي بلاط القصر بصفة خاصة ممن اشتهرن بدهائهن وحسن التصرف والقيام بشؤون الدولة والحرص على إرضاء الرعية وهو هدف عجز أفذاذ الرجال عن تحقيقه وإدراكه.

---

[1] ابن عذارى : البيان المغرب ، ج1 ، ص 272 .

[2] المصدر نفسه : ج1 ، ص 270 .

[3] ابن خلدون : العبر ، ج11 ، ص 324 -325 .

- زينب النفزاوية :

وما إن تطل علينا دولة المرابطين [1] حتى تفتح صفحة مشرقة من تاريخ المشاركة السياسية للمرأة وتأثيرها في نظام الحكم ، وقد ساعد على ذلك انفتاح المرابطين والليونة التي أبدوها في التعامل مع المرأة ، ونجد أبرز شخصية في تلك الصفحات المشرقة كان

---

[1] **دولة المرابطين** (448 - 541 هـ / 1056 – 1147 م) :

الرباط والمرابطة : ملازمة ثغر العدو ، وأصله أن يربط كل واحد من الفريقين خيله ثم صار لزوم الثغر رباطا ...والرباط : المواظبة على الأمر ، (ابن منظور : لسان العرب ،ج5 ، ص 108) .

والمرابط ، الملازم لثغر العدو حيث ترابط خيل المجاهدين قصد التصدي له، (السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب الكبير: ج2 ، ص 694) .

وأصل المرابطين من قبائل صنهاجة الجنوبية الضاربة في الصحراء الموريتانية وبطونها : لمتونة وجدالة ومسوفة (راجع شجرة النسب البربري) ، وقد قام بالدعوة بادئ الأمر يحيى بن عمر بن إبراهيم الجدالي الذي كان يخشى على صنهاجة من سطوة زناتة فصمم على تعليم رجال قبيلته شرائع الإسلام وتنظيم قوتهم وتوحيدها ، ثم ما لبثوا أن وضع لهم شخص يدعى عبد ا بن ياسين شرائع وأقر لهم حدودا سرعان ما برموا منها ومن دعوته الإصلاحية الأخلاقية فأظهروا له الجفاء ، فغادر عبد ا إلى بلاد السودان واجتمع له فيها ألف رجل سماهم " المرابطين " ، وكون منهم ومن غيرهم جيشا كثيفا جعل على قيادته يحيى بن عمر ، وانطلقت قواته نحو المغرب الأقصى فخضعت له سائر القبائل واحتلوا سهل مراكش سنة 460 هـ / 1068م ، وقد كان تأسيس دولة مراكش بين سنوات 454 - 459 هـ / 1062 – 1067 م على يد يوسف بن تاشفين الذي تولى القيادة سنة 463 هـ / 1071 م ويعتبر هذا الأخير المؤسس الحقيقي للدولة ، وفي عهده أوقع بقوات الفرنجة (بقيادة ألفونسو السادس) في معركة الزلاقة sacrajas (جنوب غربي بطليوس) سنة 478 هـ / 1086 م وهذا بعد أن وفد عليه فقهاء الأندلس يرجونه إنقاذ الإسلام المهدد بالزوال فيها نتيجة تناحر ملوك الطوائف واستعانتهم بالكفار على بعضهم البعض ، وقد كانت هزيمة الفرنجة ساحقة وحمى هذا النصر المؤزر المسلمين في الأندلس ومدد تواجدهم فيها لأربعة قرون أو يزيد .

ودام عز الدولة المرابطية في أيام علي بن يوسف بن تاشفين (500-533 هـ / 1107 - 1138 م) ، غير أن الوهن بدأ يدب فيها منذ تولي تاشفين بن علي (533 - 539 هـ / 1138 - 1144 م) الحكم والذي اشتغل بالدفاع عن كيان المرابطين غربا ضد الدعوة الموحدية الناشئة هناك بزعامة محمد بن تومرت .

وانتهى أمر المرابطين بدخول عبد المؤمن بن علي مراكش سنة 541 هـ / 1147 م وقتله لإسحاق بن تاشفين وأمراء المرابطين .

- ابن عذارى : البيان المغرب ، ج 4 ، ص 07
- د. حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، ج2 ، ص 09 .
- د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب الكبير ، ج2 ، ص 690 .

لها وزنها في سيرورة الدولة ألا وهي " زينب النفزاوية "[1] وقد << كانت امرأة حازمة ، لبيبة ذات عقل ورأي وجزالة ، ومعرفة بالأمور ، حتى كان يقال لها الساحرة >>[2] .

أضف إلى ذلك الجمال والذكاء اللذان امتازت بهما، قال ابن خلدون : << وكانت من إحدى نساء العالم المشهورات بالجمال والرياسة >> [3] .

ثم إنها كانت موفقة في حياتها كلها << وقد شاع ذكرها وأمرها في قبائل المصامدة وغيرها ، فكان يخطبها أشياخهم وأمراؤهم فتمتنع لهم وتقول : لا يتزوجني إلا من يحكم المغرب كله ، فكانوا يرمونها بالحمق ، وكان لها أخبار مستطرفة غريبة كمثل أخبار الكاهنة ، فبعض يقولون أن الجن يكلمها ، وبعضهم يقولون إنها ساحرة ، وبعض يقولون كاهنة >>[4] .

ويبدو أنها لم تكن مخطئة حين رفضت تزوج أشياخ المصامدة ، واشترطت الملك فيمن يريد الزواج بها ، فضمنت بذلك علو الذكر ووصول رغبتها إلى مسمع من لديه الهمة لتحقيق شرطها (حكم المغرب كله) ، وبالطبع لم يكن على الساحة وقتذاك في دعوة المرابطين غير الأمير أبي بكر بن عمر الذي استقامت له الأمور وانقادت له البلاد << فخطبها وتزوجها ... وكان دخوله معرسا – بزينب المذكورة – في شهر ذي القعدة من عام ستين وأربع مائة >> [5] .

---

[1] **زينب النفزاوية** : (؟- 464 هـ / ؟-1072 م) : زينب بنت إسحاق النفزاوية ، من شهيرات النساء في المغرب ، وهي من قبيلة نفزة من بربر طرابلس الغرب ، تزوجت وانتقلت إلى أغمات وطلقت ، فتزوجها يوسف بن تاشفين اللمتوني سنة 454 ه ، قال صاحب الاستقصا: <<فكانت عنوان سعده ، والقائمة بملكه والمدبرة لأمره ، والفاتحة عليه بحسن سياستها لأكثر بلاد المغرب >>

- السلاوي : الاستقصا، ج2 ، ص 14 -29 .

ونقل عن ابن الأثير : <<كانت من أحسن النساء ولها الحكم في بلاد زوجها ابن تاشفين >>

- الزركلي: الأعلام ، ج3 ، ص 66 .

[2] ابن أبي زرع الفاسي : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، دار المنصور ، الرباط ، المغرب ، 1972 ، ص 134.

[3] السلاوي : الاستقصا ، ج 1 ، ص 184 .

[4] ابن عذارى : البيان المغرب ، ج4 ، ص 18 .

[5] المصدر نفسه : ج4 ، ص 18 .

ومن الجدير بالذكر هنا أن زينب لم تكن تطمح لأن تخضع لسلطان رجل يحكم المغرب وتتمتع هي بأبهة الحكم وبذخ عيش الإمارة ، بل كانت ترغب في تولي الحكم مناصفة مع الحاكم الذي اختارته بعلا لها ، وإذ فاتها عامل الفروسية والنجدة بحكم أنها امرأة ، فإنه لم يفتها جمع المال الذي يعد الدعامة الأساسية للجهر بأي دعوة أو إنشاء أي دولة ، إذ يظل شراء السلاح والمؤونة وحتى أعين المخبرين مرهونا بتوفره ، ويروى في هذا الصدد أنه حينما تزوجها أبوبكر << وعدته بمال كبير تخرجه له ، ثم أدخلته في دار تحت الأرض معصب العينين ، ثم أزالت العصابة ففتح عينيه فرأى بيوتا فيها ذهب كثير وفضة وجواهر ويواقيت ، فعجب من ذلك أبو بكر بن عمر كل العجب لما عاين من الذخائر والذهب والفضة ، فقالت له زوجه زينب : هذا كله مالك ومتاعك أعطاك ا إياه على يدي فصرفته الآن عليك ، وكان رؤيته له بضوء الشمع ، ثم أخرجته معصب العينين من ذلك الموضع كما أدخلته فيه ، فلا علم من أين دخل ولا من أين خرج >> [1] .

فهي لم تقنع بأن تكون امتدادا لظل سلطان الرجل القوي ، بل كانت تريد أن تثبت للآخرين أنها عماد الدولة وأصل بنيانها المشيد ، والذي سيعلو بفضل توفيرها لما يساعد على بنائه (المال) .

وقد يذهب بنا الأمر إلى القول بأن هذه المرأة لم تأمن الرجال بادئ الأمر ، فهي وإن وافقت على الزواج من أبي بكر فإنها بالمقابل ظلت محترسة منه ، محتفظة بسر مكان وجود الذخائر والمال الذي اكتنزته ، وإلا لما أدخلته إلى ذلك المكان وهو " معصب العينين " كما ذكر ابن عذارى .

وتفسير ذلك واضح ، فهي خشيت أن يظفر أبو بكر بمالها ثم يطلقها فتضحي صفر اليدين وهي التي بذلت مجهودا كبيرا في تحصيل المال ، ويحصل هو على أسباب القوة وما يفتح له طريق الحكم والسلطة ، ومن هنا نستنتج شيئا آخر وهو أن زينب لم تكن ترى في أبي بكر الرجل المناسب الذي سيقود البلاد إلى المجد والذي يستحق أن توحد جهودها إلى جهوده وتضم مالها إلى ماله ، فربما طمحت إلى غيره ،أو كانت تنتظر أن يقوم بشيء أخطر مما قام به عله يقنعها – عن طريقه – بجاهزيته وأحقيته بقيادة الدولة ومد حدودها

---

[1] ابن عذارى : البيان المغرب ، ج4 ص 18 .

وبالتالي الفوز برضاها والحصول على مالها ، أو أنها كانت تعمل على مداراته بربح الوقت والحفاظ على المال والسلاح ريثما يبرز شخص آخر يكون كفؤا أو مضطلعا بالمسؤوليات الجسام الملقاة على عاتقه من تكوين للدولة وتوحيد لقبائل المصامدة ، فتتزوج منه و تخلع نفسها من أبي بكر، وعليه يمكن القول أن زينب لم تتمكن من الظهور على الساحة السياسية بشكل بارز في عهد أبي بكر ، وإنما برزت للساحة بعد زواجها من يوسف بن تاشفين << وهو الشخص الذي تطلعت للاقتران به >> [1] .

وقد لاح هذا الزواج في الأفق بعد قرار أبي بكر العودة إلى الصحراء [2] سنة 463 ه / 1070 م وقد عرف أنه راجع إلى حياة الصحراء والبداوة وشظف العيش ، وأن زوجته تتوق للملك والأبهة والسلطان وربما استشعر في نفسه " خشونة " أو زهدا في هذه الحياة وميلا إلى حياته السابقة فقرر " التنازل " عنها للفتى الصاعد نجمه والعالي ذكره يوسف بن تاشفين ، وكان مما قاله لزوجته وهو على أهبة الرحيل : << إني مسافر عنك برسم الفتن والحروب ولا يمكنني أن أمشي عنك وأنت في عصمتي ، فإن أنا مت كنت مسؤولا عنك والرأي أن أطلقك >> [3] .

---

[1] عصمت عبد اللطيف دندش : أضواء جديدة على المرابطين ، ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت . لبنان ، ط1 ، 1991 ، ص 197 .

[2] يرجع ابن خلكان سبب عودة أبي بكر إلى الصحراء أنه : << لما حصلت لأبي بكر بن عمر المذكور [...] سمع عجوزا في بلاده ذهبت لها ناقة في غارة فبكت وقالت : ضيعنا أبو بكر بن عمر بدخوله بلاد المغرب ، فحمله ذلك على أن استخاف على بلاد المغرب رجلا من أصحابه اسمه يوسف بن تاشفين ، ورجع إلى بلاده >> .

- أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق : د . إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، 1994 ج7 ، ص 113 .

أما ابن عذارى فيورد قصة تقترب من رواية ابن خلكان ولا تختلف إلا في الشخصية ، وهو أن رجلا أشعث قدم على أبي بكر فقال له : << أيد ا الامير ، أن جدالة أغارت على إخوتك فقتلوا الرجال وسلبوا الأموال وهزموهم ... وبعث (أبو بكر) إلى أشياخ لمتونة وكبرائهم وعظمائهم وقال لهم : إن إخوانكم قد أغارت جدالة عليهم وقتلوهم ، وأنا مسافر – إن شاء ا – إليهم لآخذ بثأرهم ، فانظروا منكم رجلا استخلفه عليكم >> .

- ابن عذارى : البيان المغرب ، ج4 ، ص 20 .

وفي كلتا الروايتين ما يؤيد أن أبا بكر خرج لغزو أو جهاد أو ثأر ، وهو ما يدحض زعم البعض من أنه خرج فارا بجلده بعد أن همست زينب لأمراء صنهاجة تحثهم على قتله .

[3] ابن عذارى : البيان المغرب ، ج4 ، ص 21 .

ويبدو أن الطلاق غاية ما كانت تتوق إليه زينب بعد أن رغبت في يوسف ، والدليل على ذلك أنها ردت على زوجها حين عرض عليها الطلاق بقولها << الرأي السديد ما تراه>> [1]، وقيل<< أنها هي التي طلبت منه طلاقها فأسعفها بذلك >> [2].

ولم يجد أبو بكر حرجا من أن يعرض على يوسف طليقته وقد كان يرى منها ميولا إلى هذا الأخير وقال له : << تزوجها فإنها مسعودة >>[3] ، وتم زواج يوسف بزينب سنة 463 هـ / 1070 م << فسرت به وسر بها ، وأخبرته أنه يملك المغرب كله ، فبسطت آماله وأصلحت أحواله وأعطته الأموال الغزيرة، فأركب الرجال الكثيرة ، وجمعت له القبائل أموالا عظيمة ، فجند الأجناد وأخذ في جمع الجيوش من البربر والاحتشاد ...بنفسه وبتدبير زوجه زينب >>[4] .

ثم إن الدعم المادي لم يكن وحده ما جادت به زينب على زوجها الجديد والذي- لولاه لما استقام له الحكم وخضعت له القبائل - ، بل إن السند الروحي والرفع الدائم لمعنوياته كان حاضرا أيضا في دعمها له .

ويبرز ذلك جليا حين عزم أبو بكر بن عمر على العودة من جديد إلى مراكش ، والضيق الذي أحس به يوسف بعدما توهم أن ابن عمه يريد استرداد ملكه الذي خلفه حارسا عليه ،ويبدو أن يوسف أخذ في الاحتراز و إعداد العدة لمواجهة الملك العائد ، فهو أيضا لا يريد التنازل عن ملك أرسى دعائمه ، وفي هذه الأجواء المشحونة التي تنذر بالصدام تتدخل زينب النفزاوية لتزيل الغم عن زوجها وتجنبه عداوة من كان سببا في نعيمه ، وتجنيب الدولة أيضا مخاطر الانقسام إلى معسكرين متناحرين ، فتشير عليه برأي حازم ينم عن تبصر ثاقب وعلم بعواقب الأمور وكان ذلك بقولها له : << إذا قدم عليك وبعث مقدمات رجاله إليك فلا تخرج إليه ، ولكن بادره بهدية جليلة ... فلا يقاتلك على الدنيا فإن الرجل خيّر لا يستحل الدماء ... وتفوز بملكك إن شاء ا >>[5].

---

(1) ابن عذارى : البيان المغرب ،ج4 ، ص 21 .

(2) المصدر نفسه : ج4 ، ص 21

(3) المصدر نفسه : ج4 ص 21 .

(4) المصدر نفسه : ج4 ، ص 22 .

(5) المصدر نفسه : ج4 ، ص23-24 .

وقد كانت زينب أخبر النساء بما تتوق إليه نفوس الرجال ، وعلمت أن وفود أبي بكر من الصحراء إنما كان من جراء الفقر وضنك المعيشة بها ، وهو عيش لم يرق كثيرا رجلا ذاق حلاوة الملك وتوسد ريش النعام واستظل بوارف الظلال وشرب من عذب الأنهار ووديان مراكش وأغمات ، لهذا كانت الهدية تهدف إلى سقاء حلق ضامىء من مباهج الحياة ، وكان مما بعث يوسف إلى أبي بكر بمشورة زينب طبعا : << خدورا كثيرة بنفيس الأمتعة والكسي الفاخرة وبعث له عشرين جارية أبكارا وجملة من الخدمة ...وسبع مائة مد من الشعير ، وبعث إليه وزنا صالحا من العود والعنبر والمسك >> [1]

وبالفعل فقد عملت الهدية عملها في تلطيف الأجواء وتهدئة الأنفس وكان لها وقعها الإيجابي في نفس أبي بكر الذي تنازل بعدها ليوسف على الإمارة ، ونرى هنا زينب قد بذلت المال في سبيل بناء الدولة ثم نثرته ثانية (كهدايا) حفاظا على البنيان من التصدع وقد جنبت الدولة خطر التنافس على السلطة << فكان هذا التدبير برأي زينب النفزاوية زوجته ، فهي التي جسرته على ذلك كله حتى ملك المغرب أبعد ملك وأتمه نصرا على العدو >> [2] .

---

[1] ابن عذارى : البيان المغرب ، ج4 ، ص 26 .

[2] المصدر نفسه: ج4 ، ص 25 .

- حبابة الرومية :

وبمطلع القرن السادس الهجري تبسط دولة الموحدين[1] سيطرتها – تدريجيا – على بلاد المغرب الإسلامي أو لنقل الغرب الإسلامي[2] كله ، و تراجعت مكانة المرأة قليلا

---

(1) **دولة الموحدين** : (524 -668هـ / 1130 -1269 م) :

يرجع فضل التأسيس النظري لهذه الدولة إلى الفقيه محمد بن تومرت ، فقد ناصب المرابطين العداء وأخذ يؤلب عليهم العامة ، وقد التقى بعبد المؤمن بن علي الكومي في تلمسان واتفقا على العمل سويا وبذلك ضمان ولاء المصامدة ، وكان أول اجتماع له بأنصاره في تينملل وبوفاته سنة 524 هـ / 1130 م يزحف عبد المؤمن بقوات الموحدين على مراكش سنة 541 هـ / 1146 م ويقضي نهائيا على دولة المرابطين ، ثم تتوجه جهوده إلى جهاد النصارى ففي سنة 552 هـ / 1157 م يستعيد الميرية من يد ألفونسو السابع وتتوحد بذلك الأندلس والمغرب تحت رايته ، وقد ملك من الموحدين ثلاث عشر خليفة أشهرهم أبو يوسف يعقوب المنصور (580-595 هـ / 1184 -1199 م) الذي قاد معركة الأرك ALARCO المظفرة سنة 591 هـ/ 1194 م ضد جيوش ألفونسو الثامن ، وقد مدد هذا الانتصار تواجد المسلمين بالأندلس فترة طويلة ، كما تعد- بالمقابل – معركة العقاب سنة 609 هـ / 1212 م والتي انهزم فيها المسلمون أمام النصارى على عهد الخليفة أبي عبد ا محمد الناصر بداية النهاية للدولة الموحدية ، ثم بروز الخطر المريني الذي ما فتئ يضرب في جسد الدولة المتهالك إلى أن أجهز عليه تماما باقتحام مراكش سنة 668 هـ / 1269 م على عهد آخر الخلفاء الموحدين أبي العلاء إدريس الواثق .

- السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب الكبير ، ج2 ، ص621

(2), **الغرب الإسلامي** : حتى لا تختلط المفاهيم والمصطلحات على القارئ لتاريخ المغرب ، يجب التمييز بين مصطلحي " المغرب الإسلامي " و " الغرب الإسلامي " .فالمغرب – كما رأينا << يضم المملكة المغربية الحالية والجمهورية الجزائرية ، والجمهورية التونسية ، والجزء الغربي من الجماهيرية الليبية عند البعض وهي عند البعض الآخر تخص المناطق المذكورة يضاف إليها الجزء المتاخم لليبيا من تراب الجمهورية المصرية اليوم >> .

د. العربي دحو :مدخل في دراسة الأدب المغربي القديم ، ص 13 .

وتوسعت أرض المغرب لتضم دولة موريتانيا (على ساحل المحيط الأطلسي) .

أما مصطلح " الغرب الإسلامي " فهو أشمل وهو << مصطلح ابتكره الفرسيون فقالوا : l’ occident musuleman ويعنون به الجناح الغربي من العالم الإسلامي ويشمل ستة وحدات جغرافية وتاريخية وهي :

1- بلاد المغرب (وقد ذكرناها) .
2- الأندلس : وهو شبه الجزيرة الأيبيرية .
3- صقلية .
4- بقية جزائر الحوضين الأوسط والغربي من البحر المتوسط ، وتدخل فيها جزائر البليار وجنوبي فرنسا وإيطاليا وجزيرتي سردانية وسرقوسة .
5- الصحراء الكبرى .
6- بلاد إفريقية المدارية والاستوائية التي دخلها الإسلام في الغرب والوسط غربي ووادي النيل>> .

- د حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، ج1 ، ص18-19 .

فقد حكم رجال أفذاذ أمثال ابن تومرت [1] وعبد المؤمن بن علي [2] وكان التوجه العام لدى هؤلاء هو إقصاء المرأة من الحياة السياسية ، فالمشورة والتخطيط الحربي وأسرار الدولة حكر على الرجال وقف عليهم ، بل إن ظهور المرأة في المجتمع وممارستها لحياتها الاجتماعية كان يتم بضوابط وحدود معروفة ، فابن تومرت مثلا كان يتشدد حيال المعزوفات والقيان [3] ، بل إنه كان لا يطيق رؤية النساء البتة وهن في الطرقات ، ويجهر بدعوته الإصلاحية – أيام حكم المرابطين– دون أن يخشى بوائقهم ، فقد قيل<< أنه

---

[1] **ابن تومرت** : (485 -524 هـ / 1092 -1130 م) : محمد بن عبد ا بن تومرت المصمودي البربري ، أبو عبد ا : الملقب بالمهدي ، ويقال له مهدي الموحدين ، صاحب دعوة السلطان عبد المؤمن بن علي ملك المغرب ، وواضع أسس الدولة المؤمنية الكومية ، وهو من قبيلة " هرغة " من المصامدة من قبائل جبل السوس بالمغرب الاقصى ، رحل إلى المشرق طلبا للعلم ومنهم من ينفي ذلك .

- الزركلي : الأعلام ، ج6 ، ص228-229 .

[2] **عبد المؤمن بن علي الكومي** : (487 -558 هـ / 1094 -1163) : عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلى بن مروان ، أبو محمد الكومي ، أمير المؤمنين ، مؤسس دولة الموحدين المؤمنية في المغرب وإفريقية وتونس ، نسبته إلى كومية – من قبائل البربر - ، ولد في مدينة تاجرت في المغرب (قرب تلمسان) ، تولى قيادة الجيش من قبل المهدي ، ودعي أمير المؤمنين سنة 526 ه ، وقاتل الملثمين بني تاشفين فاستأصلهم ودخل مراكش سنة 541 ه ، أنشأ الأساطيل وخضع له المغربان الأقصى والأوسط ، توفي في رباط سلافي طريقه إلى الأندلس مجاهدا ، ونقل إلى تينمال فدفن فيها إلى جانب قبر ابن تومرت .

- المرجع نفسه : ج 4 ، ص 170 .

[3] كان ابن تومرت << يأمر تلاميذه بتحطيم ما يجدون من أدوات الموسيقى>> .

- د حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، ج2 ، ص 66 .

وقد كان أيام المرابطين يخرج مع تلاميذه إلى أسواق مراكش يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر دون إذن أمير المسلمين أو إذن أحد من قضاته أو وزرائه<< لأنه شاهد في مراكش من الفساد ما لم يره في مدينة ثانية >> .

- د. حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، ج4 ، ص 282 .

وكان من شعره الذي يردده على أصحابه قبل خروجه بالمغرب : [من البسيط]

دَعْنِي فَفِي النفْس أَشْيَاءٌ مُخَبَأَةٌ   لأَلْبِسَنَّ لَهَا دِرْعــــا وَجِلْبَابَــا

كَيْمَا أُطَهرَ دِينَ اللهِ مِنْ دَنَــس   وَأُوجِبَ الفَضْلَ لِلسادَاتِ إِيجَابَــــا

تَاللهِ لَوْ ظَفَرَتْ كفي بِمَطْلِبِهَــا   مَا كُنْتُ عَنْ ضَرْبِ أَعْنَاق الوَرَى آبى

- د. علي محمد محمد الصلابي : إعلام أهل العلم والدين بأحوال دولة الموحدين ، مكتبة الإيمان ، المنصورة ،مصر، ط1 ، 2000 م ، ص 44 .

كان سائرا في الطريق فرأى أخت علي بن يوسف حاسرة على عادة قومها فوبخها توبيخا وعنفها ، فدخلت على أخيها تذرف الدموع مما لحقها من إهانة ابن تومرت >> [1] .

وعلى هذا النمط من معاملة المرأة والنظرة إليها سار الخلفاء الموحدون من بعده والذين صدوا المرأة ولم يسمحوا لها بولوج الحياة السياسية فقد كانت مبادئ ابن تومرت تسري في عروقهم مسرى الدماء .

وما إن دب الفتور في جسد الدولة بتولي الحكام الضعاف مقاليد الحكم حتى أصبح للنساء صوت مسموع في القصر ، ويرى العديد من المؤرخين أن سبب تضعضع بنيان الدولة الموحدية كان من جراء تدخلهن في شؤون الحكم ، وما كان لهن ذلك إلا لضعف شديد ميز الخلفاء المتأخرين الذين أفنوا بعضهم في إطار الصراع على الحكم دون أن يلتفتوا لصرخات أهل الأندلس وخيلُ النصارى وسيوفهُم تجلِيهم وتبيدُهم .

ولا نجد المصادر التاريخية تمدنا بأسماء الكثير منهن حيث لا تبرز إلا شخصية حبابة الرومية زوجة الخليفة الموحدي أبي العلاء إدريس المأمون بن المنصور [2] ويظهر أنها كانت من نصارى الأندلس ، أومن سبي الحروب فأعجب بها المأمون وتزوجها ونكاد نجزم بأنه قد عظمت مكانتها لديه ومحلها منه فلم يرفض لها طلبا، ومن غير المستبعد أن تكون هي من حرض المأمون على بناء كنيسة لجنده النصارى القادمين من الأندلس والذين يقاتلون معه ضد منافسيه على إدارة الملك وأشياخ الموحدين الرافضين مبايعته [3]، وبذلك تكون قد ألبت عامة الناس عليه وساهمت في تأجيج نار الغضب عند كافة المسلمين

---

[1] عبد ا كنون : النبوغ المغربي في الأدب العربي :، ج2 ، ص 391 .

[2] **مأمون الموحدين** : (؟ - 629 هـ / ؟ - 1232 م) : إدريس بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، أبو العلاء المتلقب بالمأمون : من خلفاء دولة الموحدين بمراكش ، يرتفع نسبه إلى قيس عيلان من مضر ، اتفق مترجموه على وصفه بالشجاعة والاضطلاع في الأدب والفقه والحديث ...،عقدت له البيعة بإشبيلية سنة 624 هـ وبمراكش والأندلس، عدل عنه الموحدون بمراكش إلى ابن عمه يحيى بن الناصر ، فتهيأ المأمون لقتالهم ، وتبين له الضعف في جنده ، فاستعان بملك قشتالة فاشترط هذا عليه شروطا فادحة فرضي بها ، فأمده باثني عشر ألفا وصلوه في رمضان 626 هـ فعبر بهم من الجزيرة الخضراء إلى سبتة فكان أول من أدخل جند الفرنجة أرض المغرب ...قال السلاوي : كانت أيامه شقاء وعناء ومنازعة ، وكان محق دولة الموحدين واستئصال أركانها وذهاب نخوتها على يده .

- السلاوي : الاستقصا ، ج4 ، ص 197 .
- الزركلي : الأعلام ج1 ، ص 281 – 282 .

[3] د.حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، ج2 ، ص 150 .

إذ كيف يعقل أن يستنعين المأمون بجند النصارى الحاملين للصلبان لقتل إخوانه المسلمين وفي الديار الإسلامية أيضا ؟! وفوق هذا يسمح بأن يدق ناقوس الكنيسة على أرض المغرب الطاهرة ! .

وعلى هذا لا يستبعد أن تكون حبابة عينا لنصارى الأندلس على البلاط الموحدي بشكل خاص طالما أن أبواب البلاد كانت مفتوحة على مصراعيها لجندهم يشاهدون بأعينهم كل رائح أو غاد من سكانها ، ومما يؤكد هذا الزعم أنه حينما توفي زوجها وأرادت أن تتم البيعة لولدها الرشيد [1] كتمت الخبر – خبر وفاة زوجها – إلا عن قواد الروم وكأنما كان ذلك جزءا من عملها " الاستخباري " ،وقد بلغ من مهانة المسلمين بديارهم إلى حد أن يعلم النصارى بموت خليفتهم بينما يخفى ذلك عليهم وهو الأمر الذي يعنيهم أكثر من غيرهم ، يقول ابن عذارى : << لما توفي المأمون كتمت زوجته حبابة الرومية أم الرشيد وفاته إلا من القواد ، وأظهرت أنه على قيد الحياة إلى جميع الأجناد ، وكانت أم الرشيد رومية فأول من عَرّفت بموته قواد الروم >> [2] .

وبعد أن أتمت أخذ البيعة لولدها الرشيد من أعيان مراكش وزعمائها ، دأبت على تسيير شؤون الدولة والتصرف في أمورها ، ونجدها حاضرة بعد الأزمة التي اندلعت بمراكش سنة 630 هـ / 1232 م عقب إحراق يحي بن الناصر [3] لكنيسة النصارى ، حيث ثار جند النصارى وأظهروا الشر وعزموا على رد الإهانة – ربما بإحراق المساجد أو التنكيل بالمسلمين – وكان ابنها الرشيد على مشارف المدينة عائدا من غزوته المظفرة ضد الخارجين عليه منتظرا أن يستقبل بالورود وقرع طبول النصر ، غير عالم بما آلت إليه الأوضاع في المدينة ، وفي خضم هذه الأجواء المشحونة والمنذرة بحرب وشيكة بين النصارى والمسلمين تتدخل حبابة وتسيطر على غضب النصارى بما أوتيت من رجاحة عقل وسعة ذات يد ، يقول ابن عذارى : << وقيل أرضتهم بمال – بعد المأمون- ،

---

[1] **الرشيد الموحدي :** أبو محمد عبد الواحد بن أبي العلاء إدريس المأمون بن أبي يوسف يعقوب المنصور بن أبي يعقوب يوسف بن أبي محمد عبد المؤمن ، ولي سنة 630هـ / 1232 ، توفي سنة 640 هـ / 1242 .

- ابن عذارى : البيان المغرب ،قسم الموحدين ، ص 299 .

[2] المصدر نفسه : ص 298 .

[3] **يحي بن الناصر** : ثائر على المأمون والرشيد ، قتل سنة 633 هـ .

- المصدر نفسه : ص 336 – 337 .

فحادوا عن سبيل الحرب وأغلقوا بابه ، وسلم ا المسلمين من الروم ، فقد كانت تبغي إمحاقهم وتروم ، ودخل الرشيد مراكش والنصر يخدمه والسعد يصحبه ويلازمه >> [1] .

ويلاحظ أنها لعبت الدور نفسه الذي قامت به أم ملال في العصر الزيري ، إذ نجد الخليفة الرشيد يستخلفها على مراكش مع صهره أبي العلاء إدريس وقد كان غازيا بلاد هسكورة لقمع الخصوم هناك ، ولكن ما لبث الطامعون أن أعدوا العدة لمهاجمة مراكش ويبدو أن الصهر كان غير عابئ للخطر المحدق بالمدينة ، فقررت حبابة مراسلة ابنها بمفردها تحثه على العودة لحماية دار ملكه ، يقول ابن عذارى :<< واستنفروا [أي الأعداء] هسكورة القبيلة ومزالة وجلاوة ومن في هذه الجبال من خيل ورجل لقصد مراكش والحصول عليها ، فهاجت النفوس واضطربت الأحوال وكانت بالقصر الحرة أم الرشيد فهالها هذا الأمر الشديد ...وتوجهت كتب الحرة لابنها تستعطفه وتستحثه لتدارك الحال قبل انخراق الفتن وتعذر الرتق >> [2] .

وبذلك فقد أنقذت هذه المرأة المدينة من دمار وشيك ، وأهلها من فضائع كانت سترتكب في حقهم .

وقد استمرت في توجيه ابنها لما فيه خير له وللأمة إلى أن تولى المعتضد با المدعو السعيد [3] سنة 640هـ / 1242 م هذا الأخير لم يكن يرتاح لوجودها نظرا لعلمه بدورها السابق في القصر ، فكان أن بث العيون عليها لترقب كل حركاتها ، ثم عمد إلى تخويفها وتأديبها حتى يقضي على أحلامها – ربما – في استعادة العرش ، يقول ابن عذارى : << وحبس أم رشيد وأغرمها مالا >> [4].

تلكم إذن هي حبابة الرومية التي وهبت نفسها وشغلت بالها بأمور السياسة حتى أواخر أيام حياتها .

---

[1] ابن عذارى : البيان المغرب ، قسم الموحدين ، ص 301

[2] المصدر نفسه : ص 306 .

[3] المصدر نفسه : ص 359 .

[4] المصدر نفسه : 360 .

السياسة وانعكاساتها السلبية على المرأة :

وبزوال الدولة الموحدية تظهر الإمارات المستقلة ببلاد المغرب الإسلامي وهي إمارات بني مرين [1] وبني عبد الواد [2] (الزيانيين) وبني حفص[3] .

---

[1] **إمارة بني مرين بالمغرب الأقصى** : (592 -957 هـ / 1195 -1550 م) :

كانت البداية الحقيقية لهذه الدولة سنة 668 ه حينما احتل أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق مراكش عاصمة الموحدين ، وقد بسطت سيطرتها من برقة وطرابلس شرقا إلى منطقة السوس الأقصى غربا ، وقد أنجد المرينيون الأندلسيين غير مرة ، ففي سنة 690ه / 1291 م وجه الأمير أبو يعقوب المريني أسطولا لمقاتلة القشتاليين انتصارا لعرب الأندلس وذعر النصارى منه ولجموا أطماعهم إلى حين ، وبعدها دب الضعف في الدولة إثر موقعة طريف سنة 741 ه / 1340 م هذه المعركة الخاسرة التي قادها السلطان أبو الحسن علي بن عثمان المريني ضد جحافل النصارى أين أبيدت قوات المسلمين كلها وكانت بداية النهاية لتواجد المسلمين في الأندلس حيث لم يعد بعدها مسلمو المغرب قادرين على إنجاد إخوانهم في الأندلس ، وقد انهارت الدولة باستيلاء البرتغاليين على مدينة سبتة .

- د. سوادي عبد محمد وصالح عمار الحاج : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ، ص 171-172-175.

[2] **إمارة بني عبد الواد في المغرب الأوسط** : (633 -914 هـ / 1235 -1508 م) :

استغل بنو عبد الواد ضعف الدولة الموحدية وأعلنوا استقلالهم سنة 624 هـ / 1227 م ، واتخذوا تلمسان عاصمة لهم وكان يغمراسن بن زيان – أحد ولاة الموحدين في تلمسان – قد لعب دورا كبيرا في تأسيس إمارة بني عبد الواد وإقامتها ، فقد سمح للقبائل المنتمية إليهم وحلفائهم أن يتركوا الصحراء ويستقروا في سهول وهران ، وبعد سقوط الدولة الموحدية أخذوا على عاتقهم مهمة الدفاع عن تلك الأرض في وجه الهجمات الخارجية ، وكانت أيام الزيانيين حروبا متواصلة ضد جيرانهم المرينيين وقد سقطت تلمسان بأيدي المرينيين سنة 738 هـ/1337م إلا أن الزيانيين استعادوها سنة 750هـ/1349 م ،ثم هاجمها المرينيون مجددا واحتلوها سنة 753هـ/1352 م وما لبث الزيانيون أن استعادوها مجددا عام 761هـ/1359م وتعرضت تلمسان بعدها لهجمات الحفصيين منذ سنة 870هـ/1465مإلا أنها ظلت متماسكة حتى ظهر الإسبان على الساحة واضطر الزيانيون لتسليم تلمسان لخير الدين بربروسا التركي حتى لا تقع في يد النصارى وكان هذا فاتحة دخول الأتراك العثمانيين إلى بلاد المغرب الإسلامي .

- المرجع نفسه : ص 16-177-178 .

[3] **إمارة بني حفص بالمغرب الأدنى** : (625 -950هـ/ 1227-1446م) :

ينتسب الحفصيون إلى الشيخ أبي حفص يحي بن عمرو الهنتاني ، من قبيلة هنتانة أكبر قبائل مصمودة (راجع شجرة النسب البربري) ، وقد استقل بنو حفص عن كيان الدولة الموحدية في عهد أبي زكريا يحيى الحفصي الذي يمكن اعتباره المؤسس الحقيقي لهذه الإمارة ، وفي عهد السلطان أبي فارس عزوز (796-837ه) بلغت الدولة الحفصية أوج قوتها وأتته سفارات غرناطة وفاس ومصر تطلب الهدنة وإقامة العلاقات التجارية ، ومنذ أن توفي هذا السلطان سنة 838ه/1434م دب الاضطراب والفتور في أرجاء الدولة بعد أن حكم سلاطين ضعاف ، لتتحول تونس إلى هدف للضربات الإسبانية وهذا ما فسح المجال لقوات الأتراك للسيطرة عليها وإنهاء سلطان بني حفص فيها.

- المرجع نفسه : ص 178-179 -180

ومما يجدر ذكره أن مضارب هؤلاء لم تكن مريحة لأحد ، فالموت يتربص بالناس والخطر يحدق بالجميع في كل وقت وحين ، ذلك أن قوة كل إمارة – سواء من حيث العدة أو العدد – كانت ضئيلة بالقياس إلى قوة الموحدين أو المرابطين مثلا ، مما جعل مدن الإمارات دائما مسرحا للثورات والشغب وحتى للضربات النصرانية الموجهة من ممالك قشتالة وأرغون في الأندلس ، اللهم إذا استثنينا –أحيانا- قوة المرينيين التي استطاعت رد هجمات النصارى والمحافظة على توازن البلاد المغربية ردحا من الزمن ، بل وكانت تقدم على حرب الصليبيين في عقر ديارهم.

وكانت هذه الإمارات تعتمد على ولاء المقاتلة من القبائل وعلى العصبية لتحقيق التوسع شرقا وغربا على حساب الجار ، على عكس الموحدين أو المرابطين الذين كانوا يعتمدون على أواصر الدين والعقيدة لتحقيق وحدة المغرب الإسلامي كافة في مواجهة المد الصليبي المتعاظم .

وقد لعبت المرأة دورا محوريا في توجيه العلاقات بين أقطاب المغرب الثلاث ، ويكفي أن حصار أبي الحسن المريني [1] لتلمسان سنة 735 هـ/ 1335 م كان بإيعاز من زوجته وهي ابنة السلطان الحفصي أبي بكر المتوكل [2] ، فقد رأت أن بنيان دولة أهلها الحفصيين يتهاوى تحت ضربات الزيانيين الذين كانوا لا يحلون بأرض غازين إلا ويطلبون أخرى محاولين تعويض ما يخسرونه جراء المد المريني الذي يزحف عليهم غربا، ومن ثمة حضت المرأة الحفصية زوجها أبا الحسن على التحالف مع أبيها

---

[1] **أبو الحسن المريني** : (697-752 هـ / 1297-1351م) :

علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني ، أبو الحسن المنصور با : من كبار بني مرين ملوك المغرب ، كان يعرف عند العامة بالسلطان الأكحل لسمرة لونه ، وقد كانت أمه حبشية ، بويع بفاس بعد وفاة أبيه سنة 731هـ، وكانت حياته سجالا دائما مع بني زيان أصحاب تلمسان والثوار من عرب إفريقية وكذلك الإفرنج الذين انتصروا عليه وأغرقوا سفنه ...وكان مع بطولته له اشتغال بالأدب ، يقول الشعر ويجيد الإنشاء ، ولابن مرزوق كتاب في سيرته سماه " المسند الصحيح الحسن من أحاديث السلطان أبي الحسن "، وقال السلاوي عنه :" أفخم ملوك بني مرين دولة وأضخمهم ملكا وأكثرهم آثارا بالمغربين والأندلس " .

- الزركلي : الأعلام ، ج4 ، ص 311 .

[2] **أبو بكرالمتوكل الحفصي** : من أمراء الدولة الحفصية ، حكم لفترة طويلة بين سنوات 718-747هـ / 1318-1346م ، وقد كان له منافسون كثيرون في بجاية وقسنطينة إلا أن عهده كان عهد ازدهار شامل .

- د. حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، ج2 ، ص 209-249 .

ليضعا حدا للشغب الزياني ، يقول حسين مؤنس:<< لم يكُف أبو تاشفين بن يغمراسن[1] صاحب تلمسان عن مغاورة جيرانه في الغرب (المرينيين) ، وفي الشرق (الحفصيين) ، وتوالت استغاثات أبي بكر الحفصي من عدوان بني زيان الزناتيين أصحاب تلمسان على أراضيه ، وكان أبو بكر – كما ذكرنا – صهرا لأبي الحسن متزوجا من ابنته * ، فقرر الخلاص من هذا العدو المشاكس ، فسار إلى تلمسان سنة 786 هـ ** /1335 م بجيش كبير ولازم حصارها سنتين >> [2] .

وبهذا انكفأ الشرعن دولة الحفصيين بفضل تدخل المرأة الذي يعد حاسما في حالات كهذه.

---

[3] **أبو تاشفين** (692 -737 هـ / 1293 -1337 م):

عبد الرحمن بن موسى الأول (أبي حمو) بن أبي سعيد عثمان بن يغمراسن ، أبو تاشفين ، من بني عبد الواد سلاطين تلمسان ، قتل أباه وحل في الملك محله سنة 718 ه ، و انصرف إلى عمران بلاده ، ثار ضده السلطان أبو الحسن المريني صاحب مراكش ، وقتل أبو تاشفين ومن معه على أبواب قصره وهو يرد المرينيين عن بلاده ، قال عنه التنسي: << استولى على البدو والحضر ، واستخدم ربيعة ومضر ... وكان مولعا بتحبير الدور ، وتشييد القصور ، فخلد آثارا لم تكن لمن قبله ولمن بعده كدار الملك ودار السرور وأبي فهر ... وكانت عنده شجرة من فضة على أغصانها جميع الطيور الناطقة وأعلاها صقر ، فإذا استعمل المنفاخ في أصل الشجرة وبلغ الريح مواضع الطيور صوتت بمنطقها المعلوم لمشابهها ، فإذا وصل الريح موضع الصوت صوت (الصقر) فانقطع صوت تلك الطيور كلها >>.

- محمد بن عبد ا التنسي : تاريخ بني زيان ملوك تلمسان ، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان ، حققه وعلق عليه محمود بوعياد ، المؤسسة الوطنية للكتاب والمكتبة الوطنية الجزائرية ،الجزائر ، 1985 ، ص 139 -140-141 .

- الزركلي : الأعلام ،ج3 ، ص 339 .

* ربما توحي صياغة الجملة هنا بأن أبا بكر الحفصي تزوج من ابنة أبي الحسن المريني وذلك خطأ لأن العكس هو الصحيح ، وهناك من لا يؤكد خبر زواج أبي الحسن بابنة أبي بكر إطلاقا وإنما يرى أن الزواج كان من إحدى الأميرات الحفصيات فقط ، وذلك ما يورده عبد الحميد حاجيات بقوله : << لم يجد السلطان أبو يحيى (أبو بكر) بدا من الاستغاثة ببني مرين ، فأرسل إلى فاس وفدا ليطلب من أبي سعيد المريني مساعدته على دفع خطر بني عبد الواد ، ويعرض عليه عقد زواج بين ابنه أبي الحسن وإحدى الأميرات الحفصيات ، فاستقبل السلطان المريني هذا الوفد أحسن استقبال ، ووافق على تلبية طلب أبي يحيى وعلى عقد الزواج>> .

عبد الحميد حاجيات : أبو حمو موسى الزياني (حياته وآثاره)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط2 ، 1982 ، ص 19-20 .

** كذا وردت في الكتاب وهو خطأ مطبعي والصحيح هو سنة 735 هـ .

[2] د. حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، ج2 ، ص 50 .

ولم تكن حياة المرأة في قصر تلمسان وادعة مترفة على الدوام ، بل مرت ظروف عصيبة قلبت حياة البذخ والسرور إلى جحيم و نفور ، وقد استشعرت نساء القصر – في خضم ذلك الصراع – آلام العامة من الناس ، وأجهدهن ما أجهد الآخرين من الجوع أثناء حصار السلطان يوسف بن يعقوب المريني [1] لتلمسان ، وقد كنّ من الشرف والعزة بمكان فلم يرضين بأن يكنّ إماء في قصور مراكش وفاس حين أيقنّ بتسليم المدينة بعد نفاذ المؤونة ، ويظهر من النص الذي أورده السلاوي شموخ المرأة الزيانية ، فقد كانت تحث رجال الدولة والجند على الصمود والاصطبار على جهد الجوع – حتى لو أدى الأمر إلى الهلاك – على أن تفتح أبواب المدينة ليدخلها المرينيون ، يقول السلاوي ناقلا ما جرى من حوار بين الملك المحاصر ونساء القصر : << وإذا بدعد قهرمانة * القصر – وكانت وصيفة من وصائف بنت السلطان أبي إسحاق حظية أبيهم – قد خرجت من القصر إليهم وحيتهم وقالت لهم : تقول لكم حظايا قصركم وبنات زيان حرمكم مالنا وللبقاء وقد أحيط بكم ، وأسف عدوكم لالتهامكم ولم يبق الأفواق ناقة لمصارعكم ، فأريحونا من معرة السبي وقربونا إلى مصارعنا وأريحوا أنفسكم فينا ، فالحياة في الذل عذاب والوجود بعدكم عدم >>[2].

وقد كان بإمكانهن طلب الأمان لأنفسهن وأزواجهن وترك المدينة لجند بني مرين يستبيحونها كيفما شاءوا ، لكن على ما يبدو لم تكن النساء الزيانيات بأقل بسالة وجلدا عن رجالهن الذين عرفوا بالاستماتة في الدفاع عن الأرض وطول النفس في مواجهة الحصار

---

[1] **يوسف بن يعقوب المريني** : (685 -706 هـ / 1286 -1306م) :

أبو يعقوب يوسف بن يعقوب المريني الملقب بالناصر ، سادس الأمراء المرينيين ، ابتلي طوال حكمه بالثائرين عليه ، فقد ثار عليه أحد أقربائه بدرعة ، ثم مالبث أن انتفض عليه ابنه ، وخلع بنو وطاس هم الآخرون الطاعة أيضا سنة 1287 م ، ولكنه تغلب عليهم كلهم ، وفي سنة 698 هـ / 1299 م بدأ حصاره العنيف على تلمسان ، وقد دام ذاك الحصار ثمانية أعوام كادت تلمسان أن تسقط فيها لولا أنه تعرض لاغتيال من أحد خصيان القصر .

- السلاوي : الاستقصا ، ج1 ، ص 424 -425 .

* **قهرمانة** : القهرمان من أمناء الملك وخاصته ، لفظ فارسي معرب ، وفي الحديث : كتب إلى قهرمانه ، فهو كالخازن والوكيل الحافظ لما تحت يده والقائم بأمور الرجل بلغة الفرس .

- ابن منظور : لسان العرب ، ج11 ، ص 304 .

[2] السلاوي : الاستقصا ، ج1 ، ص 426 .

المشدد الذي يفرضه المرينيون على أسوار المدينة ، فكأنما ورثن تلك الخصال عن أزواجهن أو هن اللائي أورثن رجالهن ذلك .

ويبدو أن نساء قصر بني مرين ألفن هنّ الأخريات أجواء الحروب ، فكنّ يخرجن مع قادة الجيوش للقاء العدو ، ونحن لا ندري بالضبط أكان خروجهن عن رغبة منهن في مشاهدة قراع الكتائب وتصادم الفرسان أم أن ذلك كان محتما عليهن إذ كان الأمراء المرينيون يخشون أن يباغتهم عدو متربص فيستبيح حرمهم وولدانهم وهم غائبون ، وأيا كان الأمر فقد ألمت بالنساء من جراء خروجهن مع الجيش مآس كثيرة وذلك حين ينهزم الجيش الذي يكن فيه فينقلب سرورهن و غبطتهن حزنا وأسى ، وعزّهن ذلا إذا وقعن في أيدي العدو .

ويحدثنا التاريخ عن مأساة نساء أبي الحسن المريني اللائي خرجن معه للقاء جحافل النصارى عند مدينة طريف سنة 741 هـ / 1340 م ، ولم يكن يعلمن ما يخبئه القدر لهن إذ كانت قوة كبيرة من جند الصليب قد تسللت من خلف المسلمين أي من الضفة الأخرى للوادي الذي عسكروا فيه والمسمى نهر دي سالادو EL RIO SALADO وقد كان الناشبة والحرس من جند المسلمين على علم بهذا الاختراق الخطير لكنهم كتموا هذا الأمر عن السلطان أبي الحسن مخافة بطشه وعقابه [1] .

وما إن بدأت المعركة بين الفريقين المتقابلين حتى انسل هؤلاء النصارى إلى فسطاط السلطان حيث توجد نساؤه وحرمه وجواريه وأوقعوا بهن مذبحة مروعة تتنافى وكل القيم والمبادئ الإنسانية وما تعارف عليه الخصوم منذ القدم من الامتناع عن قتل النساء والولد في الحرب ، ينقل السلاوي فصول هذه المأساة بقوله : << ولما نشبت الحرب برز الجيش الكمين من البلد وهو الذي دخل ليلا ، وخالفوا المسلمين إلى معسكرهم وعمدوا إلى فسطاط السلطان فدافعهم الناشبة الذين كانوا على حراسته فاستلحموهم لقتلهم ، ثم دافعهم النساء عن أنفسهم فقتلوهن كذلك ، وخلصوا إلى حظايا السلطان منهن عائشة بنت عمه أبي بكر بن يعقوب بن عبد الحق ، وفاطمة بنت السلطان أبي بكر بن أبي زكريا الحفصي

---

[1] السلاوي : الاستقصا ، ج2 ، ص 34 .

وغيرهما من حظاياه فقتلوهن واستلبوهن ومثلوا بهن ، وانتهبوا سائر الفسطاط وأضرموا المعسكر نارا >>[1] .

ولعل هذه المذبحة أقضّـت مضجع السلطان طويلا ، ومن ثمة هدت كيانه وشردت طيب باله من نفسه ، وجعلته يهيم في الأرض يضرب بقواته خبط عشواء هنا وهناك ، والواجب ذكره أنه لم يكتب له نصر واحد بعد تلك الوقعة الأليمة ، وكأنه كسوف أبدي للنفس والسعد ، فقد أراد السلطان الجريح الثأر لهزيمته بشن حملة أخرى على النصارى سنة 743هـ / 1342 م ولكن أسطول النصارى هزمه[2] .

ويتضح من خلال إلحاحه على حرب النصارى وإمعانه في رسم الخطط وتجميع القوى لقتالهم أنه كان يريد الانتقام لنسائه ، ويبدو أيضا أن مذبحة النساء والمسلمين كافة في موقعة طريف لم تكن إلا حلقة من سلسلة مآس متتالية ألمت بالملك العنيد الذي يأبى الاستسلام والركون إلى الهزيمة ، فقد تمرد عليه ابنه أبو عنان فارس- الذي خلّفه قائما بالأمر على فاس – وأعلن نفسه سلطانا على بني مرين ، واضطر الأب لقتال ابنه ودارت الدوائر على الأب فانهزم سنة 1350 م ، ثم مرض ومات بعد أن << صارع الدهر وعواديه كما لم يصارع ملك آخر في تاريخ الإسلام >> [3].

---

[1] السلاوي : الاستقصا ، ج2 ، ص 34.

[2] د. حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ،ج 2 ، ص 48 .

[3] المرجع نفسه : ج2 ، ص 52 .

هذا عرض موجز وبسيط لتاريخ مشاركة المرأة المغربية في الحياة السياسية طوال القرون الثمانية الأولى للهجرة ، ولا شك أن القارئ يلاحظ الاختصار الشديد الذي أحدث شرخا تاريخيا في مختلف الفترات الزمنية المفترض دراستها وتغطية الأحداث فيها ، وقد كان هذا الأمر محتما علينا ، إذ لو تطرقنا بالتفصيل إلى جميع الدول والإمارات الناشئة ببلاد المغرب – وما أكثرها – لاستلزم الأمر عدة مجلدات من الكتب وآلاف الصفحات .

ويبدو الموضوع ممتعا ومفيدا لمن أراد التوسع فيه والبحث التفصيلي عن دور المرأة السياسي وتأثير الأحداث عليها .

ولننتقل سريعا إلى تناول الأدوار الأخرى التي لعبتها المرأة بالموازاة مع دورها السياسي ألا وهي دورها في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، وهنا تبرز المرأة أكثر لأنها هي العنصر المجدد للمجتمع والمؤثر في مختلف أطيافه ، إضافة إلى أن المجتمع بدُوره وأسواقه وعاداته وتقاليده هو الفضاء الحيوي لنشاط المرأة والمكان المفضل لديها نظرا لبساطته الذي يتلاءم مع بساطتها بعيدا عن تعقيدات الخطط الحربية وتضارب المصالح والأجواء المشحونة التي يفضلها الرجال ويخوضون فيها .

ب/ في الحياة الاجتماعية والاقتصادية:

إن المرأة أساس الحياة الاجتماعية ، ويمكن هنا الحديث عن طريقة اللباس والمأكل، والمشاركة في تحمل أعباء الحياة اليومية عبر المساهمة في ضمان قوت العيال .

وللمرأة المغربية طريقة فريدة في ارتداء الملابس ، وبها تتميز ، فحيثما شاهدتها لن تشك في أصولها المغربية وذلك من خلال وفرة الألوان الزاهية – التي تحيل على ثراء وتنوع الطبيعة المغربية – وعرض الأكمام ، ووضع الحلي بشكل لافت ، ونجد الحسن الوزّان يصف النساء الفاسيات بقوله : << ولباس النساء جميل جدا ، إلا أنهن لا يرتدين في أيام الحر سوى قميص يحزمنه بنطاق لا يخل من قبح ، ويلبسن في الشتاء ثيابا عريضة الأكمام ومخيطة من أمام كثياب الرجال ، وعندما يخرجن يلبسن سراويل طويلة تستر كل سيقانهن ، وخمارا على عادة نساء الشام يغطي الرأس وسائر الجسم ، ويحجبن الوجه كذلك بقطعة من قماش لا تظهر منها إلا عيونهن >> [1] .

ولم تكن المرأة الفاسية تتكل على ما يجلبه التجار الجوابون من ملابس ومواد الزينة بل كانت تغزل وتنسج وتحيك الثياب ، ولها في ذلك خبرة مشهودة إلى اليوم ، وكان التجار وقبلهم الصباغون وصانعوا الأدوات المنزلية يتسابقون لشراء ما تبدعه أناملها فهي << العنصر الأساسي في صناعة النسيج ، ويقوم بالصباغ فنيون استخدموا مواد معدنية خاصة ، واشتهرت فاس [2] بزركشة المنسوجات وصبغها باللونين القرمزي والأرجواني

---

[1] الحسن بن الوزان الفاسي : وصف إفريقيا ، ترجمه عن الفرنسية : محمد حجي ومحمد الأخضر ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1983م ، ص 252 .

[2] **فاس** : أسست المدينة من قبل أحد الشيعة وهو إدريس بن إدريس عام 185 هـ أيام الخليفة العباسي هارون الرشيد ، وسميت هذه المدينة " فاسا" لأنه عثر في أول يوم شرع فيه في حفر الأرض لإرساء الأسس فأسا من ذهب ، ويرى البعض أن المكان الذي أسست فيه كان يحمل اسم فاس بسبب النهر الذي يخترقه ، إذ النهر بالبربرية يقال له " ساف " فقلب هذا اللفظ إلى " فاس " .

ويشق مدينة فاس نهر في الوسط ، والمعروف أن المدينتين المتميزتين اللتين تكونت منهما أسستا على الضفة اليمنى الشرقية للنهر والضفة اليسرى الغربية سنة 192 ه و 193 ه تباعا .

وهي أكثر بلاد المغرب يهودا يختلفون منها إلى جميع الآفاق ، وفي المدينة أكثر من ثلاثمائة رحى وعشرين حماما وثلاث جوامع ، وفي كل يوم من أيام الصيف يرسل في أسواقها من نهرها الماء فيغسلها فتبرد الحجارة وجميع ما بها من الفواكه والغلات ...

- الحسن الوزان : وصف إفريقيا ، ص 218 -219 .

وصنعت نساء سجلماسة أثوابا يبلغ الواحد منها عشرين مثقالا ، وصنعوا من الجلود سرج الخيل والدواب والحقائب وجلدوا الكتب ، ومن منتوجاتهم الأدوات المنزلية والقدور النحاسية والخزفية والبسط والحصر >> [1] .

ويرى حسين مؤنس أن هذه الصناعات وافدة على أرض المغرب ، وأن سكانه تعلموها من الأندلسيين وأتقنوها بسرعة ، ففاقت البضائعُ المستحدثةُ الأصليةَ جودة وجمالا يقول : << وإذا كانت الأسواق والقيسارية قد قامت في عدوتي فاس من أول الأمر، فقد قامت في نفس الوقت الصناعات التي جلبها الأندلسيون معهم ، ثم لم تلبث أن أصبحت مع الزمن مغربية أصيلة ، وخاصة صناعة الجلود ودباغتها والزرابي المغربية والأحذية الفاسية ، وصناعات المعادن والنقش عليها >>[2] .

ولم تكن هذه الصناعة تمليها الظروف الاقتصادية " الصعبة " بالنسبة للطبقة المتوسطة أو الفقيرة ، بل كانت حاجة اجتماعية تمليها رغبة الإنسان المغربي في الظهور بزي حسن ، ومظهر أنيق خاصة في الأعياد والاحتفالات والمناسبات المختلفة ، فهم << يهتمون بهندامهم لأنهم كانوا يعتبرون اللباس من أهم مظاهر المكانة الاجتماعية ، فنسجوا الملابس من المواد الأولية المحلية كالقطن والكتان والتصوف ، منها زي شعبي يسمى السفاري وكذلك التلمساني >>[3] .

ولا يفوت النساء الفاسيات التزين بالحلي والأساور الذهبية والفضية ، وقد كانت تجارة رائجة تبذل المرأة الغالي والنفيس في سبيل الحصول على ما يبهرها دوما ، فهن << يضعن في آذانهن أقراطا كبيرة من ذهب مرصع بحجارة كريمة بديعة ، وفي معاصمهن أساورهن ذهب كذلك ، سوار في كل ساعد ، قد تبلغ زنته مائة مثقال (نحو 350 غرام) وتتحلى نساء غير الأعيان بأساور من فضة ، ويضعن (خلاخل) مثلها في أرجلهن >> [4] .

---

[1] د. سعدون عباس نصر ا : دولة الأدارسة في المغرب ، ص 142 .

[2] حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، ج1 ، ص 417 .

[3] د. سعدون عباس نصر ا : دولة الأدارسة في المغرب ، ص 141 .

[4] الحسن الوزان : وصف إفريقيا ، ص 252 .

ولا شك أن ولع المرأة الأبدي بما تضعه على جيدها ومعصمها خلق حركية اقتصادية هامة أنعشت نفوس الطبقة الكادحة وملأت جيوبهم حينا ، فالأثرياء والأعيان لا مجال للحصول على مالهم إلا بواسطة نسائهم اللواتي يدفعنهم لشراء ما يردن .

والمرأة لا بد لها أن تلتفت لشؤون البيت ، بإعداد الطعام والتصرف في شؤون الأسرة وتربية الأولاد ، وهنا نجد التمايز عبر أطباق الطعام المُعَدة ، وقد اشتهرت المرأة الفاسية بطعام " الكسكسو " أو " الكسكسي " الطبق المفضل في الولائم والأعراس و << ويصنعونه من دقيق مبلل يحول إلى حبيبات في حجم حبات الكزبرة ، تنضج في قدر ذات ثقوب (كسكاس) تسمح بطلوع بخار من قدر أخرى ، ثم يخلط هذا الدقيق المتبخر بعد نضجه بالسمن ويسقى بالمرق >>[1] .

أما في المغربين الأوسط والأدنى ، فكان هناك طعام مختلف ولم تشر المصادر المتوفرة إلى أن النساء كن يحضرن الكسكسي كالنساء الفاسيات ، وهذا لا يمنع وجوده فقد يكون الرحالة والمؤرخون أهملوا ذكره في تصانيفهم ، وبالمقابل هناك ذكر لبعض الأطعمة المعدة ، ويبين إدريس كل ذلك ، فيرى << أن الكسكس غير مذكور في النصوص الزيرية ، وأن الخبز كان يعجن في الدار ثم يحمل إلى فرن المدينة ، وأن الشعير والحنطة والفول والحمص كانت تحمص في أغلبية الأحيان أما عن الأطعمة فأشهرها "البسيسة" التي كانت تصنع بسميد الشعير المحمص والزيت والماء ، والهريسة التي كانت تطبخ بالقمح واللحم المرحيين ولحم الدجاج بزيت الزيتون >> [2] .

ولا عجب أن نجد طعام أهل المغرب هكذا ، فقد كان القمح أهم منتوج لديهم ، يبذرونه خريفا ليحصدوه أضعافا مضاعفة صيفا ، وكانت التلال والسهول الواسعة والممتدة جنوبا من شرق السلسلة الأطلسية إلى غربها مكانا نموذجيا لزراعة القمح والشعير ، أما وفير الإنتاج فيحفظ في مخازن معدة لذلك الغرض ، ونرى الطعام المعد من النسوة سواء " الكسرة " أو " الكسكسي " وغيرهما يتشكل عنصره الأساس من

القمح المطحون ، يضاف إليه التوابل والخضر .

---

[1] الحسن الوزان :وصف إفريقيا ، ص 253 .

[2] رشيد بورويبة : الدولة لحمادية تاريخها وحضارتها ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1397 ه/ 1977 م ص 162 ، نقلا عن :

IDRIS : La berberie orientale sous les zirides , t2 , p 591-593.

تقاليد الزواج :

أما عند الزواج فتحظى المرأة في فاس والمغرب الأقصى عموما بتقدير كبير ، ويسعى الخاطب جاهدا لإرضاء المخطوبة بما يقدمه من صداق وهدايا ، << فيقدم في العادة المدنيون من متوسطي الحال ثلاثين مثقالا نقدا وجارية سوداء قيمتها خمسة عشر مثقالا ، وقطعة قماش من نسيج الحرير والكتان ذات ألوان مختلفة متقاطعة ومناديل صغيرة من حرير يغطى بها الرأس >> [1] .

ولا يعني تكفل الخاطب بلوازم العروس إعفاء وليها من الإسهام في تجهيزها ، ودفع مصاريف العرس ، بل إن ما يدفعه الولي يفوق ما يقدمه الخاطب ، فهو يصرف << زيادة على الثلاثين مثقالا التي هي قدر الصداق ، مبلغا من مائتين إلى ثلاثمائة مثقال لتجهيز الزوجة بما يلزم من ملابس وأثاث البيت .. وعدد من القمصان وأغطية الفراش المطرزة والموشاة حواشيها بالحرير >>[2] .

وتشارك سائر النساء والفتيات العروس فرحتها ، ويظلن بجانبها إلى الأيام التي تلي دخولها على زوجها ، حيث << تأتي النساء المتخصصات في تجميل العرائس ، فيمشطن شعرهن ، ويزين خدودهن بالحمرة ، ويخضبن أيديهن وأرجلهن بالسواد مع رسوم جميلة ... وتوضع العروس فوق منصة ليشاهدها الجميع ، ويقدم الطعام للسيدات اللواتي قمن بتجميلها >>[3] ، وتكون مظاهر الفرح أكبر عند بيت العريس ، ويعد الطعام للضيوف والمدعوين وحتى عابري السبيل لأيام عديدة ، ويشارك أهل القرية أو الحي أهل العريس فرحتهم ، وبالمحصلة << كانت الاحتفالات تستمر عادة أسبوعا حتى تنتقل العروس إلى منزل الزوجية >> [4] .

ودائما ما تعتري الحياة الزوجية ظروف مرتبطة أساسا بتأثيرات الحياة الاجتماعية،فتظهر الخلافات بين الزوجين ، وقد لا يحصل تفاهم بينهما ، وجرت العادة أن يهجر الزوج

---

[1] الحسن الوزان : وصف إفريقيا ، ص 245 .

[2] المصدر نفسه : ص 254 .

[3] المصدر نفسه : ص 256 .

[4] د. محمد عيسى الحريري : تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني (610 ه / 1213 م – 869 ه / 1465 م) ، دار القلم ، الكويت ، ط1 ، 1405 ه / 1985 م، ص 335 .

زوجته [1] إذا تلاحيا أو غضب منها ولكن الأمر مختلف ببعض بلاد المغرب ، إذ نجد الزوجة هي من يهجر دار الزوجية وتفر منها ، ولها في مثل هذه الحالات أمور تتبع أصبحت مع الزمن أعرافا ثابتة ، يقول الحسن الوزان : << ومن عادات نساء هذه البلاد الفرار إلى جبل آخر إذا لم يرضين بأزواجهن ، وتترك المرأة الهاربة أولادها ، وربما اتخذت زوجا آخر في الجبل الذي تقصده إذا كان عدوا لجبل زوجها ، وذلك ما يسبب الخصومات ، لكن غالبا ما يقع الاتفاق إما بأداء مبلغ من المال وإما بمبادلة أخرى ، كأن يزوجَ الرجلُ الذي أخذ الهاربةَ إحدى بناته أو أخواته لزوج المرأة الهاربة >> [2] .

ونحن وإن عرضنا مثل هذه الحالات الشاذة فلا يجب أن تعتبر مقياسا لحياة المرأة وعملها حيث أن مثل تلك " الجهالات " في الحياة الزوجية قضى عليها الإسلام ، وفقه أهل المغرب ما أقره الدين حيال علاقة الزوجين ،<< ففي القيروان كان النساء في أوائل العصر الوسيط ، ما زلن يتمتعن بنوعين متقاربين من عقود النكاح الخاصة التي كانت تحميهن من مغيب الزوج مدة طويلة ومن زواجه بامرأة ثانية ، وتوجد بالجامع الأعظم بالقيروان عدة عقود يرجع تاريخها إلى العهد الموحدي الحفصي ، تبين لنا النوع الأول أو الثاني من تلك الشروط أو النوعين معا ، وقد حررت تلك الشروط على حدة ، باعتبارها

تفويضا خاصا من الزوج ...، وبمقتضى الشروط المذكورة يعترف الزوج مسبقا بحق الزوجة في تطليق نفسها إذا غاب عنها أكثر من مدة معينة ...وعلاوة على ذلك يسمح لها

---

[1] قال رسول ا صلى ا عليه وسلم في خطبة الوداع : << **أَيهَا الناسُ ،إنَّ لِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًا ، وَلَكُمْ عَلَيْهِن َحَقٌ ، لَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَلَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ غَيْرَكُمْ ... وَلَا يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَينَةٍ ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَعْضُلُوهُنَّ وَتَهْجُرُوهُنَّ فِي المَضَاجِعِ** >> .

- الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج2 ، ص156.

وقد جرت العادة أيضا عند العرب أن يهجر الزوج زوجته ، وقد هجر أبو حمزة الضبي خيمة زوجته لأنها أنجبت له البنات فقط << وكان يقيل ويبيت عند جيرانه ..فمر يوما بخبائها وإذا هي ترقصها (أي الطفلة الصغيرة) وتقول :

مَا لِأَبِي حَمْزَةَ لَا يَأْتِينَـا يَظَلُّ فِي البَيْتِ الذِي يَلِيـنَا

غَضْبَانُ أَلَّا نَلِدَ البَنِينَــا تَاللهِ مَا ذَاكَ فِي أَيْدِينَـا

وَإِنمَا نَأْخُذُ مَا أُعْطِيــنَا وَنَحْنُ كَالأَرْضِ لِزَارِعِيـنَا

ننبت ما قد زرعوه فينـا

- المصدر السابق : ج1 ، ص 186 و ج4 ، ص 47-48 .

[2] الحسن الوزان : وصف إفريقيا ، ص236 .

في بعض الوثائق الأخرى بتطليق الزوجة الثانية التي يكون قد تزوجها >> [1]، كما كانت هناك أحكام فقهية تحمي الصبايا الإناث من الزواج الجبري << ففي البلاد التونسية كان العرف الفقهي في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، يقضي بعدم زواج البنت غير البالغة بمطلق الحق إذا كان سنها دون العاشرة ، وبدون موافقة القاضي >> [2] .

ومن هنا نرى أن حقوق المرأة حفظت في المجتمع المغربي ، ولم تكن وسيلة لإشباع الغرائز متى شاء الرجل ذلك ولو خلف ستار " الزواج " .

وأهل المغرب أكثر حفاظا وأشد توقيا في أمور الدين ، فالفرح لا يعني التبرج والمكاشفة والسفور واختلاط الرجال والنساء،بل يحرصون على ستر نسائهن دون التضييق عليهن<< وترقص النساء بمعزل عن الرجال ، ولهن حفلاتهن الراقصة ومغنياتهن وعازفاتهن >> [3] .

ولم تكن المحافظة تقتصر على الأفراح، بل كان التشدد في لباس المرأة وضرورة ستر مفاتنها في الطرقات والأسواق أمرا محسوما و مظهرا دائما خاصة في المغرب الأقصى الذي عرف بتشدده في هذه القضية خلاف ما نجده في المغربين الأوسط والأدنى ومرد ذلك اتصال هذين الأخيرين بالجنوب الأوربي ودخول لباس النساء الأوربيات إلى أسواق القيروان والمهدية وبجاية وشرشال [4] ، على عكس المغرب الأقصى الذي ظلت تحكمه قبائل المصامدة الرافضة لأي تغيير في أسلوب حياتها وطرق اللباس عندها ، ثم بروز

الحركة الدينية الموحدية فيها ، والصرامة التي طبعت رجالها في التعامل مع المرأة حيث ألزمنها البيت ، وقطعوا أسباب الرذيلة بغلق دور اللهو والمجون ، وعقاب أصحاب

---

[1] روبار برنشفيك : تاريخ إفريقية في العهد الحفصي (من القرن 13 إلى نهاية القرن 15 م) ، ترجمة : حمادي الساحلي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1988 ، ج2 ، ص 175 .

[2] المرجع نفسه : ج2 ، ص175 .

[3] الحسن الوزان : وصف إفرقيا ، ص 257 .

[4] يقول :د .حسين مؤنس : << إن العلاقات التجارية كانت نشيطة بين موانئ المغرب كله مع بيشة pisa وجنوة والبندقية ومرسيليا ، وأثبت كذلك أن وفود تجار الإفرنج كانت كثيرة في تونس ، وكان تجارها يشترون أشياء كثيرة أهمها جلود الشياه والمعز والشمع ... والفرش وهي البسط والسجاجيد والدبيات أو الزرابي وأنواع معينة من الأقمشة ...بل هناك وثيقة تدل على أن تجار الإفرنج كانوا يبيعون في موانئ المغرب نبيذا >> .

- د.حسين مؤنس :تاريخ المغرب وحضارته ، ج2 ، ص 199 .

الحانات والمواخير دون رحمة أو شفقة ، وقد كانت دعوتهم الإصلاحية[1] هذه من أهم أسباب نجاح دولتهم ، وكان الداعون إليها لا يخشون في دعوتهم تلك أي أحد ، فقد نقل عن ابن تومرت أنه كان يدعو الناس للاستقامة أيام حكم المرابطين دون خشية من أحد.

طقوس الموت :

أما حين تحل فاجعة الموت بذوي المرأة أو زوجها ،فنرى منها طقوسا مغايرة ، تحرص على أدائها وذلك إكراما لمن أطعمها وكساها أو صانها وحماها ، وينقل الحسن الوزان أجواء الجنائز ومراسيم الوفاة وما تفعله النسوة حيال الفجيعة فيقول : << تجتمع النساء إذا مات لهن زوج أو أب أو أخ مرتديات لباسا خشنا ، ويلطخن وجوههن بسواد دخان القدور، ثم يستدعين أولئك الأنذال الذين يتجولون وهم لابسون ثياب النساء ، ليضربوا على دفوف مربعة ويرتجلوا أنظاما حزينة مبكية في رثاء الميت ، وفي آخر كل بيت تصيح النساء ويخدشن صدورهن وخدودهن حتى يسيل منها الدم بغزارة وينتفن شعورهن نائحات مولولات ، يدوم ذلك سبعة أيام ، وبعد أربعين يوما يستأنفن نحيبهن لمدة ثلاثة أيام >>[2].

ولا شك أن هذه الطقوس الحزينة متوارثة أو " موحدة " لدى النساء إن في المشرق أو المغرب ، إذ سبق وأن نقل لنا المهلهل[3]أجزاء الحزن عقب مقتل أخيه كليب وائل واصفا

---

[1] كان المهدي يختلف إلى مجالس أبي بكر الطرطوشي الفقيه بمصر << ويبدو أنه كان ساخطا على مظاهر الترف التي أقبل عليها أهل الإسكندرية ، فأحس ابن تومرت منذ ذلك الحين أن عليه رسالة لابد من أن يقوم بتحقيقها في حماسة المقتنع الملهم ، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأفضت به تعاليمه هناك إلى نفيه من المدينة >> ،ولما وصل المنستير (تونس) << كان الفقهاء يأتون لسماعه في شهر رمضان ، فلما انتهى هذا الشهر وأقبل العيد خرج الرجال والنساء لصلاة العيد في الشريعة (أي المصلى) فلما رآهم ابن تومرت تناول عصاه ، وأخذ يضربهم بها يمينا وشمالا حتى بدد جموعهم >> .

- د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب الكبير ، ج2 ، ص 771-773 .

[2] الحسن الوزان : وصف إفريقيا ، ص 258 .

[2]**المهلهل** : (؟ -531 م) : اسمه امرؤ القيس بن ربيعة بن الحارث التغلبي ، ويقال إن سمه عديا ، وسمي مهلهلا لأنه هلهل الشعر أي أرقه ، ويقال إنه أول من قصد القصيد ، ولقب كذلك بالزير لكثرته مجلسته النساء .

- البغدادي : خزانة الأدب ، ج2 ، ص 144-145 .

خروج النساء حاسرات الرؤوس نادبات على من كان عز القبيلة ومجدها الأثيل : يقول : [من البسيط]:

كنا نغَارُ عَلى نِسَائِنَـا أنْ تُرَى بِالأمْسِ خَارِجَةٍ عَـن الأوْطَان

فَخَرَجْنَ حِينَ ثَوَى كُلَيْبُ حُسرًا مُسْتَيْقِنَـاتٍ بَعْـدَهُ بِهَـوَان [1]

وهكذا نرى هول الفجيعة يخرج النساء من بيوتهن حاسرات رغم امتعاض الرجال من ذلك ، ولكن يتم التجاوز عن هذا السلوك إلى أن تهدأ النفوس المفجوعة .

وطريقة الندب التي حكاها الوزان آنفا لدى النسوة المغربيات نجدها بصورة مشابهة عند النسوة المشرقيات ، فقد كان النساء في الجاهلية يضربن على وجوههن بالنعال ويحلقن رؤوسهن إذا فقدن عزيزا ، وقد قالت الخنساء[2] في رثاء أخيها معاوية : [من الوافر]:

أَرِيقِي مِنْ دُمُوعِكِ وَاسْتَفِيقِـي وَصَبْرًا إنْ أَطَقْتِ وَلَنْ تُطِيقِـي

وَقُولِـي إنَّ خَيْـرَ بَنِي سُلَيْـمٍ وَفَارِسَهَا بِصَحْرَاءِ العَقِيـق ...

وَلَكِني رَأَيتُ الصبْـرَ خَيْـرًا مِنَ النعْلَيْن وَالـرَّأس الحَلِيـق

فَبَكِـيهِ فَقَـدْ أَوْدَى حُمَيْـدًا أَمِينَ الرَّأيِ مَحْمُـودَ الصـدِيق [3]

وهكذا كانت المرأة في الجاهلية دائما كما قال المبرد << إذا أصيبت بحميم جعلت في يديها نعلين تصفق بهما وجهها وصدرها >>[4] .

ولما جاء الدين الإسلامي عدلت النساء – بعض الشيء – عن تلك الأفعال وهذا راجع إلى أحاديث النبي صلى ا عليه وسلم الناهية عن المبالغة في إظهار الجزع عند مصيبة الموت ، قال صلى عليه وسلم : << **لَيْسَ مِنا مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيةِ** >>[5]، والحديث طبعا موجه للنساء ،وكذلك أوصى رسول ا من

---

[1] المهلهل : ديوان المهلهل ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، د ت ، ص 85 .

[2] **الخنساء :** (575 -664 م) : تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية ، وهي صحابية قدمت على النبي عليه الصلاة والسلام وأسلمت مع قومها ، وهي أم العباس بن المرداس ، اشتهرت برثائها وبكائها على أخيها صخر .

- البغدادي ، خزانة الأدب ، ج1 ، ص 413-414 .

[3] الخنساء : ديوان الخنساء : المكتبة الثقافية ، بيروت ، لبنان ، 1979 ، ص 79-80 .

[4] أبو العباس محمد بن يزيد المبري النحوي : الكامل في اللغة والأدب ، تحقيق : يحي مراد ، مؤسسة المختار ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 1425هـ/2004م ، ص 784 .

[5] البخاري : صحيح البخاري : ج2 ، ص133 .

بايعنه من النساء << **فَعَنْ أُسَيْدٍ بْنِ أَبِي أُسَيْدٍ التابِعِي ، عَن امْرَأَةٍ مِنَ الْمُبَايِعَاتِ قَالَتْ : كَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ فِي الْمَعْرُوفِ الذِي أَخَذَ عَلَيْنَا أَلا نَعْصِيهِ فِيهِ : أَلا نَخْمِشَ وَجْهًا ، وَلَا نَدْعُوَ وَيْلًا ، وَلَا نَشُق جَيْبًا ، وَلَا نَنْشُرَ شَعْرًا** >>[1] .

وربما كان لبعد أرض المغرب عن الهدي النبوي الشريف السبب في ترسخ العادات والطقوس على نحو ما رأينا في نفوس النساء المغربيات ، حيث لم يكن للعمل الدعوي الذي قام به الفقهاء[2] أثر كبير في نفوس المغاربة طالما أن نيران الحروب كانت مشتعلة دائما ، وتهديم الأبنية والمدارس والزوايا والكتاتيب أمرا متكررا ومألوفا من قبل القوى المتصارعة في المغرب ،وقد يكون سبب آخر متصل بما ذكرنا وهو كثرة الفجائع على الأهل والولد ، حيث لم تنجلي المعارك الناشبة هنا وهناك إلا عن مزيد من القتلى ، وكان حظ المرأة من ذلك الندب والعويل والحسرة الدائمة والتي تفضي إلى طريقة ندب لا تقل ألما عن القتل نفسه .

وقد كانت المرأة ضحية الحروب بما يعتصر قلبها من ألم الثكل والترمل ، وفي الوقت نفسه ظلت سببا في اندلاع النزاعات وهي براء منها << إذ لم تكن إلا عرضا يحمى بالسيف أو عرضا يسلب بالسيف ، وجعلها ذلك منهم بمنزلة الذاكرة من وقائع التاريخ ، فهي التي تذكرهم الثأر وأيام الدم ، وهي التي لا تنسى شيئا مما هيأتها لها الطبيعة الاجتماعية في أرضها وقومها ، فإن كانت لم تعش إلا في ظلال السيوف ، وإن كانت أما

[1] أبو داوود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي : سنن أبي داوود ، مراجعة وضبط : محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، دت ، ج1 ، ص95 .

[2] في عهد الخليفة الأموي الراشد عمر بن عبد العزيز حل بإفريقية عشرة فقهاء يعلمون الناس الحلال والحرام ومبادئ الدين الحنيف ، ثم ما لبثوا أن انساحوا في كامل أرجاء المغرب ليكملوا المهمة ، وبنوا مساجد يعلمون فيها أهل المغرب الإسلام والعربية ، ومن هؤلاء حيان بن جبلة القرشي (ت 125 هـ / 742 م) ، وإسماعيل بن عبيد ا الأنصاري (ت 132 ه / 749 م) ، وعبد الرحمن بن رافع التنوخي (ت 13 هـ / 731 م) ...

- د. عبد الحميد حسين حمودة : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، ص 171-172 .

لم تلد إلا قاتلا أو مقتولا ، فهي في الأولى يتصل بها تاريخ القتلى من أهلها ، وفي الثانية تتصل هي بتاريخ القتلى من ذويها >>[1] .

تلك هي الثنائية الضدية المحيرة التي كابدتها المرأة واصطلت بنارها دوما طالما أنها عاشت في << **منطقة هي موطن الذكر الخالد** >> [2] حسب تعبير أحدهم .

وعلى كل نرى الأثر الإسلامي المحمود يتأصل في النفوس مع مرور الزمن ببلاد المغرب ، ولا نكاد نصل إلى العصر المريني حتى نلحظ التعاليم الحقة والخالية من البدع والضلالات ، فحينها << كان محظورا على النساء السير في الجنائز ، بل يسير الرجال مرددين بعض الأدعية الدينية >>[3] وفي هذا تحول كبير حيال تعامل المرأة مع الأحداث الاجتماعية ومشاركتها فيها .

السحر والكهانة :

ولم تقتصر حياة المرأة ويومياتها على التأثر بما يحدث على الساحة الاجتماعية ، بل نما نشاطها وامتد إلى التأثير في الآخرين ، وقد كان السحر والكهانة ميدانا خصبا لنشاطها وبلغت فيه شأوا كبيرا عبر المعرفة الدقيقة بالطلاسم والطقوس المتبعة في عملية السحر والشعوذة ، والنساء المغربيات على درجة كبيرة من الذكاء حيث يستدرجن المغفلين والمؤمنين بمفعول السحر ويلقين في قلوبهم الرعب عبر زعمهن مثلا أنهن على اتصال دائم بعالم الجن والشياطين يرافق ذلك مقدرة فائقة على استحضار هذين الأخيرين –عبر التمويه- واستخدامهم في كل الأمور الطارئة –حسب زعمهن طبعا– وبذلك يدفع "الزبون " بلا حساب .

ويصف الحسن الوزان العرافات في فاس بقوله:<< يوهمن العامة أنهن يرتبطن بصداقة مع شياطين من أنواع مختلفة ، يسمين بعضهم بالشياطين الحمر ، وبعضهم بالشياطين البيض أو السود ، وعندما يطلب منهن أن يتنبأن بشيء من الأشياء يتطيبن بعطور مختلفة

---

[1] الرافعي : تاريخ آداب العرب ، ج3 ، ص 49 .

[2] جاك بيرك : العرب تاريخ ومستقبل ، تعريب وتعليق : خيري حماد ،الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، مصر ، 1971 ، ص 225 .

[3] د. محمد عيسى الحريري : تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني ، ص 335 .

الروائح ، فيدخل فيهن الشيطان الذي دعونه حسب زعمهن ، ويغيرن حينئذ أصواتهن ليوهمن أنه المتكلم بفمهن ، والشخص الذي أتى لشيء يريد أن يعرفه ، سواء كان رجلا أو امرأة ، يطلب ذاك من الروحاني بكثير من الاعتبار والضراعة ، فإذا حصل على الجواب ترك هدية للشيطان وذهب إلى حال سبيله >>[1] .

وكانت النساء وهي الفئة الأكثر إيمانا بهذه الخرافات ، يخرجن إلى الطريق بفاس ويتصدين إلى المشعوذين طالبات منهم قراءة السعد ، وهذه الخرافات كانت جزءا لا يتجزأ من واقع حياة المرأة المغربية ، فالمشعوذون << يجوبون المدينة وهم يرقصون القردة ويحملون الأفاعي في أيديهم وحول أعناقهم ، يقومون أيضا بأشكال من خط الرمل ويخبرون النساء بما سيكون في المستقبل >> [2] .

ولم تكن نساء المغرب الأوسط بعيدات عن أجواء الشعوذة ولا أقل إيمانا بها من نظيراتهن الفاسيات ، فالنساء العنابيات لازلن في اعتقادهن الجازم بحقيقة السحر وقوة مفعوله وسطوة مريديه ، ويغلب عليهن استخدام الأعضاء الجسدية للحيوان مع إضافة التعويذة اللازمة لتكتمل فصول " الشعوذة " ، وينقل لنا الوزان إحدى تلك الفصول المضحكة ، فيقول : << يوجد حمام مكون من عين ماء ساخن يتدفق بين أحجار ضخمة ، ويعيش فيها عدد كبير من السلاحف ، تعتقد النساء أنهن شياطين ، وإذا اتفق أن أصيبت إحدى النساء بالحمى أو غيرها تقول أن ذلك يرجع إلى السلاحف ، وللتخلص من الداء تذبح دجاجة بيضاء تضعها في إناء بريشها الكامل ، ثم تربط حول الإناء شمعات وتحمله إلى العين حيث تتركه ، وكم من الظرفاء تبعوا امرأة وهي تتوجه إلى العين حاملة معها الإناء والدجاجة ، وأخذوا الإناء بعد انصرافها ، ثم طبخوا الدجاجة وأكلوها ! >>[3] .

وأيا كان الأمر فانتشار مثل هذه الأعمال المضللة والممارسات المنافية للشرع تحيل على فترة زمنية صعبة وحالة معيشية قاسية كابدتها الطبقة الفقيرة التي أصبحت تستخدم شتى الطرق والوسائل للحصول على المال والخروج من دائرة الفقر بالنسبة للممارس أو الزبون .

---

[1] الحسن الوزان : وصف إفريقيا ، ص 263 .

[2] المصدر نفسه : ص 276 .

[3] المصدر نفسه : ص 59 .

ثم إن جيوب الفقر التي كانت منتشرة في المدن والقرى التونسية دفعت بالكثير من النساء إلى ممارسة البغاء والعهر لدفع الفاقة عن أنفسهن وبالتالي كان تفشي الرذيلة أمرا علنيا ومكشوفا لم يستطع أحد رده أو إيقافه طالما أن الأمراء مهتمون إما بقصورهم وجواريهم، أو بالحروب وتجهيز الجيوش ، ولم ينتج عن ذلك إلا مزيد من المكوس والضرائب تدفعها الطبقات الفقيرة لنزوات الأمراء وطلباتهم التي لا تنتهي ، يقول الوزان : << إن البؤس الذي يفتك بضعفاء الشعب في تونس يؤدي بكثير من النساء إلى الاتجار بمفاتنهن بأبخس الأثمان >>[1] .

وقد أدت السياسات المفلسة للحكام إلى تصدع في القيم وانتشار الرذيلة في ربوع عديدة من بلاد المغرب وكان أن أنشئت دور لممارسة البغاء ، ويذكر الحسن الوزان أنه كان بفاس<< دور عمومية تمارس فيها البغايا مهنتهن بثمن بخس ، تحت حماية رئيس الشرطة أو حاكم المدينة ، كما يتعاطى بعض الرجال - دون أن يثير غيظ البلاط -مهنة البغاء فيتخذون في بيوتهم نساء عاهرات وخمورا يبيعونها ، بحيث يستطيع كل واحد أن يتناول من ذلك ما يشاء بكل طمأنينة >>[2] .

ومن الغريب أن نجد رجال الشرطة يحمون ويؤطرون لتلك المظاهر المشينة ، ولكن وكما قلنا فسياسة الدولة هي في الحقيقة من كان يدفع إلى هذا الأداء العكسي في عمل الشرطة حيث لم يكن لهؤلاء " الشرط " أجر يتقاضونه على عملهم ، فلا يسعهم إلا فتح الحانات والمواخير للعاهرات حتى يكسبوا مالا من ورائهن ، يقول الحسن الوزان : << وفي فاس أربعة رؤساء للشرطة لا أكثر ... ولا يتقاضون هم أيضا أي أجر غير حصيلة المغارم المفروضة على من يلقون عليه القبض ، وتقدر قيمتها بحسب مدة السجن ونوع العقوبة التي يعاقب بها المقبوض عليهم ، لكن هؤلاء الرؤساء للشرط يستطيعون أن يتخذوا حانات ويمارسوا مهنة البغاء والتدييث >> [3] .

---

[1] الحسن الوزان : وصف إفريقيا ، ص 77-78 .

[2] المصدر نفسه : ص 247 .

[3] المصدر نفسه : ص 250 .

ولم تكن أرض المغرب منفردة بهذه الاهتزازات في الحياة الخلقية لأفرادها بل كانت جزءا من المشهد الإسلامي[1] العام الذي ملأته حياة التفسخ والمجون وخاصة في حواضر الشرق << حيث تتزاحم الأقدام وتتوفر الثروة وتكثر الجواري ويتفشى الغناء والسكر كما كان الشأن ببغداد وقرطبة والقاهرة والفسطاط في إبان ذلك التمدن ، فلا غرو إذا تفشت الفحشاء فيها ولا سيما في العصور الوسطى ، حتى صار البغاء في بعض الأعيان صناعة عليها رئيس يحتكم إليه البغاؤون عند الحاجة ، وتفننوا في ترويج تلك البضاعة بتصوير النساء على جدران الحمامات ، وأصبح أهل القصف من الأغنياء يصورون حظاياهم على جدران منازلهم كما فعل ابن طولون >>[2] .

وحتى نساء القصر لم يسلمن من هذا المد الخلقي المتحلل : << فكثرة الجواري في بعض القصور جرتهن إلى التفنن في أساليب الفحشاء ، وربما اتخذت كل جارية خصيا لنفسها كالزوج ...حتى النساء الشريفات فإن قعودهن عن الزواج لعدم وجود الأكفاء أو لأسباب أخرى كان يجرهن إلى مثل ذلك فتكاثر الفساد فيهن لقلة التزويج >>[3] .

المرأة والعمل :

ورغم ذلك كان السواد الأعظم يكدح في المغرب في سبيل العيش الكريم والرزق الحلال، وكانت مشاركة المرأة في الحركية الاقتصادية فاعلة وأكيدة ، فهي تخيط الثياب وتغزل الصوف والقماش لمساعدة رب الأسرة وتحمل جزء من نفقات البيت ، ويتحدث الوزان نع مهارة النساء التونسيات في الغزل عارضا طريقتهن الفريدة فيه :<<والنساء يتقن الغزل

---

(1) ففي مصر مثلا كانت الدعارة منتشرة بسوق الشماعين << وكان يجلس فيه في الليل بغايا يقال لهن زعيرات الشماعين لهن سيما يعرفن بها ، وهي لبس الملاءات الطرح وفي أرجلهن سراويل من أديم أحمر وكن يعانين الدعارة >> ثم إنه << شوهد من سكر النساء وتهتكهن وحملهن في قفاف الحمالين سكارى واجتماعهن مع الرجال ما يقبح ذكره>> .

- د. أدم ميتز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام ، ترجمة : محمد عبد الهادي أبو ريدة ، دار الفكر العربي ، مدينة نصر ، مصر ، 1419 ه / 1999 ، ج2 ، ص196 -197 ، نقلا عن : الخطط للمقريزي ، ج2 ، ص 96 .

(2) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، 1986 ، ج2 ، ص 663-664 .

(3) المرجع نفسه : ج2 ، ص 664 .

غاية الإتقان ، فيجلسن في مكان مرتفع ويرخين المغزل كثيرا إلى الأسفل، يقعدن مثلا في نافذة ويتركن المغزل ينزل إلى ساحة الدار ، أو ينزل من ثقب السقف بين طابق وآخر، فيتكون الخيط بواسطة ثقل المغزل ويأتي جيد الانبساط والفتل منتظم الغلظ >>[1] .

ونرى من ذلك أن عمل المرأة لم يكن تمضية للوقت أو تسلية في البيت ، بل كان ضروريا لكسب قوت عيالها ، وقد غلب على الطبقة الوسطى شقاء واضح ، ذلك أن الفقر والحاجة كان سمتين ملازمتين لها ، هذا في حال وجود المعيل ، أما إذا مات أو فُقِد فإن عملها يصبح مضاعفا ، وقد لا تكتفي بعمل واحد كالغزل مثلا ، بل تمتهن الرعي وخدمة الأرض وكل ما تستطيعه كأنثى حتى تسد الأفواه الجائعة ، والعيون التي ترمقها كل مساء مشفقة عليها من قر البرد وألم الجوع ....، ويؤكد الباحثة شارل جولي أندريه "CHARLE ANDRE JULIEN" أن << نساء المغرب كن يشتغلن خاصة في مجال حرث الأرض >> [2] .

أما نساء القصر فقد كن فارغات البال يتوسدن ريش النعام وينمن هانئات لأن الجواري كفينهن أمور البيت ومتاعبه أو كما وصفهن عمرو بن أبي ربيعة بقوله :

وَأَعْجَبَهَا مِنْ عَيْشِهَا ظِلُّ غُرْفَةٍ وَرَيانُ مُلْتَفٌّ الحَدَائِق أَخْضَرُ

وَوَالٍ كَفَاهَا كُلَّ شَيْءٍ يَهُمـ ـهَا فَلَيْسَتْ لِشَيْءٍ آخِرَاللَّيْل تَسْهَرُ[3]

وقد كان النساء يسهرن لغزل الصوف حتى آخر الليل .

لهذا فإن همّ المرأة في هذه الطبقة كان << محصورا في الحصول على قدر المستطاع على حب زوجها ، وإن لم تكن متزوجة فشغلها الشاغل هو الحصول على زوج >>[4].

وكان همّهن الاجتماع والتحدث في أمور العشق وتدبير المكائد للإيقاع بالرجال ، يقول ابن حزم : << وما أعلم علة تمكن هذا الطبع من النساء إلا أنهن متفرغات البال من كل

---

[1] الحسن الوزان : وصف إفريقيا ، ص 74 -75 .

[2] Charle André julien : histoire de l' Afrique du nord des origines à la conquête arabe , paris , France 1914 , p 150 .

[3] عمرو بن أبي ربيعة : ديوان عمرو بن أبي ربيعة ، شرح ، د . يوسف شكري فرحات ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1412 ه / 1992 ، ص 197 .

[4] مريم قاسم طويل : مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر (403 - 483 ه / 1012 -1090 م) ، مكتبة الوحدة العربية ، الدار البيضاء ، المغرب ، ودار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1994 ، ص 262 .

شيء إلا من الجماع ودواعيه والغزل وأسبابه ، والتآلف ووجوهه لا شغل لهن غيره ولا خلقن لسواه >> [1] .

هذا الفراغ الذي يطبع يومياتها يدفعها للتدخل في شؤون السياسة وقضايا الحكم ، وربما احتال عليها زوجها الأمير فأحضر لها مغزلا حتى تلهى عن أمور الحكم ودواعي العشق والغزل ، يضيف ابن حزم : << وقرأت في سير ملوك السودان أن الملك منهم يوكل ثقة له بنسائه يلقي عليهن ضريبة من غزل الصوف يشتغلن بها أبد الدهر لأنهم يقولون : إن المرأة إذا بقيت بغير شغل إنما تشوق إلى الرجال ، وتحن إلى النكاح >>[2] .

ولم يكن عمل نساء القصر من باب الترف وملء الفراغ دائما ، فربما انقلبت حياتهن الرغيدة إلى بؤس وشقاء ، وذلك حين يزول الملك ويذهب السلطان ،ويحدثنا التاريخ عما آل إليه حال المعتمد بن عباد[3] صاحب إشبيلية وقرطبة،وزوجته اعتماد الرميكية[4]

---

[1] ابن حزم : طوق الحمامة في الألفة والألاف، ضبط ووضع حواشيه وفهرس له: أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ،بيروت ، لبنان ،د ت ، ص 49 .

[2] المصدر نفسه : ص 49-50 .

[3] **المعتمد بن عباد :** (431 – 488 هـ/ 1040-1095 م) : محمد بن عباد بن محمد إسماعيل اللخمي ، أبو القاسم ، المعتمد على ا ، صاحب إشبيلية وقرطبة ، وماحولها ، وأحد أفراد الدهر شجاعة وحزما وضبطا للأمور ، ولد في باجة بالأندلس ، وولي إشبيلية بعد وفاة أبيه سنة 461هـ ، وامتلك قرطبة وكثيرا من المملكة الأندلسية ، واتسع سلطانه إلى أن بلغ مدينة مرسية ، وأصبح محط الرحال ، يقصده العلماء والشعراء ... وكان فصيحا شاعرا وكاتبا مترسلا ، بديع التوقيع ، لم يزل في دعة إلى سنة 478 هـ حيث هدده الأذفونش (ألفونسو السادس) ، فاستنجد بيوسف ابن تاشفين وملوك الأندلس فأنجدوه ، ووقعت معركة الزلاقة سنة 479 هـ حيث انهزم جيش الفونسو ، وقد شهد المعركة وأبلى فيها بلاء حسنا ، قال ابن خلكان : << وثبت المعتمد في ذلك اليوم ثباتا عظيما وأصابه عدة جراحات في وجهه وبدنه وشهد له بالشجاعة >> ، أسر بعدها من قبل ابن تاشفين لما عاد (المعتمد) إلى التناحر مع ملوك الطوائف في الأندلس ، وأرسل أسيرا إلى أغمات حيث مات هناك .

- الزركلي : الأعلام ، ج6 ، ص 181 .

[4] **اعتماد الرميكية:** (؟- 488 ه / ؟ -1095 م) : شاعرة أندلسية ، كانت جارية لرميك بن حجاج فنسبت إليه ، وآلت إلى المعتمد بن عباد فتزوجها ، وولد منها عباد الملقب بالمأمون ، وعبيد ا الملقب بالرشيد ، ويزيد الملقب بالراضي ، والمؤتمن ، وبثينة الشاعرة ، وماتت بأغمات قبل المعتمد بأيام.

- الزركلي : الأعلام ، ج1 ، ص 334 .

وبناتها حين زال الملك عنهما ، وألزموا كوخا بأغمات ، فكان لضيق الحال وشظف العيش الذي كابدوه أن كانت بناته يغزلن الصوف للناس بالأجرة ليصلحن بعض حالهن يقول عبد الواحد المراكشي : << وبلغ من حال المعتمد على ا بأغمات أن آثر حظياته وأكرم بناته ألجئت إلى أن تستدعي غزلا من الناس تسد بأجرته بعض حالها >>[1] .

ويؤكد هذا النص أن النساء الشريفات كن يحسن الغزل والقيام بشؤون البيت إلا أن حياة القصر والوضع الاجتماعي الراقي الذي حيينه صرفهن عن ذلك حينا ، وقد كان المعتمد – وهو مقيم بأغمات قسرا – يتألم حين يرى حظاياه يستجدين الناس حتى يضمن لقمة العيش بعد أن كن في بلهنية لا سيما وأن ذكرى يوم الطين[2] كانت ماثلة أمام عينيه ، ورثى حالهن يوما وقد أتين لتهنئته بالعيد فقال : [من البسيط] :

تَرَى بَنَاتِكَ فِي الأَطْمَارِ جَائِعَةً   يَغْزِلْنَ لِلناسِ مَا يَمْلِكْنَ قِطْمِيرَا [3]

ونعود للقول بأن عمل المرأة المغربية كان دؤوبا وأثره واضحا ، فالثياب التي نسجتها لاقت رواجا كبيرا وشهرة واسعة وصل صداها إلى المشرق ، حيث كانت ثياب منطقة السوس[4] بالمغرب الأقصى ذات جودة عالية ، نافست الثياب الخراسانية الفارسية والهندية في قصور دمشق وبغداد والحجاز ، وحتى في الأسواق الشعبية كالمربد ومجنة وذي المجاز ، وقد كانت نساء القصر يتهافتن على الثياب السوسية اللافت بريقها ، وقد

---

[1] عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ،من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين مع ما يتصل بتاريخ هذه الفترة من أخبار الشعراء وأعيان الكتاب ، ضبط وتصحيح : محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط7 ، 1987 م ، ص 229 .

[2] رأت اعتماد بعض نساء البادية بإشبيلية يبعن اللبن في القرب وهن ماشيات في الطين ، فاشتهت أن تفعل فعلهن ، فأمر المعتمد بالعنب والمسك والكافور وماء الورد وصيرها جميعا طينا في قصره ، وجعل لها قربا وحبالا من أبرسيم ، فخاضت هي وبناتها وجواريها في ذاك الطين .

- الزركلي : الأعلام ، ج5 ، ص 334 .

[3] ابن بسام (أبو الحسن علي الشنتريني) : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق د . إحسان عباس ، دار الثقافة بيروت ، لبنان ، 1399 ه / 1979 م ، ج1 ، ص 227 .

[4] **سوس** : ناحية تقع وراء الأطلس إلى جهة الغرب ، تبتدأ غربا من المحيط الأطلسي ، وتنتهي جنوبا في رمال الصحراء ، وشمال في الأطلس عند حدود حاحا ، وشرقا عند نهر سوس ، الذي سميت به هذه الناحية ، وأهم مدنها : ماسة ، تييوت ، ترودانت ، تيدسي ...

- الحسن الوزان : وصف إفريقيا ، ص 113-114-115-119 .

تحدث عمر بن أبي ربيعة عن تلك الثياب وولع نساء المدينة والحجاز عموما بها ، وعن المظهر الأنيق الذي يميزهن عندما يرتدينها ، يقول [من البسيط] :

يرْفُلْنَ فِي مُطْرَفَاتِ السوسِ آونَةً وَفِي العَتِيقِ مِنَ الديْبَاجِ وَالقَصَبِ [1]

ونحن إذا تحدثن عن الجمال والحسن ، فلا يفوتنا ذكر حظ نساء المغرب منه ، واعتمادا على ما بين أيدينا من المصادر التاريخية ، يمكن القول أنهن خصصن بجمال لافت وهيأة حسنة بما جعل الخلفاء والأمراء الأمويين والعباسيين يطلبون –بإلحاح- إلى عمالهم بالمغرب بتجهيز الحسان منهن ونقلهن إليهم كما رأينا فيما سبق ، ويؤكد ابن حوقل ذلك فيقول : << فأما ما يجهز من المغرب إلى المشرق فالمولدات الحسان الروقة ، كاللاتي استولدهن بنو العباس وغيرهم وأكابر رجالهم وولدن غير سلطان عظيم : كسلامة البربرية أم أبي جعفر عبد ا بن محمد بن علي بن عبد ا بن عباس ، وقراطيس أم أبي جعفر هارون الواثق بن المعتصم ، وقتول أم أبي منصور محمد القاهر المعتضد ، وغير من ذكرت من ملوك المشرق وأمرائه >> [2].

ويذكر جمال نساء البصرة بالمغرب الأقصى مدققا في سائر أطراف الجسد قائلا : << ولهم محاسن في خلقهم قد عمت نساءهم ورجالهم ، والغالب عليهم حسن القدود والشطاط واعتدال الخلق وجمال الأطراف >>[3].

كما يصفهن ابن عذارى أيضا ، ويرى أنهن أجمل نساء المغرب على الإطلاق فيقول : << ونساء البصرة مخصوصات بالجمال الفائق ، والحسن الرائق ، ليس لأرض المغرب أجمل منهن ، وفيهن يقول أحمد بن فتح التيهرتي ، في قصيدة مدح بها أبا العيش الحسني، [من الكامل] :

مَا حَازَ كُلَّ الحُسْنِ إلا قَيْــنَةٌ بَصْرِيةٌ فِي حُمْرَةٍ وَبَيَــاض

الخَمْرُ فِي لحَظَاتِهَا وَالوَرْدُ فِي وَجْنَاتِهَا هَيْفَاءُ غَيْرُ مُفَــاض[4]

---

[1] المطرفات : رداء من خز موشى الثياب النفيسة ، القصب : الحرير ،يرفلن : يتخايلن ، العتيق: الجيد .

- عمر بن أبي ربيعة : ديوان عمرو بن أبي ربيعة ، شرح : يوسف شكري فرحات ، دار الجيل ، بيوت ،لبنان ، ط1 ، 1412هـ/1992م ، ص 91 .

[2] ابن حوقل : صورة الأرض ، ص 94-95 .

[3] المصدر نفسه : ص 81 .

[4] ابن عذارى : البيان المغرب ، ج1 ، ص 103 .

أما النساء التونسيات فيرى الحسن الوزان أنهن << جميلات لطيفات >>[1]، وأجمل منهن نساء هسكورة فهن << في غاية الجمال والبيض >>[2].

وكذلك كانت النساء التونسيات ، مع مبالغة منهن في الاهتمام ببشرة الوجه والحرص على وضع المساحيق ومستحضرات التجميل حتى يبدين في أجمل صورة ، يقول الحسن الوزان : << إن السيدات التونسيات يرتدين لباسا حسنا ، ويتأنقن في زينتهن ويسترن وجوههن عندما يخرجن مثلما تفعل الفاسيات، يغطين الوجوه بوضع خمار يدعى " سفساري " على عصابة عريضة جدا يعصبن بها جباههن ، بحيث تبدو رؤوسهن وكأنها رؤوس عماليق ، لا يشتغلن بغير زينتهن وعطرهن حتى إن العطارين هم دائما آخر من يغلقون دكاكينهم >> [3].

وقد بلغ من حرص النساء المغربيات على سلامة بشرتهن وبهاء طلعتهن أن استخدمن المظلات والشمسيات لحماية بشرة الوجه بصفة خاصة من أشعة الشمس والغبار المتطاير وقد أخذ الخلفاء ونساء القصر في استعمال تلك المظلات في التجوال عبر الأسواق أو في بلاط القصر ، وعنهم أخذها الفاطميون في مصر، يقول جرجي زيدان : << أما في مصر فالخلفاء الفاطميون قلدوا العباسيين في مواكبهم على جاري العادة في سائر أسباب المدنية وزادوا عليهم الركوب بالمظلة والشمسية ، ولعلهم نقلوا هذه العادة من المغرب لأنها كانت جارية هناك قبل الإسلام >>[4] .

وعبر هذه العجالة نرى أن المرأة المغربية كان لها الإسهام الكبير في الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، ذلك الإسهام الذي بدا جليا في مظاهر الحضارة والتمدن التي برزت في حياة المرأة هناك .

---

[1] الحسن الوزان : وصف إفريقيا ، ص 120

[2] المصدر نفسه : ص 165 .

[3] المصدر نفسه : ص 78 .

[4] جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ، ج2 ، ص 684-685 .

ج/ في الحياة الثقافية :

- المرأة وبناء الصروح المعرفية/ أم البنين الفهرية :

لم تعن المرأة المغربية بالجانب الاجتماعي ضمن سيرورة حياة التمدن التي أخذت تطبع الأرض المغربية منذ مجيء المسلمين الفاتحين فقط، بل ولت وجهها شطر الحياة الثقافية، ومن ثمة ساهمت في تدعيم أسس الدعوة الإسلامية وقدمت إسهامات عجز عنها بعض الأمراء والقادة ، وكان لها الأثر المشهود في ذلك ، ويحتفظ التاريخ باسم امرأة عظيمة تركت صدى محمودا وشيدت سقفا ممدودا إلى السماء تملؤه تسابيح المصلين ودعواتهم ألا وهي فاطمة بنت محمد الفهري المكناة بأم البنين[1] التي قدمت من القيروان إلى حاضرة الأدارسة فاس وأقامت بها ، ثم مالبثت أن توفي زوجها وإخوتها وتركوا لها مالا عظيما ، فعزمت على إنفاقه في وجوه الخير ، فلم تجد أحسن من أن تنفقه في بناء مسجد يكون منارا للهدى ، ومكانا يلتقي فيه العلماء والفقهاء .

وهنا نلاحظ التغيير الكبير الذي مس حياة المرأة المغربية وطريقة تفكيرها ، فبعد أن كانت تحيى حياة بدائية تلفها الكهانة والشعوذة أصبحت الآن تبني الصروح الدينية والثقافية ، وهذا كله بفضل إعمال فكرها لفهم مقاصد الدين الجديد .

وقد جسدت أم البنين نيتها الحسنة على أرض الواقع << وشرعت في حفر أساس المسجد وبناء جدرانه وذلك يوم السبت فاتح رمضان المعظم سنة خمس وأربعين ومائتين ، فبنته بالطابية والكدان ، وكانت الطريقة التي سلكتها في بنائه أنها التزمت أن تأخذ التراب

---

[1] **أم البنين الفهرية** : (؟- نحو 265 هـ / ؟- نحو 880م) :

فاطمة بنت محمد بن عبد ا الفهرية القيروانية ، أم البنين ، المنشئة الأولى لجامع القرويين بفاس ، انتقلت إلى القيروان أيام يحيى بن محمد بن إدريس ، وسكنت مع أبيها وأخوات لها في عدوة القرويين قرب أرض بيضاء كان يصنع بها الجص ، ثم ورثت من أبيها أو من زوجها وأخت لها مالا ، فاشترت هذه الأرض لبناء مسجد (جامع القرويين)عليها ، وشرعت في حفر أساسه سنة 245 هـ / 859 م وحفرت فيه بئرا لا تزال إلى الآن ، وكان طول المسجد من حائطه الغربي إلى الحائط الشرقي 150 شبرا (نحو 35 مترا) ، ويظهر أنه زيد في بنائه بأمر داود بن إدريس فتم في أيامه سنة 263 هـ ، ووسع بعد ذلك ابتداء من سنة 345هـ

- عمر رضا كحالة ، أعلام النساء ، ج4 ، ص 136 – 137

وغيره من مادة البناء من نفس البقعة دون غيرها مما هو خارج عن مساحتها ، فحفرت في أعماقها كهوفا وجعلت تستخرج منها التراب الجيد والحجر الكدان * وتبني به وأنبطت ** بها بئرا يستقى منها الماء للبناء والشرب وغير ذلك ، وكان كله تحريا منها ألا تدخل في بناء المسجد شبهة ، فعادت بركة نيتها وورعها على المسجد المذكور حتى كان منه ما ترى >> [1] .

ومما نقله السلاوي نلاحظ مدى ورع هذه المرأة التي أبت أن تأخذ مادة البناء إلا من تراب المساحة نفسها،ولم تذهب هذه العزائم القوية والنيات الصادقة سدى ، فقد لقي المسجد اهتماما كبيرا من قبل الأمراء الأدراسة ، وفضلوه على المساجد الذي بنوها فقد << نقلت الصلاة الجامعة إليه من مسجد المولى إدريس القائم في قاع المدينة وسط المباني >>[2] .

ورغم ما تعرض له فاس من هجومات ، وما لقي أهلها من أهوال ومبانيها من حرق وتدمير إلا أن المسجد ظل صامدا لم تمسه أيدي العدا بسوء .

ولم تكن أم البنين وحدها من بنت مسجدا في فاس ، فقد أكملت أختها مريم بنت محمد الفهري [3] العمل ، وبنت مسجدا آخر بعدوة الأندلسيين هناك ولكنه كان أقل شهرة وضخامة وجمالا من مسجد فاطمة المذكور .

---

* الكدان : وهو تحريف الكذان : الحجارة الرخوة ، قال أبو عمرو : الكذان : الحجارة التي ليست بصلبة .

- ابن منظور : لسان العرب ، ج12 ، ص 52 .

**وأنبطت : أنبطنا الماء أي استنبطناه وانتهينا إليه ، والنبط والنبيط : الماء الذي ينبط من قعر البئر إذا حفرت وأنبط الحفار : بلغ الماء .

- المصدر نفسه : ج14 ، ص 18 .

[1] السلاوي : الاستقصا ، ج1 ، ص 140 .

[2] د حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، ج1 ، ص 389 .

[3] **مريم بنت محمد بن عبد ا الفهري الفروي** : من ربات البر والإحسان ، شيدت جامع الأندلس سنة 245 ه ، فأنفقت على بنائه جميع مالها الموروث عن أبيها ، وأعانها على بنائه جماعة من الأندلسيين ولهذا سمي الجامع باسمهم، ودرس بذلك الجامع جملة من الفقهاء والعلماء .

- عمر رضا كحالة : أعلام النساء ، ج5 ، ص 42 .

وعلى كل كان مسجد فاس منارا للعلم ومحجا يؤمه طلاب العلم والفقه من الأندلس والصحراء وإفريقية ، وقد درس به كبار الفقهاء وتتلمذ فيه نخبتهم ، وبهذا استحق أن يكون " جامعة " لها عراقتها وأثرها في التاريخ ، يقول حسين مؤنس : << إن مسجد فاس الجامع يصبح مركز علم ودراسة من يوم إنشائه لأن مكتبة الجامع أنشئت على يد فاطمة وقد كشف نص منقوش يؤيد ذلك ، وكنت المكتبة هي نقطة البداية التي جعلت الجامع مع الزمن جامعة هي دون هي شك أقدم جامعة في تاريخ الإسلام ، فقد بني جامع القرويين قبل الجامع الأزهر بحوالي 115 سنة >> [1] .

ولم يكن اهتمام المرأة منصبا على المساجد ودور العبادة فقط ، بل امتد ليشمل الدور الثقافية والاجتماعية ، وقد كان لها فضل السبق على الرجل في ميدان التكافل الاجتماعي والتأثير الثقافي ، ونجد عبر صفحات التاريخ ما يؤيد ذلك ، فقد أنشأت السيدة القيروانية " أروى " زوج أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي دارا للتضامن ، وكان المنصور قد أقطعها أرضا أو ضيعة << فوقفتها على ذريتها من الأرامل اللائي يموت عنهن أزواجهن وكذلك على العوانس اللائي لم يتزوجن حفظا لكرامتهن وصيانة لهن ، وهي مأثرة وبر رفيع بفلاذات الكبد من البنات سجلته أروى في تاريخ المرأة التونسية ، كما سجلت شعورها بالكرامة في صورة نبيلة >> [2] .

ولا شك أن مثل هذه الدور كانت تعمل على نشر التعليم والثقافة بين أوساط النساء الأميات واللائي لم تكن قد أتيحت لهن الفرصة للتعلم نظرا لطبيعة الرجل المغربي المحافظ الذي يأبى خروج المرأة من البيت من غير داع خطير يحتم ذلك .

المرأة والتأليف :

أما في ميدان التأليف وتلقين العلوم ، فقد كان للمرأة المغربية نصيب وافر منه ، ولا يخفى على القارئ المدقق دورها في بعث السبات العلمي والأدبي الذي ألم بربوع المغرب بين عهد وآخر ، ففي علوم الدين نجد للمرأة الليبية جهدا كبيرا في تثبيت عقائد الإباضية التي تدين بها أواخر القرن الثالث الهجري ، وقد كثر الفقهاء الإباضيون بجبل نفوسة

---

[1] د. حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، ج1 ، ص 389 .

[2] د. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، ج9 ، ص 156 .

وأشهرهم << عمروس بن فتح السنوسي المتوفى سنة 283 للهجرة وله كتب في العقيدة الإباضية : في الأصول والفروع ، من أهمها كتاب منسوب إليه يسمى "العمروسي" ولما نزل داعية الإباضية بشر بن غانم الخراساني جبل نفوسة استودعه مدونة في الفقه الإباضي رواها عن تلامذة داعية الإباضية الكبير بالبصرة أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، فتفرغ هو وأخت له ليل نهار لنسخها وكانت تقع في اثني عشر جزءا>> (1) .

وكذلك كان شغف المرأة التونسية بالدين الجديد ، فقد << كان يقام احتفال كبير حين يختم صحيح البخاري ، ويذكر ابن أبي دينار أن المنادي كان ينادي في سوق تونس بأن الختم لصحيح البخاري غدا صباحا أو عشية ، فيتسارع النساء والصبيان والخواص والعوام لذلك >>(2).

وقد يفسر هذا الإقبال على تعلم مبادئ الدين الحنيف برغبة أهل المغرب رجالا ونساء في التخلص من أدران الجهل والتخلف التي كانوا يحيونها قبل مجيء الفاتحين ، لذلك كان التفقه في الدين غاية العامة ، وكانت مجالس الفقهاء محجا للناس << فالفقه طغى على الفنون الأخرى بحيث نجد الفقهاء أكثر عددا من الأدباء ، وهؤلاء أنفسهم لهم إلمام كبير بالفقه لأن الحالة الاجتماعية كانت تدعو إلى تعاطي العلوم الدينية أكثر من سواها ، فبها تمحى بقايا الجاهلية >>(3).

ونجد للمرأة إسهاما كبيرا في تدعيم أسس الحضارة الإسلامية ببلاد المغرب وقد كان لتمكن الإيمان من قلوب المغربيات الأثر البالغ في ذلك ، ونجد امرأة رومية تسلم أيام حكم الصنهاجيين ، ويعظم شانها إلى حد الاضطلاع بشؤون الثقافة في مسجد عقبة بن نافع بالقيروان ، تلك هي فاطمة الحاضنة (4) التي فاقت أعمالها الخيرية أعمال أفذاذ الرجال،

---

(1) شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، ج9 ، ص 75 .

(2) المرجع نفسه :ج9 ، ص 153 .

(3) محمد الطمار : تاريخ الأدب الجزائري ، ص 87 .

(4) **فاطمة الحاضنة :** (؟ - 420 ه / ؟ - 1029 م) :

من رابت البر والإحسان والعقل والرأي والفكر والتدبير ، وسعة الإدراك وعلو الهمة ، كانت تدين بالنصرانية فأسرها بعض غزاة البحر وسيقت إلى المهدية ثم إلى القيروان على عهد الأمير المنصور الصنهاجي ، فاقتناها وأدخلها في حرمه ، ولما رأى عليها من مخايل التدبير والفكر اختصها لحضانة ابنه باديس فعرفت من ذلك الحين بفاطمة الحاضنة. ثم أسلمت ورسخت عقيدة الإسلام في نفسها فعز جانبها واندمجت في صف الأميرات الصنهاجيات وصارت بينهن =

= محل الرعاية والتكريم .

حيث أوقفت بالمسجد المذكور الكتب النفيسة ، والمؤلفات النادرة ، وعددا من المصاحف مخطوطة بالذهب المذاب مكتوبة بالخط الكوفي ومن بينها مصحف متناهي الحجم وبآخره نص التحبيس [1] ، وقد وضع هذا المصحف في صندوق مصنوع من الخشب الثمين ، وكتب على ظاهره : << حبس على جامع مدينة القيروان مما أمرت به فاطمة حاضنة باديس في سنة عشرة وأربعمائة ابتغاء وجه ا الكريم وطلب مرضاته >>[2] .

ونجد أن هذا عمل هذا المصحف وطريقة حفظه قد كلفا أموالا طائلة لم تتوان فاطمة عن بذلها وذلك كله ابتغاء مرضاة ا ورجاء ثوابه الجزيل .

وتواتر مثل هذه الأخبار يحيل على فترة تعد أزهى فترات الصنهاجيين حيث بلغت العناية بالمساجد ودور العبادة أوجها ، فتسابق الأمراء والأعيان في البذل والعطاء لحفظ المصنفات والمخطوطات وصيانة بيوت ا ، وهذا كله يحسب لهم في مجال بعث شعاع الحضارة الإسلامية ليعم ربوع المغرب الفسيحة .

المرأة والكرامات / عائشة المنوبية :

ولما استتب الأمر إلى المعز بن باديس رفع مقامها وزاد في احترامها تعظيما لحاضنة أبيه ومؤدبته ، فنالت في عهده حظوة كبيرة لصدق سريرتها وأمانتها

الخيرية كبار رجال ونساء عصرها ، ويكفيها فخرا وقفها على جامع عقبة بالقيروان الكتب النفيسة والمؤلفات = =النادرة التي مازال بعضها يشاهد ليومنا هذا ، بالرغم من توالي السنين وتعاقب الفتن والتخريب وأعمال النهب والسلب فمن يزر الخزانة العتيقة بجامع عقبة يرى بها رقوقا مقطرة من المصاحف المخطوطة بالذهب المذاب المكتوبة بالخط الكوفي العجيب ، وقد رقم بعضها على القباطي اللازوردي البديع .

- عمر رضا كحالة : أعلام النساء ، ج4 ، ص 38 -39 .

[1] ونصه : << بسم ا الرحمن الرحيم : قالت فاطمة الحاضنة – حاضنة أبي مناد باديس- حبست هذا المصحف بجامع مدينة القيروان ، رجاء ثواب ا وابتغاء مرضاته ، على يد القاضي عبد الرحمن بن القاضي محمد بن عبد ا بن هاشم نضر ا وجهه آمين رب العالمين ، وذلك في شهر رمضان من سنة عشرة وأربعمائة ، فرحم ا من قرأ ودعا لهم ولجماعة المسلمين بالرحمة والمغفرة ، وصلى ا على النبي محمد وعلى آله وسلم تسليما >>.

وبالوجه الثاني من الورقة مانصه : << بسم ا الرحمن الرحيم : كتب هذا المصحف وشكله ورسمه وذهبه وجلده علي بن أحمد الوراق للحاضنة الجليلة حفظها ا على يدي " درة الكاتبة " سلمها ا ، فرحم ا من قرأ فيه ودعا لهما بالرحمة والمغفرة والنجاة من عذاب النار ، آمين رب العالمين >>.

- د. حسن حسني عبد الوهاب : شهيرات التونسيات ، ص 82 .

[2] المرجع نفسه : ص 82 .

ويبلغ تأثر المرأة المغربية بتعاليم الدين الجديد حد اعتلاء مراتب الصوفية ، ومزاحمة " الأولياء والصالحين " في قداستهم ومكانته لدى العامة ، وكان السبيل إلى ذلك أن درست على يد كبار الصوفيين ومن ثمة عدت ولية صالحة بعد الممات ، ونجد مثالا على ذلك في تونس << فقد تجرد شيخ تونسي هو الشاذلي أبو الحسن علي بن عبد ا الحسيني المنسوب إلى شاذلة بالقرب من مدينة تونس المولود سنة 593 هـ / 1197 م لإنشاء طريقة صوفية سنية بجانب الطرق التي عمت وشاعت في البلدان العربية وأخذ يحاول نشرها في تونس ، وتبعه مريدون كثيرون رجالا ونساء ، منهم علي القرجاني وحسن السيجومي وللا السيدة عائشة المنوبية [1] المتوفاة سنة 665 هـ/ 1267م ، وهي من قرية منوبة غربي مدينة تونس ولها زاوية كبيرة ، ولبعض النساء ببلدتها اعتقاد فيها ، ولذاك يزرنها ويتوسلان بها لحاجتهن : حمل وغيره >> [2] .

وفي العصر المريني أضحت لبعض النساء كرامات تؤثر عنهن ويتداولها العامة ، وربما كانت أقرب للخيال منها إلى الحقيقة ولكنها واقع مثبت في الكتب ، ولعل تفسير ظهور نساء الكرامات هو انفراد الرجال والمشايخ بالكرامات والقصص الخارقة التي أثرت عنهم في حياتهم ومن بعد مماتهم ، هذه الأخبار التي يعج بها كتاب "البستان في

ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان " لصاحبه ابن مريم الشريف المليتي التلمساني وغيره من الكتب ، فآثرت بعض النسوة اقتحام هذا الميدان الرجولي لتثبت عبره أن المرأة ليست أقل

---

[1] **عائشة المنوبية** : (؟ - 665 ه / ؟ - 1267 م) :

عائشة بنت عمران بن سليمان المنوبي ، من فواضل نساء عصرها ولدت بمنوبة (من قرى تونس) فنشأت في حجر أبيها فاعتنى بتربيتها فعلمها القرآن الكريم فأتقنت حفظه ، ثم عكفت على الزهد والصلاح وكانت تغزل الصوف وتقتات من مورده .

ومن مناقبها أنها ختمت القرآن الكريم في حياتها ألفا وخمسمائة وعشرين مرة ، وكانت تبر الفقراء والمساكين وتسد عوز المحتاجين ، فكانت لا تدخر شيئا من كسبها ، وروي عنها أنها كانت تقول إذا بات بجيبها درهم ولم تتصدق به : الليلة عبادتي ناقصة ، وأخذت التصوف من الصوفي الكبير أبي الحسن الشاذلي ، ولها مع شيخها أخبار مذكورة وأحاديث مشهورة يرويها محبوها خلفا عن سلف .

ومن كلامها : لا خير في ذكر اللسان ما لم يكن القلب حاضرا ، وقالت لما حضرتها الوفاة "**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ** " [النحل : 128] ، وتوفيت يوم الجمعة في 21 رجب سنة 665 ه عن عمر يناهز السادسة والسبعين ، وحضر جنازتها أكثر علماء تونس ودفنت بروضة القرجاني خارج شرف المركاض .

- عمر رضا كحالة : أعلام النساء ، ج3 ، ص 183-184 .

[2] د. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، ج9 ، ص 165 .

تقوى من الرجل ولا أقل علما منه طبقا للمساواة التي أقرها الإسلام بينهما ، ويورد السلاوي نموذجا لكرامات النساء نقله بدوره عن المقري في كتابه " المحاضرات "، يقول : << وردت على تلمسان في العشرة الخامسة من المائة الثامنة امرأة من رندة لا تأكل ولا تشرب ولا تتبول ولا تتغوط وتحيض ، فلما اشتهر هذا من أمرها أنكره الفقيه أبو موسى ابن الإمام وتلا : " **كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ** "[1]، فأخذ الناس يبثون ثقات نسائهم ودهاتهن إليها فكشفوا عنها بكل وجه يمكنهن ، فلم يقفن على غير ما ذكر ، وسئلت : هل تشتهين الطعام ؟ ، فقالت : هل تشتهون التبن بين يدي الدواب ؟ ... ولقد جعلها السلطان في موضع بقصره وحفظها بالعدول ومن يكشف عما عسى تجيء أمها بها إذا أتت إليها بأربعين يوما فلم يوقف لها على أمر >>[2] .ويمكن فهم مثل هذه " الأخبار " على أنها إحالة للنمط الاجتماعي الساذج أو " الرمز الأول " ، بحيث يرتبط فهم الإنسان لنفسه وللوجود بقاعدة نمطية ، وكان في بعض الأحيان بحاجة إلى أن " يكسر هذه القاعدة " التي تملي عليه أن يكون إنسانا فقط : يأكل ويشرب ويتغوط ...، وقد كان الأشخاص العاديون الراغبون في " التمرد على هذه السنن " عاجزين عن إقناع الناس بخوارقهم وكراماتهم المزعومة لذلك كان الرأي أن تنسب لأشخاص أتقياء ورعين ، يتقبل العوام منهم كل [3]

---

[1] المائدة : 75 .

[2] السلاوي : الاستقصا ، ج2 ، ص 69 .

[3] لقد انتشرت قصص كرامات الأولياء والصالحين في المغرب الأقصى بشكل كبير ، ولا يجيد تأثر من وضع هذه الكرامات من المؤلفين أو من رواها من عامة الناس عن احد الأوجه الثلاثة :

أ- التأثر بالشخصيات الممثلة للديانات : وأبرز هذه الشخصيات هي شخصية النبي محمد صلى ا عليه وسلم ، حيث تحفل كتب السيرة بأخبار العناية الإلهية التي تحفظه كلما أحدق به خطر .

ب- التأثر بالشخصيات الصوفية : لقد أدت الفتن المتلاحقة والصراعات الكثيرة التي شهدتها الخلافة العباسية إلى انزواء البعض عن الناس وتجنب المعترك الحياتي لينأوا بأنفسهم عن شروره ، وربما ارتدوا الثياب الخشنة كعلامة على زهدهم في متاع الحياة ، فأعجب بهم الناس وكان لهم أتباع ومريدون يحضرون حلقات دروس الوعظ التي يلقونها عليهم ، وربما نسبوا لهم خوارق وكرامات لتعظم مكانتهم في النفوس . =

المزعومة لذلك كان الرأي أن تنسب لأشخاص أتقياء ورعين ، يتقبل العوام منهم كل ما يصدر أو يذكر عنهم

= ج- التأثر بالشخصيات اليونانية الأسطورية : من المؤكد أن الفلسفة والأساطير اليونانية أخذت طريقها إلى بلاد المغرب ، وإذا كان هناك شك في مدى تقبل المغاربة لهذه الفلسفة الإلحادية (تعدد الآلهة) نظرا للأيمان الذي وقر في قلوبهم ، لكن ربما حاكوا الشخصيات (اليونانية) التي كانت تتفوق " إيجاد " شخصيات مغربية مماثلة ، ولكنها لا تقترب كثيرا منها ، تلك الشخصيات (اليونانية) التي كانت تتفوق على الآلهة نفسها ، فالشخصيات المغربية بعيدة كل البعد في قدرتها عن المقدرة الإلهية ، في إذن في مرتبة منحطة تماما عن ا وليس كما هو الحال في الأولى حيث تختلط الأفعال وتنقلب الموازين فلا تدري أكانت الشخصيات مجرد شخصيات لآدمية أم أنها هي الآلهة نفسها .

إن الدين الإسلامي حفظ للأم مكانتها ، وجاء القرآن ليؤكد وجوب طاعتها وحفظ مقامها كما يحفظ مقام الوالد ، قال تعالى : << **وَقَضَى رَبكَ ألا تَعْبُدُوا إلا إياهُ وَبِالوَالِدَيْنِ إحْسَانًا ، إما يَبْلُغَن عِنْدَكَ الكِبَرَ أحَدُهُمَا أوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لهُمَا أف وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا وَاخْفِضْ لهُمَا جَنَاحَ الذل مِنَ الرحْمَةِ وَقُلْ رَبي ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبيَانِي صَغِيرًا** >>[1]، وقال أيضا : << **وَوَصيْنَا الإنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أمهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أن اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إلَي المَصِيرُ**>> [2].

وتحتفظ الأم بمنزلة رفيعة لدى الرجل ، وقد كان الجاهليون -ومن جاء بعدهم- يرون فيها مصنعا لتزويدهم بالشباب الذي يحمل السلاح ، ولهذا كانت الأم أكرم ما تكون لديهم عندما تكون ولودا ، روي عن أحدهم قوله : << خَيْرُ النسَاءِ الوَدُودُ الوَلُودُ ، التي فِي بَطْنِهَا غُلاَمٌ ، وَبِجَنْبِهَا غُلاَمٌ ، وَيَسْعَى لَهَا مَعَ الغِلْمَان غُلاَمٌ >> [3] .

وربما وجد من كان يقصر في حق الأمهات وذلك بازدرائهن والتنكر لفضلهن ، ولكنها بالطبع خصال لا يحملها كريم ، بل لا توجد إلا في لئيم ، ونجد الجاحظ يدافع دفاعا مستميتا عن حقوق الأمهات ، ويورد في رسائله فضلهن وعظم شأنهن ، فكأنما يريد إعطاء درس إنساني للنشء الذي قد تعميه الجهالة فيجور على من كان سببا في وجوده وتنشئته ، ويرد أيضا على بعض الفلاسفة اليونان المتقولين على المرأة والأم والذين كانوا ينزلونها إلى مرتبة الحيوان وقد عقدوا مؤتمرا ضم علماءهم وجهابذتهم وكان محور النقاش فيه : هل المرأة إنسان ؟! ، يقول الجاحظ : << ولسنا نقول ولا يقول أحد ممن يعقل : إن النساء فوق الرجال ، أو دونهم بطبقة أو طبقتين ، أو بأكثر ، ولكنا رأينا ناسا يزرون عليهن أشد الزراية ، ويحتقرونهن أشد الاحتقار ، ويبخسونهن أكثر حقوقهن .

وإن من العجز أن يكون الرجل لا يستطيع توفير حقوق الآباء والأعمام إلا بأن ينكر حقوق الأمهات والأخوال ، فلذلك ذكرنا جملة ما للنساء من المحاسن >> [4] .

ولا شك أن عاطفة الأمومة كانت من أقوى العواطف التي تربط بين بني الإنسان ، وإنها

---

[1] الإسراء : 23-24 .

[2] لقمان : 14 .

[3] لويس شيخو : مجاني الأدب ، ج2 ، ص36 .

[4] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : رسائل الجاحظ ، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 1399هـ/1979م ، ج3 ، ص 151-152 .

لتحمل معاني القداسة أحيانا عند المسلمين ، حيث لا يكون العبد رضيا عند ربه إلا إذا كان رضيا عند والديه ، ولا غرو أن نجد الرسول صلى ا عليه وسلم يوصي بالأم ويشدد على احترامها ويقر بأسبقيتها على الأب ، فقد جاءه رجل وقال : من أبر يا رسول ا ؟ ، قال : << **أُمكَ ، قالَ : ثُم مَنْ يَارَسُولَ اللهِ ؟ ، قالَ : أُمكَ ، قالَ : ثُم مَنْ ؟ ، قالَ : أَباكَ ثُم أَدْنَاكَ** >> [1] .

وقد ظلت الأم – منذ القدم – منبعا صافيا للأحاسيس الصادقة التي لا يشوبها زيف أو تملق ، وأشد ما اعتورها سابقا وإلى اليوم ألم الثكل وفقد الولد والأهل ، ونراها تذرف الدموع الحارة ، وتصاعد من صدرها زفرات وأنات مريرة على فقدان ساعدها الذي كانت تدخره لقادم الأيام وشدائد الدهر ، فالابن أغلى شيء كانت تملكه في حياتها ، ونجد في الجاهلية قصيدة رائعة تصور فيها أم السليك إحساسها المرير عند فقدان ابنها السليك [2] ، وكان قد خرج للإغارة والسطو فمر بأرض من ديار بني عقيل وسعد بن تيم ، فلقي رجلا من قبيلة خثعم ومعه امرأة من بني خفاجة ، فقال له الخثعمي : أنا أفدي نفسي منك ، فقال له السليك : لك ذلك على ألا تطلع علي أحدا من خثعم ، فأعطاه عهدا على ذلك وخرج إلى قومه وترك عنده امرأته رهينة ، وبلغ الخبر بني خثعم فخرج منهم من قتله ، فقالت أمه ترثيه : [من المقتضب]:

طافَ يَبْتغِي نَجْوَةً ... مِنْ هَـلاكٍ فَهـَلَكْ
لَيْتَ شِعْرِي ضَلةٌ ... أَي شَـيْءٍ قَتَـلَكْ
أَمَرِيضٌ لَمْ تُعَـدْ ... أَمْ عَـدُو خَـتَلَـكْ

---

[1] أبو داوود : صحيح سنن أبي داوود ، ج2 ، ص25 .

[2] **السليك بن السلكة** : شاعر فاتك من الصعاليك في الجاهلية ، كان يضرب به المثل في سرعة العدو فقيل " أعدى من السليك " ، يقال إن العدو أحاط به يوما فنزا نزوة عد فيها أربع وعشرون خطوة ، وكان يسبق الخيل على رجليه أبوه عمرو بن سنان بن عمير بن الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم السعدي التميمي ، والسلكة هي أمه ، وكانت سوداء ، وكان هو أيضا أسود ، وكان السليك من أدل الناس بالأرض وأعلمهم بمسالكها ، وكان يستودع الماء وبيض النعام في الشتاء ويدفنه في المفاوز العظيمة ، فإذا كان الصيف وانقطعت إغارة الخيل أغار على ربيعة وشرب من ذلك الماء ، وكان يقول : " اللهم إني أعوذ بك من الخيبة ، أما الهيبة فلا هيبة " ، ولم يدرك الإسلام .

- ابن قتيبة : الشعر و الشعراء ، ج1 ، ص353 .

وجاء في معجم الأمثال : << ذكر أبو عبيدة السليك في العدائين مع المنتشرين وهب الباهلي وأوفى بن مطر المازني ، والمثل " أعدى من السليك " سار بسليك من بينهم >>.

- الميداني : مجمع الأمثال ، ج1 ، ص 679 .

أَمْ تَوَلّى بِــكَ مَا   غَالَ فِي الدهْرِ السلَيْكْ

وَالْمَنَــايَا رَصَدٌ   لِلْفَتَــى حَيْثُ سَــلَكْ

كُل شَــيْءٍ قَاتِــلٌ   حِيــنَ تَلْقَــى أَجَلَكْ

لَيْتَ نَفْسِي قُدمَــتْ   لِلْمَــنَايَا بَــدَلَكْ [1]

<< فبينما تسعد الأم بطفلها ، وتتوسم في مخايله سيادة وعزة وبرا ، وبينما تنعم بولدها الذي شب أو اكتهل ، تستمتع ببره ، وتتسمع أعذب الثناء عليه فتزهى وتنتشي ، إذا بالدهر يبدد سعادتها ويطيح بنعمائها ، فيخطف ابنها ، إنها الساعة المشؤومة التي كانت لا تسمح لطيفها أن يلم بخاطرها ، إنها النكبة الكبرى التي لا تلتئم جراحها ، إنه الحزن الذي يجثم في قلبها لا يبرحه ما رددت أنفاسها ، وأي حزن على فقيد يعدل حزن الأم ؟ ، بل أين ذاك الحزن الذي يداني حزن الأم على ولدها ؟ >> [2]

ونلاحظ عظم الفجيعة على الأم المسكينة ، وهي تغري نفسها بعدما لم تجد معزيا لها ، وتتعلق بأماني النفس المكلومة ، وترجو أن يكون غيابه لمرض عارض وليس لمقتل أصابه ، ثم تؤوب إلى رشدها ويذهب سراب الأماني ، وتعترف أن المنايا شرك كبير لا يفلت منه القاعد في بيته فما ظنك بمن يسعى إليه سعيا ويقتحم الردى اقتحاما كحال ابنها الذي يغامر بنفسه في المفاوز والقفار وفي مضارب الأعداء المتربصين به .

على أن معرفة الأم بحتمية الموت يهون عليها المصاب قليلا وإن كان الخطب فادحا لا يترك للنفس قرارا أو يمنحها سكينة .

ولعل كل الأمهات الثاكلات يحملن هذه الحسرات والأسى المضطرم في الجوانح لكن الكثيرات يكتفين بالعويل والندب ، بينما القليلات اللائي يتمكن من صوغ هذه الأحاسيس في قالب شعري كما هو الحال عند أم السليك .

ولعلنا لا نغادر القصيدة دون أن نشير إلى الإيقاع الموسيقى الخارجي وما يحمله من دلالات لا تخرج عن الجو النفسي العام الذي يملؤه الأسى والغضب من هذه النهاية المؤلمة لرجل دوخ فلول القبائل دهرا طويلا .

---

[1] التبريزي : شرح ديون الحماسة ،ج1 ،ص145 .

[2] د. أحمد محمد الحوفي : المرأة في الشعر الجاهلي ، ص 120 .

ويمكن القول هنا إن بحر المقتضب [1] الذي نظمت على تفعيلاته أبيات القصيدة يشير إلى انفعالات سريعة مقتضبة وردود قوية وغضب عارم حيال نبأ وفاة الابن ، ومن ثمة كان الاقتضاب في القول والغضب من هذا الزمان الذي يغدر ويقطع السبيل على الأبطال الشجعان للوصول إلى المكارم والسيادة بينما ينام الجبناء في هناءة وسط العسس والجند والشرط .

وحتى حرف الروي الذي جاء ساكنا فيحيل إلى الانقطاع في الدعوة إلى الحياة بين كل بيت ، فكأن الأم تتسلى قليلا عن مصابها لبعض الوقت ولكنها لا تلبث أن تجد الطريق مقطوعا (الكاف الساكنة في نهاية البيت) عند كل محاولة " لإحياء الميت " عبر الزعم أنه مريض تارة أو مشغول بغاراته تارة أخرى ، ومن هنا كان هذا الثقل الذي نحس به عند تسكين أحرف الروي في الأبيات وكأنما يدل على ثقل الهموم الذي تحمله الأم ، أو ثقل الأيام واعتصار الوقت عندها فكأنما توقف الزمن وانتهت الحياة ، وهذا الجمود في الإحساس بمتاع الحياة بعد مغادرة الأنيس والولد المطيع هو الذي انعكس على الإيقاع الوزني فجاء رتيبا يزيده الانقطاع النغمي في أواخر الأبيات ثقلا ورتابة ، يقول عز الدين إسماعيل : << إن شكل القصيدة التقليدية وطريقة بنائها من وحدات متكررة مقفلة على ذاتها تتمثل في الأبيات المنتهية بنفس القافية قد حال دون تشكيل صورة موسيقية مرنة تتمثل في القصيدة من حيث هي كل ، مما أفقد القصيدة وحدتها الموسيقية ، وكل ذلك راجع إلى المبدأ العام الذي يمثل هذا الاتجاه ، وهو تشكيل ما في النفس وفقا للنظام الطبيعي لا تشكيل الطبيعة وفقا لما في النفس ، ومن ثم كانت موسيقى القصيدة التقليدية جامدة وصاخبة ورتيبة >> [2].

---

[1] القضب : القطع . انقضب وتقضب : انقطع ، ومنه قيل : اقتضبت الحديث : إنما هو انتزعته واقتطعته . والمقتضب من الشعر : فاعلات مفتعلن مرتين ، وبيته :

أَقْبَلَتْ فَلاَحَ لَهَا   عَارِضَانِ كَالبَرَدِ

وإنما سمي مقتضبا ، لأنه اقتضب مفعولات ، وهو الجزء الثالث من البيت ، أي قطع .

- ابن منظور : لسان العرب ، ج11 ، ص 181-182 .

[2] د. عز الدين إسماعيل : التفسير النفسي للأدب ، ص 82 .

- صورة الأم الفقيدة :

وعلى كل حال فإن هذه الأم التي تسهر وتربي وتتحمل الصعاب لتنشئة أبنائها على أسس الفضيلة والخير حق أن يرد جزء من جميلها ، و الشعراء المغاربة لم يهملوها بل تحدثوا عنها كما تحدثوا عن الزوجات والبنات والأخوات ، ولابن هانئ رائية بديعة في رثاء أم جعفر ويحيى ابني علي الحمدوني وقد كانت هذه الأسرة تحكم الزاب من قبل المعز الفاطمي ، ويبدأ الشاعر مرثيته بمقدمة حكمية طويلة تناسب مقام التفجع الذي هو بصدد النظم على ترنيماته ، فيذكر قصر الأمل وذهاب العمر ، ويدعو إلى الاعتبار من مصارع الآباء والأجداد ، والملوك والسادة القدماء الذين لم تنفعهم حصونهم أو قلاعهم أو سيوف جندهم -التي حجبوا وراءها- من سطوة الموت وغارته التي لا ترد ، والشاعر في هذا لا يخرج عن مضمون افتتاحية القصيدة الرثائية القديمة والتي يوجز ابن رشيق معانيها في قوله : << ومن عادة القدماء أن يضربوا الأمثال في المراثي بالملوك الأعزة ، والأمم السالفة ، والوعول الممتنعة في قلل الجبال ، والأسود الخادرة في الغياض ، وبحمر الوحش المتصرفة بين القفار ، وبالنسور والعقبان والحيات لبأسها وطول أعمارها ، وذلك في أشعارهم كثير موجود لا تكاد تخلو منه >> [1] .

والشاعر يأتي بهذه المعاني لغرض تسلية النفس عن المصاب في الميت ، ولإقناع المستمعين بأن عظم الفقيد ومنزلته لا تمنعه من حادث الموت الذي أودى بالكثيرين قبله ، وقد وجد المحدثون من الشعراء – ومنهم ابن هانئ – في مقدمة الإقناع هذه خير افتتاح لمراثيهم بالرغم من محاولة بعضهم الخروج عن هذا النسق القديم ، يقول ابن رشيق معقبا : << فأما المحدثون فهم إلى غير هذه الطريقة أميل ، ومذهبهم في الرثاء أمثل في وقتنا هذا وقبله ، وربما جروا على سنن من قبلهم ، اقتداء بهم وأخذا بسنتهم >>[2] .

ثم يتجه الشاعر إلى الحديث عن الفقيدة فيقول : [من الكامل] :

أَعَـقِيلَةَ المـَلِكِ المُشَيِعِـهَا ... هَذَا الثنَاءُ ، وَهَـذِهِ الزمَـرُ

شَهِدَ الغَمَامُ ، وَإِنْ سَقَاكِ حَيًا، ... أَن الغَمـَامَ إِلَـيْكِ مُفْتَقِـرُ

كَـمْ مِنْ يَدٍ لَكِ غَيْـرِ وَاحِدَةٍ ... لاَ الدمْعُ يَكْفُرُهَا ، وَلاَ المَطَرُ

---

(1) أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني : العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق وتعليق : د.النبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي ،القاهرة ، مصر ، ط1 ، 1420ه/2000م ، ج2 ، ص 836 .

(2) المصدر نفسه : ج2 ، ص 836 -837 .

وَلَقَدْ نَزَلْـتِ بَنِيةً عَلِمَتْ — مَا قَدْ طَوَتْهُ ، فَهْـيَ تَفْتَخِرُ

تَغْدُو عَلَيْهَا الشمـْسُ بَازِغَةً — فَتَحُـج نَاسِـكَةً ، وَتَعْتَمِـرُ

وَتَكَـادُ تَذْهَلُ عَـنْ مَطَالِعِهَا — هِـمَـمـا تُرَاوِحُـهَا وَتَبْتَكِـرُ

فَقِفُـوا تَضَرجْ ثَمَّ أَنْفُسُنَا — لا الصافِنَاتُ الجُـرْدُ ، وَالعَكَرُ

سَفَحَتْ دِمَـاءَ الدارِعِينَ بِهَا — حَتـى كَـأَن جُفُونَهُـمْ تُغَـرُ

الهَاتِكِينَ بِهَا الضلُوعَ ، إِذَا — مَارَجِعُوا الذكْرَاتِ ، أَوْ زَفَرُوا

رَاحُوا،وَقَدْ نَضِجَتْ جَوَانِحُهُمْ — فِيهَا قُلُوبُهُمُ ، وَمَـا شَعَـرُوا

وَحَنَوْا عَلى جَمْرِ ضُلُوعِهِـمُ — فَكَأَنـمـَا أَنْفَاسُـهُمْ شَـرَرُ

وَيَكَـادُ فـُولاذُ الحُدِيدِ مـَعَ — المُـهَجَاتِ وَالعـَبَرَاتِ يَبْتَدِرُ

فَكَأَنمـَا نَامَتْ سُيـُوفُهُـمُ — وَاسْتَيْقَظَتْ مِنْ بَعْدِ مَا وُتِرُوا

فَتَقَطـعَتْ أَغْـمَادُهَا قِطَـعًا — وَأَتَتْ إِلَيهِـمْ وَهْـيَ تَعْـتَذِرُ

لَمْ يَخْلُ مَطْلَعُهَا وَلا أَفَـلَـتْ — وَبَنُو أَبِيهَا الأَنْجُـمُ الزهُـرُ

وَبَنُوا عَلِي لا يُقَـالُ لَهـُمْ : — صَبْرًا،وَهُمْ أُسْدُ الوُغَى الصبُرُ

إِن التِي أَخْـلَتْ عَرِينَهـُمُ — أَضْحَتْ بِحَيْثُ الضيْغَمُ الهَصِرُ

مَـنْ ذَالَ الدنْيَا وَوَطّـدَهَـا — حَتى تَلاقَى الشاءُ وَالنمِـرُ

بَلَغَتْ مُـرَادًا مِنْ فِدَائِـهِـمُ — وَالأَمْ فِـي الأَبنـَاءِ تُعـْتَقَرُ

تَأْتِي اللَيَالِي دُونَـهَا ، وَلَهَا — فِـي العُمْرِ مَـجْدٌ لَيْسَ يَنْعَقِرُ

أَبقَتْ حَدِيثًا مـِنْ مَآثِرِهَا — يَبْقَـى ، وَتَنْفَدُ قَبْلَهُ الصـوَرُ

فَإِذَا سَمِعْتَ بِذِكْرِ سُؤْدُدِهَـا — لَيْلاً ، أَتـَاكَ الفَـجْرُ يَنْفَـجِرُ

وَلَقَدْ تَكُونُ ، وَمِنْ بَدَائِعِهَـا — حِـكَمٌ ، وَمِنْ أَيامِـهَا سِيَـرُ

إِنّـَا لَنُؤْتَى مِـنْ تَجَارِبِهَا — عِلْـمًا بِمـَا نَأْتِي وَمـَا نَـذَرُ

قَسَمَتْ عَلى ابْنَيْهَا مَكَارِمَهَا — إِن التـرَاثَ المَـجْدُ لا البِـدَر

حَتى تَوَلتْ غَـيـْرَ عَـاتِبَةٍ — لَمْ يَبْقَ فِي الدنْيَا لَـهَا وَطَرُ

مِنْ بَعْدِ مَا ضُرِبَتْ بِهَا مَثَلاً — قَحْطَانُ ، وَاسْتَحْيَتْ لَهَا مُضَرُ [1]

---

[1] ابن هانئ الأندلسي : ديوان ابن هانئ الأندلسي ، شرح : أنطوان نعيم ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1416هـ/1996م ، ص 416 -417- 418 .

يبدأ الشاعر حديثه عنها بذكر مقامها الرفيع في هرم الملك ، فهي زوجة الملك وعقيلته أي عقيلة المجد فبها ينعقد ويتوثق ، وقد أودت المنون بمهجتها فشيعها جمع عظيم من الناس ، يستعمل الشاعر لفظة " زمر " للدلالة على ذلك الجمع ، ولا يخفى على القارئ معنى هذه اللفظة التي وردت في القرآن الكريم ، قال تعالى : << **وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ** >>[1].

والشاعر يريد أن يبين عظم الجمع الذي شارك في تشييعها إلى مثواها الأخير ، وهو جمع يشبه في كثافته وضخامة عدده الجمع الذي سيكون في يوم العرض والحساب أمام ا سبحانه وتعالى حيث تلتقي جميع الشعوب والأجناس على مدار الأزمنة والعهود ليعرض عمل أفرادها فإما إلى نعيم مقيم أو عذاب مستديم ، ولابد أن الشاعر كان يقصد أن الفقيدة والزمر التي شيعتها ستكون في الجنة جميعا نظرا لقداستها ، وإذا علمنا أن الشاعر كان من معتنقي المذهب الشيعة الإسماعيلية جزمنا أنه كان ينظر إلى الفقيدة بعين القداسة والضراعة ، وقد كان الشيعة عموما يغالون في اعتبار منزلة فقهائهم وحكامهم وأولي أمرهم ، يرفعوهم إلى منزلة الرسل [2] ، يقول شوقي ضيف : << إن الفاطميين كانوا يحيطون حكمهم بهالة دينية ونظرية عقيدية معقدة تقوم على أن للإمام الفاطمي نسبتين : نسبة إلى عالم الطبيعة كباقي البشر ، ونسبة إلى عالم القدس ، وأن الأئمة يتوالون في أدوار ، كل دور يتألف من سبعة أئمة ، ولقبوا الإمام السابع في كل دور بلقب الناطق ، وعدوه عقلا فعالا ، عنه تفيض النفس الكلية التي يمثلها الأئمة الستة التالون ، وقد استغلوا نظرية الفيض الأفلاطوني ، إذ زعموا أن قدرة ا انتقلت إلى الإمام الناطق وعنه تصدر جميع المخلوقات ، وقالوا إن ا فوق الأسماء والصفات ، أما صفاته المبثوثة في الذكر الحكيم فأسبغوها على الإمام الناطق وقد يسبغونها على كل إمام ، ومن هنا نشأت في العقد الثاني من القرن الخامس الهجري طائفة آمنت بألوهية الحاكم الخليفة الفاطمي المعروف ، وهو إيمان مرده إلى العقيدة الفاطمية الإسماعيلية وما كانت تصور في الإمام من أنه نفس

---

[1] الزمر : 73 .

[2] د. إحسان النص : اختيارات من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، ج3 ، ص 204 .

كلية أو عقل كلي ، يتحد فيه ا بالإنسان ، حتى ليصبح الإمام على مثاله وله كل ألقابه وأسمائه وصفاته ، وكأنه حل فيه >>[1] .

ومن هنا نرى أن رثاء ابن هانئ للأم لم يكن بريئا تماما ، فقد كانت تشوبه عقائد الإسماعيلية الشيعية ومالها من تفسيرات زائفة ودعايات مضلة .

وحتى الغمام فإنه يرثي لحاله ، فقد كان يجود بوبله في حياة الفقيدة ويتساقط مدرارا على رأسها وجسدها الطاهرين واستمر في عطائه حتى والناس يطبقون صفائح القبر على جسدها ، ولكنه بعد الآن سيفتقر إليها وربما لن يجود ثانية بالمطر ، ويقابل أسى الغمام على فقدان أعز من كان يراه فوق الثرى فرح وحبور في باطن الأرض ، إذ أن أرض المقبرة مبتهجة لهذا الوافد الجديد الذي حل عليها ، وهي تفخر على سائر المقابر بأنها تضم لحد هذه المرأة الصالحة ، ولم يكن صلاحها إلا وليد الأعمال التي قامت بها في حياتها فهي تقطع المسافات الطويلة والمفاوز الخطيرة وتتحمل لفح الهجير لتصل إلى بيت ا الحرام فتقضي حجها ونسكها وتؤدي مناسك العمرة أيضا ، ولكثرة تنقلها بكرة وعشية من المغرب إلى المشرق حاجة ذهلت الشمس عن مطلعها ومغربها ، فاختلط عليها الأمر ، فربما طلعت من الغرب ، وغربت من الشرق ، لأنها ترقب الأم وهي في سفرها الدائم ، وبالتالي شُغِلت عن مهمتها و عن جميع البشر واختصت رعايتها لهذه المرأة فقط .

ثم يدعو أصحابه إلى قتل أنفسهم أمام قبر هذه الأم العظيمة فالوجود بعدها عدم ، ولا يجب أن يكتفوا بذبح الخيل وعقر الإبل على عادة العرب .

وإذا نظرنا إلى هذا المعنى وجدنا فيه خصوبة وجِدةً بعض الشيء ، فالشعراء السابقون كانوا يدعون إلى عقر الخيل أمام قبر الفقيد ، وهذا إكراما له كما كان يعقر ويطعم في حياته ، يقول زياد الأعجم في رثاء المغيرة بن المهلب : [من الكامل] :

قُلْ لِلْقَوَافِلِ وَالغُزِي إِذَا غَزَوْا ... وَالبَاكِرِينَ وَلِلْمُـ ـجِدِ الرائِـ ـحِ

إِن المُرُوءَةَ وَالسمَاحَةَ ضُمنَا ... قَبرًا بِمَرْوَ عَلى الطريقِ الوَاضِحِ

فَإذَا مَرَرْتَ بِقَبْرِهِ فَاعْقِرْ بِـ ـهِ ... كُوْمَ الهجَانِ وَكُلِ طِرْفٍ سَابِـ ـحِ

وَانْضَحْ جَوَانِبَ قَبْرِهِ بِدِمَائِهَا ... فَلَقَدْ يَكُـ ـونُ أَخَـ ـا دَمٍ وَذَبَائِـ ـحِ[2]

---

[1] د. شوقي ضيف : فصول في الشعر ونقده ، دار المعرف ، القاهرة ، مصر ، ط3 ، 1988 ، ص 108 -109 .

[2] د إحسان النص : اختيارات من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، ج3 ، ص 204 .

لكن ابن هانئ يبالغ في تفجعه ويعرض أن يعقر دم الإنسان بدل الحيوان حتى ينفرد قبر الفقيدة عن باقي قبور الهالكين ، ولأنه يُسترخَصُ عند القيام على قبرها كل شيء يعز على الإنسان بما في ذلك روحه الغالية لأنها في الحقيقة هبة من هبات الميتة ، فهي التي طالما أحيت مهجا وأنقذت أرواحا كانت هالكة لا محالة بفضل حسن سياستها وتدبيرها والبذل والجود الذي عرفت به وأفاد منه الفقراء والمملقون كثيرا .

ثم يصف شدة الجزع التي ألمت بالناس بعد وفاتها ، وتبدو في أقصى مرارتها حينما يقفون على قبرها ، فتنهمر دموعهم من الجفون دون توقف ، وبغزارة لا تقل عن غزارة الدم المسفوك من أعناق الإبل والخيل التي نحرت على القبر .

ويعلو نحيب الرجال وعويل النساء خاصة وأن ذاكرتهم تأبى نسيان الفقيدة أو فضائلها الكثيرة ، فإذا ما رجّعوا هذه الذكرات ازدادت حسرتهم وبانت فجيعتهم ، وما هذه الدموع إلا لأن القلوب تحترق في الأجساد ، وقد ضمتها أضلاعهم فهي في اشتعالها بنار الحزن كالجمر ، والذي يخرج من رئاتهم ليس بنَفَسٍ بل هو شرر يقدح ، وحتى الحديد الصلب تراه يسيل كما تسيل دموع المشيعين ، إنه عظم الفجيعة فكل ما يحويه الكون من إنسان و حيوان وجماد قد لبس ثوب الحداد وبدت فيه مظاهر الأسى ، وقد غابت الشمس فلا يرجى لها طلوع ، وحل بالكون ظلام أبدي وليل سرمدي فلا يرى سرور على وجه أحد بعد اليوم .

ثم إن سهام المنية أصابت الأم وسيوف الحرس والعسس المرابطين في القصر وأنحائه مغمدة فكأنما هي نائمة مع أصحابها ، ولم يستيقظوا إلا بعدما وتر المحروس ولم تكن مسؤوليتهم قائمة لأن الميت لم يقتل بطعنة رمح أو ضربة سيف أو رمية سهم ، وإنما مات حتف أنفه ، وقد غضبت السيوف فخرجت من أغمادها دون إذن أصحابها لتعتذر عن عدم حماية الأم من داعي الموت الرهيب ، ولكن السيوف تعود إلى أغمادها راضية بعدما علمت أن الفقيدة لن يمحى ذكرها بفضل ولديها الصالحين جعفر ويحيى ،فهما الأنجم الزهر وسيدعوان لها بالرحمة والمغفرة ويحسب أجر صلاحهما لها كما قال صلى ا عليه وسلم : <<**إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلاثٍ : صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ ، أَوْعِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**>> [1] .

---

[1] أبو داوود : صحيح سنن أبي داوود ، ج2 ، ص118

وعلى الرغم من مظاهر التعبد والتقوى والورع التي تبدو على هذين الابنين فعودهما ليس بالغض وحماهما ليس بالمستباح ، فهما على جانب كبير من القوة والبأس لا يلين لهما جانب ، وهما في ساحة الحرب وميادين القتال أسد ضارية يفتكان بك محارب ويهزمان كل عدو .

وهم قد توارثوا الحكم كابرا عن كابر ، وقد أخلت لهم الأم المكان وسلمتهم زمام الملك وذهبت لترقد حيث يوجد زوجها الذي سبقها في أخذ مكانه من الحفرة الملحودة في أسفل الأرض .

ثم يذكر الشاعر جودها وفضلها على الفقراء وتصدقها على المساكين وإصلاحها لشؤون الناس وتذليلها للصعاب التي تواجههم في معترك الحياة اليومية ، ونشرها الأمن والسكون في ربوع البلاد الفسيحة ، فلم يخش مدلج على نفسه خطرا ، وسارت القوافل في دعة وسكينة لا يؤرقها شيء ولا يستبيحها غاصب ، بل بلغ من حال الهدوء والأمان أن أصبح النمر وباقي الحيوانات المفترسة والسباع الضارية يرعون مع الشاء والنعم دون أن يفترسوها ، وابن هانئ أخذ هذا المعنى من العصر الأموي ، وبالضبط من عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي اشتهر بعدله وعم الرخاء والأمان في عهده إلى حد أن شوهدت الذئاب ترعى مع الغنم دون أن تمسها بسوء [1].

ويبدو أن الشاعر ينسى برهة حنقه الدائم على الخلفاء الأمويين ، ويذكر ما تميز به أفضلهم سيرة على الإطلاق ولكن دون أن يسميه بالاسم بل يستعير مآثره وخصاله ليلبسها عهد الأم الفقيدة .

وقد كانت كثيرا ما تتصدى للمخاطر والأهوال لتجنيبها ولديها ، فهي تؤمن أن الاستمرارية للأبناء لا للآباء ، وقد أصابتها الليالي بغير جرح وانعقر دمها كثيرا غير أن عرى المجد لم تنكسر ونجم السعد لم يأفل عنها فهي في صعود وإشراق دائمين ، ولهذا فإن مآثرها ستبقى على ألسن الكثيرين برغم فناء صورتها وتحلل جسدها في التراب، والشاعر هنا يؤكد بطلان الاعتقاد القائل ببقاء الصور وخلودها مع الروح بعد الموت ، وقد كانت الحضارة الفرعونية بمصر أقدم من اعتقد هذا المذهب ، لذلك نرى الفراعنة يحنطون ملوكهم للمحافظة على الصورة ، فبعد أن تعود الروح للميت تجد صورة تتمثلها

---

[1] علي محمد الصلابي : عمر بن عبد العزيز وملامح التجديد والإصلاح الراشدي على منهاج النبوة ، دار ابن الجوزي ، القاهرة ، مصر ، 1428هـ/2007م ، ط1 ، ص298 .

وجسدا تحل فيه ، وعلى الرغم من القداسة التي أظهرها الشيعة لملوكهم وأئمتهم فإنهم لم يذهبوا إلى الاعتقاد بخلود صورهم ، وإنما كان تقديسهم لهم في الفعال والزعم بحلول الذات الإلهية فيهم ومشروعية مناداتهم لكشف الكرب ، أما الصورة فهي تبلى في أطباق الثرى وليست لها أية حكمة في أن تعود أو أن تخلد ، وأكثر من هذا فإن الاعتقاد السائد لدى الشعراء هو أن هذه الروح التي وهبها ا للإنسان ظلمت لما حلت بجسد ضعيف تنتهشه الأمراض وتنتقصه العلل ، أي أنها أسكنت هذه الأجساد البالية ، ولولاها لكانت تحلق في سماوات الفضيلة ، و إنه لم يكن هناك عداء بين البشر ، ولكن حاجة الجسد إلى الطعام والشراب وغير ذلك هي التي تدفع بني الإنسان إلى الاقتتال والتناحر في سبيل إرضاء الجسد وملاذات النفس وعلى ضوء هذا يمكن فهم بيتي المعري حول حقيقة هذا الجسد : [من الوافر] :

أَرَانِي فِي الثلاثَةِ مِنْ سُجُونِي فَلا تَسْأَلْ عَنِ الخَـبَرِ النبِـيثِ

لِفَقْدِي نَاظِرِي وَلُزُومِ بَيْتِـي وَكَوْنِ النفْسِ فِي الجِسْمِ الخَبِيثِ [1]

هذا الجسم الخبيث كان يجب أن يحرم من كل الملذات وما يقوي شهوته ويزيد نشاطه وذلك حتى يسرع إليه المرض والعجز فيتخلص الإنسان منه وتتحرر روحه من هذا السجن الذي أدخلت فيه .

وعلى كل لم يذكر الشاعر قضية فناء الصورة البشرية إلا ليرد به على الزاعمين بخلودها من أصحاب التيارات الفكرية والفلسفية التي كثرت في عصره .

وقد سبق لأبي حيان التوحيدي أن عرض لهذا الموضوع ، ونراه يعرض لفساد الصورة الإنسانية المتهالكة على الذات ويجزم أن شهوات النفس المركبة في الجسد هي أصل الشرور فيعرض قولا بليغا لابن سماك [2] يصب في هذا المعنى يقول : << لولا ثلاث لم يقع حيف ، ولم يسل سيف ، لقمة أسوغ من لقمة ، ووجه أصبح من وجه ، وسلك أنعم من سلك ، وليس كل أحد له هذه القوة ، ولا فيه هذه المنة ، والإنسان بشر ، وبنيته متهافتة ، وطينته منتثرة ، وله عادة طالبة ، وحاجة هاتكة ، ونفس جموح ، وعين طموح

---

[1] المعري : اللزوميات ، ص 78 .

[2] **ابن السماك** : هو أبو العباس محمد بن صبح الكوفي الزاهد الواعظ المشهور ، توفي سنة 183 ه بالكوفة ، كان يفد على الرشيد ويعظه .

- د. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، ج3 ، ص 84 .

، وعقل طفيف ورأي ضعيف ، يهفو لأول ريح ، ويستخيل لأول بارق ، هذا إذا تخاص من قرناء السوء ، وسلم من سوارق العقل ، وكان له سلطان على نفسه وقهر لشهواته ، وقمع لهوائجه >> [1] .

وقد أكد التوحيدي على فساد الصورة الإنسانية عند الموت فقال : << والإنسان إنما يبلى ويفسد وَيَخْلَقُ ويبطل ويموت ويفقد لأنه يفارق النفس >>[2] .

ويؤكد ذلك مرارا بقوله : << فالإنسان هو الشيء المنظوم بتدبير الطبيعة للمادة المخصوصة بالصور البشرية ، المؤيد بنور العقل من قبل الإله ، وهذا وصف يأتي على القول الشائع عن الأولين " إنه حي ناطق مائت " أي حي من قبل الحس والحركة ، ناطق من قبل الفكر والتمييز ، مائت من قبل السيلان والاستحالة ، فمن حيث هو شريك الحيوان الذي هو جنسه ، ومن حيث هو مائت هو شريك ما يتبدل ويتحال >> [3] .

ويقابل هذا الاندثار الجسدي خلود أبدي للنفس بعد أن أعطت الجسد ما يوافقه ليستمر << فالنفس تعطي للذات كل ما قبل أثرها بحسب قبوله واستعداده وتهيؤه ، وأنها تعطي للبدن أحوالا مختلفة ، وصورا متباينة ، قبل أن يكون جنينا ، وبعد أن تتم الصور الإنسانية ليس ينقطع أثر النفس من البدن البتة>> [4] .

ولا يستبعد أن تكون صلة ابن هانئ بالمتكلمين والفلاسفة وثيقة واطلاعه على آرائهم كبيرا ، سيما وأنه عاصر أبا حيان وعلماء القرن الرابع الهجري وما حديثه عن فناء الجسد وخلو الروح إلا دليل على ذلك ، ولكن على الرغم من قول الشيعة بتشابه أجساد الأئمة مع أجساد الرعية في التحلل والزوال بعد الموت ، فإنها تختلف جوهريا في الحياة ، وهذا ما يسمونه "بالدور " << فطبيعة الإمام ليست بشرية خالصة وإنما هي طبيعة متمايزة وسامية ، حيث يجمع الإمام في شخصه بين ناسوت طبيعي وناسوت لاهوتي

---

[1] أبو حيان التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة (مجموع مسامرات في فنون شتى حاضر بها الوزير أبا عبد ا العارض في نحو أربعين ليلة) ، ضبط وتصحيح : أحمد أمين وأحمد الزين ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، د ت ، ج1 ، ص 14 .

[2] المصدر نفسه : ج3 ، ص 111 .

[3] المصدر نفسه : ج 3 ، ص 112 .

[4] د. علي شلق : أبو حيان التوحيدي والقرن الرابع الهجري ، دار الاجتهاد والدار العربية للعلوم ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1424 ه / 2003 م ، ص 570 .

نقلا عن التوحيدي : الهوامل والشوامل ، ص 110 .

والعلاقة بين الناسوتين تتمثل في كون الأول خلافا للثاني ، ولذلك فإن الناسوت الطبيعي -بالرغم من أنه يشارك أجساد الناس الآخرين فيما يقع عليه من أحداث وعوارض ، فإنه يتميز عن الأجساد العادية في كونه يعكس عنه نظرات الأعين فيرتد إليها ناظرها ، مثل المرآة المصقولة التي تعكس النظرات الموجهة إليها >> [1] .

ومن هذا أمكننا تفسير أكثر المصطلحات والألفاظ التي تدل على النور عند شعراء الدعوة الفاطمية ومنهم ابن هانئ وخاصة في بيته :

لَمْ يَخْلُ مَطْلَعُهَا وَلاَ أَفَلَتْ   وَبَنُو أَبِيهَا الأَنْجُمُ الزهْرُ

وقد درج الشيعة على استعمال ألفاظ الأفلاك للدلالة على أئمتهم << فالشمس محمد ، والقمر علي ، والزهراء فاطمة ، والفرقدان : الحسن والحسين >> [2] .

وبهذا كانت الشمس التي عناها ابن هانئ وخصها بالمطلع للأم قبسا من النور المحمدي ، وكذلك الأنجم الزهر بالنسبة للولدين جعفر ويحيى فهما امتداد لسماء الأسرة العلوية .

ونعود إلى معاني الأبيات والشاعر يقول إن ذكرها يجري على كل لسان وأن مناقبها خير ما يملأ به السامرون لياليهم وخير ما تتناقله القوافل في الترحال والإدلاج ، حتى إن الفجر حسدها وامتلأ غيظا لأن الناس لم يعودوا يأبهون لجماله و سحر خيوطه البيضاء المنقشعة من السواد ، بل إن السامرين يتمنون دوام الليل وعدم بزوغ الفجر ليكملوا حديثهم عنها ، وبلغ من غيض الفجر أن انفجر في وجوههم ببزوغه ليفرض عليهم توجيه مدار الحكي إليه بعدما نُسِي تماما ، ثم يعود الشاعر ليضفي على الأم صفة القدسية فيرى أن أفعالها تنطوي على حكم بليغة كأفعال الأنبياء والأولياء الصالحين في الأرض ، وأن سيرتها عطرة محمودة لا يشوبها ظلم أو عسف ، والرعية لا تزال تلهج بذكرها وحمد أيامها ما هبت النسائم وما لاحت في الأفق الحمائم ، ولا يفتأ الشاعر يقنعنا بتنزيه أفعالها عن فعال البشر فكل فعلها خير وصلاح ودعوة إلى الفلاح فحالها يشبه حال الأنبياء ، وفي بيته :

إنا لَنُؤْتَى مِنْ تَجَارِبِهَا   عِلْمًا بِمَا نَأْتِي وَمَا نَذَرُ

إحالة لقوله تعالى : << **وَمَا آتَاكُمُ الرسُولُ فَخُذُوهُ ، وُمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتقُوا اللهَ إن**

---

[1] د. عبد الرحمن حجازي : الخطاب السياسي في الشعر الفاطمي (دراسة أسولبية) المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 2005 م ، ص 117 .

[2] د. شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، هامش ص 313 .

اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ >> [1] .

وقد بنت لابنيها عزا شامخا ومجدا مؤثلا ، وأورثتهما أهم شيء وهو حب الرعية لآلهم ورضاهم بملكهم فالإرث الحقيقي هو المجد لا أكياس النقود المصفوفة ، وقد ماتت قريرة هانئة البال مطمئنة على حال ابنيها ، لم تبق لها غصة في النفس أو حرقة في القلب فهي قد حققت جميع ما تمنته .

وخير دليل على سموها وصلاحها أنها صارت مضربا للمثل بين قبائل العرب القحطانية منها في الجنوب أو العدنانية المضرية في الشمال .

وله أيضا مرثية أخرى في الأم ذاتها ، وبعد مقدمة طويلة يذكر فيها الموت وموقفه منه بل وموقف الكائنات : يقول : [من المتقارب] :

أَقُولُ وَقَدْ شَقَ أَعْلَى السحَابِ ... وَأَعْلَى الهِضَابِ وَأَعْلَى الربَى [2]

أَذَا الوَدْقُ فِي مِثْلِ هَذَا الربَابِ ؟ ... وَذَا البَرْقُ فِي مِثْلِ هَذَا السنَا؟ [3]

أَلاَ انْهَل هَذَا بِمَـاءِ القُلُـوبِ ... وَأُوقِدَ هَـذَا بِنَـارِ الحَـشَا

فَيَهْمِـي عَلَى أَقْبُرٍ ، لَوْ رَأَى ... مَكَـارِمَ أَرْبَابِهَا مَا هَمَـى [4]

وَفِي ذِي النوَاوِيسُ مَوْجُ البِحَارِ ... وَمَا بِالبِحَارِ إِلَيْـهِ ظَمَـا [5]

هَلُموا !فَذَا مَصْـرَعُ العَالَمِينَ ... فَمِنْ كُل قَلْبٍ عَلَيْـهِ أَسَـى

وَإِن التِـي أَنْجَبَتْ لِلْـوَرَى ... كَـآلِ عَلِـي ، لأم الوَرَى

فَلَـوْ عِزةٌ أَنْطَـقَتْ مُلْـحَدًا ... لأَنْطَـقَ مُلْحَدَهَا مَا يَـرَى

بَكَتْهُ المَغَاوِيرُ بِيضُ السيُوفِ ... وَهَذِي العَنَاجِيـجُ قُبُ الكُلَـى [6]

وَلَما أَتَيْنَـا سَقَتْهُ الدمُـوعُ ... فَمَـا بَاتَ حَتى سَقَاهُ الحَـيَا [7]

---

[1] الحشر : 07 .

[2] الربى : مفردها رابية وهوالمرتفع من الأرض

[3] أذا الودق : استفهام وهو مع بقية البيت مفعول قوله " أقول " في البيت السابق ، الودق : المطر ، الرباب : السحاب الأبيض .

[4] يهمي : يهطل بغزارة .

[5] النواويس : جمع ناووس أو ناؤوس وهو مقبرة النصارى معرب .

[6] العناجيج : الخيول ، القب : جمع أقب وهو الدقيق الخصر ، الضامر البطن .

[7] الحيا : المطر .

وَمَا جَادَهُ المُزْنُ مِـــنْ غُلةٍ وَلَكِنْ لِيَبْكِ النَدَى بِالنَــدَى [1]

وَقَدْ خَدَ فِي الشَمْسِ أُخْدُودَهُ وَلَكِنْ سَبَقْنَا بِهِ فِي الثَّــرَى [2]

وَمَا ضَرَ مَنْ لَمْ يَطُفْ بِالمُقَامِ إِذَا طَــافَ بِالجَوْسَقِ المُبْتَنَى [3]

وَقَالُوا : الحَجُونُ ، فَثَم الحَجُونُ وَثَم الحَطِـيمُ ، وَثَـم الصفَـا [4]

وَبَيْنَ الشمَال ، وَبَيْنَ الجَنُوبِ فِــي هَبْوَةٍ مِنْ مَهَب الصـبَا [5]

قُبورُ الثلاثَةِ فِـــي مَصْــرَعٍ أَمَا كَانَ فِي وَاحِدٍ مَا كَفَــى ؟

أَمَا وَالركُوعُ بِهِ وَالســجُودُ إِذَا مَا بَكَـــى قَانِتٌ ، أَوْ دَعَا

لَذَاكَ الصعِيدُ ، وَذَاكَ الكَـدِيدُ أَحَق مِنَ الخَيْفِ بِي ، أَوْ مِنَى [6]

وَلَوْ جَـاوَرَ العَرَبَ الأَقْدَمِينَ وَفِي الذاهِبِينَ وَفِي مَنْ وَفَـى

أَتَتْهُ الحَجِيجُ مِنَ الراقِصَاتِ مِنْـهَا فُرَادَى وَمِنْـهَا ثُنَـــا [7]

فَمَــا لِــيَ لا أَقْتَدِي بِالكِـرَامِ وَأُوثِـرُ سُنــةَ مَــنْ قَدْ خَـلا

إِذَا مــا نَحَرْتَ بِــهِ أَوْ عَقَرْتَ فَــعَد الخَوَانِفَ ذَاتَ البُــرَى [8]

وَلا تَــرْضَ إِلا بِعَقْــرِ الثنَاءِ وَنَحْــرِ القَوَافِــي وَإِلا فَـــلا

فَلَــوْلا الدمَاءُ إِذَا أَقْـبَلَتْ ، عَلَيْهِ تَكُــوسُ ذَوَاتُ الشــوَى [9]

إِذًا لَــمْ تُغَــادِرْ غُرَيــْرِيةً نَجُــب ، وَلا سَابِــحًا يُمْتَطَى [10]

يُــعَد الشرِيــفُ وَأَعْمَامُــهُ وَأَخْوَالُهُ فِيهِ شِـرْعًا سُــوَى [11]

---

[1] الغلة : شدة العطش ، الندى : الكرم .

[2] خد الأرض : شقها .

[3] الجوسق : القصر ، معرب " كوسك بالفارسية " ، والمراد بالمقام : مقام إبراهيم عليه السلام .

[4] الحطيم : حجر جدار الكعبة ، وقيل ما بين الركن وزمزم ، الصفا : الحجر الصلد وهو اسم موضع .

[5] الهبوة : الغبار ، الصبا : الريح الشرقية .

[6] الصعيد : الأرض الواسعة ، الكديد : الأرض الغليظة ، وهي أيضا تراب الحلبة .

الخيف : ماانحدر من غلظ الجبل وارتفع من مسيل الماء ، وسمي مسجد الخيف بمنى ، ومنى : موضع بمكة .

[7] ثنا : اثنين اثنين.

[8] الخوانف : الواحدة : خانفة ، الناقة التي تميل رأسها إلى صاحبها في العدو .

البرى : حلقات السوار أو القرط أو الخلخال : وهي أيضا حلقة تجعل في أنف البعير .

[9] تكوس : من كاس البعير ، مشى وهو معرقب على ثلاثة قوائم .

[10] الغريرية : الناقة المنسوبة إلى غرير وهو فحل كريم .

[11] الشرع : المثل .

وَإن حَـصَانًا نـَمَـتْ جَعْـفَرًا وَيَـحْيَـى لعَادِيةُ المـنْتَمَـى [1]

فَجَاءَتْ بِهَذَا كَـشَمْس النهَـار وَجَـاءَتْ بِهَذَا كَبَـدْرِ الدجَـى

تَـرَى بِهـمَا أَسَدَيْ جَـحْـفَلٍ غَـدَاةَ المَوَاكِبِ ، وَ ابْنَيْ جَـلا

أَلَمْ تَكُ مِنْ قَوْمِهَا فِي الصمـيم وَمِنْ مَجْدِهَا فِي أَشَـم الـذرَى [2]

فَمِنْ قَوْمِكَ الصيدُ ، صِيدُ المُلُوكِ وَمِنْ قَوْمِهَا الأَسْدُ أُسْدُ الشرَى [3]

يتعجب الشاعر بداية من استمرار هذه الحياة بعد وفاة الأم ، ويتمنى أن ينهل السحاب بدماء القلوب ، وأن يتقد ذلك البرق بنار الأحشاء حزنا وكمدا على المتوفاة ،ويجب أن تشارك مظاهر الطبيعة الناس أحزانهم وأن تنسى -ولو حينا- وظائفها المنوطة بها حتى تقضي حزنا على الفقيدة .

وقد تعود هذه السحائب فتمطر على قبرها ، ولكنها لو قدرتها حق قدرها لاستثنتها من المطر لأن المطر قد يعفي رسوم القبر ويمحي معالمه ولا يجب أن يحدث ذلك طالما أن نزيله عَلَمٌ الجود ونبراس الهدى ، فالقبر يجب أن يظل مزارا للمحبين ومحجا للناس يبكون ساكنه ويذكرون مناقبه وخصاله .

ثم إن هذا القبر هو في الحقيقة بحر يموج جودا وعطاء ، وتشتاق البحار الأخرى المعروفة للقائه والتمازج به حتى تنهل من عطائه وخيراته وتستوي بذلك بحارا زاخرة لا بحارا ميتة كما كانت من قبل ، وأما عن نفي الشاعر ظمأ البحار الأخرى لماء القبر فمعناه أنها لا ينقصها الماء وإنما ينقصها الحياة فيها وأنواع النبات والحيوان وأصناف المرجان واللآلئ التي لا توجد إلا في قبر الأم، وطبعا المعنى الكلي يدور حول صفات الجود والكرم التي حازتها الأم قبل مماتها، وكأن الشاعر ينظر إلى أبيات الحسين بن مطير الأسدي في رثاء معن بن زائدة : [من الطويل] :

فَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كُنْـتَ أَولَ حُفْـرَةٍ مِنَ الأَرْضِ خُطتْ لِلسمَاحِ وَمَوْضِعَا

وَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُودَهُ وَقَدْ كَانَ مِنْهُ البَر وَالبَحْرُ مُتْرَعَـا

بَلَى قَدْ وَسِعْتَ الجُودَ وَالجُودُ مَيتٌ وَلَوْ كَانَ حَيا ضِقْتَ حَتـى تَصَدعَا [4]

---

[1] الحصان : المرأة العفيفة . نمت : ولدت .

[2] الصميم : الخالص المحض . أشم : أعلى .

[3] ابن هانيء الأندلسي: ديوان ابن هانئ الأندلسي، ص 422-424-425 .

[4] ابن رشيق : العمدة ، ج2 ، ص 832

ويلاحظ هنا المزج بين عناصر الطبيعة من سحائب وبروق وهضاب وربى و بحار وبين نفسية الشاعر الملتهبة أسى وحرقة على الفقيدة ، وهذه خاصية في الشعر المغربي والأندلسي لا تكاد تعرف في الشعر المشرقي ، فالطبيعة كانت دائمة الحضور في مخيلة الشاعر يقتبس منها أفكاره ومعانيه ، وكان لثراء الطبيعة المغربية ما ساعد الشاعر على تشكيل صوره الخيالية واستدعاء لحظات الشعور الكامنة بما يوافق ما يجري على الطبيعة، فإذا كان في حال الغبطة والسرور ذكر الربيع والرياحين والرياض ، وإذا كان في حالة الحزن ذكر العواصف والبروق وأمواج البحر العاتية ، ونحن هنا نستعرض أثر البيئة الأندلسية لأن الشاعر قضى صغره بأرضها قبل أن يرتحل إلى المغرب فكان أثرها واضحا في شعره ، وغالبا ما أثرت خضرة الأندلس وأنهارها ورياضها في تشكيل الموضوعات ، فجانب البيئة << أثر أثرا واضحا في طبيعة الأدب الأندلسي شعره ونثره >> [1] ومما ساهم في استحكام هذا الجانب عندهم << جمال المناظر في إقليمهم >>[2] .

فالطبيعة كانت المورد الذي يستقي منه الشاعر أفكاره << ولم يشركها في حبه ولحظات هناءته فحسب ، بل كان يشركها أيضا في أوقات محنتة بمصائب الدهر وما ينزل به من الهموم >> [3] وتتراءى له عناصر الطبيعة في كل وقت << لا مع الانتشاء بالخمر والحب فحسب ، بل أيضا مع العظة والتفكير في الزمن وحقائق الحياة والموت >> [4] .

ثم يدعو الشاعر جموع المشيعين إلى الندب والعويل وإظهار الحسرة ، فالذي توفي ليس شخصا واحدا ، بل هو موت العالمين قاطبة ، أو كأن كل أحد رزأ بفقد حبيب له فالحزن عم جميع القلوب ومس شغاف الأفئدة ، فموضع الفقيدة بين الناس موضع كل حبيب بين أحبابه وكأن الشاعر ينظر إلى قول الآخر : [من الطويل] :

وَمَا كَانَ مَالِكًا هُلْكُهُ هُلْكُ وَاحِدٍ ... وَلَكِنهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَصَدعَا [5]

وإن من أنجبت أولادا أتقياء مثل آل علي حق لها أن تكون أما للناس جميعا ، ففضلهم قد غمر كل الورى .

---

[1] د. شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط8 ، 1974 ، ص 412 .

[2] المرجع نفسه : ص 433 .

[3] د. شوقي ضيف : فصول في الشعر ونقده ، ص 157 .

[4] المرجع نفسه : ص 158 .

[5] أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ، ج3 ، ص54 .

ويتأسف الشاعر لأن قبر المدفون لا يقدر على إظهار عزه ، فكل من يوضع تحت السقيف تقبر معه فضائله وشمائله ولا يستطيع القبر أن يظهرها لأنه حجر أصم وفي هذا سيستوي الشرفاء والخلعاء ، والشجعان والجبناء ، والأجواد والبخلاء ، أي نهايةٍ هذه التي سيتشابه فيها فعل الأخيار والأشرار ؟، وعلى هذا يجب فعل شيء يمكنُ من التمييز بين قبور الصالحين ومثوى الطالحين .

وهذا القبر بكته الجيوش الغازية أرض العدو وحتى الخيول ذرفت دموعها عليه ثم وقفنا نحن فأطلنا البكاء ، ولما برحنا المكان بكت السماء أيضا فأنزلت السحب المطر ، ولم يبق أحد من الإنس أو الحيوان أو الجماد مالكا لعبراته ، فالكل يبكي وينوح .

ثم إن السحاب لم يرو القبر لأن به غلة أو عطشا ، ولكنه يبكي محراب الجود وبحر الندى بندى مثله وجود يشابهه .

و يقدم الشاعر صورة رائعة يبين فيها سمو منزلة الفقيدة وذلك في قوله :

وَقَدْ خَدَ فِي الشمْس أُخدُودَهُ   وَلَكِنْ سَبَقْنَا بِهِ فِي الثرَى

فهو يقول إن قبر الأم أنف أن يوضع في ثرى الأرض وأن تجاوره فيها قبور الآخرين ممن هم دون منزلة من يختزنه ، فآثر أن يشق له مكانا في عين الشمس وقد شقه بالفعل وانتظر أن تحل به الفقيدة ولكن المشيعين عجلوا بجنازتها ووضعوا جسدها في ثرى الأرض ، فلم يكن بإمكانه حملها لمثواها المعد في الشمس .

ولا شك أن هذا المعنى من المعاني القليلة التي لم يشركه فيها شاعر آخر، فهو ينفرد به وله فضل التقدم به ، ولا يقاربه إلا بيت المتنبي في سيف الدولة : [من البسيط] :

مَنْ كَانَ فَوْقَ مَحَل الشمْس مَوْضِعَهُ   فَلَيْسَ يَرْفَعُهُ شَيْءٌ وَلا يَضَعُ [1]

على أن معنى ابن هانئ أشد توهجا وأبهى رونقا و أبعد غورا .

ثم يقول إن من نسي الطواف والوقوف عند مقام إبراهيم أثناء أدائه شعائر الحج أو العمرة فلا تترتب عليه كفارة و ذلك إذا ما طاف أو وقف عند قبر الأم ، فجلال المقام واحد ، وقداسة المكانين قائمة وثابتة في القلوب والوجدان ، بل إن جميع المواضع المقدسة التي يتمسح المسلمون بحجرها في الحرم المكي مثل الحطيم ،أو التي يسعى الحجيج إليها مقبلين ومدبرين مثل الصفا و المروة يستوي معها في فضلها قبر الفقيدة ،فمن تمسّح بجوانب الرمس و وقف عليه متضرعا رافعا يده بالدعاء سائلا حاجته قضيت له من فوق

---

[1] أبو الطيب المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، ج2 ، ص95 .

السحاب، وهذا يدل على عظم الفقيدة بحيث تستوي منزلتها ومنزلة الأنبياء والمرسلين وتقبل شفاعتها كما تقبل شفاعتهم ، ويوجد أيضا موضع القبور الثلاثة حيث يستجاب الدعاء أيضا ،ونحن لا ندري أي الثلاثة هؤلاء ، ربما قصد علي بن أبي طالب رضي ا عنه وولديه الحسن والحسين ، أو لعله قصد الأم ذاتها واثنين آخرين من وجوه الشيعة ، ولعل الاحتمال الثاني هو الأصح ، ولم تشر المصادر عن سبب موت أم جعفر ويحيى وقد يظل احتمال تعرضها للقتل واردا إذا ما أخذنا بمعنى البيت ، فالشاعر يقول " قبور الثلاثة في مصرع " أي أنهم قتلوا ولم يموتوا ميتة عادية ، وقد سبق للشاعر وأن قال في رائيته

بَلَغَتْ مُرَادًا مِنْ فِدَائِهِمُ   وَالأم فِي الأَبْنَاءِ تُعْتَقَرُ

ولو أخذنا بظاهر الحديث دون تأويل أو تعمق ، فسنقول بأن الأم قتلت (عقرت) فداء لأبنائها أي أن هجوما ما حصل أو فتنة ما وقعت داخل القصر أودت بحياتها وسلم ولداها منها .

ويمكن للبيت أيضا أن يحتمل معنى آخر وذلك باعتبار ما سيكون ، فالقبر قبر الأم وسيجاورها لاحقا ابناها اللذان سيموتان ، وقد يستقيم هذا المعنى أكثر حينما ننظر لعجز البيت : "**أَمَا كَانَ فِي وَاحِدٍ مَا كَفَى**" فهو لا يريد أن يموت الابنان : جعفر ويحيى ، ويلوم المنون على جشعها ويقول لها:أما كان قد كفاك موت الأم قبلهما ؟ ، فالتي أخذتها ليست شخصا واحدا وإنما شخوص الورى جميعا وأرواحها ضمنت في جسد واحد ، وبالتالي حُق للناس أن يرتاحوا منك طالما أنك أخذت من المهج ما يروي ظمأك لدهر طويل .

ثم ما يلبث الشاعر أن يفضل قبر الأم على أرض الحرم والمناسك ، وأما قوله :

وَلَوْ جَاوَرَ العَرَبَ الأَقْدَمِينَ   وَفِي الذاهِبِينَ ، وَفَى مَنْ وَفَى

ففيه غموض ، ولعله أراد أن هذا القبر المقدس لو شُق قديما لتمسح به العرب وطافوا بجوانبه ولم يكلفوا أنفسهم عناء السفر إلى مكة لأداء المناسك ، ولبقوا أوفياء له ، يعتنون به كما يعتنون بالبيت الحرام ، فيجددون دارس بنيانه ، ويقيمون منهد حجره ، ويزينون حواشيه ، وبهذا يقصده الحجيج من كل صوب وحدب .

ثم يغلو الشاعر في مدحه على عادته فيلوم نفسه على اتباعها سنن الأقدمين في الحج إلى البيت الحرام بمكة وتركها لقبور الكرام التي بقيت مكانا موحشا لا يقصده أحد ، فلو كان هذا الزمان منصفا لولى وجهه شطر القبر وأعرض عن البيت الحرام ، فهو لا يقل شأنا عنه ، ثم يدعو من يقف على القبر بأن يذبح النوق والكوم الهجان ، وطبعا الشاعر لا

يقصد من دعوته هذه إحياء التقليد المعروف من نحر النعم على قبر الميت تذكيرا بجوده ، ولكنه يقصد الكفارة المعروفة لمن أنقص شيئا من الشعائر في الحج وهي ذبح كبش وتقديمه للفقراء ، قال تعالى : << **وَأَتِموا الحَج وَالعُمْرَةَ لِلهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتى يَبْلُغَ الهَدْيُ مَحِلهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتعَ بِالعُمْرَةِ إِلى الحَج فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ**>>[1]

وزيادة على النحر يجب أن تنظم القصائد الطوال ، وتصاغ القوافي الكثيرة لمدح هذه المرأة الصالحة .

وحتى إذا لم يجد الناس ما ينحرون على قبرها وعزت عليهم النوق والجياد ، فستأتي هذه الأخيرة بمحض إرادتها وتسلم رقابها للذبح راضية ، فكل شيء يهون أمام عظم المقام ، وهذه الحيوانات إنما ترد جزءا من الجميل الذي كانت الأم تسديه لها طوال حياتها، فقد كانت تتفقدها وتحرص على إطعامها وتوصي العبيد والخدم أن يرفقوا بها ويعاملوها بلطف ، ونحن نجد الشاعر يستطرد في وصف النوق من مثل قوله :

إِذَا مَا نَحَرْتَ بِهِ ، أَوْ عَقَرْتَ   فَعَد الخَوَانِفَ ذَاتَ البُرَى

فَلَوْلاَ الدمَاءُ ، إِذًا أَقْبَلَــتْ   عَلَيْهِ تَكُوسُ ذَوَات الشوَى

إِذًا لَمْ تُــــــغَادِرْ غُرَيْرِيةً   تَخُب ، وَلاَ سَابِحًا يُمْتَطَى

فعلى الرغم من تمثل الشاعر لعناصر البيئة الأندلسية والمغربية في رثائه الحار خاصة في القصيدة الرائية ، إلا أنه لم يستطع التخلص من أثر التصنع الذي شاع في الشعر المغربي احتذاء بالشعر المشرقي ، فقد كان ابن هانئ يتمثل الصحراء العربية وقوافل النوق ويذكر منها " الخوانف ذات البرى " و " الغريرية " و " ذات الشوى " ويقحمها في رثائه إقحاما ، وهذا دليل على أن المغاربة لم يتحرروا من أسر البيئة المشرقية ولا خرجوا عن الأشكال التعبيرية الموروثة منذ بزوغ الشعر الجاهلي وأعلامه المعروفين ، ولا حتى عن شكل القصيدة هناك التي يكون فيها للرحلة مكان أساس لا يمكن إلغاؤه أو تجاهله ، وهذا التقليد درج عليه المغاربة والأندلسيون ، فهذه الرقعة الجغرافية ممثلة في شعرائها وأدبائها أخذت << تؤسس حياتها العقلية والأدبية على أسس مشرقية ، وجعلها

---

[1] البقرة : 196 .

ذلك تعيش في فنها وشعرها داخل الإطار المشرقي العام ، إذ كانت الفكرة الأساس عند من يريد أن يكتب شعرا أن يكون شعره على نمط الشعر عند المشارقة من القدماء أو العباسيين ، ومعنى ذلك أن الشاعر الأندلسي لم يحاول أن يخضع الشعر العربي لشخصيته بل رأيناه هو يخضع له ، فهو يخضع لموضوعاته المعروفة في المشرق كما يخضع لأفكاره ومعانيه وأخيلته وأساليبه >> [1] .

نقول هذا بتحفظ شديد ،ذلك أن الصحراء ليست حكرا على العرب في شبه الجزيرة ، فالمغاربة لهم صحراؤهم الكبيرة ، ومظاهر الحياة البدوية كانت لا تزال قائمة واستخدام النوق لا يزال جاريا ، وإنما يكمن التقليد في أن ابن هانئ عاش في إشبيلية وبيئة الأندلس خضراء لا أثر فيها للصحراء ومعالمها ، وأما مقامه بالمغرب فلم يطل كثيرا ،ولم يتعد حدود التجوال في حواضر ومدن الساحل مثل بجاية و المهدية والقيروان .

إن هذا الإسراف في تقليد المشارقة هو الذي دفع ابن بسام إلى القول : << إن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل المشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب ، لجثوا على هذا صنما ، وتلوا ذلك كتابا محكما >> [2] .

وعلى كل فأوجه التقليد والتجديد كانت تختلف من شاعر لآخر ولا يعد قول ابن بسام قاعدة تشمل جميع الخصائص للحكم على الشعراء المغاربة ، وهذه القضية تحتاج إلى بحث معمق حتى يتسنى الحكم النهائي لأن بحث النقاد لا يزال طويلا وشائكا منذ عهود ليست بالقريبة .

ويلتفت الشاعر مجددا إلى الأسرة الحمدونية ، ويقول إن هذه الأم حصان عفيفة لم تدنس شرفها ولا شرف قومها أو أهلها يوما ، ويلاحظ أن مدح المرأة بالعفة هو معنى جديد ارتبط بالحياة الاجتماعية للناس منذ مجيء الإسلام ، وربما كانت المرأة تحيا حياة جاهلية لا ترعى فيها عرضا أو كرامة ، وساعد على انتشار البغاء الفقرُ الذي ضرب البوادي وتخوم القبائل فلم تكن لها وسيلة لإسكات جوعها أو إطعام أهلها إلا عمل البغاء بالمواخير

---

[1] د. شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص 417 .

[2] ابن بسام : الذخيرة ، ج1 ،ص 2 .

ودور المجون ، ولما جاء الإسلام نهى عن هذه الأفعال ، قال تعالى : << **وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البَغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الحَيَاةِ الدنيا** >>[1]

كما حث العزاب والعانسات على إظهار الورع والتعفف ، وذلك بتجنب الانسياق وراء الشهوات بالنسبة للرجال ، وعدم التبرج والسفور بالنسبة للنساء : << **وَلْيَسْتَعْفِفِ الذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ** >> [2] ، وقال :<< **وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُن>>** [3]

كما أن الشعراء أبرزوا هذه المعاني الخلقية في أشعراهم ، ونرى حسان بن ثابت يمدح السيدة عائشة ، وينفي الأقاويل المغرضة التي تقوّلها الكافرون عليها في حادثة الإفك المشهورة [4] و يبين عفتها وطهارتها ، فيقول : [من الطويل] :

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَن بِرِيْبَةٍ   وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الغَوَافِلِ

مُهذبَةٌ قَدْ طَيبَ اللهُ خِيْمَهَا   وَطَهرَهَا مِنْ كُل سـُوءٍ وَبَاطِلِ [5]

وإذًا فالمرأة الحصان كانت مبعثا للفخر والاعتزاز ومعراجا للشعراء في رحلتهم الشعرية ،ثم يعرج ابن هانئ على الأبنين مرة أخرى ، ولا يفتأ يشبههما بشخوص الأسرة العلوية ، فجعفر وضيء كشمس النهار هذا في ظاهر المعنى طبعا ، أما قصد الشاعر فهو أن جعفرا مثل النبي محمد صلى ا عليه وسلم ، ويحيى مثل علي بن أبي طالب كرم ا وجهه ، وهذا من مقولات الشيعة (محمد = شمس ، علي = قمر) ، وهما أيضا أسدان

---

[1] النور : 33 .

[2] النور : 33 .

[3] النور : 60 .

[4] كانت في غزوة المريسيع سنة خمس من الهجرة ، وقد خرجت عائشة مع الجيش ، وتروي هي ما حدث فتقول : << حتى إذا فرغ رسول ا من غزوته تلك ، وقفل ، ودنونا من المدينة ، آذن ليلة بالرحيل ، فقمت حينئذ ، فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت حاجتي ، أقبلت إلى رحلي ، فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع ، فالتمسته ، وحبسني التماسه ، وَقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي ، فاحتملوا هودجي ، فرحّلوه على بعيري وهم يحسبون أني فيه ...فينما أنا جالسة غلبتني عيني فنمت ، وكان صفوان بن المعطل من وراء الجيش ، فأدلج ، فأصبح عند منزلي ، فأتاني ، فعرفني ، فاسترجع ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفت فخمرت وجهي بجلبابي ، وا ما كلمني كلمة ، فأناخ راحلته ..فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة ، حتى أتينا الجيش ، وكان الذي تولى الكبر عبد ا بن أبي سلول ...فقدمنا المدينة ، فاشتكيت شهرا ، والناس يفيضون في قول أهل الإفك .. ثم نزل الوحي " **إِن الذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ** " فسري عن النبي وهو يضحك >> .

- الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج3 ، ص79-80-81 .

[5] حسان بن ثابت : ديوان حسان بن ثابت ،

من أسود الجيش اللجب متى رفعا سيفيهما لم يغمداهما حتى يرتويا من دماء الأعداء ويفلا من كثرة الضرب والقطع وكذلك تفعل الأسد مع بقية حيوانات الغاب .

ويلاحظ استخدام الشاعر لصيغة الفخر الشهيرة " ابن جلا " وهي من قول سحيم بن وثيل الرياحي : [من الوافر] :

أَنَا ابْنُ جَلا وَطَلاع الثنَايَا مَتَى أَضَعُ العِمَامَةَ تَعْرِفُونِي [1]

وقد خوف بها الحجاج جموع المصلين في الكوفة لما خطب وأعاد ذكر بيت سحيم [2]

وابن هانئ يعيد العبارة بصيغة المثنى " ابني " لكي يبين أن الأب عَلِيا يَشْرُفُ على أبي سحيم ، فالأول أتى بأسدين و الثاني أتى بواحد فقط .

وإن هذه الأم كانت من بيت شرف وسؤدد ، وأهلها أهل عز و فضيلة وقد كانت لهم أمجاد عظيمة ، لهذا لا تعجب حينما نجد الأب عليا يقترن بها ، لأنه كان من قوم أبطال الوغى فهو يطلب عقيلة الشرف التي تنجب نسلا يجمع بين الخصلتين ، فاجتماعهما إنما هو اجتماع الفضائل والسيادة وكأننا نستطيع أن نقول فيهما ما قاله أبو العتاهية ولكن مع تغيير طفيف فيمن يوجه إليه الخطاب[3]: [من المتقارب] :

فَلَمْ تَكُ تَصْلُحُ إلا لَهُ وَلَمْ يَكُ يَصْلُحُ إلا لَهَا

وبهذا فإن الشاعر ينمي إلى الأم كل فضيلة ، وينفي عنها وعن زوجها وابنيها كل نقيصة خاصة وأن من يطعن في نسبهم العلوي وفي شرعية حكمهم لا يترك ثغرة إلا ولج منها في سبيل تقويض بنيان دولتهم ، فالخوارج يتربصون بالزاب ، ويزعمون أن الحكم وحده ، وأن ولاية المسلمين تكون بالشورى لا بالتوريث ، والشاعر يظهر حزنا على الأم

---

(1) أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي : الأصمعيات ، شرح وتحقيق : سعدي ضناوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان، ط1 ، 1424هـ/2004م ، ص13 .

(2) الجاحظ : البيان والتبيين ، ج2 ، ص 308 .

(3) هذا البيت من قصيدة لأبي العتاهية يمدح بها المهدي الخليفة العباسي ، وهو يتكلم عن استحقاق الممدوح للخلافة فهي لا تصلح في يد غيره وهو لا يصلح إلا لها ، نظرا لأنه يحمل طباع الملوك وعزهم التليد ، فلا يستطيع أن يكون إلا حاكما ، يقول أبو العتاهية فيها :

أَتَتْهُ الخِلافَـةُ مُنْقَـادَةً إِلَيْهِ تُجَـررُ أَذْيَـالَهَا

فَلَمْ تَكُ تَصْلُـحُ إلا لَهُ وَلَمْ يَكُ يَصْلُحُ إلا لَهَـا

وَلَوْ رَامَهَا أَحَدٌ غَيْـرُهُ لَزُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا

وَلَوْ لَمْ تُطِعْهُ بَنَاتُ القُلُوبِ لَمَا قَبِلَ اللهُ أَعْمَالَهَا

- د . فريد الرفاعي : عصر المأمون ، ج2 ، ص 365 .

ممزوجا بخطاب سياسي قوي ، يستند إلى الأفكار والمرجعيات شيعية ، مستغلا تعاطف عامة المسلمين مع أسرة العلويين عقب المأساة المروعة التي حدثت لهم بكربلاء من أرض العراق على أيدي الأمويين ، فهم حسب الشاعر أصحاب حق ضائع استردوه بأرض المغرب بعد عجزهم عن تحصيله بأرض المشرق .

والملاحظ أيضا أن الشاعر ذكر كل شاردة وواردة عن هذه الأم ، ويحاول أن يجعلها في مرتبة " الأم الأسمى " التي لا تضاهيها في مكانتها أم أخرى ونراه يحشد جميع البراهين والدلائل التي تؤيد ما يذهب إليه من نظريات.

وشيء آخر يجب تسجيله ، وهو أن الشاعر تميز بنفس شاعري طويل في مراثيه للأم ، حيث بلغت أبيات هذه المرثية ستا وثمانين بيتا،وفي المرثية السابقة واحدا و ستين بيتا وكذلك كانت مدائحه في المعز وغيره،فهو يريد أن يظهر مقدرة المغاربة على إطالة النظم في جميع الأغراض الشعرية ، ونحن نعترف هنا بشاعرية ابن هانئ لأنه ليس من السهل على أي شاعر أن ينظم في غرض واحد فقط ويأتي بما يفوق الثمانين بيتا في سلاسة وقوة بيان ورونق بديع دون إحساس بالضعف وشح المعاني وجفاف القريحة ، وقد يتفوق ابن هانئ على المتنبي نفسه في هذا المجال ، ولو نظرنا إلى القصيدة اللامية لأبي الطيب في رثاء أم سيف الدولة ومطلعها : [من الوافر] :

نُعِد المَـشْرفِيةَ وَالعَوَالِـي وَتَقْتُلُنَا المَنُونُ بِلا قِتَـال [1]

لوجدنا فيها معان رائعة في رثاء الأم من مثل قوله :

صَلاةُ اللهِ خَالِقِنَا حَنـ ـ ـُوطٌ عَلَى الوَجْهِ المُكَفنِ بِالجَمَال

عَلَى المَدْفُون قَبْلَ الترْبِ صَوْنًا وَقَبْلَ اللحْدِ فِي كَرَمِ الخِلاَل

حَصَانٌ مِثْلُ مَاءُ المُـ ـزْن فِيهِ كَتُومُ السر صَادِقَةُ المَـقَال

وَلَوْ كَانَ النسَـ ـاءُ كَمَنْ فَقَدْنَا لَفُضلتِ النسَاءُ عَلَى الرجَال

وَمَا التأْنِيثُ لِإسْمِ الشمْس عَيْبٌ وَلا التذْكِيرُ فَخْرٌ لِلْهِـ ـلال [2]

وابن هانئ يحاول أن يقتبس من هذه المعاني في رثائه لأم جعفر ويحيى ، ولا حاجة هنا لإجراء مقارنة شاملة أو تبيين مواضع الاقتباس والأخذ فهي واضحة وجلية ، فمثلا ، لما قال أبو الطيب :

---

[1] أبو الطيب المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، ج2 ،ص 19 .

[2] المصدر نفسه ، ج2 ، ص 20 – 22-23-24 .

حَصَانٌ مِثْلُ مَاءِ المـ ـُزْن فِيهِ   كَتُومُ السر صَادِقَةُ المـَقَال

قال ابن هانئ :

وَإن حَصَانًا نَمـ ـ ـَتْ جَعْفَرًا   وَيَحْيَى لعَادِيةُ المُنْتَمـ ـى

وإذا قال أبو الطيب :

وَلَوْ كَانَ النسَاءُ كَمـ ـَنْ فَقَدْنَا   لفُضلتِ النسَاءُ عَلَى الرجَال

نجد ابن هانئ يقول :

فَلَوْ جَازَ حُكْمِيَ فِي الغَابِرِيـ ـنَ   وَعَدلْتُ أَقْسَامَ هَذَا الـ ـوَرَى

لسَمَيْتُ بَعْضَ النسَاءِ الرجَـ ـالَ   وَسَمَيْتُ بَعْضَ الرجَال النسَا

ونحن هنا لا نزعم أن ابن هانئ سطا على معاني المتنبي ، إذ تظل المعاني مأخوذة من بعضها البعض ، ولا يمكن الزعم بفضل السبق حتى لأوائل الشعراء ، فباب الآخذ والإغارة والسرقة متسع جدا << ولا يقدر أحد من الشعراء أن يدعي السلامة منه ، وفيه أشياء غامضة ، إلا عن البصير الحاذق بالصناعة ، وأخر فاضحة لا تخفى عن الجاهل المغفل >>[1] .

ويجب أن يكون المنصف والإنسان الحاذق أقرب لعذر الشاعر منه إلى عذله ، فالمعاني والأفكار ملكة لكافة العقول وليست مخصوصة لإحداها ، وقد يتفق للجماعة معنى ينظمون فيه دون علمهم باتفاقهم عليه وقد << سئل أبو عمرو بن العلاء : أرأيت الشاعرين يتفقان في المعنى ويتواردان في اللفظ ، لم يلق واحد منهما صاحبه ، ولا سمع بشعره ؟ ، قال : تلك عقول رجال توافت على ألسنتها >>[2] .

وحتى أبو الطيب لما سئل عن هذا التوافق بين الشعراء في المعاني قال : << الشعر محجة ، فربما وقع الحافر على موضع الحافر>> [3]، فكأنما كان ينظر إلى ابن هانئ وهو ينحو نحوه وينهج سبيله فعذره وأوجد له مخرجا ، وذلل له صعبا ، وحفظه من لسان النقاد ودعوة المتهمين .

والحقيقة أن النقاد القدماء ساهموا بشكل مباشر في الجمود الذي ميز الحركة الشعرية لقرون طويلة ابتداء من القرن الخامس الهجري ، فهم لم يتركوا شاعرا إلا ورموه بسهام

---

[1] ابن رشيق : العمدة ، ج2 ، ص 1072 .

[2] المصدر نفسه : ج2 ، ص 1087 .

[3] المصدر نفسه : ج2 ، ص 1087 .

الادعاء المسمومة ، ونجدهم يبدعون لكل دعوة مصطلح نقديا خاصا بها فتارة يقولون " سرقة " ، ومرة " إغارة " ، وأحيانا " سلخا " ، وكانت النتيجة توقف الشعراء عن النظم مخافة أن تطالهم أصابع الاتهام ، أو أنهم أصبحوا يغرقون في استعمال أنواع البديع حتى يضمنوا مخالفة السابقين في النظم وبالتالي إبعاد تهمة السرقة الأدبية عن أنفسهم ، هذا بالإضافة إلى أولئك المبدعين الذين قبروا مواهبهم الشعرية وفتنوا بهذه الدعاوى ، فتتبعوا سقطات المحدثين وأجهدوا أنفسهم فيما لا طائلة من ورائه ، والواقع النقدي يجمله عبد العزيز عتيق حين يرى أن النقاد العرب لم يفرقوا في دراستهم للسرقات بين المتوافق أو المتشابه وبين المسروق المأخوذ يقول : << وإنما راحوا يردون أبيات الشاعر الذين يريدون تجريحه إلى أبيات تشبهها شبها قريبا أو بعيدا في المعنى أو في اللفظ أو فيهما معا ، بل لقد افتنوا في ذلك فردوا الكثير من الشعر إلى جمل نثرية من القرآن والحديث وأقوال السابقين واللاحقين من خطباء وحكماء ، واستقصوا ذلك أبعد استقصاء حتى تمهلوا في إظهار سرقات مستترة يدعونها ، ثم يجهدون أنفسهم في التفنن لتدليل عليها ، وساعدهم على ذلك خضوع الشعر العربي للتقاليد الشعرية المتوارثة وانحسار أغراضه ومعانيه بل وطرق أدائه >>[1].

وإذا عدنا للنظر إلى مرثيتي ابن هانئ والمتنبي ، وجدنا البون شاسعا في النفس الشعري وقوة العارضة ، فمرثية المتنبي لا تتجاوز حاجز الأربع والأربعين بيتا ، بينما تناهز مرثيتا ابن هانئ مائة وخمسين بيتا ، ونحن هنا لا ننتقص من شأن المتنبي، ولربما علمنا أن الإيجاز كان سنة يتبعها في قصائده فلا تطول مهما كانت المناسبة ، ولكن يلزم الاعتراف لابن هانئ بخصوبة الخيال وتدفق المعاني بالإضافة إلى ثراء المعجم اللغوي للشاعر وقدرته على استخدام الألفاظ وتخير المناسبة منها وفقا للحالة الشعورية التي يكابدها ، وإذًا فمكمن الاختلاف والمفاضلة بين متنبي الشرق ومتنبي الغرب يبرز في الإطالة والخيال والقريحة يقول أنطوان نعيم : << ففي قوة البيان نرى ابن هانئ يفوق المتنبي ، لأن المتنبي لا يزيد شعره في وصف معنى على أربعة أبيات أو خمسة ، فلسنا نجد في ديوانه كله سوى قصيدة واحدة أطال فيها وصف كلب من كلاب الصيد[2]، وأما

---

(1) د. محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ، مصر ، 1948 ، ص 354 .

(2) ومطلع هذه القصيدة : **وَمَنزِلٍ لَيْسَ لَنَا بِمَنْزِلِ   وَلاَ لِغَيْرِ الغَادِيَاتِ الهُطّلِ** .

أبو الطيب المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، ج1 ، ص 275 .

ابن هانئ فإنه إذا أخذ في وصف معنى أطال فيه إلى غاية بعيدة ، وأوضح جميع وجوهه وكشف عن كل جوانبه ، وقد عرضنا عليك بعض الأمثلة ، وثانيا قدرة ابن هانئ على الكلام أعظم من قدرة المتنبي عليه كما هو واضح بطول قصائده وبإنشائه إياها في رداف صعبة مثل الثاء والخاء والصاد والطاء ، ولا نجد في ديوان المتنبي قصيدة في هذا الرداف>> [1].

وعلى كل نلمس من مرثيتي ابن هانئ صورة الأم الفقيدة ، وتتجلى في أبهى صورها ، حنونا ، ورعة ، حصانا ، شريفة ، وفوق هذا منحت للإسلام ذخرين صالحين ، وأسدين هصورين ساهما في حماية حوزة المسلمين بأرض المغرب زمنا طويلا .

ينتقل ابن هانئ في قصيدته الثانية التي رثى فيها أم جعفر ويحيى من رثاء الممدوحة بصفة خاصة إلى مدح الأمهات بشكل عام ، ويبدو أنه أحس بظلم من عديد الشعراء للأم التي تسهر وتربي ولكنهم يجحدون فضلها ويتنكرون لها في أشعارهم فلا يذكرونها البتة وكأنهم يجدون في ذلك عيبا أو يعدون ذاك غريبا ، لنستمع إليه وهو ينطق بهذه الأبيات الرائعة في مدح الأمهات :

لأُمَّـ ـاتِنَا يَنصُفُ أنْسَابِنـَـا ... إِذَا المَلِكُ القَيْلُ مِنا انْتَمَـ ـى [2]

دَعَائِمُ أيامِنَا فِـي الفَـخَارِ ... وَأَكْفَـاءُ آبَائِنَا فِي العُـ ـلَـى

أَلـَمْ تَرَهُـ ـن يـُبَارِينـَنَا ... فَيَمْـرُقْنَا ، وَيَنـَلْنَ المَـدَى

كَفَلْـنَ لَنَا بِظِـلالِ الخِـيَامِ ... وَأَكْـفَلْنـَنَا بِظِـلالِ الـقَنَـا [3]

وَتَغْـدُو ، فَمِنْهُن أَسْمَاعُـنَا ... وَأَبصَـارُنَا فِي حِجَالِ المَهَـا [4]

فَلَوْ جَازَ حُكْمِيَ فِي الغَابِرِينَ ... وَعَـدلْتُ أَقْسَامَ هَذَا الـوَرَى [5]

لَسَمَيْتُ بَعْضَ النسَاءِ الرجَالَ ... وَسَمَيْتُ بَعْضَ الرجَـالِ النسَا

إِذَا هِيَ كَانَتْ لِكَشْفِ الخُطُوبِ ... فَكَيْفَ البَنُونُ لِضَرْبِ الطـلَى [6]

---

[1] ابن هانئ : ديوان ابن هانئ ، ص 18 .

[2] لأماتنا : جمع أم لما لا يعقل ، وقد استعملنا الشاعر لما يعقل ضرورة ، وهذا قبيح .

[3] كفلن : ضمن ، أكفلتنا : جعلتنا نكفل .

[4] الحجال : الواحدة حجلة ، ستر يضرب للعروس في جوف البيت ، أو بيت يزين لها ، المها : أراد بها النساء .

[5] الورى : الناس والخليقة .

[6] الطلى : الرقاب والأعناق .

تَـ وَلتْ مُرَفلَةً لِلْمُـ ـ ـلُوكِ   فَمِنْ مُصْطَفَى النجْل،أَوْمُرْتَضَى [1]

وَأَكْثَـ ـرُ آمـ ـاِلـ ـهَا فِيكُـ ـمَا   وَفِـ ـي القَلْبِ مِنْهَا كَجَمْرِ الغَضَا [2]

فَقَدْ أَدْرَكَتْ مَا تَمَنتْ فَـ ـلا   تُضِيقَا عَلَيْـ ـهَا بِبَاقِـ ـي المُـ ـنَى

فَلَـ ـوْلاَ الضريحُ لَنَادَتْكُمَا   تُعِيذُكُمَا مِـ ـنْ شَمَـ ـاتِ العِـ ـدَى [3]

فَإِما تَزِيدَان فِـ ـ ـي أُنْسِهَا   وَإِمـ ـ ـا تَذُودَان عَنْـ ـهَا البِلَى [4]

فَقَدْ يُضْحِكُ الحَي سِن الفَقِيدِ   فَتَـ ـهْتَز أَعْظُـ ـمُهُ فِـ ـي الثـ ـرَى [5]

فالشاعر يجعل للأم نصف الفضل في نسب الولد ، والنصف الآخر للأب ، وكل ملك مهاب إذا افتخر فيجب أن يذكر فضل أمه عليه ، وهن أيضا دعامتنا في أيام الحرب ، يداوين المكلوم ، ويعددن الطعام والزاد ، ويقفن مع أزواجهن وأبناهن ليساندنهم حتى آخر لحظة ، وتراهن أحيانا يسابقننا فيسبقننا ، ويدركن الغاية قبل أن ندركها ، وهذا راجع إلى الخبرة التي اكتسبنها من معترك الحياة الطويل ، فهن يعطيننا خلاصة تجاربهن في الحياة ويهدفن إلى تجنيبنا المعاناة المريرة التي قاسينها حتى نحيا في هناءة وسعادة<< وهذه الإشادة بفضل الأمهات فريدة من نوعها في الشعر العربي القديم على ما نعلم ، وهي تصلح أن تكون شعارا لعيد الأمهات النسوي ، كما تصلح أن تكون حجة في يد النساء المطالبات بالمساواة مع الرجال ، وحجة أيضا ضد من يتهم الأدب العربي بعنصريته الرجالية >> [6]

ودور الحماية المنوط بنا اتجاههن هو في الحقيقة رد جميل لا أكثر، وقد كن يحميننا ونحن أطفال رضع من لهيب الشمس ولفح الهجير وقر البرد ومطر الشتاء تحت ظل الخيام ، وينتزعن من أجسادهن لحافهن ليلففننا بها حتى يضمن لنا الدفء وراحة النوم ، فيجب علينا اليوم وقد اشتدت سواعدنا وعظمت قوتنا أن نضمن لهن السلامة ونحميهن بحد

---

[1] مرفلة : مسودة من السيادة والعظمة . النجل : الولد ، الابن .

[2] الغضا : شجر خشبه صلب ، وجمره لا ينطفئ سريعا .

[3] تعيذكما : تدعو ا ليحفظكما . الشمات : الخائبين و لا مفرد لها .

[4] تذوادن : تدفعان . البلى : الخراب والتفت .

[5] ابن هانئ الأندلسي: ديوان ابن هانئ الأندلسي، ص 426 -427 .

[6] محمد اليعلاوي : ابن هانئ المغربي الأندلسي ، شاعر الدولة الفاطمية ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان 1405، ه / 1985 م ، ص 234 .

السيوف ورؤوس الرماح ، ومهمة الدفاع عن الأمهات و الضعائن مقدسة لدى أي إنسان ، و هو شيء يبعث على الفخر و الاعتزاز ، كما هو دين في رقاب الرجال للأمهات اللائي سهرن على رعايتهم في صغرهم ، و لا نبالغ حين نقول أن الأم هي الدافع الذي يحث الرجل إلى مقارعة الخطوب و تحدي الصعاب ، فهو يرى ذلك نوعا من إثبات للذات أمامها ، و هو يرى أنه من الواجب القيام بأعباء الحياة لتخفيف بعض الحمل عنها .

ولهذا يرى ابن هانىء أن الجهود التي تبذلها المرأة على صعيد الحياة الاجتماعية تؤهلها لأن تتبوأ منزلة الرجل ، وهي تستحق أن تكون قائدة و الرجل مقودا خلفها .

ويتمنى لو أنه يستطيع قلب المعايير الاجتماعية التي جعلت المرأة منذ العهود الغابرة خلف الرجل لا أمامه ، ويرجو أن " يعدل أقسام الورى " ، ولا شك أن الشاعر يشير إلى الآية الكريمة التي وضعت القاعدة العامة لبناء الأسرة الإسلامية وكيفية تسييرها : << **الرجَالُ قَوامُونَ عَلى النسَاءِ بِمَا فَضلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ ، وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أمْوَالِهِمْ** <<[1]

وهو لا يقصد أن يطعن في حكم الآية ، لكنه يتبرم من سلوك بعض الرجال الذين يطلّقون نساءهم ويتركنهن أمهات مع أولادهن دونما نفقة أو معيل ، فتضطر الأم للخروج من البيت لكسب قوتها وقوت عيالها ، بينما تنعدم لدى الرجال روح المسؤولية ولهذا جاز أن نسمي بعض النساء " رجالا " ، وجاز بالمقابل تسمية بعض الرجال " نساء " لأن من لا يقوم بدوره سيتخذ صفة لا يرغب بها، كما أن الذي يقوم بعمل مضاعف يستحق أن يجمع إليه صفات أخرى ويربح ثناء الآخرين ،و إن روح الأمومة في المرأة أقوى من روح الأبوة في الرجل ، ذلك أن الرجل يحمل الولد خفا ، وتحمله هي ثقلا ، << وإن بطنها لوعاؤه ، وإن ثديها لسقاؤه ، وإن حجرها لفناؤه << [2] .

كما أنه ليس هذا فقط ما يجعل الأم والمرأة عموما تربو على الرجل ، فهي أيضا تخطط للحرب وتستشرف أطماع الرجال فتساعد قومها على درء الخطر قبل مداهمته لهم ، وابن هانئ يرى في العائلة الممدوحة عائلة المجد والسؤدد حيث لا يغيب عن رجالها أو نسائها حسن التدبير وبراعة القيادة ، والأم قد ذهبت بلا رجعة وذهبت معها ذكريات المجد الذي صنعته ومهدت له ، ولكنها تركت أبناء كراما سيحافظون على هذا العز الأثيل ويشدون

---

(1) النساء : 34 .

(2) هذا من قول امرأة أبي الأسود الدؤلي لما تخاصما أمام معاوية بن أبي سفيان حول حضانة الابن .

- د. قصي الحسين : جمهرة قصص العرب ، ج1 ، ص 85 .

هذا البنيان بعزائمهم وإخلاصهم لقومهم ودينهم ، وإنها لم تخطيء حينما علقت كل آمالها على ابنيها ، فهي تعلم أي الرجال هما ، ولم تسلّمهما زمام الأمور إلا بعدما اشتد عودهما وضمنت قدرتهما على الصمود ومواجهة الفتن الداخلية للقصر والإمارة والأخطار الخارجية ممثلة في هجومات الدول المجاورة أو غيرها ، وقد تحقق رجاؤها هذا فاستطاع أبناؤها النهوض بالدولة والاضطلاع بشؤون الحكم مع الحنكة وحسن التصرف ، وقرت عين الأم بهما وذهبت تلقى ربها في راحة بال وهناء خاطر .

والشاعر يتحسس وفاء الأم وحرصها على ابنيها حتى وهي ملحودة بسقيف القبر فيقول أنها لو استطاعت الحديث أو أن تسمع أحدا صوتها لطلبت من ابنيها مواصلة العمل وعدم التراخي والانشغال باللهو والملاذات التي كانت سببا في زوال الملك وذهابه عن الملوك والخلفاء على أمد الدهور ، فإذا عملا بوصية الأم ، أرضيا الخالق أولا فتستقيم لهما الأمور ويجنبا متاعب الإمارة ومآسيها المعروفة ، ثم يرضيا أمهما ثانية ، ولا عجب أن نجد سنها ينكشف في القبر دليلا على الابتسام والرضى ، وكذلك أعظمها التي تهتز في التراب طربا كما تهتز عظام أو أجساد الراقصين من نشوة الغناء والطرب .

فحب المرأة لابنيها لا يضاهيه حب آخر وهي << بفطرتها تواقة إلى أن يعيش بنوها ، لأنهم ثمراتها وبضع منها ، ولأنها تجد في حياتهم حياتها مكررة ، وشخصها باقيا ، فهي ترى مباهج الحياة كلها في طفلها ، وتحس من عظم فرحها وسعادتها به أنها لا تدانيها أم آخرها ... ويقينا أنه لا حب يسامي حب الأم لابنها ، فقد تخون الحبيبة ، ويصد الأب ، ويجفو الأخ ، وتبغض الزوجة ، ويتقلب الصديق ، لكن الأم فوق هؤلاء جميعا ، لا ينضب معين حبها ولا يترنق، ويكاد عفوها يسبق دائما ذنب ابنها >> [1] .

---

[1] د. أحمد محمد الحوفي : المرأة في الشعر الجاهلي ، ص 118 .

ولابن حمديس[1] قصيدة في رثاء زوجته أم ولديه أبي بكر وعمر ، وكان حقا علينا أن ندرج هذه الأبيات ضمن باب "صورة الزوجة" لكن ابن حمديس جعل القصيدة على لسان ابنه عمر ومنه قلبت المعاني وأضحت كأن ها الأخير يرثي أمه ، وربما أحس الأب الشاعر بحزن ولده على أمه ولم تنقد له شرود القوافي أو تذلل له ناصية اللغة ، فحمل عبء الرثاء عنه ، لهذا فضلنا إدراج القصيدة ضمن إطار صورة الأم لأن مدار الحديث كان حول مكانة الأم ودورها في الأسرة ولو أن عمل الزوجة والأم يبدو واحدا لأن الأم هي الوقت نفسه زوجة ، والزوجة ستصبح أما بعد أن تلد الأبناء .

يقول ابن حمديس على لسان ابنه عمر : [من الخفيف] :

لَوْ بَكَى نَاظِـرِي بِصَوْبِ دِمَاءٍ   مَا وَفَى فِي الأَسَى بِحَسْرَةِ أُمِـي

مَنْ تَوَسدْتُ فِي حَشَايَا حَشَاهَا   وَارْتَدَى اللحْمَ فِيهِ وَالجِلْدَ عَظْمِي

وَضَعَتْنِي كُـرْهًا كَمَا حَمَـلَتْنِي   وَجَرَى ثَدْيُهَا بِشُـرْبِي وَطُعْمِـي

شَرَحَ اللهُ صَدْرَهَـا لِي فَأَشْهَى   مَا إِلَيْـهَا إِحْضَانُ جِسْمِي وَضَمي

بِحَنَانٍ كَـأَنهَا فِـي رِضَـاعِي   أُم سَقْـبٍ دَرتْ عَلَيْـهِ بِشَـم [1]

يَا ابْنَ أُمي إِني بِحُكْـمِكَ أَبْكِي   فَقْدَ أُمِـي الغَدَاةَ فَابْـكِ بِحُكْمِي

قُـسِـمَ الحُـزْنُ بَيْنَنَا فَثَـبِيرٌ   لَكَ قِسْـمٌ ، وَيَذْبُلُ مِنْـهُ قِسْمِي [2]

لَمْ أَقُلْ وَالأَسَى يُصَـدقُ قَوْلِي   جَمُدَتْ عَـبْرَتِي فَلُـذْتُ بِحِلْمِي

وَلَوْ أَني كَفَفْـتُ دَمْعِي عَلَيْهَا   عَقنِـي بِرهَا فَأَصْبَحَ خَصْمِـي

أُمتَا هَلْ سَمِعْتِنِي مِـنْ قَرِيبٍ   حَيْثُ لِي فِي النيَاحِ صَرْخَةُ قَرْمِ

كُنْتُ أَخْشَى عَلَيْكِ مَا أَنْتِ فِيهِ   لَوْ تَخَيلْتُ فِـي مُصَـابِكِ هَمي

كَمْ خَيَالٍ يَبِيتُ يَمْسَحُ عَطْفِـي   لَكِ يَا أُمـتَا وَيَهْتِـفُ بِاسْـمِي

وَبَنَـاتٍ عَلَـيْكِ مُنْتَـحِبَاتٍ   بِـخُـدُودٍ مُخَـدرَاتٍ بِلَطْـمِ

---

[1] **ابن حمديس** : (447-527 هـ / 1055 - 1133 م) : عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الأزدي الصقلي ، أبو محمد : شاعر مبدع ولد وتعلم في جزيرة صقلية ورحل إلى الأندلس سنة 471هـ ، فمدح المعتمد بن عباد فأجزل له عطاياه ، وانتقل إلى إفريقية سنة 484هـ ، فمدح صاحبه يحيى بن تميم الصنهاجي ثم ابنه عليا ، توفي بجزيرة ميورقة عن نحو 80 عاما ، وقد فقد بصره ، له ديوان شعر منه مخطوطة نفيسة جدا في مكتبة الفاتيكان كتبها إبراهيم بن علي الشاطبي سنة 607 هـ .

- الزركلي : الإعلام ، ج3 ، ص 275 .

[1] السقب : ولد الناقة .

[2] ثبير : جبل بمكة . يذبل : جبل معروف .

بِئْنَ يَمْسَحْنَ مِنْكِ وَجْهًا كَرِيمًا ... بِوُجُـوهٍ مِنَ الـمُـصِيبَةِ قُتْـمِ [1]

وَيُـنَـادِيـنَ بِالتفَـجعِ أُمـا ... يَا فِـدَاءً لهَـا إِجَابَـةُ غَتْـمِ [2]

بِأَبِي مِنْـكِ رَأْفَةٌ أَسْـنَدُوهَـا ... فِي ضَـرِيحٍ إِلَى جَنَادِلَ صُـم

وَعَفَافٍ لوْ كَانَ فِي الأَرْضِ عَادَتْ ... كُل عَظْمٍ مِنَ الدفِيـن وَلحْـمِ

وَصِـيَامٍ بِكُل مَـطْـلِعِ شَمْسِ ... وَقِـيَـامٍ بِكُـل مَطْلَـعِ نَـجْمِ

وَلِسَـانٍ دُعَـاؤُهُ مُسْتَـجَابٌ ... لِيَ أَوْدَعْـتُهُ الرغَامَ بِرُغْمِـي [3]

وَحَفِيرٍ مِـنَ الصبـَابَةِ فِيـهِ ... فِتي حِجَابِ التقَى سَرِيـرَةُ كُتْمِ

كَمْ تَكَفلْتِ مِـنْ كَبِـيرَةِ سِنٍ ... وَتَبَنيْتِ مِـنْ صَـغِيـرَةِ يُتْـمِ

فَأَضَـاءَتْ يَدَاكِ مِنْ صَـدَقَاتٍ ... كَانَ يُحْـيَا بِـهـن مَيتُ عُدْمِ

كَانَ بَيْنَ الأُنَـاسِ عُمْرُكِ حَمْدًا ... قَـدْ تَبَرأْتِ فِـيهِ مِـنْ كُل ذَم

أَنْتِ فِي جَـنةٍ وَرَوْضٍ نَـعِيمٍ ... لَمْ يَسِمْ أَرْضَهَا السحَابُ بِوَسْمِ [4]

يقول إن عينه لو فاضت بالدماء عوض الدموع ما وفت الحق في إظهار الجزع والأسى لفقد الأم ، هذه الأم التي نما فقي أحشائها بعد ما كان مضغة ليصبح مولودا رضيعا ، واكتسى جسده الجلد والعظم بفضلها ، وقد وضعته كرها كما حملته ، وفي هذا إشارة لقوله تعالى : << **وَوَصيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا** >> [5] .

فطول المدة التي يمكث بها الجنين في بطنها يتعبها ويجعلها تنوء بحمله ، حتى إذا ما وضعته بدأت مرحلة أخرى من المتاعب أكثر طولا ، فيجب إرضاع الولد والسهر على رعايته وحفظه إلى أن يكبر ، وقد شرح ا صدر الأمهات ومنحهن سعة الصبر وطول البال لذلك تراهن يحتملن المتاعب والمصاعب التي يسببها الابن ، وتظل تحرص على توجيهه إلى ما فيه الخير والصلاح حتى وإن عثرت به السبيل وكبا به الفرس ، فتقيل عثرته وتمسح عبرته ، وهو ما يعطيه نفسا جديدا للإقبال على الحياة والنهوض بعد كل

---

(1) قتم : حالكة السواد .

(2) الغتم والأغتام : الذين في منطقهم عجمة .

(3) الرغام : التراب .

(4) عبد الجبار ابن حمديس الصقلي : ديوان ابن حمديس ، تصحيح وتقديم : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، 1379هـ/1960م ، ص478-479-480 .

(5) الأحقاف : 15 .

عثرة ، لذاك قيل " يظل الرجل طفلا ما عاشت أمه ، فإذا ماتت شاخ فجأة " على عكس الآباء الذين يغلب عليهم الجفاء والقسوة في المعاملة والشدة في التأديب .

وهذه الأم تحضنه وتضمه وتدر عليه من سقاء العطف الشيء الذي يمنحه الطمأنينة والسكينة ، وهي أحن عليه من الناقة على فصيلها .

ثم يخاطب أخاه داعيا إياه أن يبكي بغزارة دمع ، ويرى أن أحزان الدنيا قد وقعت عليهما ، أو أن الحزن ذهب عن البشرية ليؤوب إليهما ويقسم عليهما ، وهو كجبلي ثبير ويذبل أعطي هذا الأول ، ومنح ذاك الآخر ، والأخ لا يرى نفعا في إظهار التجلد والاصطبار لأن الخطب عظيم والمصاب جسيم ، والخنساء قديما قالت في رثاء أخيها صخر :

[من الخفيف] :

أَعَينَي جُودَا وَلا تَجْمُدَا ... أَلا تَبْكِيَان لِصَخْرِ النَدَى [1]

وحتى إن حاول لجم الدموع فإن لعين ستعقه وتستمر في سكب الدموع لأن بر الأم ومصابها شغل الجوارح ، فالعين تبكي ، واليد تندب ، واللسان ينوح ويولول .

وينادي الابن أمه المقبورة سائلا إن كانت تسمع نياحه وصراخه عليها ، أو تسمع عويل النادبات من بناتها اللواتي يلطمن خدودهن وينتفن شعورهن ويضربن على صدورهن حزنا عليها ، وكن قبل أن تدفن في الصباح قد بتن يمسحن ويقبلن وجهها الكريم ، ويسألنها الصفح عنهن وهي تستقبل أول أيام الآخرة ، وبعدما ذهب الرجال لدفنها استصرخن وندبن عليها لكن كن كمن يطلب نجدة من أعجمي لا يفهم لغته ، فحال الاستجابة المرجوة واحد : الأعجمي لن ينفعك في شيء لأنه لا يفهم لغتك والأم لن تلبي التوسل لأنها جسد بلا روح .

إن الأم المشفقة على بنيها والممتلئة عطفا وحنانا قد أسندت إلى صم الجندل الذي لا يعقل تلك الصفات ولا يستفيد من ذلك الحنان والرأفة ، وهذا ما يزيد من عظم الفجيعة ، وقد كانت عفيفة لم تكشف سرا ولم تهتك سترا ، وهي لا تفرط في حق ربها ، إنها صوامة قوامة لا يكاد يرى لها ضجعة و استراحة ، دائمة الدعاء لبنيها وقد تبين أثر الاستجابة في التوفيق والصلاح الذي يلازمهم ، وذاك الإنسان الذي لم يكل يوما عن دعاء الخير هاهو يودع الثرى ، فمن ذا الذي سيتولى الأبناء بالرعاية والدعاء؟ ، ويبرز الدور الاجتماعي الكبير لهذه الأم ممثلا في رعاية العجائز وكبار السن المقعدات ، كما أنها تتبنى الرضع و

---

[1] الخنساء : ديوان الخنساء ، ص68 .

الأطفال الذين يموت ذووهم ولا يجدون ملجأ يؤويهم أو يد تحنو عليهم ، وفي هذا دلالة كبيرة على مدى التضامن والتكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع والذي تلعب فيه الأمهات والنساء عموما دورا فاعلا وأساسيا .

وبجانب منزل الأسرة الذي يعد لأول حلقة للتضامن نجد أن بناء الدور المخصصة لهذا الغرض كان شائعا ، وقد سبق أن رأينا زوجة أبي جعفر المنصور وهي "أروى" القيروانية تبني دارا لرعاية العوانس والأرامل [1] .

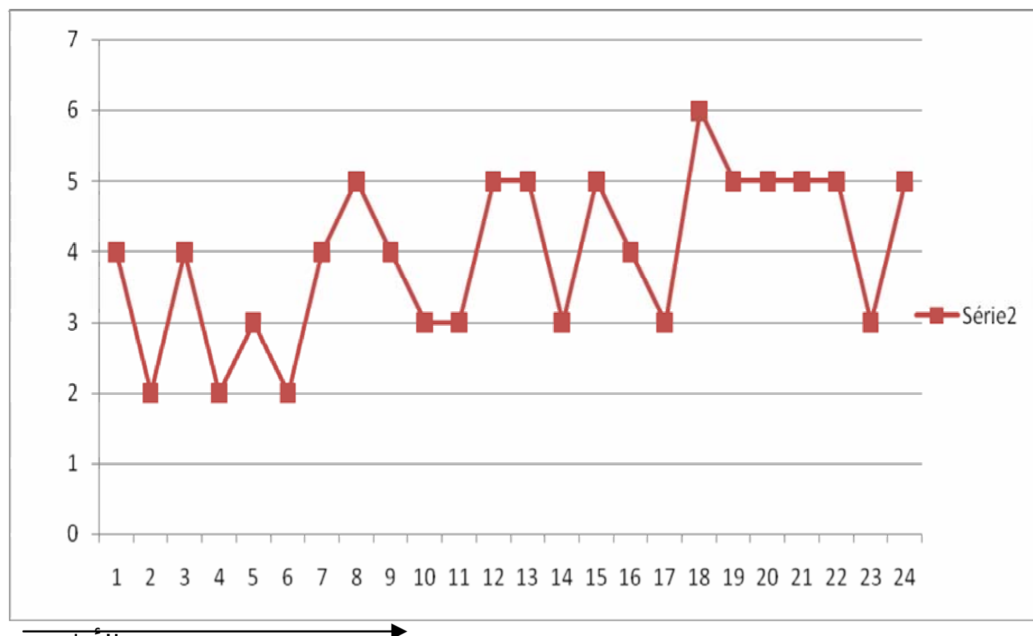
والأم لا تكتف بقدر من أبواب الخير ، بل إنها كثيرة التصدق للفقراء والمجهودين حتى جاز أن يعزى إليها إحياء المهج المشرفة على الهلاك ، فالفجيعة بفقدها لم تحل بالأسرة فقط بل هي فجيعة كل أهل القيروان ،إنه موت الورى جمع في شخص واحد ، وقد وجب لها النعيم لأن الجزاء من جنس العمل .

وقد جاء الإيقاع متسارعا وذلك أن جميع التفعيلات كان قد مسها الزحاف تقريبا وهذا الجدول يبين ذلك :

الدائرة	الأبيات	عدد الزحافات في البيت الواحد
1	2 - 4 - 6	2
2	5 - 10 -11- 17 -23	3
3	1 - 3 -7 -9 -14 - 16	4
4	8 - 12 - 13 -15 - 19 - 20 -21 -22 24	5
5	18	6

ولننظر إلى المستوى العام للشحونات العاطفية المتراوحة صعودا ونزولا من خلال هذا المنحنى :

[1] د. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، ج9 ، ص156 .



وسرعة الإيقاع تقابلها سرعة توالي لانفعالات ، فإذا ذكر الشاعر انتحاب البنات على الأم تصورنا سرعة انهمار الدموع على الخدود ، وإذا ذكر صيام الأم وقيامها بالليل تهجدا تصورنا مدى الاتصال الوثيق بين الانقطاع عن الأكل والانقطاع عن النوم فهي في مناجاة دائمة مع ربها وعبادة متصلة بالليل والنهار لذا كان الإيقاع مواكبا لهذه الحركة المتسارعة (اتصال العبادة = اتصال التفعيلات) ، كذلك حين يذكر فضلها على المساكين والأيتام المعدمين ، فالإيقاع يتسارع لينبئ عن مسارعة الأم لطارق سبل الخير وتحصيل الحسنات وعدم تباطئها عن ذاك .

ولأبي الصلت [1] قصيدة طويلة يرثي فيها أمه التي توفيت فجأة ، وكان بعض المنجمين قد حكم بذلك في مولدها واتفقت الأصابة ، يقول : [من الطويل] :

مَدَامِـعَ عَيْنِي اسْتَبْدِلِي الدمْعَ بِالدمِ ... وَلا تَسْأمِي أَنْ يَسْتَبِل وَتَسْجَمِي

لَحُق بِأَنْ يَبْكِي دَمًا جَفْـنُ مُقْلَـتِي ... لأوْجَبَ مَنْ فَارَقْتُ حَقًّـا وَألْزَمِ

أَخِلاءُ صِدْقٍ بَددَ الـدهْرُ شَمْلَـهُمْ ... فَعَادَ سَحِيلاً مِنْـهُمُ كُل مُبْرَمِ [2]

طَوَتْ مِنْهُمُ الأحْدَاثُ أَوْجَهَ أَوْجُـهٍ ... وَأيْـمَنَ أَيْمَانٍ وَأَعْـظَمَ أَعْظُـمِ

فَقَدْ كَثُرَتْ فِـي كُل أَرْضٍ قُبُورُهُمْ ... كَكَثْرَةِ أَشْجَانِي وَلَهْفِي عَلَيْـهِمِ

وَمَا بِتـْكَ لَوْ تَـدْرِي قُبُورُ أَحِـبةٍ ... وَلَكِنهَا حَـقًّا مَـسَاقِطُ أَنْـجُمِ

رُزِئْتُ بِأَحْفَى الناسِ بِي وَأَبَـرهُمْ ... وَأَكْبِرْ بِفَـقْدِ الأم رُزْءًا وَأَعْـظِمِ

فَأَصْـبَحَ دُر الشعْرِ فِيكِ مُنْـظَمًـا ... وَأَصْبَحَ دُر الدمْعِ غَـيْرَ مُـنَظمِ

تَصـَرمُ أَيـَامِي وَأَمـا تَـلَهـفِي ... فَـبَاقٍ عَلَى الأَيامِ لَـمْ يـَتَصَرمِ

كَـأَن جُفُونِي يَوْمَ أَوْدَعْتُكِ الثرَى ... نَضَحْنَ عَلَى جَيْبِ القَمِيصِ بِعَنْدَمِ

يَهِيجُ لِيَ الأحـْزَانَ كُلاًّ فَـلا أَرَى ... سِوَى مُوجِعٍ لِي بِادكَـارِكِ مُؤْلِمِ [3]

أَنُوحُ لِتَغْرِيـدِ الحَمَائِمِ بِالضحـَى ... وَأَبْكـِي لِلَمـْعِ البَارِقِ المُتَبَـسمِ

وَأُرْسِلُ طَرْفًـا لا يَرَاكِ فَأَنْطَـوِي ... عَلَى كَبِـدٍ حَرى وَقَلْـبٍ مُكَـلمِ

وَمَا أَشْتَكِي فَقْدَ الصـَبَاحِ لأَننِـي ... لِفَقْدِكِ فِي لَيْلٍ مَدَى الدهْرِ مُـظْلِمِ

تَطُولُ لَيَـالِي العَـاشِقِينَ وَإِنـمَا ... يَطُولُ عَلَيْكِ الليْلُ مَا لَـمْ تُهَوِمِي [1]

---

[1] **أمية بن أبي الصلت** : أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الإشبيلي ، يقال : إن عمره ستون سنة ، منها عشرون في بلده إشبيلية ، وعشرون في إفريقية عند ملوكها الصنهاجيين ، وعشرون في مصر محبوسا في خزانة الكتب ، وكان وجهه صاحب المهدية إلى ملك مصر فسجن بها طول تلك المدة في خزانة الكتب ، فخرج في فنون العلم إماما ، وأمتن علومه الفلسفة والطب والتلحين ، وله في ذلك تواليف تشهد بفضله ومعرفته ، وكان يكنى بالأديب الحكيم وهو الذي لحن الأغاني الإفريقية .وتوفي سنة 520 ه ، وقيل 528 ه بالمهدية ، وقيل مستهل السنة بعدها ، ودفن بها .

- المقري : نفح الطيب ، ج2 ، ص 260-261 .

أما ياقوت الحموي فيذكر في ترجمته أنه : << من أهل الأندلس ، كان أديبا فاضلا ، حكيما منجما ، مات في سنة تسع وعشرين وخمسمائة في المحرم بالمهدية من بلاد القيروان ، وهو صاحب فصاحة بارعة وعلم بالنحو والطب ، وكان قد ورد إلى مصر في أيام المسمى بالآمر من ملوك مصر >> .

- ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج2 ، ص 317-318

[2] السحيل : الخيط غير المبرم .

[3] الكل : الحدث والمصيبة .

وَمَا لَيْلُ مَنْ وَارَى التُرَابُ حَبِيبَهُ   بِأَقْصَرَ مِنْ لَيْلِ المُحِبِّ المُتَيَّمِ

فَكَمْ بَيْنَ رَاجٍ لِلإِيَابِ وَآيِسٍ   وَأَيْنَ جَمِيلٌ فِي الأَسَى مِنْ مُتَمِّمِ ؟ [2]

قد لا يستفز فقد الأم في الصغر قريحة الشاعر ، ذلك أن الموهبة الشعرية تكون في بداية تشكلها ، ويكون الشاعر نفسه منشغلا بالفتوة ونزقها ، لذلك فحدث الموت لا يؤثر فيه كل التأثير المرجو ، ولكن من حسن حظ أدبنا أن فقد أمية أمه وقد شارف الخمسين من العمر[3] فجادت قريحته بهذه المرثية الحكمية الرائعة ، وهو يطلب من عينه أن تجود بالدم عوض الدموع لأن فقد الأم يختلف عن فقد باقي الأهل والأحبة الذين نسج عليهم العبرات ، وإن بكاء الدم ليس مزية أو مبالغة في إظهارالحزن ولكنه فيض من غيض ، ويستهل الشاعر نظمه برثاء الأصحاب والخلان ويتحدث عن جور الزمان وتشتت الشمل ، ويبدو أنه أحس بفقد الناس كلهم حينما فقد أعزهم على قلبه ، وينفي أن تكون تلك القبور مجرد أجداث وأرماس بل هي مواضع النجوم التي سقطت من الفلك العلوي ، ولو أزيل التراب لأبان عن أقمار تتوهج ضياء وكرما .

وقد رزء بمن طالما حنت عليه وكابدت من أجله مشاق الحياة ، وهو يلوم نفسه إذ لم يقم بحقها كما يليق بمقامها ، وإنه لينظم درر الشعر في رثائها ولكن درر الدمع لا تتوقف عن الجريان في المآقي ، وتمضي الليالي وينقص من العمر ما قد سطر له ولكن الألم لا ينقطع عن النفس ، وهذه الجفون سكبت يوم ثوت الأم في الضريح دما عوض الدموع فقد جفت المآقي ولم يبق إلا أن تستعير دم الجسد لتسكبه على تراب القبر ، ولا تكاد نفسه تهدأ من الجزع والبكاء إلا ونفرت جوانحه من جديد ، فالقرار قليل والسكينة تستحيل .

ويسمع تغريد الحمائم والعصافير بالضحى فيقابله بالنياح والشجو ، ويشهد ابتسامة البرق اللامع في السماء فيقابله بالعبوس والتجهم ، إنه يريد من ظواهر الطبيعة وكائناتها أن تشاركه أحزانه ، وحتى الليل يريده أن يظل سرمديا لأنه لن ينتفع بضوء النهار ما دامت الأم في ظلمة القبر مفردة لا يؤنسها أحد ، وهو يشفق عليها من هذه الضجعة التي طال أمدها ، فليلها طويل كليل العاشقين الذين يتلهفون للقاء محبيهم ، ويدعوها لأن تغمض عينيها حتى تستريح من عناء الانتظار الذي يبدو أنه سيطول في هذا الجدث المطبق ، وإذا كان للعشاق

---

(1) التهويم : النوم الخفيف القليل .

(2) المقصود بجميل جميل بثينة ، و بمتمم : متمم بن نويرة اليربوعي الذي اشتهر بمراثيه في أخيه مالك بن نويرة .
- العماد الأصفهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ، ج1 ، ص267-268 .

(3) د.محمد زغلول سلام : الأدب في العصر الفاطمي ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، مصر ، ص333 .

أمل في لقاء أحبائهم –مهما طال انتظارهم وبعدت المسافة بينهم- فإنه لا أمل في لقاء الأم مجددا ، وهل يستوي أسى جميل بن معمر في بثينة بأسى متمم بن نويرة في أخيه مالك القتيل ؟ ، وإذا كان الأول له رجاء الوصال ولو كان صعبا فالثاني قد يئس من لقاء أخيه وقد دفنه وأهال عليه التراب بيديه .

ونجد لابن الأبار[1] أبياتا في رثاء بعض الأمهات ، يقول : [من البسيط] :

بِهَجْرِ الدنَى لِـلهِ وَازْدَلَفَـتْ	**كَرِيمَةَ المُنْتَمَى مَرْضِيةَ القُرَبِ دَانَتْ**
قَوامَةَ اللَّيْل مَحْنِيا عَلَى خَصَرٍ	**صَوامَةَ اليَـوْمِ مَطْوِيا عَـلَى لَهَبِ**
تَبَايَنَتْ وَاليَتَامَى: هُن فِي رَغَبٍ	**لِمَا تَعَودْنَ مِنْهَا ، وَهْيَ فِـي رَهَبِ**
لَوْ أَن آثَارَهَا تُحْصَى لَمَا كَتَبَتْ	**سِوَى مَآثِرِهَا الأَقْـلامُ فِـي الكُتُبِ**
نَقُولُ فِي خَطْبِهَا المَلْقِي طَلْعَتُهُ	**إِنا بَكَيْـنَاهُ بِالأَشْعَـارِ وَالخُـطَبِ**
فَلَوْ عَقَلْنَا ، عَقَلْنَا عَنْهُ أَلْسُنَنَا	**لَكِنـهَا سُنةٌ فِـي شِرْعَـةِ الأَدَبِ** [2]

إن هذه الأم كريمة الحسب شريفة النسب ، مرضية عند القربى من الأهل، وهي بموتها قد ابتعدت عن الناس ولكنها اقتربت من ا ومن جنته الموعودة ، وذلك أنها كانت قوامة متهجدة بالليل وقد انحنى ظهرها وانقبضت أضلاعها وحتى جسمها لم يكن يقوى على تحمل هذه المشقة فهو نحيل من فرط الصوم ، والطوى وكان عزاؤه في كل وقت .

وقد خلفت أبناءها يتامى كانوا يحبونها كثيرا لما ألفوا منها من حنان ورعاية فمصيبتهم فيها أشد وقعا وأسى في النفوس ، وهذه الأم لم تترك بابا للخير إلا وطرقته ، ولا سبيلا

---

[1] **ابن الأبار** : (595 – 658 هـ / 1199 – 1260 م) :

محمد بن عبد ا بن أبي بكر القضاعي البلنسي ، أو عبد ا ، ابن الأبار ، من أعيان المؤرخين ، أديب ، من أهل بلنسية بالأندلس ومولده بها ، رحل عنها لما احتلها الإفرنج واستقر بتونس ، فقر به صاحبها السلطان أبو زكرياء ، و ولاه كتابة علامته في صدور الرسائل مدة ثم صرفه عنها ، وأعاده ومات أبو زكرياء ، وخلفه ابنه المستنصر فرفع هذا مكانته ، ثم علم المستنصر أن ابن الأبار كان يزري عليه في مجالسه ، وعزيت إليه أبيات في هجائه فأمر به فقتل قصعا بالرماح في تونس ، من كتبه: " التكملة لكتاب الصلة " في تراجم علماء الأندلس ، " والحلة السيراء " في تاريخ أمراء المغرب ، وله شعر رقيق .

- الزركلي : الأعلام ، ج6 ، ص 233 .

[2] أبو عبد ا محمد ابن الأبار القضاعي البلنسي : ديوان ابن الأبار ، قراءة و تعليق : عبد السلام الهراس ، الدار التونسية للنشر ، و ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط2 ، 1406هـ / 1986م ، ص88 .

للجود والفضل إلا وسلكته ولن يستطيع الناس أن يلموا بمآثرها في مجمل أحاديثهم ، فوجدها الكتب والأقلام من تقدر على جرد فضائلها السنية .

وهذا الخطب الذي ألم بنا جراء فقد الأم هو خطب عظيم وجسيم يجب أن يعقل الألسن عن الكلام والأقلام عن الكتابة فيخرس أي متكلم ويجف أي حبر، ولكن الشاعر يعتذر عن هذا التطاول في مقام الصمت ويرى أن شريعة الأدب تقتضي الرثاء وإظهار المناقب حتى لا تنسى مثل هذه النساء بمجرد أن تقبر في غياهب الثرى .

ونلاحظ هنا عمق الأثر الإسلامي في حياة الأفراد ومدح الأمهات لا يخرج عن هذا الإطار، فالصوم وقيام الليل وكفالة الأيتام من الأعمال التي حض عليها الإسلام وترسخت في اعتقاد المسلمين ، ومن هنا كانت الأم جسرا للتواصل والتكافل الاجتماعي وهذا ما لم يكن في الجاهلية ، إذ كانت الأم تعتد بقوة أبنائها وتحرضهم على الإغارة وركوب الخطر وهي قد تفجع بمصرع أحدهم ولكنها تظهر التجلد في سبيل أرضاء البيئة الاجتماعية ، ومن هذا عانت الأم في الجاهلية حالة من الكبت الرهيب تمليها الأحوال السائدة والأعراف القائمة ، حتى إذا جاء الإسلام فض الخصومات وأنهى الصراع القبلي وأحيا الموءودات ومنع العضل ، وكل ما يساهم في عرقلة الحياة العادية للفرد والمجتمع وجدنا الأم تبرز عواطفها أكثر ، كل هذا وفق ما يرتئيه الدين طبعا ولنا في الخنساء الأخت والخنساء الأم أفضل دليل نسوقه لبيان هذا التحول الفكري والوجداني، فخنساء الجاهلية أفنت أيامها جزعا على أخيها صخر وحاثة على الثأر لدمه ، بينما خنساء الإسلام تفقد أربعة من بينها في معركة القادسية فلا يعلو نحيبها ولا يشتد جزعا بالرغم من أن عاطفة الأمومة أقوى من عاطفة الأخوة ولكنها تحتسب أجر ذلك عند ا .

وله أيضا قصيدة في رثاء أم الخطيب الفاضل أبي عبد ا بن القاسم يقول فيها :

[من الطويل] :

سَقَى اللهُ قَبْرًا أُودِعَ البِر وَ التقَى	**كَمَا تُودَعُ الأَزْهَارُ طَي الكَمَائِمِ**
وَ يَممَهَا الرضْـوَانُ أُما كَريمَـةً	**لأَوْحَدَ مَخْصُوصٍ بِغُرِ المَكَارِمِ**
تَـخَلتْ عَن الدنيَا وَ خَاتْ مُسَامِيًا	**لَهَا طِيبُ أَنْفَاسِ الريَاحِ النوَاسِمِ**
فَـإِنْ وَكَفَتْ سُحـبُ الغَمَائِمِ بَعْدَهَا	**فَقَدْ هَتَفَتْ بِالنوْحِ وُرْقُ الحَمَائِمِ**

مُبَارَكَةٌ جَـاءَتْ بِنَـجْلٍ مُبـَارَكٍ   لهُ فِي المَعَالِي سَامِيَاتُ المَعَالِمِ [1]

و هو يدعو لقبر الفقيدة بالسقيا و وابل المطر ، و قد ماتت رضية عند الناس و عند ربها فيممها الرضوان للمكارم التي حازتها و حازها أيضا ابنها أبو عبد ا   ، و يكاد الانسان يجزم بأن الفضائل اجتمعت لهما ، و اقتصرت عليهما دون غيرهما ن و هي قد زهدت في هذه الحياة و تخلت عن مباهجها و تسامت عن سقط المتاع فيها .

و كم كانت الخسارة فادحة بفقدها ، و كم كانت ستصبح أفدح لو لم تترك عقبا تقتبس منه الفضائل و الشمائل .

وعلى الرغم من أن المصادر التاريخية والأدبية لا تفيدنا بكثير من المعلومات حول واقع الحياة الاجتماعية في المغرب في القرون الأولى للفتح الإسلامي ، إلا أن واقع المرأة المغربية قد تغير جذريا ، وهذا ما نلمسه في الاحترام الكبير الذي يوليه الأبناء والإخوة للأمهات والأخوات والذي يتجسد في حسن المعاملة وإيثارهن بكل ما يدخل البهجة في قلوبهن ، هذه العلاقة التي نلمسها في أشعار بن الأبار وابن هانئ وابن حمديس والتي تمجد الأمهات وتحتفي بهن .

[1] ابن الأبار : ديوان ابن الأبار ، ص 286 – 287 .

- صورة الأم في بعدها السياسي:

لقد كان ابن هانئ[1] شاعرا لخليفة الفاطميين المعز لدين ا [2] وقد غاب على مدحه الغلو والمبالغة في إظهار قدرة الممدوح ، فهو عنده يرقى إلى منزلة ا أحيانا ، يقول في مطلع إحدى قصائده : [من الكامل]:

---

(1) **ابن هانئ** : (326-362 هـ / 938 – 973 م) :

هو أبو القاسم محمد بن هانئ الأزدي ، ولد بمدينة المسيلة من ولاية قسنطينة – بينما يرى ابن خلكان أن مولده بإشبيلية - وانتقل به أبوه إلى الأندلس ، فنشأ في إشبيلية في تربة خصيبة بالعلم والأدب ، وكانت إشبيلية آنذاك في عصرها الذهبي ، تزخر بالثقافة والحضارة ، ثم استوطن " البيرة " فعرف أيضا بالشاعر الألبيري .

اتصل في أول عهده بصاحب إشبيلية ، ومدحه فنال عنده حظوة ،غير أنه مال إلى اللهو والمجون ، وغالى في تشيعه واعتقاده إمامة الفاطميين ، كما غالى في تحرره الديني حتى اتهم بالزندقة ، ونقم عليه الإشبيليون وهموا بقتله ، فأوعز إليه صاحبها أن يغادر المدينة ريثما تهدأ الحال ، فانتقل إلى المغرب وعاش مدة في الجزائر ، ثم استقدمه المعز وأغدق عليه العطايا ، فمدحه ومدح قائده جوهرا ، وفي خبر وفاته اختلاف كبير ، يقول ابن خلكان : << توجه المعز إلى الديار المصرية ، فشيعه ابن هانئ المذكور ، ورجع إلى المغرب لأخذ عياله والالتحاق به ، فتجهز وتبعه ، فلما وصل إلى برقة أضافه شخص من أهلها ، فأقام عنده أياما في مجلس الأنس ، فيقال أنهم عربدوا عليه فقتلوه ، وقيل خرج من تلك الدار وهو سكران فنام في الطريق ، وأصبح ميتا ولم يعرف سبب موته ، وقيل إنه وجد في سانية من سواني برقة مخنوقا بتكة سراويله >>.

ومما يدل على منزلته الرفيعة في الشعر ما روي عن المعز حينما بلغه خبر موته ، قال : << هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك >> .

- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج1، ص 34.

(2) **المعز الفاطمي** : (19-365 هـ / 931-975 م) :

معد (المعز لدين ا) بن إسماعيل المنصور القائم بن المهدي عبيد ا الفاطمي العبيدي ، أبوتميم : صاحب مصر وإفريقية ، وأحد الخلفاء في هذه الدولة ، ولد بالمهدية في المغرب ، وبويع له بالخلافة في المنصورية بعد وفاة أبيه سنة 341 ه ، فجهز وزيره جوهرا وأصحبه بجيش كثيف ليفتح ما استعصى عليه من بلاد المغرب ، فسار إلى فاس وسجلماسة ففتحهما وانقادت له بلاد إفريقية كلها ماعدا سبتة فإنها بقيت لبني أمية أصحاب الأندلس ، وجاءت الأنباء بموت كافور الإخشيدي صاحب مصر ، فأشار المعز إلى القائد جوهر بالسير إلى مصر ، فقصدها ودخلها فاتحا سنة 358 هـ ، واختط مدينة القاهرة سنة 389-361 هـ وسماها القاهرة المعزية ، وأقام الدعوة للمعز بمصر والشام والحجاز ، وفي أواخر سنة 361 هـ استخلف المعز على إفريقية بلكين بن زيري الصنهاجي ، خرج من المنصورية دار ملكه بالمغرب ، فنزل بسردينية يتهيأ للرحلة إلى مصر ، ثم رحل عنها في 5 صفر 362 هـ فمر ببرقة ودخل الإسكندرية يوم 6 شعبان 362 هـ ، ودخل القاهرة يوم 5 رمضان ، فكانت مقر ملكه وملك الفاطميين من بعده إلى آخر أيامهم ، وكان عاقلا حازما شجاعا أديبا ، ينسب إليه شعر رقيق .

- إدريس عماد الدين : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ، القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار ، تحقيق : محمد اليعلاوي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1985 م ، ص 523 وما بعدها .

مَا شِئْتَ لاَ مَا شَاءَتِ الأَقْدَارُ فَاحْكُمْ فَأَنْتَ الوَاحِدُ القَهارُ [1]

وقد أثار هذا الإسفاف حفيظة العلماء والفقهاء مما جعل البعض منهم يتهمه بالكفر والزندقة ، يقول الحميدي : << ومَدَحَهُ وغالى باستيجاز أوصاف أنكرت واستعظمت>> [2] .

ولعل حادثة مقتله كان وراءها هذا الحنق المتولد لدى العامة والخاصة على شعره هذا، وحتى ألفاظه وعباراته فقد كانت فيها قعقعة وجلبة مستمدة من المعجم الجاهلي، وكان يحاول تقليد فحول الشعراء في مدائحهم من مثل المتنبي ، إلا أنه قصر عن ذلك ، وكان شعره مما يغر لفظه ويقصر أو يخذل معناه [3] ، وحتى المعري استهجن شعره ، وروى ابن خلكان أن << المعري كان إذا سمع شعر ابن هانئ يقول : ما أشّبهه إلا برحى تطحن قرونا ، لأجل القعقعة التي في ألفاظه >>[4] .

---

[1] ابن هانئ الأندلسي : ديوان ابن هانئ ، ص 101 .

[2] أبو محمد بن أبي نصير فتوح بن عبد ا الأزدي الحميدي الأندلسي : جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، تحقيق : د. روحية عبد الرحمن السويفي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1417 هـ / 1997 م ، ص 85 .

[3] يقول ابن قتيبة : تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب :

ضرب حسن لفظه وجاد معناه : ... كقول أبي ذؤيب : [من الكامل]:

وَالنفْسُ رَاغِبَــةٌ إذَا رَغَبْتَــهَا وَإذَا تُرَد إلــى قَلِيلٍ تَقْنَــعُ

وضرب منه حسن لفظه وحلا ، فإذا فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى كقول القائل : [من الطويل]:

وَلما قَضَيْنَا مِـنْ مِنًى كُل حَاجَـةٍ وَمَسحَ بِالأَرْكَان مَنْ هُوَ مَاسِحُ

وَشُدتْ عَلَىحُدْبِ المَهَارَى رِحَالُنَا وَلاَ يَنْظُرُ الغَادِي الذِي هُوَ رَائِحُ

أَخَـذْنَا بِأَطْرَافِ الأَحَادِيثِ بَيْنَـنَا وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ المَطِي الأَبَاطِحُ

هذه الألفاظ كما ترى أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع ، وإن نظرت على ما تحتها من المعنى وجدته : ولما قطعنا أيام منى ، واستلمنا الأركان ، وعالينا إبلنا الأنضاء ، ومضى الناس لا ينتظر الغادي الرائح ابتدأنا في الحديث وسارت المطي في الأبطح ... وهذا الصنف في الشعر كثير .

وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه ، كقول لبيد بن ربيعة [من الرجز]:

مَا عَاتَبَ المَرْءَ الكَرِيمَ كَنَفْسِهِ وَالمَرْءُ يُصْلِحُهُ الجَلِيسُ الصالِحُ

هذا وإن كان جيد المعنى والسبك فإنه قليل الماء والرونق ...

وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه ، كقول الأعشى في امرأة : [من الهزج]:

وَفُــوهَا كَأَقَاحِي غَذَاهُ دَائِـمُ الهَطْلِ

كَمَا شِيبَ بِرَاحٍ بَا رِدٍ مِنْ عَسَلِ النحْلِ

- ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ج1 ، ص 65 وما بعدها .

[4] ابن خلكان : وفييات الأعيان ، ج1 ، ص35 .

يكاد ابن هانئ ينفرد في هذا الباب عن باقي الشعراء ، وكثيرا ما كان يمزج مدحه للمعز وولاة الفاطميين بآرائه السياسية التي تدعم نظريتهم في الإمامة وأحقيتهم في الملك ، فهم آل رسول ا صلى ا عليه وسلم ، وينمى نسبهم إلى فاطمة بنت رسول ا وزوج علي بن أبي طالب ، وأم السبطين الحسن والحسين ، فهذه العترة المباركة هي أصل الفضيلة ومحتد المكارم ، وقد غصب الأمويون والعباسيون هؤلاء الأطهار حقوقهم وشردوهم في البلاد ولاحقوهم بسيوفهم وعيونهم في كل مكان ، لذا وجب الانتقاض عليهم والثورة في وجوههم ، وقد أنعم ا على هذه الأمة إذا أرسل فيهم المعز الفاطمي الذي سيجدد معالم الدين ويحمي حوزة المسلمين ويجمع شتات المضطهدين والمظلومين من بيت آل علي ، يقول ابن هانئ من قصيدة له في مدح المعز : [من الكامل] :

أَبْنَاءَ فَاطِمَ!هَلْ لنَا فِي حَشْرِنَا ... لجَأٌ سِوَاكُمْ ، عَاصِمٌ وَمُجَارُ ؟ [1]

أَنْتُـمْ أَحِـبّـَاءُ الإِلَـهِ وَآلُـهُ ... خُلَفَاؤُهُ فِـي أَرْضِهِ الأَبْرَارُ [2]

أَهْلُ النُبوةِ وَالرسَالَةِ وَالهُـدَى ... فِي البَينَاتِ ، وَسَـادَةٌ أَطْهَارُ [3]

وَالوَحْي ، وَالتأْويل ، وَالتحْرِيمِ ... وَالتحْلِيل ، لاَ خُلْفٌ وَلاَ إِنْكَارُ [4]

إِنْ قِيلَ:مَنْ خَيْرُ البَرِيةِ؟ لَمْ يَكُنْ ... إِلاكُـمُ خَـلْقٌ ، إِلَيْهِ يُـشَارُ

لَوْ تَلْمَسُونَ الصخْرَلانْبَجَسَتْ بِهِ ... وَتَفَجرَتْ ، وَتَدَفقَـتْ أَنْـهَارُ [5]

أَوْكَـانَ مِنْكُمْ لِلْرفَاتِ مُخَاطِـبٌ ... لَـبِوْا وَظَـنوا أَنـهُ إِنْشَـارُ [6]

لَسْتُمْ كَأَبْنَاءِ الطلِيق ، المُرْتَدِي ... بِالكُفْرِ ، حَتى عَض فِيهِ إِسَارُ [7]

أَبْنَاءَ نَتْلَةَ ! مَا لَكُـمْ وَلِمَعْشَـرٍ ... هُـمْ دَوْحَةُ اللهِ الذِي يُخْتَارُ [8]

رُدوا إِلَيْهِـمْ حَقهُمْ ، وَتَنَكبُـوا ... وَتَحَملُوا فَـقَدِ اسْتَـحَم بَوَارُ [10]

---

(1) المجار : موضع الإجارة والإغاثة .

(2) آله : أهله .

(3) الهدى : الصلاح والبر .

(4) الخاف : عدم إنجاز الوعد .

(5) انبجست : تفجرت بالماء

(6) إنشار : إحياء .

(7) أبناء الطليق : بنو العباس ، عض فيه إسار : أثر فيه حتى انقطع جاده .

(8) نتلة : هي أم العباس عم الرسول صلى ا عليه وسلم ، وبنت خباب بن كليب .

(10) تنكبوا : تجنبوا . تحملوا : ارتحلوا . استحم : بمعنى حم أي قضي .

- ابن هانئ الأندلسي : ديوان ابن هانئ الأندلسي ، ص 106 – 107 .

يبدأ الشاعر دفاعه المستميت عن الأسرة العلوية بقوله " أبناء فاطم " فهو ينسبهم إلى الأم الأولى للشيعة ، هذه الأم التي منحت للإسلام ذخرين كبيرين كان منهما النبع الصافي والولد الصالح ، ويغالي الشاعر في تشيعه ، ويرى أن لا شفاعة يوم الحشر إلا لأبناء فاطمة وآلها ، فطلب الشفاعة يكون منهم فقط ولا يتجاوز إلى غيرهم ، وهذا أعظم تشريف لهم لأن الشفاعة لا تكون إلا للأنبياء والمرسلين ، ولا عجب في أن نجد الشاعر ينزل ممدوحه الشيعي منزلة الأنبياء ، وقد صرح في غير موضع بذلك كقوله : [من الكامل]

فَكَأنـما أَنْتَ النـبي مُحَمـدٌ وَكَأنـمَا أَنْصَارُكَ الأَنْصَارُ
هَذَا الذِي تُجْدِي شَفَاعَتُهُ غَدًا حَقّا، وَتَخْمُدُ أَنْ تَرَاهُ النارُ [1]

ويلاحظ أن تقديم ذكر الأم " فاطمة " يتيح للشاعر هامشا كبيرا من حرية الوصف والمغالاة في المدح ، ذلك أن فاطمة كانت قد تحولت إلى رمز مقدس لدى الشيعة ، وساعد على ترسخ هذا الاعتقاد ما تعرضت له نساء بيت النبوة من إهانة على يد خلفاء الأمويين وولاتهم << ففي عهد يزيد قتل الحسين بن علي الذي هو وأخوه سيدا شباب أهل الجنة – كما ورد في الأثر – قتلة فاجرة وذهب دمه عبيطا ، من غير أن ترعى حرمة دين ، وأُخذت بنات الحسين وبنات علي سبايا على يزيد بن معاوية ... رأى الناس ذلك ولم يستطيعوا تغييرا ولا تحويلا فكظموا غيظهم وكبتوا نفوسهم واشتد ألمهم ، فاندفعوا إلى المغالاة في تقدير أولئك الذين غالى الأمويون في إيذائهم ، وهكذا يدفع الكبت العقلي والنفسي دائما ، فإنه يدفع إلى المبالغة في التقدير ، إذ العطف والإشفاق يدفعان إلى الإكبار والتقدير >> [2] .

وإذًا فقد كانت الإهانة التي تعرضت لها نساء البيت هي الدافع الرئيسي للثورة الشيعية في وجه الأمويين .

ولا يفتأ ابن هانئ يشير إلى فاطمة الزهراء ، والملاحظ أن جميع مدائحه للمعز تستهل بذكر الأم ، وكأنما يريد ترسيخ فكرة توريث الإمامة إلى هذا الممدوح بعد أن قضي على أفراد الأسرة العلوية بكربلاء ، ويحرص على إظهار ممدوحه في صورة المنقذ الوحيد للبشرية من الدرك الذي سقطت فيه ، وهو أيضا قبس من المهدي المنتظر الذي سيملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا وعسفا ، وبذلك فصورة الشيعة وثورتهم تختلف عن

---

[1] ابن هانئ الأندلسي : ديوان ابن هانئ الأندلسي ، ص 101 .

[2] محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية ، ص 34 .

باقي ثورات الزبيريين والخوارج الذين أشعلوا نار الحروب في سبيل تحصيل الملك والحصول على منافع الحكم وأموال الخراج حسب زعم الشاعر طبعا ، ولنستمع إليه وهو بصدد مدح المعز : [من الطويل] :

سَقَى الكَوْثَرُ الخُلْدِي دَوْحَةَ هَاشِمٍ ... وَحَيتْ مُعِز الدين عَــنا المَلائِكُ[1]

شَهِدَتْ لأَهْلِ البَيْتِ أَنْ لا مَشَاعِــرٌ ... إِذَا لَمْ تَكُنْ مِنْهُمْ ،وَأَنْ لا مَنَاسِكُ[2]

وَأَنْ لا إِمَامٌ غَيْرُ ذِي التاجِ ، تَلْتَقِي ... عَلَيْهِ هَوَادِي مَجْدِهِ ، وَالحَوَارِكُ [3]

لهُ نَسَــبُ الزهْرَاءِ ، دِنيًّا يَخُصهُ ... وَسَالِفُ مَا ضَمتْ عَلَيْهِ العَوَاتِكُ [4]

إِمَامٌ رَأَى الدنيًا بِمُــؤْخِرِ عَيْنِــهِ ... فَمَنْ كَانَ مِنْهَا آخِذًا ، فَهُوَ تَارِكُ[5]

فهو يصف المعز بأنه " إمام " وليس حاكما أو ملكا ، فسلطته دينية بقوة العقيدة والإقناع وشرف المحتد قبل أن تكون سياسية عسكرية بقوة السيف والسلاح والأجناد كما هو الحال مع الخلافة العباسية المستبدة ، ويجب على العامة أن يكون لها اعتقاد في هذا الإمام الصالح وألا تقوم بالمشاعر والمناسك بمكة إلا وكانت ألسنتها تلهج بذكره مع التلبية والتحميد المعروفين ، ذلك أن شفاعته لها قائمة ومجدية في مقام الحرم المكي ، وهو إمام لم يتملك من أجل النهل من متاع الدنيا كشأن باقي الملوك والأمراء ، وإنما لينشر العدل ويحقق أمل الرعية في الأمان والعدل ، وعلى رغم يسر الحال وكثرة المغريات فإنك تراه زاهدا محتسبا، وهذا نهج الأم فاطمة الزهراء التي كانت تحيا حياة الضنك والشدة سواء حينما كانت بنتا للنبي أو زوجة لعلي وقد روي أن النبي دخل على فاطمة ، وقد أخذت من عنقها سلسلة من ذهب ، فقالت : هذه أهداها لي أبو حسن ، فقال : << **يَا فَاطِمَةُ ! أَيَسُركِ أَنْ يَقُولَ الناسُ : هَذِهِ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمدٍ وَفِي يَدِهَا سِلْسِلَةٌ مِنْ نَارٍ** ، ثم خرج ،

---

[1] الكوثر : نهر في الجنة

[2] المشاعر والمناسك : من علامات الحج وآثاره وأعماله .

[3] الهوادي : أوائل كل شيء ، الواحد : هادية ، الحورك : جمع حارك وهو أعلى الكاهل .

[4] الزهراء : فاطمة بنت النبي وزوج علي ، العواتك : النساء الحافظات .

[5] رأى الدنيا بمؤخر عينه : أي نظر إليها نظرة ازدراء .

- ابن هانئ الأندلسي : ديوان ابن هانئ الأندلسي ، ص 124-125 .

فاشترت بالسلسلة غلاما ، فأعتقته ، فقال النبي صلى ا عليه وسلم : **الحَمْدُ لِلهِ الذِي نَجى فَاطِمَةَ مِنَ النار**>> [1] .

والمعز يعلم أن دوام العز واستقامة أحوال البلاد لا تكون إلا بالبعد عن الدنيا والانصراف عن التهالك وراء المتاع الزائل وقد قال رسول ا << **اخْشَوْشِنُوا فَإِن النعَمَ لا تَدُومُ** >>[2]

وبعد مدح طويل للمعز ووصف شجاعته وتعرضه للحتوف في سبيل إعلاء كلمة الحق ، يعود الشاعر مجددا إلى تأكيد الأحقية الشيعية في إمامة المسلمين والطعن في حكم العباسيين فيقول :

لَكُمْ دَوْلَةُ الصدْق التِي لَمْ يَقُمْ بِهَا نُتَيْلَةُ ، وَالأَيامُ هُـوجٌ رَكَائِـكُ

إِمَامِيةٌ لَمْ يُخْزِ هَارُونُ سَعْيَـهَا وَلا أَشْرَكَتْ بِاللهِ فِيهَا البَرَامِكُ[3]

وفي هذين البيتين يعير نساء بني العباس اللائي أفرغن خزائن بيت المال في سبيل إظهار الأبهة والتميز ، فهو يعرّض بزبيدة زوجة الرشيد بالتحديد التي << كانت تصنع أعمالا تفوق مقدرة الملوك ، كمثل اصطناعها بساطا من الديباج جمع صورة كل حيوان من جميع الأجناس ، وصورة كل طائر من الذهب ، وأعينها من يواقيت وجواهر ، يقال إنها أنفقت عليه نحوا من ألف ألف دينار ،وكمثل اتخاذها الآلة من الذهب المرصع بالجوهر، والثوب من الوشي الرفيع يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار ، والقباب من الفضة والأبنوس والصندل ، عليها الكلاليب من الذهب الملبس بالوشي والديباج والسمور وأنواع الحرير ، وكمثل اتخاذها شمع العنبر ، واصطناعها الخف مرصعا بالجوهر >>[4]

وقد كانت نفقات القصر هذه تؤخذ عنوة من السواد الأعظم الذي يكدح ساعات يومه من أجل دينار أو درهم وهاهي تصرف في غير محلها وعلى غير مستحقيها .

وابن هانئ يقابل بين بطر نساء بني العباس ، وزهد نساء قصر المعز اللائي يشاركن العامة آلامهم وآمالهم ، وهذا الشعر هو في الحقيقة تحريض ضد العباسيين ودافع إلى تعميق الكره اتجاههم من جهة ، وترسيخ المحبة للمعز والرضى على سياسة الإمام وحكمه .

---

[1] أبو داود : سنن أبي داود ، ج1 ، ص178 .

[2] ابن ماجة : سنن ابن ماجة ، ص254 .

[3] ابن هانئ الأندلسي : ديوان ابن هانئ الأندلسي ، ص 127 .

[4] د. حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، ج2 ، ص 418 ، نقلا عن : نخلة المدور : حضارة الإسلام في دار السلام ، ص 95 .

وإذًا كانت الأم محورا أساسيا في تشكيل عقائد الشيعة وإقامة الدعوة لها في أنحاء البلاد المعمورة ، وقد كان دعاة المذهب يؤلبون الناس على الخلافة القائمة بتركيزهم على مأساة أهل البيت في كربلاء ويلقون في روعهم أن ولاة الأمويين والعباسيين لم يرعوا حرمة ولم يحفظوا عرضا للنساء الطاهرات ، وقد بلغ من أمر عبيد ا بن زياد والي يزيد على البصرة أن أخذ نساء البيت سبايا ذليلات وكأنهن من غير المسلمين الذين يجوز فيهم السبي والقتل ، ولعل هذه الحادثة عمقت من كراهية الشيعة للأمويين زمنا طويلا ، وتزداد حدتها ويعلو لهيبها كلما ذكر خطباؤهم هذه الحادثة على منابر الدعوة ومحاريب المساجد ، وهذه حقيقة أية دعوة دينية سياسية فيجب أن تركز على أسس دعوية توحد شعور وعاطفة المؤيدين، وتوجه سهام الحقد إلى المخالفين تحت أي ذريعة وتبعا لأي جريمة ، وبهذا نرى أن أهم سبب في ذهاب دولة الأمويين كانت معاملتهم غير المشرفة لنساء البيت ولا يفتأ الشاعر يذكر ما حدث لنساء أهل البيت في كربلاء ، يقول من قصيدة له في مدح المعز : [من الطويل] :

أَلاَ إِن يَوْمًا هَاشِمِـيا أَظَلهُــ ـمْ	يُطِيرُ فَرَاشَ الهَامِ عَنْ كُل مِجْثَمِ [1]
كَيَوْمِ يَزِيــدٍ ، وَالسبَايَا طَرِيــدَةٌ	عَلَــى كُل مَوارِ المِلاَطِ عَثَمْثَــمِ [2]
وَقَدْ غَصتِ البَيْدَاءُ بِالعِيسِ فَوْقَهَا	كَرَائِــمُ أَبْنَــاءِ النبِي المُكَــرمِ [3]
ذُعِــرْنَ بِأَبْنَاءِ الضبَابِ وَأَعْــوَجٍ	فَأَبْكَيْــنَ أَبْنَاءَ الجَدِيلِ وَشَدْقَــمِ [4]
يَشُلُونَهَا فِي كُل غَارِبِ دَوْسَــرٍ	عَلَيْهِ الوَلاَيَا ، بِالــخِشَاشِ مُخَزمِ [5]

[1] أظلهم : غشيهم . فراش الهام : قيل : كل عظم ضرب فطارت منه عظام رقاق تلي القحف . المجثم : من جثم الطائر والإنسان جثوما إذا تلبد بالأرض وهو أن يقع على صدره .

[2] الموار : المتحرك . الملاط : الجانب ، وأراد الجمل السهل السريع . العثمثم : الجمل الشديد الطويل .

[3] البيداء : الصحراء الواسعة . العيس : الدواب يرتحل عليها .

[4] الضباب : لعله اسم فرس أو لعله محرف عن الضبيب وهو فرس مشهور ، أبناء الجديل وشدقم : الإبل نسبة إلى فحلين مشهورين .

[5] الدوسر : الجمل الضخم . الولايا : الواحدة ولية وهو كل ما ولي الظهر من كساء أو غيره ، الخشاش : العود يجعل في عظم أنف البعير يشد به الزمام ليكون أسرع في الانقياد ، المخزم : الموضوع في أنفه الخزامة ، وهي حلقة يشد بها الزمام .

فَمَا فِي حَرِيمٍ بَعْدَهَا مِـنْ تَحَرجِ   وَلا هَتْكُ سِتْرٍ بَعْدَهَا بِمُحَرمِ

فَإِنْ يَتَخَرَمْ خَيْرُ سِبْطَيْ مُحَـمدٍ   فَـإن وَلي الثار لَـمْ يَتَخَرَمِ [1]

أَلا سَلِئلُوا عَنْهُ البَتُولَ ، فَتُخْبَرُوا   أَكَانَتْ لَهُ أُما ، وَكَانَ لَهَا ابْنَمِ [2]

أَلا إِن وِتْرًا فِيهِمُ ، غَيْرُ ضَائِعٍ   وَطُلَّابَ وِتْرٍ ، مِنْكُمُ غَيْرُ نُوَمِ [3]

يقول إن اليوم الذي وقعت فيه مأساة كربلاء كان شديدا والقتال مستحرا فتطايرت أعناق الرجال وانفصلت عن الأجساد حتى ملأت ميدان المعركة ، وهذا يدل على أن أتباع الحسين – على قلتهم بالمقارنة مع جيش ابن زياد الأموي الكثيف- لم يستسلموا ، بل قاوموا بكل بسالة حتى أبيدوا عن آخرهم ، وربما عرّض الشاعر هنا في ذكره لتطاير الرؤوس بالحادثة التي هزت مشاعر المسلمين عامة والشيعة خاصة وأذكت نيران غضبهم على الأمويين زمنا طويلا ، وهي أن جند عبيد ا بن زياد لم تكتف بفعالها الشنيعة في المعركة، بل إنه لما قتل الحسين وفاضت روحه أقدم أحد الجنود ويدعى خولي الأصبحي على فصل رأس الحسين من الجسد وألقى به إلى القائد وهو يقول : [من السريع] :

أَوْقِرْ رِكَابِيَ ذَهَبَـا   فَقَدْ قَتَلْتُ المَلِكَ المُحَجبَا

قَتَلْتُ خَيْرَ الناس أُما وَأَبَا [4]

هذا الإسراف في التشفي من القتيل دفع الناس إلى المغالاة في التشيع لآل علي ، وإظهار الحسرة والتفجع بما يرسخ الكره الدائم لولاة بني أمية ، ثم يقول الشاعر إن المعرة لم تمس الرجال فقط ، بل مست النساء أيضا ، وقد أخذن سبايا إلى يزيد الذي لم يرع لهن عرضا ولا حفظ لهن كرامة وهن بنات بيت النبوة ، وقد كن قبل هذا مقبلات على ا والجهاد في سبيله حتى تعلو كلمة الحق ويسترد الحق الضائع في الإمامة ، ولكنهن ذعرن والخيل الناجية والفرسان الأشداد يحيطون بهن وبرجالهن ، فلم يكن هناك مناص من الاشتراك في القتال على أمل الشهادة أو النصر لكن القدر خذلهن ، فباد رجالهن وبقين يعانين السبي وهتك الستر والإهانة ،وإذًا << فلا تسامح مع من اعتدى على حرمات النبي

---

[1] تخرم : تقطع واستؤصل ، ولي الثأر : المعز

[2] البتول : مريم أم عيسى عليه السلام ، وقد أراد هنا فاطمة زوجة علي بن أبي طالب .

[3] الوتر : الثار .

- ابن هانئ الأندلسي : ديوان ابن هانئ الأندلسي ، ص 195-196 .

[4] الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج3 ، ص 282 .

ولا رحمة لمن لا يرحم نساء الحسين وهن يصرخن ويتضرعن حتى لانت لهن قلوب المطايا ، ولكن قلوب القتلة الأمويين لم تلن >> [1].

ثم يشبه الشاعر فاطمة بنت النبي بمريم البتول ، ويستلزم أن يكون الحسين قبسا من النبي عيسى عليه السلام ، والشاعر يسخر من الأمويين ومن العباسيين الجاحدين لمنزلة الحسين وأمه فيذكرهما بأن قدرهما لا يبخسهما إلا كافر فهم من سلالة الأنبياء الطاهرة ، وحتى لو قبروا بسيوف ظالمة فإن القضية لن تقبر أو تموت ، فقد بعث ا من يكمل الرسالة ويرد الأمانة إلى أصحابها إنه المعز لدين ا الذي سيثأر من كل قاتل أو متشف ، وعيونه التي لا تنام عن طلب الوتر ، أو عن تفقد الرعية والقيام بشأنها .

ولنا أن نتساءل عن أسباب هذا الحقد المتفجر على الأمويين وقد زالت دولتهم في الشرق وانمحى أثرهم في عهد الشاعر ، ولا نملك تفسيرا دقيقا شافيا ، غير بعض التخمينات العارضة ، منها أنه ربما تعرض آباؤه وأجداده الأندلسيون للاضطهاد على يد الأمويين الذين حكموا الأندلس منذ أيام عبد الرحمن الداخل ، وقد نقول بتعرضه هو نفسه للمضايقات ومحاولة القتل أثناء مقامه بإشبيلية على يد الجند الأموي ، وحينما نطالع ترجمته في مختلف المصادر نجد أنه فر من الأندلس إلى المغرب بعدما حذره والي إشبيلية بإمكانية تعرضه لمكروه وهو يصدح علنا بولائه لآل البيت ، بل إن بعض الدارسين المعاصرين << عزوا مصرع الشاعر ببرقة إلى أيد أموية ، لأن حكام قرطبة في نظرهم ضاقوا ذرعا بحملات الشاعر العنيفة فدبروا له هذه الجريمة السياسية >>[2] .

وبهذا نرى أن السيوف الأموية التي طالما دعا المعز إلى تأديبها قد تمكنت من جسده كما تمكنت من الأجساد الطاهرة لممدوحيه من آل البيت في العراق .

ولم يكن فعل الأمويين في النساء أمرا عارضا أو حادثا معزولا ارتكبه شخص غير مسؤول ، بل كان فعلا ممنهجا ومدروسا ، وقد رأوا بادئ الأمر نفور أهل البيت سواء أعمام الرسول (العباسيين) أو أصهاره (الشيعة) منهم وتطلعهم لولاية المسلمين فعزموا على القضاء على هذا التطلع والاستشراف ، وعلموا أنهم إن تركوا هؤلاء الأعمام أو الأصهار يبثون دعوتهم فإنهم سيجدون التأييد الكبير والأنصار الكثر نظرا لأنهم محتد

---

[1] محمد اليعلاوي : ابن هانئ المغربي الأندلسي ، ص 282 .

[2] المرجع نفسه :، ص 285 .

النبوة ومنبع النور الإسلامي ممثلا في النبي محمد صلى ا عليه وسلم ، لذلك عمد الأمويون- منذ أن غصبوا الخلافة- إلى إبادة نسل هؤلاء الخصوم المفترضين والقضاء على زوجاتهم وأمهاتهم حتى لا تظهر أية بادرة للثورة في الأفق ، ونجزم بأن نوايا يزيد مع الناجيات من مأساة كربلاء كانت سيئة إلى درجة كبيرة ، وقد كان يريد قتلهن بتسميمهن على الأقل، لكن تسامع الناس بذلك وعلمهم بمكانهن حال دون تنفيذه لنواياه .

وتتجسد هذه النوايا في مآس أخرى تذكرها المصادر التاريخية فيروى أنه كان لامرأة من بني الحارث بن كعب طفلان من عبيد ا بن العباس بن عبد المطلب ، وكان عبيد ا هذا عاملا لعلي بن أبي طالب على اليمن فوجه معاوية إلى اليمن بُسْرَ بن أرطأة للبحث عنهما وقتلهما ، فأُرشِد على الطفلين ، فوارتهما أمهما تحت ذيلها ، فأخذهما وذبحهما تحت عينيها ، فكانت تقول في رثائهما وندبهما أبياتا منها : [من البسيط] :

يَـا مَنْ أَحَس بُنَيىى اللذَيْن هُـمَا	كالدرتَيْـن تَشَظى عَنْهُـمَا الصـدَفُ
يَـا مَنْ أَحَس بُنَيىى اللذَيْن هُـمَا	سَمْعِي وَطَرْفِي،فَطَرْفِي اليَوْمَ مُخْتَطَفُ
يَا مَنْ أَحَس بُنَيىى اللذَيْن هُـ ـمَا	مُخ العِظَامِ ، فَمُخي اليَوْمَ مُزْدَهَـفُ
نُبئْتُ بُسْرًا،وَمَا صَدقْتُ مَا زَعَمُوا	مِنْ قَوْلِهِمْ ، وَمِنَ الإِفْكِ الذِي اقْتَرَفُوا
أَنْحَى عَلَى وَدَجَيْ طِفْلَي مُرْهَفَـةً	مَشْحُـوذَةً ، وَعَظِيمُ الإِفْكِ يُقْتَـرَفُ
مَـنْ دَل وَالِـهَةً حُرى مُفَـجعَةً	عَلَى صَبِييْن غَابَا إِذْ مَضَى السلَـفُ [1]

ولا شك أن صورة الأم الثكلى كانت تدمي القلوب ، وصوت عويلها يبلغ الآذان وخاصة في تكرار صيغة النداء " يا من أحس " في الأبيات الثلاثة الأولى ، والناس إذ يتسامعون بهذا الخبر المفجع ، وبهذه الأيادي الآثمة التي تقترف هذه الجريمة النكراء بدم بارد ، وإذ ينشدون ويتناقلون هذا الشعر الحزين والترنيمات المبكية فإنهم يثورون على مقترف الجريمة وعلى الآمر بتنفيذها .

وبذلك كان الدعاة المعارضون يتسقطون هذه الأخبار ، ويستغلون هذه الحوادث ليشعلوا فتيل الثورة ضد الأمويين أو العباسيين ويصورونهم على أنهم وحوش تنقض بلا رحمة أو شفقة .

وبهذا كان أنين الأمهات ملهبا لنار الثورة في مختلف التخوم والبلدان .

---

[1] الأصفهاني : الأغاني ، ج5 ، ص123 .

وابن هانئ يصبغ على ممدوحيه هالة من التعظيم والتشريف ولم يكن هذا الثناء إلا لأنهم " أهل النبوة " فبينهم أنزل الوحي ، وهم بذلك أعلم الناس بالحلال والحرام ، ولا يختلف اثنان في أنهم خير البرية وقد يشار إليهم بالبنان ، ثم لا يلبث الشاعر أن يورد بعضا من اعتقاد الشيعة في أئمتهم ، ويقول أن أيديهم لو مسها الصخر لانبجس منه الماء ،وتدفق النهر من أعماقه ، والشاعر يريد أن يضفي عليهم صفات وقدرات الأنبياء ، فهو يشير إلى قصة سيدنا موسى عليه السلام مع بني إسرائيل إذ صدع له الماء من الحجر كآية لهم حتى يؤمنوا قال تعالى : << **وَ إِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشَرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ** >>[1] ، أو قوله تعالى: << **وَإِن مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِن مِنْهَا لَمَا يَشقَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المَاءُ** >> [2] ، ويقول الشاعر أنهم لو نادوا الأموات في قبورهم للبوهم النداء لظنهم أنه وقت النشور وساعة الحشر والعرض .

ثم ينتقل الشاعر لهجاء العباسيين خصوم المعز والشيعة بوجه عام ، فيقول عنهم أنهم أبناء " الطليق " وهو يشير في هذا إلى العباس عم رسول ا صلى ا عليه وسلم وجد العباسيين قاطبة ، وإنما وصفه بالطليق والمرتدي بالكفر والذي عض فيه الإسار لأنه << خرج في قومه يوم بدر فأسر يومئذ فادعى أنه مسلم >>[3] ، ولم تنفعه دعوته فشد بالوثاق ، << فعن ابن عباس ، قال :أمسى رسول ا والأسارى في الوثاق فبات ساهرا أول الليل ، فقيل : يارسول ا مالك لا تنام ؟ قال : **سَمِعْتُ أَنِينَ عَمي فِي وَثَاقِهِ** ، فأطلقوه، فسكت ، فنام رسول ا >>[4] .

ولهذا سماه ابن هانئ الطليق أي أنه أطلق سراحه وفك وثاقه بعد أن << افتدى نفسه بمائة أوقية من ذهب >> [5] .

وابن هانئ يعير العباسيين بأن جدهم الذي ينمون إليه ويفخرون به كان عدوا ولرسوله قبل أن يفتح ا قلبه للإسلام ، وفي هذا مقارنة واضحة بينه وبين علي بن أبي طالب

---

(1) البقرة : 60 .

(2) البقرة : 74

(3) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج3 ، ص 40 .

(4) المصدر نفسه : ج3 ، ص 42 .

(5) المصدر نفسه : ج3 ، ص 42 .

الذي ينتسب إليه الشيعة العلويون ، فعلي لم يكن كافرا بل إنه أول من أسلم من الفتيان [1] ولم يناصب المسلمين العداء كشأن العباس عم النبي، ثم يعيرهم من جهة الأم ، فيقول : " أبناء نتلة "، ونتلة [2] هذه هي أم العباس وبنت خباب بن كليب ولا نعرف بالضبط سبب تعييره لهم بها ، وهل كانت لها سقطات أو مخاز في الجاهلية شهرت بها ولاكتها الألسن جراءها ، ولكن الأكيد أيضا أن الشاعر يحاول أن يعقد مقارنة بين نتلة وفاطمة بنت رسول ا التي ينتسب لها الشيعة من ناحية الأم، وهنا لا مجال للمقارنة بين المرأتين ولكن يمكن القول أنه << لما كانت أعظم حجة على العباسيين هي انتسابهم إلى الرسول عن طريق فاطمة الزهراء ، فاطمة البتول ، وهي النسبة التي أكسبت الأئمة هالة القداسة علاوة على إرث النبي ، فإن الشاعر ينتقص في المقابل أم العباس " نتيلة " ويقول :هذه كانت أمة من رقيق قريش ، وهذا الرق المزعوم يحمله على إجراء قياس بين عبوديتها وبين أسر العباس في بدر ، فيستنتج منه أن نتيلة أورثت العباس لاحق الخلافة كما فعلت فاطمة لأبنائها بل عادة الرق والعبودية،يقول في هذا المعنى في موضع آخر:[من الطويل]

بَنِي نَتْلَةٍ ، مَاأَوْرَثَ اللهُ نَتْلَةً   **وَمَا نَسَلَتْ ،هَلْ يَسْتَوِي العَبْدُ وَالحُر** ؟

وَأنى بِهَذَا وَهْيَ أَعْدَتْ بِرِقهَا   **أَبَاكُمْ ، فَإِياكُمْ وَدَعْوًى هِـيَ الكُفْـرُ** [3]

ومعلوم أن العبودية تقوم حائلا أمام الإمامة فالإمام ينبغي أن يكون حرا والعباسيون بحكم هذا الرق الموروث ليسوا أهلا لخلافة المسلمين ، وهكذا تتضافر هذه الحجج التاريخية : العبودية المفترضة ، ثم عداوة العباس للإسلام في بدر وقبل بدر وأسره وإطلاقه ، والتفاوت بين النسب المباشر عن طريق البنت والنسب البعيد عن طريق العمومة ، تتضافر لصرف العباسيين عن الخلافة >> [4] .

---

(1) د. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، ج3 ، ص 317 .

(2) **نتيلة بن خباب** : نتيلة بنت خباب بن مالك بن عمرو بن زيد مناة بن عامر الضحيان ، من بني النمر بن قاسط : أم العباس (جد الخلفاء العباسيين) ، قيل : ضاع ابنها العباس وهو صغير ، فنذرت إن وجدته أن تكسو البيت الحرام بالحرير والديباج ، فوجدته فكانت أول امرأة في العرب كست البيت تلك الكسوة .

- الزركلي : الأعلام ، ج8 ، ص09 .

(3) ابن هانئ الأندلسي : ديوان ابن هانئ الأندلسي ، ص 86 .

(4) محمد اليعلاوي : ابن هانئ المغربي الأندلسي شاعر الدولة الفاطمية ، ص 289 .

وبعد هذه الموازنة أو المقارنة غير المتكافئة بين الشخصيات العلوية والشخصيات العباسية يصل الشاعر إلى بيت القصيد ومكمن الداء بعد أن ضمن تأييدا من المستمعين على الأول ، فيجهر بمطالبه في وجه العباسيين الغاصبين ويطلب منهم رد الحق لأهله ، حق الخلافة والإمامة التي اغتصبوها من أيدي آل علي وانفردوا بها دون سائر المسلمين. والظاهر أن الحرب الكلامية والمنافرات الشعرية بين شعراء الشيعة ونصراء العباسيين كانت في أوج اشتعالها، وقد كانت أرض المشرق منطلق هذه الحرب وانتقل ميدانها إلى المغرب بانتقال الأسرة المعزية إليها، ثم إن الشعراء الشيعة في المشرق يوردون أيضا مأساة فاطمة ، ويطالبون باستعادة حقها وحق أبنائها في العرش ومعاقبة الولاة العباسيين على جرائمهم في حق هؤلاء ، بل إنهم يدعون إلى الثورة والتمرد على مظاهر الاستبداد والقسوة التي تميز حكم بني العباس ، فهذا الشاعر منصور النمري [1] المتشيع لعلي وآله يذكر في قصيدة له معاناة أم السبطين : و<< يذكر موقف أبي بكر وعمر من دعوى فاطمة زاعما أنهما ظلماها ، ومطالبا بمن يثأر لها من ظلمتها >> [2] يقول :[من المنسرح] :

مَظْلُومَةٌ وَالنبِي وَالِـدُهَا   فَرِيرُ أَرْجَاءِ مُقْلَةٍ حَـافِلْ

أَلاَ مَصَالِيتُ يَغْضَبُونَ لَهَا   بِسَلةِ البِيضِ وَالقَنَا الذابِلْ [3]

بل إن صورة فاطمة الأم المظلومة أخذت تستغل حتى من أولئك الزنج الذين كانوا يريدون الإعلاء من شأنهم الوضيع ، والترفع عن نسبهم الحقير ، والاستيلاء على بغداد ومختلف المدن ، فيكفي أن يذكروا اسم الأم حتى يروا الناس تلتف حولهم والسيوف مشرعة تؤازرهم وتناصرهم ، وهذا ما نجده من يحيى بن زكرويه الذي ينسب نفسه إلى الفواطم من بني هاشم : فيقول : [من المتقارب] :

أَنَا ابْنُ الفَوَاطِمِ مِنْ هَاشِمِ   وَخَيْرُ سُلاَلَـةِ ذَا العَالَمِ

وَطِئْتُ الشامَ بِرَغْمِ الأَنَامِ   كَوَطْءِ الحِمَـامِ بَنِي آدَمِ [4]

---

[1] **منصور بن سلمة بن الزبرقان** : من النمر بن قاسط ، وكان مع الرشيد مقدما ، وكان يمت إليه بأم العباس بن عبد المطلب وهي نمرية ، وكان الرشيد يعطيه ويجزل ، غير أنه كان يظهر التشيع .
- ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ج2 ، ص 874 .

[2] د. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، ج3 ، ص 317 .

[3] ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ج2 ،ص 848 .

[4] د . شوي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، ج4 ، ص402 .

<< وهي نسبة كاذبة ، ومن المؤكد أنه لم يكن يقصد بثورته نصرة العلويين ولا كان فيها متشيعا لهم ، إنما كان متشيعا لنفسه يريد أن يصل إلى الملك والسلطان >> [1] .

وعلى النقيض من هذا التشيع الصادق أو الكاذب ، نجد الشاعر مروان بن أبي الجنوب ينكر حق السيدة فاطمة وبنيها في الخلافة ، ويسلك مسلك جده مروان بن أبيحفصة في الطعن على آل علي بما يشفي غليل المتوكل الذي أشتد بلاؤه على العلويين وبالغ في كراهيتهم وإيذائهم ، وهذا الشاعر << دافع بحرارة في جوانب من مديحه عن حقوق العباسيين في الخلافة مؤتسيا في ذلك بجده مروان بن أبي حفصة ، وائتسى به أيضا في الرد على العلويين ونقض ما يدعونه من وراثة الرسول في الخلافة ، إذ هم أبناء السيدة فاطمة الزهراء ، والعم مقدم على أولاد البنت في الوراثة حسب حكم الشريعة >> [2] .

يقول : [من مجزوء الكامل] :

مُلْكُ الخَـلِيفَةِ جَـعْفَرٍ ... لِلدين وَ الدنْيا سَلاَمَـهْ

لَكُـمْ تُـرَاثُ مُحـَمدٍ ... وَبِعَدْلِكُمْ تُنْفَى الظلاَمَـهْ

يَرْجُو التراثَ بَنُو البَنَا ... تِ ،وَمَا لَهُمْ فِيهَا قُلاَمَهْ

وَالصهْرُ لَيْسَ بِوَارِثٍ ... وَالبِنْتُ لاَ تَرِثُ الإِمَامَهْ

أَخَـذَ الورَاثَةَ أَهْلُـهَا ... فَـعَلاَمَ لَوْمُـكُمُ عَلاَمَهْ ؟ [3]

وحسب زعم الشاعر فمصاهرة علي للرسول لا توجب له وراثة ، والسيدة فاطمة مهما علا شانها وسمت منزلتها تبقى بنتا ، والبنت لا ترث الولاية على المسلمين في حكم الشريعة فكيف تُورَثُ الإمامة من قِبَلِهَا ؟! .

وفي هذا دحض لمطالب العلويين ، وتثريب ساخر على من زعم منهم الحق في استرداد الملك الضائع ، ولاشك أن هذه الأشعار كانت بمثابة الدعاية الإعلامية المسموعة في عصرنا هذا ، وهي تفعل فعلها في الشد على سواعد الأنصار والرفع من معنوياتهم ، وترسيخ اعتقادهم بما يقاتلون من أجله، وبالمقابل الفت في عضد المناوئين والتشكيك في مبادئهم وأهدافهم وبث الفتنة والفرقة في صفوفهم بما يضمن حدوث التصدع في المعسكر

---

[1] د شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، ج4 ، ص 403 .

[2] المرجع نفسه :ج4 ، ص 375 .

[3] المرجع نفسه : ج4 ، ص375 .

العلوي ، ولا نعجب إذا وجدنا الخليفة جعفر المتوكل يطير فرحا بقصيدة أبي السمط فكافأه بأن << قلده اليمامة والبحرين ، وخلع عليه أربع خلع ... وأمر له بثلاثة آلاف دينار نثرت على رأسه ، وأمر ابنه المنصور وسعدا الإيتاخي أن يلتقطانها له دون أن يلتقط هو منه شيئا إكراما له ، ويقال أنه حشا فمه جوهرا >> [1] .

ومن هنا جاز لنا القول بأن أشعار ابن هانئ كانت تحمل صدى قويا للصراع السياسي على الحكم ، وقد استخدم في هذا الصراع كافة الحجج والبراهين لإقناع وتحميس المؤيدين ودحض مزاعم المعارضين والمناوئين .

ولأبي الصلت مرثية في أم يحي بن علي يقول فيها : [من الطويل] :

تُـضَايِقُنَا الدنيَا وَنَحْـنُ لَهَا نَهْبُ   وَتُوسِـعُنَا حَرْبًا وَنَحـْـنُ لَهَا حَرْبُ

وَمَا وَهَبَتْ إلا اسْتـَرَدتْ هِبَاتِـهَا   وَجَدْوَى اللَيَـالِي إِنْ تَـحَقـَقْتَهَا سَلْبُ

تُؤَمِلُ أَنْ يَصْفُو بِـهَا العَيْشُ ضُلَةً   وَهَيْهَاتَ أَنْ يَصْـفُو لِسَـاكِنِهَا شُـرْبُ

وَلَمْ أَرَ يَـوْمًا مِـثْلَ يَومٍ شَهِدْتُـهُ   وَقَدْ غَابَ حُسْنُ الصبْرِ وَاسْتَحْوَذَ الكَرْبُ

وَمَأْتَمِ شَكْـوًى وَانْتِحَابٍ تَشَابَهَتْ   دُمُوعُ البَـوَاكِي فِيهِ وَالـلُؤْلُـؤُ الرطْبُ

فَلا قَلْـبَ إِلا وَهْـوَ دَامٍ مُفَـجعٌ   وَلا دَمْـعَ إِلا وَهْـوَ مُنْـهَمِلٌ السـكْبِ

وَقَدْ كَسَفَتْ شَمْسُ العُلا وَتَضَاءَلَتْ   لَهَا الشمْسُ حَتى كَادَ مِصْـبَاحُهَا يَخْبُو

مَشَتْ حَوْلَهَا الصيدُ الكِرَامُ كَرَامَةً   إِلَـى أَنْ تَـلَقتْـهَا المَلائِـكُ وَالـرب

فَإِنْ لَمْ تَكُنْ شَمْسُ النهَارِ التِي وَهَتْ   وَهِيلَ عَلَيْهَا الترْبُ فَـهْيَ لَهَا تـِرْبُ

لَهَا كَنَفٌ مِنْ رَحْـمَةِ اللهِ وَاسـِعٌ   وَمَنْـزِلُ صِدْقٍ عِـنْدَ فِرْدَوْسِهِ رَحْـبُ [2]

إن هذه الدنيا ترمينا بالخطوب وسهام المنية في كل حين ، وتعلن حربها الدائمة مرارا ، وربما وهبت لنا بعض ما نسر به من مال وولد ، ولكن سرعان ما تسترده وتسلبه ، أو كما قال لبيد : [من الطويل] :

وَمَا المَالُ وَالأَهْلُونَ إِلا وَدَائِعٌ   وَلابُد يَوْمًا أَنْ تُرَد الوَدَائِعُ [3]

وإنها دائمة التكدير لا يصفو لساكنها شرب ولا يستريح له بال ، فلا يبرأ من هول فجيعة إلا ويفجأ بأفجع منها ، الخوف حاله والموت مآله .

---

[1] د. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، ج4 ، ص 375 .

[2] العماد الأصفهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء المغرب ، تحقيق : لجنة من الأساتذة ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ط2 ، 1972م ، ج1 ، ص263-264 .

[3] لبيد بن أبي ربيعة العامري:ديوان لبيد ، شرح:مفيد محمد قميحة ،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1987م ص88.

والشاعر يصف البلاء الذي حل بالناس يوم قبضت أم الأمير ، فهو يوم مشهود ، غاب حسن الصبر فيه عن الناس واستحوذ الجزع على قلوبهم فمن رائح غاد لا يهتدي سبيلا ، ومن باك لا يستطيع كفكفة دمعه ، ومن نائحة لا تتوقف عن اللطم والندب ، فالكرب عم الجميع ولم يختص بآل علي وحدهم ، وما حزنهم إلا لأن شمس العلا قد كسفت إلى الأبد ، وحتى الشمس استحت من أن يعم ضياؤها والضياء الأسنى قد خبا ، فاحتجبت ولبست هي الأخرى ثوب الحداد ، فما درى الناس كيف يفعلون وقد كانوا بشمسين فأضحوا بلا نور ، ثم ينقل الشاعر السامع من الجو الرثائي العام إلى الجو الرثائي المخصوص بالممدوحين من أسرة آل علي ، ويرى أن أولاد وأحفاد الفقيدة الذين هم أسد الوغى وأنجاد الحرب ومعدن الكرم قد حملوها على النعش ولم يضعوها حتى تسلمتها الملائكة منهم ، فهي في روض ونعيم لا يمسها العذاب ولا يدركها الضنى .

وإن لم تكن الأبيات تحمل نبرة خطابية عالية ،ودلالة سياسية عميقة –كما هو الشأن بالنسبة لمراثي ابن هانئ في النساء الفاطميات- فإن الشاعر يحاول جاهدا إظهار مناقب الفقيدة وتوجيه الثناء للممدوحين ، والحق أنه ما كانت السياسة ولا قصور الأمراء وأموالهم لتغري أبا الصلت حتى يصدح بغرر الشعر في الثناء عليهم ، ونحن لا نلمس في الأبيات حرارة العاطفة وتوهج المشاعر وتدفق الخيال والتأنق في القول كما هو الحال في مراثي ابن هانئ ، لأن الشعر وليد العاطفة الصادقة ، والثناء المؤثر يجب أن يقترن برضا الشاعر عن الأوضاع السياسية والأحوال الاجتماعية والتوجهات الدينية للمرثي وولي عهده وإلا كان الخطاب أجوف لا يكاد يلمس منه المتلقي شيئا .

الفصل الثالث

- الفصل الثالث : صورة المرأة الحبيبة

* المرأة والرحلة
* السير إلى الحبيبة
* جمال الحبيبة

لعلنا لا نجانب الصواب حين نجزم بأن كل ما يقال في هذا الباب يندرج ضمن غرض الغزل [1] الذي فتن به الشاعر منذ القدم ، وإذا مضينا نقلب صفحات الشعر ألفينا الغزل قد خفت بريقه قليلا في فاتحة العهد الإسلامي << فالإسلام قد وضع قيدا جديدا على الباعث الجنسي في البشر... وما كاد الشاعر المسلم يبدأ بإلقاء الأسلوب الإسلامي على المعاني الجاهلية ويخرج بأدب جديد يستهوي النفوس ، حتى قام الإسلام نفسه فمنع هذا الغزل الذي يصرف المسلمين عن الاطمئنان في الحياة ويتناول الأعراض بذكر لا يليق في العرف الاجتماعي ، ولقد فعل الإسلام ذلك خشية أن تستيقظ حمية الجاهلية من جديد >> [2]
وتبعا لذلك ، فقد تجنب الشعراء بداية ذكر المرأة والتغزل بها ، و الظروف لم تكن تسمح

---

[1] **الغزل** : لغة : حديث الفتيان و الفتيات ، والغزل أيضا : اللهو مع النساء ، ومغازلتهن : محادثتهن و مراودتهن ، ورجل غزل : متغزل بالنساء على النسب ، والعرب تقول : أغزل من الحمى ، يريدون أنها معتادة للعليل متكررة عليه فكأنها عاشقة له متغزلة بهع .

- ابن منظور : لسان العرب ، ج10 ، ص61 .

و النسيب : التشبيب ، يقال : نسب بالنساء : شبب بهن في الشعر وتغزل ، والنسيب : رقيق الشعر في النساء .

- المصدر نفسه : ج14 ، ص112 .

ويرى ابن سلام أن الغزل والنسيب واحد ، يقول : << كان لكثير في التشبيب نصيب وافر ، وجميل مقدم في عليه في النسيب >> . ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ، ص184 .

ولكن التبريزي يحاول أن يفرق بينهما فيقول : << النسيب ذكر الشاعر المرأة بالحسن و الإخبار عن تصرف هواها به ، وليس هو الغزل ، وإنما الغزل الاشتهار بمودات النساء و الصبوة إليهن ، والنسيب ذكر ذلك والخبر عنه >> .

- التبريزي : شرح ديوان الحماسة ، ص154 .

وهناك من يفرق بين النسيب والتشبيب ، فعبد اللطيف البغدادي يقول : << أن التشبيب هو ذكر صفات المرأة المحبوبة ، وأما النسيب فهو ذكر عاطفة الشاعر المحب ، فنحن هنا أمام صفتين متقابلتين : إذا عالج الشاعر شعوره هو نحو المرأة فإنما هو ينسب بها ، وأما إذا وصف المرأة كما هي فإنما هو يشبب بها >>.

- د. عمر فروخ : عمر بن أبي ربيعة المخزومي ، وفصل في تطور الغزل والنسيب في الشعر العربي ، دار لبنان ، بيروت ، لبنان ، 1403هـ/1983م ، ص19 .

و يضيف د. عمر فروخ : << والمهم أن كثيرا من النقاد القدماء ، والمؤلفين المتأخرين ومن المعاصرين لنا قد آثروا أن يتجنبوا عناء التمييز بينهما >>.

- المرجع نفسه : ص18 .

[2] المرجع نفسه : ص36 .

باللهو و مظاهر الحياة المترفة ، فطبول الحرب تقرع في كل حين ، وكان الرجل يفني معظم وقته مجاهدا أو عاملا وفق ما جرته الحياة الجديدة من تغيرات .

وحتى في عهد الخلفاء الراشدين نرى تحرزا ونفورا من الشعراء حيال البوح بمشاعرهم اتجاه المرأة نظرا لتوعد الخلفاء من ينهش الأعراض بالعقوبة ، وسبق أن توعد الخليفة عمر بن الخطاب الشعراء إن هم شببوا بالنساء ، ولذلك نرى الشاعر فضالة بن شريك لا يجيب محبوبته حين تدعوه للتشبيب بها ويقول :[من الكامل] :

قَالَتْ :هَلُمَ إلى الحَدِيثِ، فَقُلْتُ: لا   يَأْبى عَلَي اللهُ وَالإِسْلاَمُ [1]

على أن الغزل العفيف لم يكن منكرا كل هذا الإنكار ، على الأقل في النفس السجية المطمئنة << فهم إذا وصفوا محاسن النساء لم يزيدوا على الأوصاف الطبيعية التي تقع عليها العين ، إذ كن غير مقصورات ولا محجوبات ، وإنما تجيء طهارة الغزل من اعتبار الحسن اعتبارا طبيعيا كالذي تعرفه النفس من جمال الشمس والقمر ، وخضرة الرياض ، وأريج الأزهار ، ونحو ذلك ، وأظن أن إجماع الناس كافة – على اختلاف أممهم – في تشبيه الحسن النسائي بتلك المعاني إنما جاءهم من ذلك الاعتبار ، لأنه فيهم إرث الطهارة الطبيعية من لدن الإنسان الأول ، ولذلك السبب عينه لم تكن تأنف العربية أن توصف محاسنها ، لأن الحسناء فيهم صفة نفسها ، وإنما كان الشأن في ريبة النظر ودنس الفؤاد ، وذلك الذي كان يستطير له الشر بينهم وتعقد عليه الغارات ، فهو غزل الأسنة لا غزل الألسنة >> [2] .

ويرى شوقي ضيف أن الغزل الجديد في العصر الأموي لم يبق أسيرا لأطلال الجاهليين ودمنهم البالية ، بل هو غزل [3] يعبر عن الحياة الاجتماعية الجديدة التي فرضت رونقا وأبهة ، وقد أصبح يصور << أحاسيس الحب التي سكبها المجتمع الجديد في نفوس

---

[1] د عمر فروخ : عمر بن أبي ربيعة ، ص37 .

[2] الرافعي : تاريخ آداب العرب ، ج3 ، ص86 .

[3] يقسم د. طه حسين الغزل ثلاثة أقسام ، يقول : << أذكر أني عرضت في السنة الماضية للغزل أيام بني أمية ، فقسمته ثلاثة أقسام مختلفة : الأول غزل العذريين الذين كانوا يتغنون في شعرهم هذا الحب الأفلاطوني العنيف كجميل وعروة وقيس بن ذريح والمجنون ، والثاني غزل الإباحيين الذين أسميهم " المحققين " وهم الذين كانوا يتغنون الحب ولذاته العملية كما يفهمها الناس جميعا وزعيم هؤلاء عمر بن أبي ربيعة ، والثالث الغزل العادي الذي ليس في حقيقة الأمر إلا استمرارا للغزل القديم المألوف أيام الجاهليين >>.

– طه حسين : حديث الأربعاء ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 1975م ، ص187 .

الشعراء ، وهو مجتمع ظهرت فيه المرأة العربية بغير قليل من الحرية ، فكانت تلقى الرجال وتحادثهم ، وكانت – شأن المرأة في كل عصر تعجب بمن يصف جمالها وتعلق القلوب بها ، وينبغي أن نفرق بين الحرية والإباحية ، ففي الأولى يبقى للمرأة وقارها وعفافها ، وفي الثانية تصبح ممتهنة تقبل على اللهو والعبث والمجون لا يردها وقار ولا حشمة ولا خلق >> [1] .

و الإنسان قديما لحظ المرأة وفتن بها ، رآها في مورد الماء ، وعلى الهودج تزف إلى زوجها ، وفي الحرب حاثة ومستنفرة قومها للقتال ، و<< لم تكن المرأة من أهم البواعث التي أذكت مشاعر الشعراء فحسب ، بل كانت العماد الذي يقوم عليه هذا الفن الشعري (الغزل) ، ولا غرو في ذلك ، فالمرأة سكن الرجل وتمام عيشه ، فليس عجيبا أن نراها قد شغلت الشعراء... فطالما تحدثوا عنها ، وراحوا يترجمون مشاعرهم نحوها ، وعواطفهم وأهواءهم حيالها ، ليشفوا غلة أكبادهم ، وحرقة قلوبهم ، لأن الميل إلى المرأة والتعلق بها غريزة فطرية مركوزة في الإنسان>> [2] .

أو كما عبر ابن قتيبة عن ذلك بقوله : << التشبيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب ، لما قد جعل ا في تركيب العباد من محبة الغزل ، وإلف النساء ، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقا منه بسبب ، وضاربا فيه بسهم ، حلال أو حرام >> [3] .

ولم تلبث المرأة أن احتلت مكانة خاصة في قلب الرجل ، وقد نظم فيها الشاعر مقطوعات وقصائد ليعبر عن حبه لها ، إنه سلطان الحب الذي هجم على البشر فلم يستطيعوا رد غارته ، وجثم على صدورهم فلم يجدوا حيلة أو خلاصا << فقد شغل الناس بالحب منذ القدم ، وصور الشعراء جحيمه ونعيمه مذ كان الشعر ... ، والحب لا يختص بسهامه قبيلا دون قبيل ، بل يصهر بحرارته الملك المتوج كما يصهر راعي الإبل ، وينسل إلى قلب العبقري كما ينسل إلى قلب الرجل العادي ، ويقتحم على السياسي والقائد والثري ، كما يقتحم على المملق والفارغ والجندي ، فالحياة كلها ميدانه ، والناس كلهم فرسانه ،

---

[1] د. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، ج2 ، ص348 .

[2] د حسن عبد الرحمن سليم : فن الغزل في الشعر المملوكي ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، مصر ، 2007م ، ص34 .

[3] ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ج1 ، ص75 .

فلا حرم يتحصن منه ، ولا طائفة من الناس تختص به ، يغزو بسلطانه الرجال والنساء ، والفتيان والفتيات بله بعض الطير والحيوان >>[1] .

إن وجود المرأة هو الذي أفضى إلى الجمال النفسي والمتعة العاطفية التي تجتاح كيان الرجل بصفة عامة ، والشاعر الأقدر على ترجمتها بصفة خاصة ، ومن هنا << فلا شك في أن العاطفة الأولى التي عبر الإنسان عنها بلسانه كانت شعوره نحو المرأة ، ولعل المستشرق الألماني ولهلم ألورت" wilhelm ahlwardt " لم يبالغ كثيرا حينما قال : إنه لولا المرأة والحب لما كان ثمة شعر >> [2] .

وقد عبر الشاعر المغربي ككل الشعراء في الأرض عن إحساسه اتجاه المرأة ، وإن كانت الظروف السياسية غير المستقرة في القرنين الأول والثاني للهجرة قد غيبت ذكر المرأة عن لسان الشعراء وأتاحت لشعر الحرب بسط سيطرته على الساحة الأدبية المغربية ، فإنه ما إن استتب الأمن وعم الاستقرار حتى التفت المغاربة لغرض الغزل ينظمون فيه ، مبدعين نصوصا غزلية رائعة ضاهت في بيانها ورونقها أشعار الغزليين الكبار في المشرق ، وإن كنا لا ننكر التأثير الواضح لشعر عمر بن أبي ربيعة والأحوص في معاني أشعار المغاربة .

وسنحاول الإلمام ببعض التجارب الشعرية الغزلية لنفر من الشعراء المغاربة علّنا نجتلي بعض ملامح المرأة الحبيبة والتي ظلت عصية أو مهملة من طرف الدارسين للتراث الشعري المغربي .

---

[1] د. أحمد محمد الحوفي : الغزل في العصر الجاهلي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، مصر، ط3 ، 1972م ، ص127.

[2] د . عمر فروخ : عمر بن أبي ربيعة ، ص17-18 .

- المرأة والرحلة :

لقد كان ابن هانئ في غرر مدائحه المعزية يعرض صورة نمطية للمرأة ، فيفتتح قصائده بمطالع غزلية كالتي نجدها عند الجاهليين ، فهو ينحو نحوهم ويتمثل خطاهم ، يقول واصفا المرأة من قصيدة له : [من الطويل]:

أَقُولُ دُمًى،وَهِيَ الحِسَانُ الرعَابِيبُ وَمِنْ دُون أَسْتَار القِبَابِ مَحَارِيبُ [1]

نَــوًى أَبْعَـــدَتْ طَائِيةً وَمــَزَارَهَا أَلا كُل طَائِيِ إِلى القَلْبِ مَحْبُوبُ [2]

سَلُوا طَيِءَ الأَجْبَال : أَينَ خِيَامُهَا ؟ وَمَا أَجَــأُ إِلا حِصَـانٌ وَيَعْبُوبُ [3]

هُمُ جَنَبُوا ذَا القَلْبَ طَوْعَ قِيَادِهِمْ وَقَدْ يَشْهَدُ الطرْفُ الوَغَى،وَهْوَ مَجْنُوبُ [4]

وَهُمْ جَاوَزُوا طَلْحَ الشوَاجِن وَالغضَا تَخِب بِهِمْ جُرْدُ اللقَاءِ السرَاحِيبُ [5]

قِبَابٌ وَأَحْبَابٌ ، وَجُلْهَمَةُ الــعِدَى وَخَيْلٌ عِرَابٌ ، فَوْقَهُن أَعَــارِيبُ [6]

يصور الشاعر لنا نساء البادية ، فمن ينظر إليهن يخالهن دمى أو صورا منقوشة فيها حمرة كالدم ، غير أنهن لسن في متناول العاشق الصب لأنه قد ضرب على هوادجهن حراسة شديدة كُلف بها أبطال شجعان يفتكون بكل مغامر أو طامع في وصالهن .

ولعل صورة المرأة المحبوبة التي يحرسها ويحيط بها الجند قديمة ، وهي أيضا ليست من خيال الشاعر ، وإنما كانت حقيقة ، فحظايا ونساء الأمراء والأعيان كن في حفظ وصون من أعين المتطلعين ، والمرأة منهن حين تزف إلى بيت زوجها أو تذهب إلى بيت ا الحرام حاجة يؤمن لها الطريق عبر موكب يحيط به الجند حتى تصل إلى المكان المقصود ، وقد كان بعض المتجرئين من الشعراء يتقصون أخبارها ويتتبعون مسار رحلتها آملين لقاءها أو اختلاس النظر إليها - على الأقل - فهي شريفة متمنعة صعبة المنال.

---

[1] الدمى : الواحدة دمية : الصورة المنقوشة فيها حمرة كالدمى ، وقد تكون من الرخام . الرعابيب : الواحدة رعبوبة : الجارية الناعمة الحسناء . المحاريب : الواحد محراب : الشجاع المحارب .

[2] النوى : البعد . طائية : نسبة إلى طيء من بلاد المشرق العربي .

[3] أجأ : أحد جبال طيء الثلاثة ، الحصان : الفرس العتيق . اليعبوب : الفرس الكثير الجري .

[4] جنبه : قاده إلى جنبه .

[5] الطلح : شجر . الشواجن : الواحدة : شاجنة : الوادي يكثر شجره وينبت نباتا حسنا . تخب : تجري بسرعة . السراحيب : مفردها سرحوب : وهي الفرس الطويلة الحسنة الجسم .

[6] الجلهمة : حافة الوادي . العراب : الكريمة .

- ابن هانئ الأندلسي : ديوان ابن هانئ الأندلسي: ص 41 .

وقد برزت هذه الحال أكثر مع مجيء الإسلام ، وما فرضه على المرأة من الحج بالإضافة إلى كثرة تنقلها بين المدن نظرا لعدم استقرار الأوضاع السياسية حيث كانت الحروب تستعر وخيل الأعداء تطأ كل أرض وتغزو كل موضع ، فلا أمان لنساء الأمراء والأشراف إلا بالارتحال الدائم إلى مناطق أكثر أمنا ريثما تستقر الأحوال وتهدأ .

ولابد أن شعراء المغرب تأثروا بنظرائهم في المشرق ، وقد كان نفر منهم يتتبعون خطى الكريمات ويتسقطون أخبارهن رغم توعد الولاة والخلفاء إياهم بالويل والعقوبة ، وقد كان عمر بن أبي ربيعة يحجم عن التشبيب بفاطمة بنت عبد الملك بن مروان بعد أن توعده الحجاج الثقفي [(1)] وكذلك كان حال الشاعر النميري [(2)] الذي شبب بزينب بنت يوسف أخت الحجاج الثقفي ، وكان الحجاج يقول : << لولا أن يقول قائل صدق لقطعت لسانه >>[(3)] ، وقد حث في طلبه فهرب النميري إلى اليمن ، وقال في ذلك : [من الطويل]:

أَتَتْنِـي عَـن الحَجاجِ وَالبَحْرُ بَيْنَنَا ⁂ عَقَارِبُ تَسْرِي وَالعُيُونُ هَوَاجِعُ

وَضِـقْتُ بِـهَا ذَرْعًا وَأَجْهَشْتُ خِيفَةً ⁂ وَلَمْ آمَنِ الحَجاجَ وَالأَمْرُ قَاطِـعُ

وَمَا آمَنَتْ نَفْسِي الذِي خِفْتُ شَرَهُ ⁂ وَلاَ طَابَ لِي مِما خَشِيتُ المَضَاجِعُ [(4)]

ولابد أن النساء كن يتأثرن بذلك المديح والغزل ، ويستمتعن بملاحقة الرجل لهن وشغفه بهن ، وكان ابن جريج يتوجس من شعر عمر بن أبي ربيعة ويقول: << ما دخل على العواتق في حجالهن شيء أضر عليهن من شعر عمر بن أبي ربيعة >> [(5)] .

هذه المغامرات كان ينقلها الرواة ويتحدث بها الركبان ، وقد وصلت مسامع شعراء المغرب من أمثال ابن هانئ لكنهم لم يجرؤوا على مجاراة المشرقيين في هذا الفن حديثا أو ممارسة ، ويمكن القول إن علة ذلك هو طبيعة المجتمع المغربي المحافظ زيادة على أن حركة المغربيات نحو الشرق كانت قليلة لبعد المسافة ، وأغلب نساء الإمارة كن من

[(1)] إحسان النص : اختيارات من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، ج4 ، ص 279

[(2)] **النميري** : محمد بن عبد ا بن نمير ... الثقفي ، شاعر غزل مولده ومنشؤه بالطائف ، من شعراء الدولة الأموية ، وكان يهوى زينب بنت يوسف بن الحكم أخت الحجاج الثقفي ، وله فيها أشعار كثيرة .

- المرجع نفسه : ج4 ، ص 367 .

[(3)] المرجع نفسه : ج4 ، ص 372 .

[(4)] المرجع نفسه : ج4 ، ص 372 .

[(5)] المرجع نفسه : ج4 ، ص 242 .

قبائل البربر المحافظة والتي يطبع رجالها جفاء شديد وتوجس كبير ، فمن يجرؤ على التشبيب بنسائهم ، وحتى من يغامر فسيجد سيوفا مشرعة تلاحقه أينما فر .

و دفع هذا الكبت النفسي للشعراء إلى نظم أشعار تحكي قصصا من نسج الخيال – كما هي أبيات ابن هانئ هذه – يصورون فيها جرأتهم وتسقطهم لأخبار نساء القصر وتتبعهن لهوادجهن أينما حللن أو ارتحلن ، فالشاعر كان إذا فشل في تحقيق هذا الأمر على أرض الواقع لجأ إلى الخيال والحلم الشعري يعوض به ما فاته أولا ، وعلى الرغم من أن ابن هانئ يورد أبياتا على هذا النحو إلا أنها للتقليد والمحاكاة أقرب من كشف المعاناة النفسية التي يكابدها ، ولم يعرف عنه أنه كان ميالا للنساء ومجتهدا في البحث عنهن وساعيا لوصالهن ، وبالتالي يمكن القول أن مثل هذه الأشعار يأتي بها الشاعر ليثبت فحولته الشعرية فقط ، أي أنه قادر على النظم في جميع المواضيع والأغراض التي نظم فيها القدماء وليس هو بصدد نقل معاناته مع هذا الكبت وهذه الموانع التي تمنعه من تحقيق هدفه في وصال النساء ، لذا << فالشعر كان هو الوجود الحقيقي في حياته ، ولم تكن المرأة – كوجود – لتعنيه إلا بمقدار >>[1] .

ثم يذكر ابن هانئ حبه لعشيقته الطائية ، وقد بلغ من هيامه بها أنه أصبح يحب كل طائي يصادفه أو يمر به لأنه يذكره بها وهي بعيدة عنه ، فهو في أقاصي الغرب وهي في دنى الشرق ، وإذا كانت المصادر التاريخية والأدبية لم تحدثنا عن ذهابه للشرق جاز لنا القول أنه كان يتوهم صفات هذه المرأة الطائية ، وربما سمع من الركب العائدين من الحجاز جمال النساء الطائيات فتحدث عنهن على سبيل التمثيل فقط وإظهار البراعة الشعرية التي يحاول بعضهم إنكارها فيه ونفيها عنه .

ثم إن حديث الشاعر عن محبوبته وإشارته لها بقوله " طائية " دون ذكر اسمها قضية فيها نظر، فنحن نلاحظ شعراء العصرين الجاهلي والأموي يصرحون بذكر محبوباتهن ، وعلمنا نحن من أشعارهم أسماء الكثيرات منهن : كأسماء ، وفاطمة ، وعنيزة ، وخولة و مية ... وعلى الرغم من أن المرأة التي أحبها الجاهلي كانت في الغالب ابنة عمه أو ابنة العشيرة القربى إلا أنه لم يكن يخشى على نفسه من حفيظة أهلها أو انقلابهم عليه والفتك

---

[1] د. عبده بدوي : دراسات في النص الشعري ، عصر صدر الإسلام وبني أمية ، دار قباء ، القاهرة ، مصر ، 2000م ، ص 228 .

به ، ذلك أنه قادر على حماية نفسه بقائم سيفه وسنان رمحه ، ثم إنه كان صادقا في حبه لأنه لم يرتحل كثيرا ولم ير في الدنيا غير بنت العشيرة فهي غاية المنى والجمال الأسمى والدافع الذي يزيده رغبة في مقارعة الأبطال كيما يحصل عليها ويفوز بها في النهاية .

ولكن هذه الصراحة في الحب والشجاعة في العشق والمجاهرة بحب المرأة تختفي كليا في العصر العباسي ، ليكتفي الشاعر بنسبتها إلى موطنها فيقول : حجازية ، سوسية ، بصرية ، طائية ... والسبب في هذا التستر هو الضعف الذي أصاب النفوس ، فالشاعر البدوي الذي يسري وحده في الصحراء الموحشة والقفار الخالية يقطعها على ظهر الجواد لابسا خشن الثياب وحاملا رمحه وسيفه ، معترضا سبيل القوافل والركب بالسلب والنهب أو متعرضا لخطر السباع وفتك اللصوص والسراق بكل شجاعة وإقدام كان يستشعر في نفسه أحقيته بتلك المرأة وليس كالحضري الذي يلبس الحرير وينخلع قلبه من أهون الأمور وأقلها خطرا فهو يخشى دائما إن شبب بامرأة ما وذكر اسمها صراحة انتقام أهلها وهو لا يحسن الدفاع عن نفسه .

هذا بالإضافة إلى أنه أصبح يرتحل ويحل بكل الأوطان ويرمق جميع النساء فأصبحت مفاضلته ليست بين نساء العشيرة كما كان عند الأقدمين ، وإنما أضحت بين مختلف الأجناس أي بين العربيات أو الروميات أو الفارسيات ... وفي أقل تقدير كانت بين الحجازيات والنجديات واليمنيات من بنات العرب ، وقد ضرب الشاعر عصفورين بحجر واحد ، أولهما أنه أعطى لحبه بعدا إنسانيا لامتداده جغرافيا ، وثانيهما أنه تخلص من هاجس الملاحقة والمساءلة التي كانت تداهم كل من يتغزل بابنة أحد الأشراف .

ثم يتحسر ابن هانئ على عجزه عن لقائها لأن " أجأ " وهو أحد جبال طيء مملوء بالخيل التي تحول بينه وبين محبوبته ، ويشبه قلبه المحترق بحبها بالفرس المجنوب الذي يطيع راكبه ، فقد أصبح طوع بنان المحبوبة ورجلاه تقودانه من حيث لا يشعر إلى موضع المحبوبة أينما ترحل يرحل معها مع علمه باستحالة لقائها والظفر بها .

ولاشك أن الشاعر لا يقر له قرار ، ولا يهنأ له بال ، ولا يزول عنه العناء ، ذلك أن خيامهم لا تكاد تضرب بأرض حتى تمسي بأخرى وكذلك جيادهم فلا تعقل بوتد موضع إلا وتشد بموضع آخر ، فالقافلة التي تحملها سريعة التنقل بفضل النوق الناجية والجياد السراحيب ، وحيثما حلوا ترى الجمال العربي يملأ ذلك المكان ولكن هيهات أن تظفر به والخيل تحف به ، والأعراب الغلاظ الشداد يحرسونه من كل متطفل أو متطلع .

وإذًا فمنزلة الرجل انحطت بالقياس إلى عهود مضت ، حيث كان بمقدوره الظفر بالمرأة التي يريدها حتى ولو كانت كارهة ، فالجاهلي كان يغير على الآخرين ويفرد من يشاء من نسائهم وهو يرى أنه أحق بهذه المرأة التي أفردها عن حليلها لأنه قادر على حمايتها ، فلو كان زوجها كفؤا وأهلا للملمات لاستطاع حماية الضعينة من معرة السبي ، لنستمع إلى مجمع بن هلال [1] وقد سبى امرأة في موقعة من الوقائع : [من الطويل]:

وَعَاثِرَةٍ يَوْمَ الهُيَيْمَى رَأَيْتُهَا ... وَقَدْ ضَمهَا مِنْ دَاخِلِ القَلْبِ مَفْزَعُ [2]

لَهَا غَلَلٌ فِي الصدْرِ لَيْسَ بِبَارِحٍ ... شَجًى نَشَبٌ وَالعَيْنُ بِالمَاءِ تَدْمَعُ [3]

تَقُولُ وَقَدْ أَفْرَدْتُهَا مِنْ حَلِيلِهَا ... تَعِسْتَ كَمَا أَتْعَسْتَنِي يَا مُجَمِّعُ

فَقُلْتُ لَهَا بَلْ تَعْسَ أُم مُجَاشِعٍ ... وَقَوْمُكِ حَتى خَدكِ اليَوْمَ أَضْرَعُ [4]

إننا نرى المعنى هنا على طرفي نقيض ، حيث يأسف على ما حل بهذه المرأة وكان هو نفسه السبب في الحزن الذي لا يفارقها والغصة التي تكاد تذهب بمهجتها ...

ولا يكتفي الشاعر بتصوير الأحوال النفسية التي تختلجها فتستحيل إلى غصة وغلل في الصدر ، فيتبع وصفه مظهرا علامات حزنها البادية وهي الدموع التي تنهمر من العين وتجري على الخد ، إنها صورة خليقة بأن تجسد على لوحة فنية بريشة رسام ماهر .

لكن وصف " مجمع " للحالة المزرية التي آلت إليها هذه المرأة عقب هجومه على أهلها ليس من باب الشفقة أو الندم على ما فعله ، وإنما من باب تأكيد سطوة الغالب وقهره للمغلوب ، حتى أنه ليعلم أن أكثر ما يحز في نفس السبية هو إفرادها من حليلها وذلك

---

[1] **مجمع بن هلال** : مجمع بن هلال بن خالد ، من بني تيم بن ثعلبة ، من بكر وائل ، شاعر فارس جاهلي ، أغار على بعض بني مجاشع في أرض تسمى " اللهيماء " فقتل وأسر وغنم ، وله في ذلك شعر ، وهو من المعمرين .
- الزركلي : الأعلام ، ج5 ، ص280 .

[2] الهييمى : اسم اليوم الذي أسرت فيه هذه المرأة . عاثرة : سيئة الحظ عثر بها حظها . مفزع : مصدر ميمي من فزع ، يفزع .

[3] الغلة : بضم العين ، والغلل : بفتحتين : شدة العطش وحرارة الجوف . الشجى : الحزن . نشب : نشب الشيء في الشيء: علق به ، أي أن الحزن قد علق بصدرها لا يبارحه .

[4] يقول لها : بل تعس قومك بنو مجاشع وتعست الأم التي ولدتهم ، لأنهم ضيعوك وتركوك سبية ذليلة .
- د . محمد محمد حسين : الهجاء والهجاؤون في الجاهلية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، ط3 ، 1976 م ، ص 78 .

يبدو في قولها له " تعست !" ولكنه يؤكد لها أن تعاستها كانت في قومها الذين عجزوا عن حمايتها .

وعلى عكس هذه الصورة المهيبة للرجل في العصرين الجاهلي والأموي ، نجد صورة ذليلة للشاعر العباسي ، حيث تستعر نيران الوجد والعشق بين جوانحه ولا يستطيع حتى البوح بها والتعبير عنها ، وهو يتذلل للحبيبة علها تسعفه بنظره أو بسمة عابرة ، وقد يبلغ به الأمر أن يعتل ويلازم فراش المرض لأنه عاجز عن وصالها ، وهذا ما نلمسه في أبيات العباس بن الأحنف حين يقول : [من الطويل]:

خُذُوا لِي مِنْهَا جُرْعَةً فِي زُجَاجَةٍ ... أَلاَ إِنـهَا لـوْ تـَعْلَمُـونَ طَبِـيبِي

وَسِيرُوا ،فَإِنْ أَدْرَكْتُمُ بِي حُشَاشَةً ... لَهَا فِي نَوَاحِي الصدْرِ وَجْسَ دَبِيبِ

فَرُشوا عَلَى وَجْهِي أُفِقْ مِنْ بَلِيتِي ... يُثِيبُـكُمْ ذُو العَـرْشِ خَـيْرَ مُثِيـبِ

وَإِنْ كُنْتُمُ جِئْتُمْ وَقَـدْ حِيلَ بَيْـنَكُمْ ... وَبَيْـنِي بِيَـوْمٍ لِلْمَنـُون عَصِـيبِ

وَصِـرْتُ مِنَ الدنْيَا إِلَى قَعْرِ حُفْرَةٍ ... حَلِيـفَ صَفِـيحٍ مُطْبَـقٍ وَكَـثِيـبِ

فَرُشوا عَلَى قَبْرِي مِنَ المَاءِ وَانْدُبُوا ... قـَتِيلَ كَعَابٍ لاَ قـَتِيـلَ حُـرُوبِ (1)

فهو قد << أخذ يكثر من شكواه وتضرعه مصورا سهاده وما دلعته من نيران العشق في قلبه ، وغدا مستهاما بها يحبها كل الحب ويفتن بها كل الفتون ، حتى لكأنها غدت ليلى وغدا المجنون ، فهو دائما يصف صبابته بها ووجده وجدا لم يجده أحد ، وجدا يتعمقه حتى ليصطلي بناره المحرقة ، وقد مضى يصور ذلك لا في قصيدة أو في قصائد معدودة وإنما في ديوان رائع ، تجد فيه النفوس غذاء روحيا رائعا ، لأنه يرتفع عن الحس والمادة ارتفاع الشعر العذري الأموي ، بما يصف من حب لا يخمد أواره >>(2) .

ومهما يكن فنحن نشهد هذا التذلل وهذا الضعف في مواجهة النساء، وفي وهن القدرة على الصمود أمام الجمال الأخاذ وسحر العيون وتمام القدود ، والشاعر نفسه يعترف بهذا الضعف في عجز البيت الأخير فيرى أنه " قتيل كعاب لا قتيل حروب " كما كان يجب أن يكون وكما كانت خاتمة الشجعان في ميادين القتال .

وإذًا فنحن نفسر هذا التذلل الذي يبدو في أبيات ابن هانئ المغربي على أنه محصلة للظروف الاجتماعية والسياسية التي نتجت ببروز نظام الدولة والأجناد ، فالاحتكام أصبح

---

(1) العباس بن الأحنف : ديوان العباس بن الأحنف ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، 1996م ، ص34.

(2) د. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، ج3 ،ص 377 .

للقضاة في دور القضاء وليس للسيوف في ساحة القتال للظفر بالحاجة ،فكأنما أصبح الشاعر يحن إلى الأيام التي كان فيها الإنسان حرا لا حدود لسطوته يظفر بالمرأة التي يريد دون خوف من عقاب أحد أو حساب محاسب .

ويبدو ابن هانئ متأثرا كل التأثر بأبي الطيب المتنبي ، ولهذا الأخير قصيدة شهيرة افتتحها بغزل رائع وقد كان الروي حرف الباء يقول فيها: [من البسيط]:

مَن الجَآذِرُ فِي زِي الأَعَارِيــبِ   حُمْرِ الحِلى وَالمَــطَايَا وَالجَلابِيبِ[1]

إِنْ كـُـنْتَ تَسْأَلُ شَكًّا فِي مَعَارِفِهَا   فَــمَنْ بَــلاكَ بِتَسْهِــيدٍ وَتَعْــذِيبِ[2]

سَوَائِــرٌ رُبمَا سَــارَتْ هَوَادِجُــهَا   مَـنِيعَةً بَيْنَ مَطْعُونٍ وَمضْــرُوبِ [3]

وَرُبمَا وَخَدَتْ أَيْدِي المَــطِي بِــهَا   عَلى نَجِيعٍ مِنَ الفُرْسَان مَصْبُوبِ [4]

فُؤَادُ كـُـل مُحِـب فِي بُـيُوتِــهِمُ   وَمَالُ كُل أَخِيذِ المَــال مَحـْرُوبِ [5]

وقد طارت لهذه القصيدة شهرة واسعة جعلت شعراء المغرب ينظمون على إيقاعها ومنهم ابن هانئ الذي كان يتتبع شعر المتنبي ويستحضر معانيه في كل الأوقات ، لكن يمكن القول أن المعاني تظل مشتركة بين الشعراء كما يقول الجاحظ : << والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي ، و البدوي و القروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ وسهولة المخرج >>[6] .

---

[1] من : استفهام ، وهي خبر مقدم ما بعدها ، والجآذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية تشبه بها النساء لحسن عيونها . والأعاريب : جمع أعراب وهم سكان البادية . والمطايا جمع مطية وهي الركوبة ، والجلابيب : جمع جلباب : وهو الملحفة تلبسها المراة فوق ثيابها .

يقول : من هؤلاء النساء الشبيهات بالجآذر وهن في زي الأعراب وحمرة الحلى كناية عن كونها ذهبا والنياق الحمر أكرم النياق عند العرب ، والحمرة لون ملابس الأشراف عندهم ، يعني أنهن من نساء الملوك .

[2] يخاطب نفسه فيقول : إن كنت تسأل عنهن لشك عرض لك في معرفتهن فمن ابتلاك بالسهر والعذاب، أي هن سهدنك وعذبنك حين تيمنك بحبهن فكيف لا تعرفهن .

[3] أي أنهن في منعة من قومهن فمن عرض لهن طعن أو ضرب فسارت هوادجهن بين القتلى .

[4] وخذت : عدت . والمطي : جمع مطية وهي الركوبة . والنجيع : الدم .والبيت من قبيل الذي سبقه .

[5] أخيذ : بمعنى مأخوذ .والمحروب : الذي أخذ جميع ماله . يعني أن عندهم الجمال والشجاعة فنساؤه ينهبن القلوب ورجالهن ينهبون الأموال .

- أبو الطيب المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، ج2 ، ص 306-307 .

[6] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : الحيوان ، شرح وتحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط3 ، 1388هـ/1969م ، ج3 ، ص131 .

ونحن نلاحظ أن ألفاظ المتنبي أكثر طلاوة وحلاوة ليس فيها الغريب ولا الوحشي أما ألفاظ ابن هانئ فهي ذات جلبة تصلح لوصف المشاهد الحربية لا لوصف المرأة الرقيقة كألفاظ محاريب ، يعبوب ، السراحيب ، الشواجن ، جرد ، جلهمة ...

وبذلك نرى أن تخير اللفظ له وزنه وأثره في القصيدة وبالتالي الحكم لها أو عليها بالجودة أو الضعف ، ويمكن القول إن جمعا من الشعراء القدامى لم يلتفتوا للفظ حين يكونون بصدد نقل تجاربهم الشعرية وهو ما عرضهم لسهام النقاد كثيرا ، ونستطيع أن نسوق مثالا لذلك من قول الشاعر يصف فتاة باكية حزينة : [من البسيط] :

فَأَمْطَرَتْ لُؤْلُؤًا مِنْ نَرْجَسٍ ، وَسَقَتْ وَرْدًا ، وَعَضتْ عَلَى العُنابِ بِالبَرَدِ

<< فجعل اللؤلؤ موازيا للدموع ، والنرجس مقابلا للعين ، والورد للخدود ، أما العناب فلأطراف الأصابع ، وأما البرد فللأسنان ، وأعتقد أن كل ذواقة يحس بما يمكن أن تثيره هذه الصورة في النفس من ألوان المشاعر لا يمكن بحال من الأحوال أن يحس بإحساس تلك الفتاة المسكينة الحزينة الباكية النادمة ، فالمطر واللؤلؤ والنرجس والورد والعناب والبرد – وهي جميعا العناصر التي تكونت منها الصورة – لا يمكن أن تكون أداة لنقل مشاعر الحزن والندم ، بل لعلها تثير في النفس مشاعر البهجة والارتياح ، أي المشاعر المضادة >> [1]

ومن هنا أمكننا القول بأن ابن هانئ لم يكن موفقا في اختيار ألفاظ الغزل ،والتي جاءت غريبة ثقيلة بدل أن تكون رقيقة هادئة كرقة وهدوء الحبيبة .

---

[1] د. عز الدين إسماعيل : الأدب وفنونه ، دراسة ونقد، دار الفكر العربي ، القاهرة ، مصر، ط8 ، 1425هـ /2004م ، ص81 .

- السير إلى الحبيبة :

وله قصيدة مفردة يصور فيها مسراه إلى محبوبته والخطر الذي أحدق به ، يقول منها : [من الطويل]:

طَرَقْتُ فَتَاةَ الحَي إِذْ نَامَ أَهْلُـهَا وَقَدْ قَامَ لَيْـلُ العَاشِقِينَ عَلَـى قَـدَمْ

فَقَالَتْ : أَحَقًّا كُلمَا جِئْتَ طَـارِقًا هَتَكْتَ حِجَابَ المَجْدِ عَنْ ظَبْيَةِ الحَرَمْ

فَسَكَنْتُ مِنْ إِرْعَادِهَا وَهْيَ هَوْنَةٌ ضَعِيفَةُ طَي الخَصْرِ، فِي لحْظِهَا سَقَمْ

فَبِت أُدَارِي النفْسَ عَما يُرِيبُـهَا وَنَـامَ القَطَا مِنْ طُول لَيْلي وَلَمْ أَنَـمْ

أُنَازِعُهَا بِاللَّـحْظِ سِـرا كَأَنـمَا تَعَلـمَ مِنْهَا اللَّـحْظُ مَا نَسِـيَ القَلَمْ

وَقَدْ أَحْكَمَ الغَيْرَانُ فِي سُوءِ ظَنهِ فَمَا شَكَ فِي قَتْلِي وَإِنْ كَانَ قَدْ حَلُـمْ

فَبَاتَ بِقَلْبٍ قَـدْ تَـوَغرَ خِلْبُـهُ عَلَي ، وَشُبتْ نَارُهُ لِـي ، وَاحْتَـدَمْ

فَبَادَرْتُ سَيْفِي حِينَ بَادَرَ سَيْفَهُ فَثَارَ إِلَى مَاضٍ ، وَثُرْتُ إِلَـى خَـذِمْ

وَنَبهَ أَقْصَى الحَي أَني وَتَرْتُهُمْ وَقَدْ عَل صَدْرُ السيْفِ مِنْ مَاجِدٍ عَمَمْ

فَمَا أَسْرَجُوا حَتى تَعَثرْتُ بِالقَنَا وَلاَ أَلْجَمُوا حَتى مَرَقْتُ مِـنَ الـخِيَمْ

وَمِنْ بَيْن بُرْدَي ، اللذَيْن تَرَاهُمَا رَقِيقُ حَوَاشِي النفْس وَالطبْعِ وَالشيَمْ [1]

يقول إنه ألم بمحبوبته في ليل داج وقد نام أهلها وإخوتها ، غير أن ليل العاشقين طويل ، وهم ينتظرون رقود السامرين والرقباء حتى يلاقوا محبوباتهم ،وقد ارتعدت فرائص المحبوبة فرقا من أن ينكشف أمرها فهي بالنسبة لأهلها كظبية الحرم لا يجوز مسها أو الاعتداء عليها ، ولما رآها على هذه الحال من الخوف والفرق سكنها وهدأ من روعها، وقد نحل جسمها لأنها في تفكير دائم وقلق ملازم مخافة هجره لها من جهة وعلم أهلها بما تقوم به من جهة ثانية ، ولابد أن الحذر كان شديدا فأي حركة غير مدروسة ستكشف أمرها لذا قررا أن تكون نظرات العيون والإشارات هي لغة التخاطب ، ومهما بلغت درجة التكتم والحرص على التخفي فإن عين الرقيب تظل ساهرة و لا تفوتها همسة أو حركة ، وقد حسد الشاعر على هذه المتعة فقرر أن يفسدها عليه ويحرمه منها باسم كرامة العشيرة ،ولم يكن للشاعر بد من مبارزته ومغاورته حتى جلله بالسيف ، وهنا ينادي آخر

[1] ابن هانئ الأندلسي : ديوان ابن هانئ الأندلسي : ص 432-433 .

و يوقظ فتيان الحي مخبرا إياهم بأن المجترئ على الحمى قد وتر أحدهم ، فيتأهبون للثأر وهنا يبرز الشاعر بفرسه ليخوض بها الصفوف فيشطر الصف صفين وينجو بنفسه من الموت المحقق .

وهو- رغم كل ما ارتكبه من محظورات وآثام وقتل للأنفس- ينفي عن نفسه قسوة القلب وجفاء الطبع ، بل هو على جانب كبير من اللين وطيب المعشر راع لحق الجيرة والعشيرة ، وإنما يرتكب هذه الزلات جراء الإغراء الأنثوي الذي لا يقاوم والفتنة التي لا تدفع .

إنها قصة خيالية يحاول فيها الشاعر مجاراة شعراء المشرق الذين نظموا على هذا المعنى وخاصة عمر بن أبي ربيعة الذي أكثر من وصف مغامراته الجريئة مع النساء ، وخاصة في رائيته الشهيرة حيث يقول فيها : [من الطويل]:

إِذَا زُرْتُ نُعْمًا لَمْ يَزَلْ ذُو قَرَابَـةٍ ... لَـهَا كُلمـَا لاَقَيْتُـهُ يَتَنَمـــرُ

عَزِيـزٌ عَلَيْـهِ أَنْ أُلِـم بِبَيْتِـهَا ... يُسِرِ لِيَ الشحْنَاءَ ،وَالبُغْضُ مُظْهرُ

وَلَيْلَةَ ذِي دَوَرَانَ جَشمْتِنِي السرَى ... وَقَدْ يَجْشَمُ الهَوْلَ المُحِب المُغـَررُ

فَبِت رَقِيبًا لِلْرفَاق عَلَى شَـــفًا ... أُحَاذِرُ مِنْهُمْ مَـنْ يَطُوفُ وَأَنْظُـرُ

وَنَفضْتُ عَني النوْمَ، أَقْبَلْتُ مِشْيَةَ الـ ... حُبَابِ ،وَرُكْنِي خَشْيَةَ القَوْمِ، أَزْوَرُ

فَحَييـْتُ إِذْ فَاجَأْتُـهَا فَتَوَلـهَتْ ... وَكَادَتْ بِمَخْفُوضِ التحِيةِ تَجْـهَرُ

وَقَالَتْ، وَعَضتْ بِالبَنَان: فَضَحْتَنِي ... وَأَنْتَ امْرُؤٌ مَيْسُورُ أَمْركَ أَعْسَـرُ

فَبِت قَرِيرَ العَيْنِ أُعْطِيتُ حَاجَتِـي ... أُقَبـلُ فَاهَا فِـي الخَلاَءِ ، فَأُكْثِـرُ

فَمَا رَاعَنِـي إِلا مُنَادٍ : تَرَحلُوا ... وَقَدْ لاَحَ مَفْتُوقٌ مِنَ الصبْـحِ أَشْقَرُ

فَكَانَ مِجَني دُونَ مَنْ كُنْتُ أَتقِي ... ثَلاَثُ شُخُوصٍ : كَاعِبَان وَمُعْصِـرُ

فَلَما أَجَزْنَا سَاحَةَ الحَي قُلْنَ لِي ... أَلَمْ تَتـق الأَعْدَاءَ وَاللَيْـلُ مُقْمِـرُ

وَقُلْنَ أَهَذَا دَأْبُكَ الدهْرَ سَادِرًا ... أَمَا تَسْتَحِي أَوْ تَرْعَوِي أَوْ تُفَكرُ ؟ [1]

و نلاحظ تشابها كبيرا في صورة المرأة لدى الشاعرين ، فهي رقيقة حسناء مرهفة الحس حجبت مع النساء مع غيرها من الفتيان الناهدات ، وهي مثل عشيقها تحب المغامرة وتعشق سرى الليل غير أنها تخشى الفضيحة وانتقام الأهل فنراها تقيم حسابا لكل خطوة

---

[1] عمر بن أبي ربيعة : ديوان عمر بن ابي ربيعة ، ص 194-195-196-197-199 – 200-204 .

أو همسة أو نفس ، وحق لها ذلك فالبيئة العربية بعاداتها في الحفاظ والحرص على الشرف تأبى مثل هذا السلوك وتعاقب عليه أشد العقاب .

ولكن ابن هانئ يحاول أن يحدث تغييرا في مجرى الأحداث القصصية حتى لا تكون مشابهة لقصيدة عمر ، فبينما نجد هذا الأخير يتستر بلباس النساء ويتسلل لواذا حتى يخرج من الحي بعدما كاد أمره أن ينفضح ، فهو يبدو خائفا على نفسه غير قادر على مواجهة عواقب فعلته، نجد ابن هانئ يزعم البطولة ويتحدى أهل المحبوبة وفرسان الحي ثم ما يلبث أن يقارعهم بالسيف ويبدد جمعهم ليتركهم في حال يرثى لها من فقد للأنفس وضياع للشرف .

والشاعر يريد أن يضمن قصته الشعرية جمال القصيدتين الجاهلية والإسلامية ، حيث يبدو الجاهلي على قدر كبير من الجفاء وينتزع مطلبه انتزاعا ، بينما يبدو الأموي ذليلا يختلس النظر ويتسلل متخفيا بظلام الليل ولباس النساء حتى يتمكن من لقاء محبوبته ، أما ابن هانئ فيريد إظهار شجاعته وحيلته في الحالتين ، الحالة التي يظفر فيها ببغيته من دون أن ينكشف أمره والحالة التي تحتم عليه استخدام القوة للخروج سالما من دائرة الخطر .

وعلى كل فالمعاني التي أتى بها ابن هانئ لا تعدو أن تكون نسخا مشوها لمعاني القصائد القديمة وإن حاول أن يضفي عليها لمسات تجديدية : << فالغزل عند ابن هانئ حكاية حال ، لا تلمس فيه معاناة ولا وجدا ، إنه غزل مصطنع يغلب عليه التقليد والجفاف >> [1] .

ولابن هانئ مقطوعة أخرى يتحدث فيها عن عشقه وظفره بمحبوبته فيقول:

[من الكامل]:

إِيهًا لكِ النعْمَى عَلَي ، فَأنْعِمِي	وَبَرِئْتِ مِنْ حَرَجَ السلاَمِ ، فَسَلمِي
لِلهِ مَوْقِفُ عَاشِقٍ وَمُعَشـقٍ	مِنْ ظَالِـمٍ مِـنا وَمِـنْ مُتَظَلـمِ
بَادَرْتُ مَوْطِئَ نَعْلِهِ حَتـى إِذَا	عَفرْتُ خَدي فِي الثرَى المُتَبَسـمِ
اعْتَل مِنْ وَجَنَاتِهِ ، فَأجَالَ فِي	صَحْن العَقِيق جَدَاولاً مِـنْ عَنْدَمِ
أَجْرَى ، عَلَى ذَهَبِيهَا عَصْبِيهَا	وَدَنَا لِسَفْكِ دَمِي بِوَرْدٍ مِـنْ دَمِ [2]

[1] حنا الفاخوري : تاريخ الأدب في المغرب العربي ، ص 65 .

[2] ابن هانئ الأندلسي : ديوان ابن هانئ ، ص 436 .

وهو يتحدث بداية عن تتبعه لخطاها وموطئ أقدامها على الأرض ، وبلغ من هيامه بها أن مرغ وجهه في التراب لكي يتنسم ريحها الطيب ولو من مكان نعلها ، ثم لا يلبث أن يصادفها فتسيل دموعها على خد أحمر وتبدو للناظر كأنها دماء تنزف من مقلتها وهذا جراء الوله الذي تكابده والشوق الذي تقاسيه من فرط الصبابة ووحشة التفرد من غياب الحبيب .

هنا يحاول الشاعر قلب الصورة ويزعم أن الحبيبة تأرق وتبكي بكاء حارا لفرط اشتياقها له ، وكذلك هو الذي يخر جاثما متذللا ليتنسم عبق ريحها المار ، إنه حب متبادل أو على الأقل كما يريد الشاعر أن يقنعنا بذلك ، فالظهور بمظهر العاشق الضعيف الذي لا يملك من أمره شيئا أمام سطوة محبوبته كان سيقلب صورته ويشوهها على الأقل وهو الذي يتباهى بقوته وقوة حلفائه الفاطميين الذين لا يجدون وقتا للحديث إلى النساء ولا على عشقهم ، أو كما قال المتنبي : [من الطويل]:

وَلِلخُودِ مِني سَاعَةٌ ثُم بَيْنَنَا فَلاةٌ إلى غَيْرِ اللقَاءِ تُجَابُ [1]

لذا كان من الواجب الظهور بمظهر القوي ، إلا أن الفحولة لا تتم إلا إذا وصل النساء واستمتع بهن ، ثم إن الحب ليس عيبا ، والإنسان جبل منذ بدء الخليقة على حب المرأة والرغبة الجامحة والدائمة للقائها أو على الأقل النظر إليها : << **فِطْرَةَ اللهِ التِي فَطَرَ الناسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ** >> [2] .

ولذلك كان يكثر شعر النسيب والغزل الداعي الحقي الذي يملأ النفوس ويأخذ بمجامع القلب : << فالتشبيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب ، لما قد جعل ا في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء ، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلق منه بسبب وضاربا فيه بسهم حلال أو حرام >> [3] .

فالمرأة قد احتلت مكانة خاصة في قلب الرجل ، فأفردت لها مقطوعات من الشعر قد تتجاوز إلى قصائد تشيد بذكرها وتذكر شغف الشاعر بها بل إننا نراها تتحول إلى مارد كبير يسلب فحول الشعراء ألبابهم فلا يجدون بدا من افتتاح غرر قصائدهم بذكرها

---

[1] المتنبي : ديوان المتنبي ، ج2 ، ص 354 .

[2] الروم : 30 .

[3] ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ج1 ، ص 76 .

ووصف مفاتنها ، إنه سلطان الحب الذي هجم على البشر فلم يستطيعوا رد غاراته ، وجثم على صدورهم فلم يعدموا له حيلة أو مناصا .

وابن هانئ كان لا يعير بالا في غالب الأحيان لهذه الأمور لأنها منقصة ومفسدة للعقل ولكنه شر لابد منه وشراك لا مناص من الوقوع فيه ، وهو إذ وقع فيه لم يحس إلا وفمه يقبل موطئ قدم الحبيبة المارة وقد يشعر المستمع بنوع من الاستعلاء ، ويحس بشيء من الغرابة حيال هذا الفعل الصادر من ابن هانئ هذا إذا اعتبرناه حقيقة واقعة لا مجاز أو مبالغة في ذكر عوارض الوجد وكان من الصعب تقبل منظر رجل يقبل رجل صاحبته أو موطئ قدمها من الأرض في منطقة تعتبر" وطن الذكر الخالد" كما قيل ، لكن قد يزول استغرابنا إذا رأينا شجعان العرب وفرسانهم المعدودين وقادتهم يرضون هذا الفعل بل ويفخرون به لأن كل شيء يهون أمام سلطان الهوى وقد روي أن الحجاج كان فعل ذلك يقول الجاحظ : << والمرأة أيضا أرفع حالا من الرجل في أمور منها : أنها تخطب وتراد ، وتعشق وتطلب ، وهي التي تفدى وتحمى ، قال عنبسة بن سعيد للحجاج بن يوسف : أيفدي الأمير أهله ؟ قال : وا إن تعدونني إلا شيطانا ،وا لربما رأيتني أقبل رجل إحداهن >>[1] .

أما استدراكه بالحديث عن بكائها لما رأته فهو من قبيل إحداث توازن في الانفعالات الوجدانية بين طرفي الحب لا أكثر ، وحتى يبدو الشاعر في موقع قوة نسبيا وليس كعادة الشعراء الذين ينتحبون بل ويجنون لأن طلاب الحبيبة عز عليهم .

و يبدو أن ابن هانئ كان يعجب بالافتتاحات الغزلية التي يضمنها مغامراته الليلية في سبيل وصال الحبيبة ، و لا يتحرج بهذه المطالع حتى و هو ينشد المعز داليته الرائعة بعيد وفود رسل الروم متضرعين لطلاب الصلح ، يقول : [من الطويل]:

ألاَ طَرَقَـتْنَـا وَالنجـُومُ رُكـُـ ـودُ وَفِي الحَي أَيْقَاظٌ وَ نَحْنُ هُجـُودُ [2]

وَ قَدْ أَعْجَلَ الفَجْرُ المُلَمّـَعُ خَطـْوَهَا وَفِي أُخْـرَيَاتِ اللّيْلِ مِنْهُ عَمُـودُ[3]

سَرَتْ عَاطِلاً،غَضْبَى عَلَى الدر وَحْدَهُ فَلَمْ يَدْرِ نَحِرٌ مَا دَهَـاهُ، وَ جِيـدُ [4]

---

[1] الجاحظ : رسائل الجاحظ ، ج3 ، ص 146 .

[2] طرقتنا : جاءتنا ليلا . ركود : مفردها راكد أي ثابت في مكانه . هجود : ساهرون .

[3] عمود الصبح : ضوءه .

[4] جيد : عنق .

فَمَا بَرِحَتْ ، إلا وَ مِنْ سِلْكِ أَدْمُعِي — قَلائِدُ فِي لَبَّاتِهَا ، وَعُقُودُ

وَمَا مُغْزِلٌ أَدْمَاءُ ، دَانٍ بَرِيرُهَا — تَرَبعُ أَيْكًا نَاعِمًا، وَ تَرُودُ [1]

بِأَحْسَنَ مِنْهَا ، حِينَ نَصَّتْ سَوَالِفًا — تَرُوغُ إِلى أَتْرَابِهَا وَ تَحِيدُ [2]

أَلَمْ يَأْتِهَا أَنا كَبُرْنَا عَلى الصِّبَا — وَأَنا بَلِينَا وَالزمَانُ جَدِيدُ

فَلَيْتَ مَشِيبًا لاَ يَزَالُ ، وَ لَمْ أَقُلْ — بِكَاظِمَةٍ : لَيْتَ الشبَابَ يَعُودُ [3]

وَلَمْ أَرَ مِثْلِي ، مَا لَهُ مِنْ تَجَلدٍ — وَلاَ كَجُفُونِي ، مَا لَهُن جُمُودُ [4]

وَلاَ كَاللَيَالِي مَا لَهُن مَوَاثِقٌ — وَلاَ كَالغَوَانِي ، مَا لَهُن عُهُودُ [5]

و الشاعر يستدعي في غزله مظاهر الطبيعة المختلفة ، الحية منها أو الساكنة ، و في هذا المطلع الرائع يستحضر سواد الليل و جمال النجوم المرصعة في السماء ، وقد زارته الحبيبة و النجوم واقفة ساكنة في السماء لا ترى فيها شهبا تلوح أو أجراما تتحرك ، وهو يتوهمها كذلك لأنه ينتظر قدوم المحبوبة منذ أن حل الليل ، و دائما ما يسقط الشاعر أحاسيسه على الموجودات و الأشياء و يطمع أن تشاركه حالته التي يكابدها ، فالنجوم واقفة تترقب معه قدوم الحبيبة ، وقد نام الجميع من فرط العناء و التعب و بقي هو- على تعبه- ساهرا طمع الوصال فكأنه متهجد و لكن ليس للقنوت و العبادة بل للهو و المجون ، و يشترك مع العابد في طول السهر و قلة النوم .

وقد أطالت المحبوبة الغياب فتوجس خيفة ، وما لبث أن لاحت له في أخريات الليل ، وتعجلت في لقائها خوف طلوع الفجر فينكشف أمرها ، والملفت للنظر في أمر هذه الفتاة أنها تستغني عن قلائد الدر التي تحرص النساء على وضعها في جيدهن ، فهي جميلة حسناء لا تحتاج إلى الزينة والحلي ولكنها لا تعلم – كجيدها – أنها حين فارقته جعلت في نحرها قلادة من دموعه وعبراته التي سكبها حينما همت بالرحيل .

---

[1] المغزل : الظبية ذات الغزال . الادماء : البيضاء . البرير : أول ما يظهر من ثمر الاراك . تربع : تاكل الربيع . ترود : تختلف إلى المراعي .

[2] نصت : رفعت . تروغ : تذهب سرا . تحيد : تميل عن الطريق .

[3] كاظمة : موضع .

[4] التجلد : إظهار الصبر و الجلد و الشدة .

[5] الغواني : جمع غانية ، قيل الغنية بحسنها و جمالها عن الزينة .

- ابن هانئ الأندلسي : ديوان ابن هانئ الأندلسي ، ص 74 – 75 .

والشاعر إذ يشبهها بالظبية فإنه يظلمها ويبخسها حقها في وصف جمالها فهي ليست تنفر في كل حين كحال الظبية الخائفة ، بل تمشي في هدوء وترفع صفحة عنقها، وتختال إلى أترابها ، وإذا كان حسنها فائقا فإنه لا يجب إطالة التفكير فيها ، وإدامة النظر والتطلع إليها لأنه كبر عن نزق الشباب ولهو الصبا ، والشاعر إذا يذكر حسنها ، فإنه لا يغفل عن نواياها وأفعالها ، فالمرأة لا تعرف الوفاء ، لا تدوم على عهد ، فما هي إلا برهة حتى تقطع وصلها لهذا وتمنحه لآخر وترى في ذلك متعة وهي لا تبالي بمشاعر أحد ، أو كما وصفها المتنبي بقوله : [من الطويل]:

إِذَا غَدَرَتْ حَسْنَاءُ وَفتْ بِعَهْدِهَا فَمِنْ عَهْدِهَا أَلا يَدُومَ لَـهَا عَهْـدُ

وَإِنْ عَشِقَتْ كَانَتْ أَشَد صَبَابَةً وَإِنْ فَرِكَتْ فَاذْهَبْ فَمَا فِرْكُهَا قَصْدُ

كَذَلِكَ أَخْلاقُ النسَـاءِ وَرُبمَـا يَضِل بِهَا الهَادِي وَيَخْفَى بِهَا الرشْدُ [1]

و يقول ابن هانئ من قصيدة له : [من الطويل]:

تَظَلَمَ مِنا الحِب وَالحِـب ظَالِـمٌ فَهَلْ بَيْنَ ظَلامَيْن ، قَاضٍ وَحَاكِـمٌ ؟[2]

وَفِي البَيْن حَرْفٌ مُعْجَمٌ قَدْ قَرَأْتُهُ عَلَى خَـدهَا لَوْ أَنني مِنْـهُ سَالِـمُ [3]

وَقَدْ كَانَ فِيمَا أَثـرَ المِسْكُ فَوْقَهُ دَلِيلٌ ،وَمِنْ خَلْفِ الحِدَادِ ، المَآتِمُ

لَيَالِيَ ، لا آوِي إِلَى غَيْر سَاجِعٍ بِبَيْنِكِ ، حَـتى كُل شَيْءٍ حَمَائِـمُ

وَلَما التَـقَتْ أَلْحَاظُنَا وَوُشَـاتُنَا وَأَعْلَنَ سِر الوَشْيِ مَا الوَشْيُ كَاتِمُ

تَأَوهَ إِنْسِي مِـنَ الخِدْرِ نَاشِـجٌ فَأَسْعَدَ وَحْشِي مِنَ السدْرِ بَـاغِمُ [4]

وَقَالَتْ : قَطًا سَارٍ سَمِعْتُ حَفِيفَهُ فَقُـلْتُ: قُلُـوبُ العَاشِقِينَ الحَوَائِمُ [5]

سَلُوا بَانَةَ الوَادِي : أَأَسْمَاءُ بَانَةٍ بِجَرْعَائِهِ ، أَمْ عَـاشِـقٌ مُتَـرَاكِمُ ؟

وَمَا عَذَبُ المِسْوَاكِ ، إِلا لأَنـهُ يُقَبلُـهَا دُونِي ، وَإِنـي لَرَاغِـمُ

وَقُلْتُ لَهُ:صِفْ لِي جَنَى رَشَفَاتِهَا فَأَلْثَـمَنِي فَاهَـا بِمَا هُـوَ زَاعِمُ [6]

---

(1) ديوان المتنبي ،ج 1 ، ص 397-398 .

(2) تظلم : شكا ظلمه .

(3) أراد بالحرف المعجم : النون ، والنون : مثفرة السيف .

(4) الناشج : الغاص بالبكاء ، السدر : شجر النبق .

(5) الحفيف : صوت الشيء تسمعه كأوراق الشجر عند مهب الريح . الحوائم : الدائرة حول المكان .

(6) جنى رشفاتها : تمر أو عسل (ريق) قبلاتها .

إذَا خُلةٌ بَانَتْ لَهَوْنَا بِذِكْـرِهَا   وَإنْ أَقْفَرَتْ دَارٌ كَفَـتْنَا المَعَالِمُ [1]

وهو يقول إن الحبيب يشتكي من ظلمي له وهو نفسه ظالم ، فمن يقضي بيننا وكل يصر على صحة دعواه بوقع الظلامة عليه ؟ ، ولكنني أخاف أن يقطع حبال الوصل وطرفق الكلام وسوارق النظر فتكون نهايتي محتومة ، فالبين ليس هينا علي ولا أثره بالنسبة لي ، إنه الموت المحقق كما يكون عندما تقع ضربة السيف على الجسد ، والشاعر هنا يعذر كل من هام على وجهه بسبب الوجد أو مات لعله الحب ، وكأنه ينظر إلى المتنبي حين يقول : [من الكامل]:

وَعَذَلْتُ أَهْلَ العِشْقِ حَتى ذُقْتُهُ   فَعَجِبْتُ كَيفَ يَمُوتُ مَنْ لا يَعْشَقُ [2]

ويقول في موضع آخر يصف مسيره إلى أحبته ، واشتياقه الدائم لهم : [من الطويل]:

قِفَا!فَلأَمْرٍ مَا سَرَيْنَا وَمَا نَسْرِي   وَإلا فَمَشْيًا ،مِثْلَ مَشْيِ القَطَا الكُدْرِي [3]

قِفَا !نَتَبَينْ أَينَ ذَا البَـرْقُ مِنْـهُمُ ،   وَمِنْ أَينَ تَسْرِي الريحُ،عَاطِرَةَ النشْرِ [4]

لَعَل تَرَى الوَادِي ، الذِي كُنْتُ مَرّةً   أَزُورُهُـمْ فِيهِ ، تَضَـوعَ لِلـسفْرِ [5]

وَ إلا فَـذَا وَادٍ يَسِيـلُ بِعَنْبَـرٍ   وَإلا فَمَا تَدْرِي الركابُ ، وَلا نَدْرِي [6]

أَكل كِنَاسٍ ، فِي الصرِيـمِ ، تَظُـنهُ   كِنَاسَ الظبَاءِ الدعْجِ ، وَالشدنِ العُفْرِ [7]

فَهَلْ عَلِمُـوا أَني أَسَائِـلُ عَنـهُمُ   وَهُمْ بَيْنَ أَحْـنَاءِ الجَوَانِحِ وَالصـدْرِ [8]

وَلِي سَكَنٌ تَـأْتِي الحَـوَادِثُ دُونَـهُ   فَيَبْعُدُ عَنْ عَيْنِي ، وَيَقْرُبُ مِنْ فِكْرِي [9]

---

[1] المعالم : ديار الأحبة أو الدارسة منها .
- ابن هانئ الأندلسي : ديوان ابن هانئ الأندلسي ، ص 319 320 .
- الحميدي : جذوة المقتبس ، ص 85-86 .

[2] أبو الطيب المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ، ج1 ، ص125 .

[3] القطا : طائر في حجم الحمام . الكدري : المغبر اللون ، والقطا معروف بثقل مشيه.

[4] النشر : الرائحة الطيبة .

[5] تضوع : تحرك فانتشرت رائحته . السفر : جمع مسافر ، أي ذو سفر .

[6] الركاب : إلابل التي يسار عليها .

[7] الصريم : الرملة المنصرمة من الرمال ذات الشجر . الدعج : الواحدة دعجاء ، وهي السوداء العين .الشدن : الواحد شادن ، ولد الظبي . العفر : الواحد أعفر ، ما يعلو بياضه حمره .

[8] الأحناء : جمع حنو وهو الجانب .

[9] السكن : كل ما سكنت إليه ، واطمأنت به .

وَمَازِلْتُ ، تَرْمِـينِي اللَيَالِي بِنَبْلـِهَا   وَأَرْمِي اللَيَالِي بِالتَـجَلدِ وَ الصّـَبْرِ[1]

وهو يطلب من صديقه أن يحد في السير لأن له حاجة يريد أن يقيها ولولاها لما سرى في هذا الليل المظلم وهذه الصحراء الموحشة ، والشاعر يستخدم صيغة " قفا " عوض " قف" احتداء بالشعراء الجاهليين ، وتفسير ذلك أن << الرفقة أدنى ما تكون ثلاثة ، فجرى خطاب الاثنين على الواحد لمرور ألسنتهم عليه >>[2] .

وهو يتبع آثار ركب الحبيبة ، ويتنسم عطر رائحتها التي ملأت الوديان والبطاح ، ولكنه مع هذا يجهل الطريق الذي أخذته أو المضارب التي نزل فيها ، ولم يكن له إلا أن يسأل عنها كل من يلقاه سائرا أو مدلجا ، ولما خاب أمله وتأكد عجزه عنها لجأ إلى الصبر وتعزية النفس بمصابها ، فهذه المرأة سهم الليالي التي لا يجب أن يصيبه في مقتل ، بل عليه أن يرده بالتجلد والصبر .

[1] التجلد : شدة الصبر .

- ابن هانئ الأندلسي : ديوان ابن هانئ الأندلسي ، ص 248-249 .

[2] الزوزني : شرح المعلقات السبع ، ص 7 .

- **جمال الحبيبة :**

وللعتقي [1] أبيات يصف فيها جمال الحبيبة ، فيقول : [من المنسرح] :

يَا يُوسُـفِي الجَمَال عَبْدُكَ لَمْ   تَبْقَ لِي حِيلَةٌ مِـنَ الحِيَـل

إِنْ قُد فِيهِ القَمِيصُ مِنْ دُبُـرٍ   فَفِيكَ قُد الفُؤَادُ مِـنْ قُبُـل

أَوْ قَطعَ النسْوَةُ الأَكُف فَـقَدْ   قَطعْتُ قَلْبِي عَلَيْكَ مِنْ وَجَل

يَا أَمَلِي ، وَالعُجْبُ عِنْدِيَ أَنْ   قُلْتُ، وَلَمْ أَخْشَ مِنْكَ يَا أَمَلِي

رِفْقًا قَلِيـلاً عَلَى مُحِـبكَ لاَ   تَعْجَلْ وَخُذْ نَفْسَهُ عَلَى مَهَل

إِنْ كَانَ لاَبُـد مِـنْ مَنِـيتِهِ   فَدَعْـهُ حَتى يَلْـتَذ بِـالعِلَل [2]

وهو يرى أن جمال محبوبته قبس من جمال النبي يوسف عليه السلام ، ويضمن أبياته إحالات مباشرة للآيات الكريمة ، ففي قوله << أو قطع النسوة الأكف >> إحالة لقوله تعالى << **فَلَما رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطعْنَ أَيْدِيَهُن وَقُلْنَ حَاشَ لِلهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ** >>[3] .

وحق لها وهي تحوز هذا الجمال أن تتمنع وتذيق محبها ألم الهجر والصد ، وهو يرجوها أن ترفق به فليس له أمل سواها ، وإن كان ولابد من الموت فلتدعه يلتذ بطيف خيالها أو متعة النظر إليها وهي رائحة غادية .

ويشيع الخطاب الغزلي الموجه بضمير المخاطب للذكر في الشعر المغربي ، ولا ينفي هذا أن يكون الشاعر بصدد التغزل ببعض الغلمان خاصة وأن هذا الأمر شاع في الشعر المغربي ابتداء من القرن الخامس ، وهو عهد قوة وترف الحضارة العباسية التي أخذت في الانحطاط شيئا فشيئا بعد أن شاع الفحش في أوساط الطبقات الاجتماعية المختلفة ، والاستهتار الذي ميز سياسة الخلفاء والأمراء العباسيين شرقا وغربا ، وإن كنا نرى أن المجتمع المغربي ظل محافظا إلى أبعد الحدود ، ولم تؤثر فيه موجة الانحلال الخلقي

---

[1] **العتقي** : عتيق بن مفرج العتقي ، شاعر من أبناء تونس ، سيال الكلام ، سريع البديهة ، قريب المأخذ ، لا تظهر عليه مؤنة النظم ، ولا تكلف الصنعة .

- أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني : أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، جمع وتحقيق : محمد العروسي المطوي وبشير بكوش ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، والمؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1406هـ/1986م ، ص256 .

[2] المرجع نفسه : ص259 .

[3] يوسف : 31 .

والانحطاط الفكري الذي ميز الربوع المصرية والعراقية مثلا ، وما هذه المناهج التي نجدها حول غزل الغلمان في شعر المغاربة إلا محاكاة للشعر المشرقي .

يقول ابن الأبار واصفا حال العاشقين مع النساء المتمنعات : [من الكامل]:

مَا حَالُ مَنْ جُثْمَـانُهُ وَفُـؤَادُهُ ... قَدْ عَاثَ فِيهِ نُحُولُهُ وَجُـوَادُهُ ؟

عَرِيَ الغَرَامُ بِهِ فَحَيْثُ هُجُوعُهُ ... مِـنْ قَبْل أَنْ يَهْوَى فَثَم سُهَادُهُ

فَتَضَرمَتْ مِنْ لَوْعَةٍ أَنْفَاسُــهُ ... وَتَصَـرمَتْ مِنْ حَسْرَةٍ آمَـادُهُ

وَكَأنما صَوْبُ العِهَادِ دُمُوعُـهُ ... وَكَـأنمَا شَوْكُ القَتَـادِ مِهَـادُهُ

وَاهًـا لهُ مِنْ مُفْـرَدٍ بِنَجِـيبِهِ ... لَوْ كَانَ يَجْمَعُ شَمْـلَهُ إِفْـرَادُهُ

يَرْتَاحُ لِلروْضِ المَشُوق حَمَامُهُ ... وَيَحِن لِلبَرْق الـخَفُوق فُـؤَادُهُ

وَيَبِيتُ بَيْنَ تَشَـوقٍ يَـقْتَـادُهُ ... وَلَـعًا ، وَبَيْنَ تَأرقٍ يَـعْـتَادُهُ

وَالنجْمُ يُسْعِدُهُ عَلى خَلْعِ الكَرَى ... وَمِنَ الشقَاوَةِ فِي الهَوَى إِسْعَادُهُ

وَهُنَاكَ يُنْكِرُهُ الضحَى وَ بَيَاضُهُ ... وَهُنَاكَ يَعْرِفُهُ الدجَى وَ سَوَادُهُ

قَصَرَتْ مَسَافَةَ عُمْرِهِ حَسْنَاؤُهُ ... فَأَطَالَـتِ البُشْرَى بِهِ حُسـادَهُ

وَغَدَتْ تَشُوبُ لهُ المَودةَ بِالقِلى ... وَهُوَ الـصريحُ صَفَاؤُهُ وَودَادُهُ

حَجَزَتْ إِصَابَةَ نَفْسِهِ ، وَغَلِيلُهُ ... وَأَنِينُهُ وَعَـوِيـلُهُ ، أَشْهَـادُهُ

وَلقَدِ يُسَر لأَنهُ ، يَا وَيْلَهُ ، إِنْ ... حُم عَـنْ لحَظَاتِهَا اسْـتِشْهَادُهُ

لاَ تَعْذِلُوهُ عَلى الهَوَى فَمَدَارُهُ ... وَكَفَاهُ عُذْرًا ، حَيْثُ طَابَ مُرَادُهُ [(1)]

يتساءل عن حال العاشق الذي أسقمه العشق وشفه الوجد ، ولا يكاد يرى له نوم أو تشهد له ضجعة ، فحيث ما ولى وجهه تتراءى له صورة الحبيبة فيمتنع رقاده ويطول سهاده ، وحتى أنفاسه التي لا يستطيع كتمها فيسمع لها أنين ولوعة ظاهرة ، وقد يعجب المرء كيف يقوى المحب على هذا الجهد المتواصل ، ولكنه مضطر إلى ذلك ، وكأن الفراش الممهد قد زرع شوكا فحيث ما قلب جانبا كلمه وأطار النوم من أجفانه ، والشاعر يأسى لحاله وهو مفرد عن الناس بعاني ألم الفرقة وشدة الوجد ، وإن كان يسر أحيانا بمنظر الحمائم في الروض المخضر ، ويسعد بمرأى البرق اللامع في السماء والنجوم المرصعة في الفلك العلوي ، وربما كان لإطالته النظر فيها أثر في تمكن العشق منه ، قد وجد في صحيفة لبعض أهل الهند :<< العشق ارتياح جُعل في الروح ، وهو معنى تنتجه النجوم

[(1)] ابن الأبار : ديوان ابن الأبار ، ص213 .

بمطارح شعاعها ، وتتولد الطوالع بوصلة أشكالها ، وتقبله النفوس بلطيف خواطرها ، وهو بعد جلاء للقلوب ، وصيقل للأذهان ما لم يفرط ، فإن أفرط عاد سما قاتلا ، ومرضا منهكا ، لا تنفذ فيه الآراء ، ولا تنجع فيه الحيل ، العلاج منه كالزيادة فيه >> [1] .

ويقول عفيف الدين التلمساني [2] متغزلا : [من الطويل] :

عَلَى رَبْعِ سَلْمَى بِالعَقِيقِ سَلامُ ... وَجَادَ ثَرَاهُ أَدْمُعٌ وَغَمَامُ

مَنَازِلُ لَوْلاَهُن مَا عُرِفَ الهَوَى ... وَلاَ رَنَحَتْنَا لَوْعَةٌ وَغَرَامُ

وَبَيْنَ بُيُوتِ الحَي هَيْفَاءُ قَامَةٍ ... لَهَا البَدْرُ وَجْهٌ وَالسحَابُ لِثَامُ

سَلُوا فِي هَوَاهَا عَنْ دَمِي لحَظَاتِهَا ... فَمَا هِيَ إِلا فِي القُلُوبِ سِهَامُ

هَوَاهَا عَلَى كُل القُلُوبِ فَرِيضَةٌ ... تُؤَدى ،وَمِثْلِي فِي الغَرَامِ إِمَامُ

َسِيرُ وَلَوْ أَن الصبَاحَ مَوَاكِبٌ ... وَأَسْرِي وَلَوْ أَن الظَلاَمَ قَتَامُ

وَأَغْشَى بُيُوتَ الحَي لاَ مُتَرَقبًا ... وَأَطْرُقُ لَيْلاً وَالوُشَاةُ نِيَامُ

وَأَلْثُمُ مَا بَيْنَ اللثَامِ وَثَغْرِهَا ... فَثَم كُؤُوسٌ مِسْكُهُن خِتَامُ

إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلصب إِقْدَامُ صَبْوَةٍ ... تَحِل تَلاَفَ النفْسِ وَهْوَ حَرَامُ

فَلَيْسَ لَهُ بَيْنَ المُحِبينَ رِحْلَةٌ ... وَلاَ بَيْنَ هَاتِيكَ الخِيَامِ مُقَامُ [3]

يختار الشاعر " سلمى " لتكون عنوانا لهذه القصيدة الغزلية وساحلا لأمواج الشعور والضنى التي يبعثها إليها ، ويقول إن هواها فريضة على العاشقين ، وقلبه كلف بها فأضحى إماما للعشق والعاشقين ، ولما أعياه الوجد ذهب ليلا بخيام أهلها عله يظفر منها بلمحة نظر فإذا القوم قد ساروا مبكرين ، ولم يثبط ذلك من عزيمته أو ينل من مراده

---

[1] أبو عمر يوسف بن عبد ا بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي : بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس ، تحقيق : محمد مرسي الخولي ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط2 ،1402هـ/1982م ، ج2 ، ص817 .

[2] **العفيف التلمساني** : (610-690 هـ/1213-1291 م) : سليمان بن علي بن عبد ا بن علي الكومي التلمساني ، عفيف الدين : شاعر ، كومي الأصل (من قبيلة كومة) ، تنقل في بلاد الروم وسكن دمشق ، فباشر فيها بعض الأعمال ، وكان يتصوف ويتكلم متبعا طريقة ابن العربي في أقواله وأفعاله ، واتهمه فريق برقة الدين و الميل إلى مذهب النصيرية ، وصنف كتبا كثيرة منها : " شرح مواقف النفزي " ، و"شرح الفصوص " لابن عربي ، وكتاب في" العروض "، وشعره مجموع في ديوان ، مات في دمشق .

- الزركلي : الأعلام ، ج3 ، ص130 .

[3] أبو الربيع عفيف الدين التلمساني : ديوان العفيف التلمساني ، تحقيق وتقديم : العربي دحو ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1994م ، ص192 .

فحث السير على الركوبة ليلحق بهم وقد غشيه الليل فلم يخف الإدلاج وكأنه يقول لنفسه ' عند الصباح يحمد القوم السرى " ولم يذهب جهده سدى فقد لاحت بيوتات القوم ، وقدورهم المنتصبة على الأرض ، فانتظر حتى نام القوم والوشاة من فرط تعبهم ليلم بالحبيبة ويفعل ما يشاء ، ويلوم العاشق الذليل الذي يخشى مواجهة الأخطار في سبيل الظفر ببغيته، وأن قعوده علامة عجزه وضعفه ولا يستحق حتى التفاتة من حبيبته ذلك أن المطالب لا تهدى ولكن تؤخذ أو تغتصب من يد أصحابها غصبا إن اقتضى الحال .

ويقول في موضع آخر : [من الطويل] :

نُفُـوسٌ نَفِيسَاتٌ إِلى الوَصْلِ حَنتِ   فَلما سَقَاهَا الحـُب بِالكَـأْسِ حَنتِ

وَكَانَتْ تَمَنتْ أَنْ تَـمُوتَ صَـبَابَةً   فَسَاقَ إِلَيْهَا الوَجْـدُ مَا قَـدْ تَمَنـتِ

وَفِي الحَي هَيْفَاءُ المَعَاطِفِ لَوْ بَدَتْ   مَعَ البَـان كَانَ الـوُرْقُ فِيهَا تَغَنـتِ

عَجِبْتُ لَهَا مِنْ حُسْنِـهَا إِذْ تَـفَرَدَتْ   لأَيـةِ مَـعْنًى بَعْدَهَـا قَـدْ تَبَنـتِ

شَكَا سُقْمَهُ مُضْنِي هَوَاهَا صَبَابَـةً   فَقَالَتْ لَهُ:اصْبِرْ فِي الصبَابَةِ أَوْ مُتِ

وَمَا عَاشَ إِلا مُغْرَمٌ مَاتَ فِي الهَوَى   بِحُبي ، وَهَـذَا فِـي المُحـبينَ سُنتِـي

سَتَأْتِيكَ مِني قَهْـوَةٌ إِنْ شَـرِبْتَهَا   صَحَوْتَ ،وَفِي صَحْوِ الهَوَى كُل سَكْرَةِ

وَلا تَمْزِجَنْهَا فَهْيَ بِالمَزْجِ حُرِمَتْ   وَلَوْ تُرِكَـتْ صِـرْفًا عَلَيْـهِمْ لَحـَلتِ

وَفِتْيَان صِدْقٍ كَالنجُومِ سَرَوْا عَلَى   رَكَائِـبِ عَزْمٍ مَا لَـهَا مِـنْ أَزِمـةِ

ذَوِي النفُوس لَمْ تَبْرَح العِز شَأْنَهَا   رَأَتْ عِـز لَيْلَـى بِالجَمَـال فَذَلتِ [1]

إن هذه الفتاة أضنت قلب الحبيب ، وتقول له ما تقول أي فتاة متمنعة " اصبر في الصبابة أو مت " ، ولم يجد العاشق من بد سوى احتساء الخمر عله يزيل بعض همه ويكشف شيئا من كربته وإن كان قد ارتكب معصية بارتكاب المحظور فإنه قد يتجاوز عنه لأن تباريح الهوى وألم الوجد يعتصر قلبه ، ولولا هاته الكؤوس لذهبت مهجته كما ذهبت نفوس أو عقول الكثيرين قبل من فرط الصبابة .

إن هذه الصور التي ينقلها الشاعر (الفتاة المتمنعة – العاشق الصب – الكأس الصرف) تقترب لتلامس مظاهر الحياة البدوية ببساطتها حيث كان الفتيان يرمقون الفتيات ولأن

---

[1] العفيف التلمساني : ديوان العفيف التلمساني ، ص66 .

الأعراف تقتضي صون الشرف فإن الفتيان لا يجدون سوى الحانات والمواخير حتى يفرجوا بعض كربتهم ، إنه حب " أولي " لا يتسامى ليغوص في التعقيدات الروحية الفلسفية ، ولا ينحدر إلى مستوى الإشباع الغريزي ، بل هو حب لم تلونه الحضارة أو تعقده التخمينات الفلسفية التي نجدها عند ابن فارض مثلا ، ويرى عبد ا حمادي أن هذا الحب << شاهد على حضور فطرة الحب البشري القريب من عهود الخلق الأولى بمفهومه البريء من حيث المدلول التاريخي ، لأنه لا يظهر في صورة ذلك الحب الملثم بالهيام المجلوب بيد الحضارة ، والممهور بالحذلقة والتأدب والذي غالبا ما تلعب أجواؤه الخيالية والطيفية دورا في عملية التعويض لدى معوقي غريزة الحب الحقيقية كما أسميهم ، ولا هو بذلك الحب الفردوسي فيتلهى صانعه بافتراش حدائق القلب المعنى ، مكتفيا بطيف الخيال على وصال الحبيبة >>[1] .

إن صورة الحبيبة في الشعر المغربي تشكل لوحة من الإحساسات والعواطف الجميلة والتي كانت بدلالتها الأولى قبل أن تلحقها ألوان الفلسفات المختلفة لتغير من شكلها وجمالها .

ولابن عبد المنان [2] مقدمة غزلية لقصيدة مدح طويلة يقول فيها :[من الطويل] :

مُحَياكَ أَبْهَى لاَ الهِـلالُ وَلاَ البَـدْرُ ... وَرِيقُكَ أَشْـهَى لاَ الزلالُ وَلاَ الخَـمْر

وَلَحْظُكَ أَنْكَى لاَ البَـوَاتِرُ تُنْتَـضَى ... وَعَرْفُـكَ أَذْكَى لاَ الأَزَاهِـ ـرُ تَفْـتَر

أَيا مَالِكَ القَلْبِ الذِي جَارَ فِي الهَوَى ... عَلَيْـهِ ، تَرَفقْ رُبمـَا وَهَـنَ الصبْرُ

وَيَا بَاخِـلاً حَتى بِـطَيْفِ خَيَـالِـهِ ... نَشَدْتُـكَ هَلْ فِي الطَيْفِ تَبْعَثُهُ وِزْرُ؟

أَعِنْدَكَ أَني مُنْذُ أَضْـمَرْتَ هِـجْرَةً ... هَجَرْتُ الكَرَى سُهْدًا سِوَى سِنَةٍ تَعْرُو

وَلَمْ يُبْقِ مِني الـسقْمُ إِلا صَـبَابَةً ... تَـرَددَ فِـي أَثْنَـائِـهَا أَنَّـهُ نَـزْرُ

وَهَلْ لِي إِذَا لَمْ أَفْـنُ فِيكَ صَـبَابَةً ... بِحُكْمِ الهَوَى العُذْرِي عِنْدَ الهَوَى عُذْرُ

أَلِفْتُ الهَوَى حَتى اسْتَهَنْتُ صِعَابَهُ ... وَحَتى تَسَاوَى عِـنْدِيَ الحُـلْوُ وَالمُر

---

[1] د. عبد ا حمادي : مساءلات في الفكر والأدب ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1994 ، ص 176-177.

[2] **ابن عبد المنان** : أبو العباس أحمد بن يحي بن عبد المنان الخزرجي الأنصاري ، من كتاب الدولة المرينية ، كان أثيرا لدى السلطان أبي اذعنان المريني ، وعند عدد من السلاطين الذين جاءوا بعده ، وفي درة الحجال لابن القاضي أخبار تدل على ثقة صلته ببني مرين وحسن علاقته بهم ، توفي سنة 792هـ .

- محمد رضوان الداية : أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن ، ص314 .

وَقَالَ وُشَاةُ الحُب : سِحْرٌ أَصَـابَهُ   فَهَلْ عَلِمُوا مِنْ لحْظِ مَنْ ذَلِكَ السحْرُ؟

بِنَفْسِيَ نَشْوَانُ المَعَاطِفِ عَاطِـفٌ   كَغُصَيْنِ الـنقا ، كَالظّبي خَامَرَهُ ذُعْرُ [1]

نلاحظ هذا المزج بين عناصر الطبيعة (الهلال ، البدر ، الأزاهر ، الغصين ، الظبي) وحالة النفس ، والشاعر دائما ما يلجا إلى الطبيعة لتبيان جمال الحبيبة ، ثم ما يلبث أن يقصر الجمال عليها دون سائر العناصر الطبيعية ، يقول الجاحظ : << وقد علم الشاعر وعرف الواصف أن الجارية الفائقة الحسن أحسن من الظبية ، وأحسن من البقرة ، وأحسن من كل شيء تشبهه ، ولكنهم إذا أرادوا القول شبهوها بأحسن ما يجدون ، فيقول بعضهم كأنها القمر ، وكأنها الشمس ، والشمس وإن كانت بهية فإنما هي شيء واحد ، وفي وجه الجارية الحسناء وخلقها ضرب من الحسن الغريب والتركيب العجيب ، ومن يشك أن عين المرأة الحسناء أحسن من عين البقرة ، وأن جيدها أحسن من جيد الظبية >> [2] .

إن البيئة المغربية بتنوعها وثرائها ألهمت الشعراء خيالا خصبا ومجالا واسعا للمقارنة الوصفية بين الجمال الطبيعي والجمال الإنساني الأنثوي ، يقول محمد الحوفي : << متح الشعراء من بيئتهم الخيال الذي صوروا به عواطفهم ، فكانوا صادقين في تجاوبهم مع ما في البيئة من حيوان ونبات وجماد ، لأنهم أحسوا بجماله ، وتخيروا من صفاته صفة بارزة تمت إليها الحبيبة بصلة ، أو تمت إلى الحبيبة بسبب ، فشبهوا الحبيبة بها ، يريدون أن يصوروا مقدار جمالها ، وأن يزينوها لأن هذا الذي يشبهون به متعارف الجمال بينهم مسلم بتميزه في هذه الناحية ، لذا يلحقون الحبيبة به ليدلوا على تفوقها في جمالها .

ولو أن عندهم أجمل مما شبهوا به لألحقوا الحبيبة به أيضا ، ولكن بحسبهم أن التفتوا إلى ما في البيئة من جمال منوع ، وعقدوا بينه وبين المرأة الحسناء من صلة أو صلات ، مع علمهم أن جمال المحبوبة أقوى فتونا وأحلى فنونا >> [3] .

ويظهر أن مجالس المغرب لم تكن بها مظاهر العربدة والقصف التي كانت تميز مجالس الشرق ، ولم تفتن الناس أنواع الخمرة الممزوجة أو الصرفة التي أخذت لباب العقول ، وقد استعاض أهل المغرب عنها بمتعة الجواري ، والشاعر ابن عبد المنان يقول أن ريق

---

[1] ابن الأحمر : نثير الجمان ، ص337-338 .

[2] الجاحظ : رسائل الجاحظ ، ج3 ، ص118 .

[3] د. أحمد محمد الحوفي : الغزل في العصر الجاهلي ، ص326-327 .

الحبيبة أشهى من الماء الزلال ومن الخمر أيضا ، أما سحر عينيها فيربو على جمال السيوف المشرعة ولمعانها الأخاذ ، وهو يأمل من الحبيبة أن تجود له بطيف خيالها على الأقل حتى يسلو عن أحزانه ويقوى على ألم الفراق ولوعة الوجد بعد يأسه من وصالها ، ويذكرها بحاله بعد هجرها له ، فالنوم لم يطرق أجفانه فهو في سهاد وأرق دائمين ، وأي عذاب أكبر من أن يحرم الإنسان راحة النوم ، ولا يتوقف الألم عند هذا الحد ، فالأسقام قد دبت في جسده العليل والمنهك ، وهذه حال العشاق دائما تظل عقولهم ذاهلة عما حولها غير حريصة لما يعتورها من نقص أو داء ، وسرعان ما تجتمع تلك الأمراض لتفتك بالجسد العليل .

وحبه قبس من الحب العذري العفيف الذي اشتهرت به بوادي نجد والحجاز ، وعرف به المتيمون أمثال قيس بن ذريح وبن الملوح وغيرهما ، وهو حب يتسامى عن طلاب الجسد إلى طلاب الروح .

ثم يقول الشاعر إنه ألف حرقة الهوى ولواعج الشوق حتى استذل صعبه ، واستهون شدته ، ولكن الوشاة لا يصبرون ولا ينامون فهم ينقلون للحبيبة الأكاذيب التي من شأنها أن تصرف بالها عنه ، ويتوعدهم بالعقوبة إن ظفر بهم ، وهو بعد هذا يفديها بروحه كيف لا وهي الظبي الغرير المنتشي زهوا وفرحا .

ويتكرر مشهد الغزل، ونجد الشاعر يفخر بقدرته على تحمل ألم الصبابة ويؤكد أنه بعيد عن أجواء الحروب التي لا تجلب إلا المآسي، ولا تخلف إلا الدمار والدماء ، وحسبه أن يعيش هانئا مع الحبيبة في دعة وهناء .

يمكن القول أن غرض الغزل لم يغر الشعراء المغاربة كثيرا ، لذلك كانت نصوصهم الشعرية فيه باهتة لا نلمس فيها حرارة العاطفة أو وهج الشعور ولواعج القلب الذي يقاسي ألم الصبابة وحرقة الوجد ، وقد كان السبب في ذلك قوة التيارات الدينية والسياسية التي شغلت بال الشعراء وقسمتهم إلى مؤيدين ومعارضين لنظام الحكم والإمارات التي تداولت السلطة على أرض المغرب ، ولهذا كانت المرأة الحبيبة لا تذكر إلا في مطالع قصائد المدح الموجهة إلى هذا الأمير أو ذاك القائد ، وربما الذي دفعهم إلى النظم في هذا الغرض إعجابهم الشديد وفتونهم المضاعف بغزليات جرير وابن أبي ربيعة ومسلم بن الوليد .

وحتى قصائد الغزل التي يموج بها ديوان العفيف التلمساني لا تحيلنا على الواقع الحقيقي لشعور الشاعر اتجاه المرأة ولا على قوة أو ضعف المحبوبة حيال الرسائل الغرامية الموجهة إليها بقدر ما تعبر عن فتون الشاعر بالتعمقات الصوفية والفلسفية التي تسبح في عوالم إيمانية وفكرية بعيدة كل البعد عن عالم الحب والمرأة ، وإن كان الغالب عليهم استعمال ضمير المؤنث الغائب في التعبير عن عوالمهم الفلسفية فلكي يجلبوا عيون الناظرين و المستمعين إلى هذا الشعر لا أكثر .

إن قلة النصوص الغزلية جنت على الدارسين والباحثين في التراث بحيث لم يستطيعوا إعطاء صورة واضحة ومتكاملة للمرأة الحبيبة .

الفصل الرابع : صورة المرأة الشاعرة

* مهرية الأغلبية
* عائشة بنت عمارة
* حفصة الركونية
* خدوج الرصفية
* ميمونة الهذلية
* جارية تميم
* سارة الحلبية

صورة المرأة الشاعرة :

إن نظم المرأة للشعر ليس بالأمر الجديد أو المبتدع ، فقد كان للمرأة العربية باع طويل في هذا المضمار ، واشتهرت شواعر عديدات منهن الخنساء السلمية وليلى الأخيلية [1] وليلى بنت طريف الشيبانية [2] وغيرهن .

ولكن لابد من القول بأن عهد المرأة المغربية بالشعر جديد ، نظرا لعدم تمكنها بادئ الأمر من ناصية اللغة ، وابتداء من القرنين الثاني والثالث للهجرة ، بدأت في تذوق الشعر ونظم القريض ، حيث كان العهد الصنهاجي عهد انفتاح على جميع أطياف المجتمع ، ولم تقصى أي فئة من الحراك الثقافي والأدبي المتزايد ، واحتلت المرأة مكانة مرموقة في مجال السياسة كما رأينا ذلك من قبل ، وحتى اللائي ولجن غمار التجربة الشعرية لقين كل التشجيع سواء من المحيط الاجتماعي البسيط كالأسرة ، أو من المحيط الخاص ممثلا في بلاط القصر خاصة .

ومن خلال نظم المرأة للشعر في شتى فنونه وأضربه تنجلي شخصيتها وتتراءى صورتها ، فهي في مجمل الأحوال لا تخرج عن مسار الحياة الاجتماعية المعروفة بين شتى الأمم والشعوب ، ومن ثمة لن تكون إلا أما أو أختا أو بنتا أو زوجة ، وعبر هذا

---

[1] **ليلى الأخيلية** : هي ليلى بنت الأخيل ، من عقيل بن كعب ، وهي أشعر النساء لا يقدم عليها غير الخنساء ، واشتهرت برثائها لتوبة بن الحمير ، وقد رثت عثمان بن عفان - رضي ا عنه – أيضا لما مات ، وقد سألت الحجاج الثقفي أن يحملها إلى قتيبة بن مسلم الباهلي ، فحملها على البريد ، فلما انصرفت مات بساوة ، فقبرت بها .

- ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ج1 ، ص 439 .

[2] **ليلى بنت طريف الشيبانية** : (؟ - نحو 200 هـ / ؟ - نحو 815 م) :

الفارعة ، أو فاطمة ، وقيل ليلى بنت طريف بن الصلت ، التغلبية الشيبانية ، شاعرة من الفوارس ، كانت تركب الخيل وتقاتل ، وعليها الدرع والمغفر ، وهي أخت " الوليد بن طريف الخارجي " واشتهرت بقصديدة لها في رثائه ، منها : [من الطويل] :

بِتَلّ نُبَاثَى رَسْمُ قَبْـرٍ كَأَنّـهُ ... عَلى عَلَمٍ فَوْقَ الجِبَال مُنِيفِ

تَضَمنَ جُودًا حَاتِمِيا وَنَائِـلًا ... وَسَوْرَةَ مِقْدَامٍ وَقلْبَ حَصِيف

ـَيا شَجَرَ الخَابُورِ مَالَكَ مُورِقًا ... كَأَنكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلى ابْن طَرِيفِ

فَلَا تَجْزَعَا يَاابْنَيْ طَرِيفٍ فَإِنني ... أَرَى المَوْتَ نَزّالًا بِكُلّ شَرِيـفِ

- الزركلي : الأعلام ، ج5 ، ص 128 .

- د. قصي الحسين : جمهرة قصص العرب ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1999 ، ج4 ، ص 451-452-453 .

النسق السوسيوثقافي يدور حديثها ، فإن كانت أما ذكرت حنينها لأبنائها أو عطفها عليهم وخوفها من غدر العدا بهم ، وإن كانت أختا رثت أو استعطفت آخر ، أما إذا كانت زوجة فإنها تعبر عن حبها لزوجها ، أو أساها لفقده إن مات أو قتل .

وسنحاول تبين صورة المرأة المغربية الشاعرة من خلال الشعر الذي نظمته .

- مهرية الأغلبية :

فهذه مهرية الأغلبية [1] الشاعرة التونسية تقول أبياتا في رثاء أخيها أبي عقال (غلبون بن الحسن) وقد مات غريبا قصيا عن الوطن سنة 291 هـ منها : [من الرمل] :

لَيْتَ شِعْرِي مَا الذِي عَانَيْتُـهُ ... بَعْدَ طُولِ الصوْمِ مَعَ نَفْيِ الوَسَنْ

مَعَ غُرُوبِ النفْسِ مِنْ أَوْطَانِهَا ... وَالتخَـلي عَنْ حَبِيـبٍ وَسَكَـنْ

يَا شَقِيقًا لَيْسَ فِـي وُجْـدٍ بِهِ ... غُلَّـةٌ تَمْنَـعُنِي مِنْ أَنْ أُجَـنْ

كَمَا تَبْلَى وُجُـوهٌ فِـي الثرَى ... فَكَـذَا يَبْـلَى عَلَيْـهِنّ الحَـزَنْ[2]

لقد هجر النوم أجفانها ، وحلة محله الأرق والوسن ، وعلة ذلك تغرب الأخ عنها وعن الوطن والأحبة ، ولا شك أن هذا الأخير مات أسفا لذلك ، فمنى أي شخص أن يموت وسط الأهل وعلى الأرض التي ربا فيها ، وقد كان الشاعر المتنبي يرثي لحاله بسبب العلة نفسها ، فقد قال أسفا ذات يوم : [من البسيط] :

بِمَ التعَلُّلُ ، لَا أَهْلٌ وَلَا وَطَـنُ ... وَلَا نَدِيـمٌ وَلَا كَأْسٌ وَلَا سَكَـنُ [3]

ثم إن الصبر هو عزاؤها الوحيد في هذه النائبة ، ولولاه لذهب عقلها وانفلتت مهجتها عن كيانها ، وأسفها على أخيها يشبه أسف الخنساء على أخيها صخر قتيل سليم حين قالت : [من الرمل] :

فَلَوْلَا كَثْـرَةُ البَاكِينَ حَوْلِـي ... عَلَى إِخْوَانِـهِمْ لَقَتَلْـتُ نَفْسِـي [4]

---

[1] **مهرية الاغلبية :** (؟ - محو 295 ه / ؟ - نحو 908 م) : مهرية بنت الحسن بن غلبون التميمي ، من بني الأغلب ملوك إفريقية ، شاعرة أميرة ، نشأت في بيت مجد وسؤدد بمدينة رقادة قرب القيروان ، واشتهرت بالأدب ، ووصف نظمها بالجودة ، وبقي من شعرها أبيات في رثاء أخيها أبي عقال ، وقد هاجرت إلى مكة وتوفيت بها .

- الزركلي : الأعلام ، ج7 ، ص 315 .

[2] د. الحسن حسني عبد الوهاب : شهيرات التونسيات ، ص 25 .

[3] أبوالطيب أحمد بن الحسين الكوفي المتنبي : ديوان أبي الطيب المتبني ، شرح : ناصيف اليازجي للديوان الموسوم "بالعرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 2005م ، ج2 ، ص 342.

[4] الخنساء :ديوان الخنساء ، ص73 .

ولا شك أن حسرتها تزداد حين تعلم أن مصير هؤلاء الرجال سيكون النسيان بعد أن تطبق عليهم جوانب الأرض ، وهي لا تريد لذكراهم أن تنمحي أو تزول ، إلا أن سنن الحياة تقضي بغير ما تريد ، ولو كانت ذكرى الأموات ما تزال حارة في نفوس المشيعين لكان الأسف شديدا على خير من الرجل الذي ترثيه وتستعظم فقده .

ومن الأبيات نستشف صورة امرأة غمرت مآقيها العبرات التي لا يبدو أنها ستجف ، والمرأة متميزة في هذا ، فبينما يكفكف الرجال دموعهم القليلة ويظهرون حزما وتجلدا على القتلى والميتين من العشيرة ، نجد النساء يعولون ويندبن ويدعون بالثبور والويل ، ولهن أثناء ذلك طقوس يقمن بها من حلق لشعر الرأس وضرب للصدور وشق للجيوب – كما رأينا ذلك فيما سبق- وهي عادات نسائية متوارثة إلى يومنا هذا رغم نهي الشرع عنها،وتشديده بالعقوبة الموعودة على من يقمن بها .

ولاشك أن مراسيم الموت وفعل الرجال والنساء فيها تظل بصورة نمطية منذ القديم (تجلد من الرجال و تفجع من النساء) ، وكان من يخرج عن هذه "القاعدة" في السلوك يتعرض للنقد بل للتجريح والتعنيف ، فقد عير المهلهل لأنه أكثر من البكاء و النواح على أخيه كليب حتى وصفه قومه و أعداؤه "بالنائحة" تشبيها له بالنائحات من النساء ، وبالمقابل عنفت جليلة بنت مرة زوج كليب القتيل لأنها لم تظهر الجزع على بعلها المغدور خاصة و أن قاتله كان أخوها جساس ، فكان أن قالت أبياتا من الشعر ترد بها على نساء بني تغلب اللائي اتهمنها في ولائها لزوجها ، قالت : [من الرمل] :

يَا ابْنَةَ الأَقْـوَامِ إِنْ لُمْتِ فَلَا ... تَعْجَلِي بِاللوْمِ حَتّـى تَسْـأَلِ

فَإِذَا أَنْـتِ تَبَينْـتِ التِـي ... عِنْدَهَا اللوْمُ فَلُـومِي وَاعْذُلِي

جَلّ عِنْدِي فِعْلُ جَساسٍ فَوَا ... حَسْرَتَا مِما انْجَلَـى أَوْ يَنْجَلِي

فِعْلُ جَساسٍ عَلَى وَجْدِي بِهِ ... قَاطِعٌ ظَهْـرِي وَ مُدْنٍ أَجَلِـي

يَا قَتِيلًا قَوّضَ الدّهْـرُ بِـهِ ... سَقْفَ بَيْتَـيَّ جَمِيعًا مِنْ عَـلِ

هَدَمَ البَيْـتَ الذِي اسْتَحْدَثْتُهُ ... وَ انْثَنَى فِي هَدْمِ بَيْتِـي الأَوّلِ

إِننِـي قَاتِلَـةٌ مَقْتُـولَةٌ ... وَ لَعَـلّ اللهَ أَنْ يَرْتَـاحَ لِـي (1)

---

(1) ابن رشيق : العمدة ، ج2 ، ص842-843.

وربما رغبت كثير من النساء في المغرب بقول الشعر ، ونظم المرائي حينها بفقدان الأحبة ، لكن هذا المطلب عزيز إلا على اللائي أوتين براعة في القول وقدرة على إخراج تلك الأحاسيس وعصارات النفس الحزينة مادة شعرية ذات قيمة << فالمصائب لا تجعل غير الشاعرة شاعرة ، ولابد من تركيب ملائم في بعض الناس لتلقي مادة للشعر عن الروح والقلب والطبيعة >> [1] .

[1] الرافعي : تاريخ آداب العرب ، ج3 ، ص 54 .

- عائشة بنت عمارة :

وإذا مضينا إلى عصر الموحدين نجد الشاعرة عائشة بنت عمارة [1] تنظم شعرا يصلح للغناء ، و هي في ذلك متأثرة – ولاشك – بحركة الغناء المزدهرة و المنتشرة في حواضر الحجاز و مدن الشام و بغداد ، و ربما أرادت بلوغ مراتب شهيرات القيان هناك من مثل جميلة [2] و سلامة القس[3] ودنانير[4] وغيرهن .

ومأثر عن عائشة المغربية قولها : [من مجزوء الرمل] :

أَخَذُوا قَلْبِـي وَسَـارُوا وَاشْتِيَاقِـي أَوْدَعُـونِي

لَا عَـدَا إِنْ لَمْ يَعُـودُوا فَاعْذِرُونِي أَوْ دَعُـونِي

ويقال : إنها بعثت بهما إلى أبي الحسن بن الفكون شاعر وقته ، وقالت :عارضهما أو زد عليهما ، فكتب لها معتذرا عن الجواب : إن الاقتصار عليهما هو الصواب >>[5] .

وفي هذا العصر نجد صورة المرأة التي انتظمت لها آلة الكلم ، وخضت لها شرود القافية ، وواكب تطور الملكة اللغوية والأدبية عندها تحررا اجتماعيا وإلماما بثقافات الشرق وضروب الغناء وآلة الطرب هناك ، ومن ثمة أصبحت المرأة المغربية تتصل

---

[1] **عائشة بنت عمارة :** عائشة بنت عمارة بن يحي بن الشريف الحسني ، شاعرة من شواعر المغرب في القرن السادس للهجرة ،ذات فصاحة و بلاغة ،و كانت تجود الخط ، فقد كتبت يتيمة الدهر للثعالبي في ثمانية عشر جزء و في خاتمة سفر منه قطعة شعر من نظم والدها موجودة بالخزانة السلطانية ببجاية .

- عمر رضا كحالة : أعلام النساء ،ج3 ،ص 182-183 .

[2] **جميلة** : هي جميلة مولاة نبي سليم ، ثم مولاة بطن منهم يقال لهم بنو بهز، و كان لها زوج من موالي بني الحارث بن الخزرج – و كانت تنزل فيهم – فغلب عليها ولاء زوجها فقيل إنها مولاة للأنصار، و هي أصل من أصول الغناء، و عنها أخذ معبد و ابن عائشة و حبابة و سلامة ... و كان معبد يقول : " أصل الغناء جميلة ، وفرعه نحن ، و ولولا جميلة لم نكن نحن مغنين " .

- د.إحسان النص : اختيارات من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، ج6،ص147-148.

[3] **سلامة القس** : مولدة من مولدات المدينة و بها نشأت ، و أخذت الغناء عن معبد و ابن عائشة و جميلة ، و إنما سميت سلامة القس لأن رجلا يعرف بعبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي من قراء أهل مكة – وكان يلقب بالقس لعبادته – شغف بها و شهر ، فغلب عليها لقبه ، و اشتراها يزيد بن عبد الملك في خلافة سليمان و عاشت بعده .

- المرجع نفسه : ج6 ،ص 172

[4] **دنانير** : كانت مولاة يحيى بن خالد البرمكي ، وكانت صفراء مولدة ، وكانت من أحسن الناس وجها وأظرفهن وأكملهن أدبا وأكثرهن رواية للشعر .

- المرجع نفسه : ج6 ، ص 404 .

[5] أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني : عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تحقيق : رابح بونار ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1389هـ / 1970م ، ص 79 .

بالشعراء وتعرض عليهم شعرها ليزيدوا عليه أو ينقصوا منه أو يقوّموا معوجه ، حتى يصبح مطواعا صالحا للغناء ومن ثمة تصير لها شهرة واسعة << ولعل مما يدل على شغف النساء بهذه الأغاني أن نجدهن لا يتحرجن من أن يذكرن فيها ، وأن يتغنى الشعراء بأسمائهن ...وكأنما كن يتخذن من هذه الأغاني ما تتخذه المرأة من الصحافة الحديثة ، فهن يعلن عن أسمائهن فيها ويتخذن من الشعراء ما تتخذه المرأة الحديثة من مصوري الصحف ، وكن يستبقن إلى هذا استباقا >>[1]

وقالت في هجر أحدهم لها : [من الخفيف] :

صَدَّنِي عَنْ حَلاَوَةِ التشْيِيعِ   اجْتِنَابِـي مَرَارَةَ التوْدِيـعِ

لَمْ يَقُمْ أُنْسُ ذَا بِوَحْشَةِ هَذَا   فَرَأَيْتُ الصوَابَ تَرْكَ الجَمِيعِ [2]

ويلحظ أن البيتين قيلا في هجران أحد العاشقين لها ، وصده الأبواب في وجهها ، وتحاول الشاعرة إظهار خلاف ما تبطن ، فهي تقول أنها غير عابئة بهذه القطيعة ولا متأسفة على فراق الرجل وضياع حبه ، لأنها اعتادت على ألم الفراق وحرقة الوجد ، وانخراق عرى المحبة بين الآلاف لسبب أو لآخر .

غير أن كلماتها في البيت الثاني تفضح عشقها ووجدها الدائمين ، فهي لا تستطيع أن تبتعد عن أجواء الألفة والعشق ، وينكشف هذا من خلال قولها " لم يقم أنس ذا "، فربما تطلعت لشخص آخر تلأم معه جراحها السابقة ، وتعيد بواسطته حبها الضائع ، لكنها لا تستطيع إلى ذلك سبيلا بسبب فقدان الرجل المطلوب ، أو أنها برمت من تقلب الأمزجة وتغير الأحوال لدى الرجال ، فارعوت عن غيها بعدما خبرت مكرهم وتقلب أهوائهم ، لذلك كان " ترك الجميع " قاعدة في تعاملها تلجم بها أهواء النفس وخلجات الشعور .

ونجد لها شعرا آخر ، وذلك حينما خطبها رجل من الأشراف كان أصلع ، فلم تجبه إلى طلبه ، وقالت هذه الأبيات تداعب صاحباتها من الفتيات : [من المتقارب] :

---

[1] د. شوقي ضيف : الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط3 ، 1976 ، ص 229 .

[2] الغبريني : عنوان الدراية ، ص 79 .

والبيتان في الخريدة منسوبان لأبي جعفر عبد الولي البني الكاتب .

- العماد الأصفهاني : الخريدة ، ج1 ، ص182 .

عَذِيري مِنْ عَاشِقٍ أَصْلَـعِ   قَبِيحِ الإِشَـارَةِ وَالمَنْـزَعِ
يَرُومُ الزِّوَاجَ بِمَـا لَوْ أَتَى   يَرُومُ بِهِ الصفْعَ لَمْ يُصْفَعِ
بِرَأْسٍ حُوَيْـجٍ إِلَـى كَيـةٍ   وَ وَجْهٍ فُقَيْرٍ إِلَـى بُـرْقُعِ [1]

ويبدو الظرف والفكاهة من الشاعرة فهي تهزأ من هذا الخاطب الأصلع ، وقد رأت رأسه الأملس يصلح للكي ، كما أن وجهه خليق أن يستر بالبرقع نظرا لقبحه ودمامته ، ولا يخفى ما تثيره صيغة التصغير في " حويج " و " فقير " من داع للضحك ، ومن ثمة يتضح استصغار الشاعرة لهذا الرجل ، والمرأة المغربية مستها نفحات المدنية ، وعللتها نسائم الحضارة ، فطلقت حياة الشظف والخشونة التي كانت تحياها في البوادي والجبال ، وتغيرت المفاهيم والعادات الاجتماعية بانتقال الحياة من البوادي الموحشة إلى الحواضر المترفة التي يطبع أهلها الرقة والليونة في معاملة المرأة ، و تبعا لذلك تغيرت ملامح الرجل الذي تطلبه المرأة وتريده بعلا لها ، وقديما كانت المرأة تطلب الفارس المغوار الذي يرهب الأعداء في المعارك ويستطيع أن يحمي ماله ومتاعه وأهله بقائم سيفه وسنان رمحه كما قالت عاتكة بنت عمرو بن نفيل حينما رثت عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق -رضي ا عنه - ذاكرة فعاله في الحرب : [من الطويل] :

فَآلَيْتُ لَا تَنْفَكُّ نَفْسِـي حَزِينَـةً   عَلَيْكَ وَلَا يَنْفَكُّ جِلْـدِي أَغْبَـرَا
فَتًى طُولُ عُمْرِي مَا أَرَى مِثْلُهُ فَتًى   أَكَرَّ وَأَحْمَـى فِي الهِيَاجِ وَأَصْبَرَا
إِذَا شَرَعَتْ فِيهِ الأَسِـنةُ خَاضَـهَا   إِلَى القَرْنِ حَتى يَتْرُكَ الرُّمْحَ أَحْمَرَا [2]

أما حينما قامت الدول والإمارات واتسع البنيان ، وأصبح للناس شُرَط وأجناد تحميهم من الغارات والسلب ، وتحفظ أعراضهم من معرة السبي ، فقد استشعرت المرأة الأمان وتغيرت ملامح الرجل الذي تريده ، فقد أضحت تطلب رجلا رقيقا ممتلئ لطفا ،عليه ثياب أنيقة تبرز مظاهر التحضر فيه ، فالثياب الخشنة ومظاهر الجفاء والقسوة ولت بلا رجعة ، وحواضر القيروان وفاس وبجاية ونظيراتها في المشرق كبغداد ودمشق والمدينة أصبحت الحياة فيها مترفة ، وملأ حياة أهلها الترف والرقة ومن ثمة أمكننا القول أن

---

[1] الغبريني : عنوان الدراية ، ص80 .
[2] القرن : الند ، يترك الرمح أحمرا : أي ملطخا بالدماء .
- شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي : المستطرف في كل فن مس
، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 1426 ه / 2005 م ، ص 591 .

المرأة << أصابت ضربا من الحرية تحت تأثير الحياة الاجتماعية الحديثة ، كما أخذت تقبل على الرجل بأكثر مما كانت تقبل عليه المرأة الجاهلية ، فهي ليست مثلها حشمة وتصنعا وتكلفا وما يتصل بالتكلف ، وإنما هي سيدة حديثة تأخذ قسطا واضحا من الحرية فتبرز للرجال ، وقد تغازلهم غزلا عفيفا >> [1] .

وأمكننا هنا أن ننقل حديثا أورده الأبشيهي ، وهو على ما فيه من الطرافة يكشف هذا التغير الجذري الذي مس حياة المرأة وطريقة تفكيرها حيث جعلها تقبل على الرجل الحضري الرقيق على ما فيه من ضعف ، وتصد الرجل الجافي برغم قوته وبسالته ، يقول الأبشيهي : << وحكى الفضل أبو محمد الطبيبي قال : حدثنا بعض أصحابنا أن رجلا من بني سعد مرت به جارية لأمية بن خالد بن عبد ا بن أسد ، ذات ظرف وجمال ، وكان شجاعا فارسا ، فلما رآها قال : طوبى لمن كان له أمراة مثلك ، ثم أتبعها رسولا يسألها : ألك زوج؟ ، ويذكره لها ، وكان جميلا ، فقالت للرسول : وما حرفته ، فأبلغه الرسول ذلك ، فقال : ارجع إليها وقل لها : [من الطويل] :

وَسَائِلَةٍ مَا حِرْفَتِي قُلْتُ حِرْفَتِي ... مُقَارَعَةُ الأَبْطَـالِ فِي كُلّ شَارِق [2]

إِذَا عَرَضَتْ خَيْـلٌ لِخَيْلٍ رَأَيْتِنِي ... أَمَامَ رَعِيلِ الخَيْلِ أَحْمِي حَقَائِقِي [3]

أُصَبرُ نَفْسِي حِينَ لَمْ أَرَ صَابِرًا ... عَلَى أَلَمِ البِيضِ الرّقَاقِ البَوَارِق [4]

فلحقها الرسول فأنشدها ما قال ، فقالت له : ارجع إليه وقل له : أنت أسد فاطلب لك لبؤة فلست من نسائك ، وأنشدته تقول : [من الطويل] :

أَلاَ إِنمَا أَبْغِـي جَوَادًا بِمَـالِهِ ... كَرِيـمًا مُحَيَاهُ كَثِيـرَ الصـدَائِق

فَتًى هَمهُ مُذْ كَانَ خُودُ خَرِيدَةٍ ... يُعَانِقُـهَا بِاللَّيْـلِ فَوْقَ النَّـمَارِق[5]

هذا هو المعيار الجديد للحياة الاجتماعية ، رقة وضعف ، ولهو في الحديث وسحر يملأ القلوب ، وبهجة تغمر النفوس ، وتطلّع للرجال من دون حشمة ولا وقار، نساء يرفلن في

---

(1) د شوقي ضيف : التطور والتجديد في الشعر الأموي : ص 224-225 .

(2) كل شارق : أي في كل مكان .

(3) حقائقي : مفردها حقيقة وهي كل ما يحفظ ويرعى .

(4) البوارق : السيوف اللامعة .

(5) النمارق : الفرش .

- الأبشيهي : المستطرف ، ص 593 .

الدمقس وفي الحرير ، يتنعمن في القصور ، ولا يستهويهن غير حديث الجمال والدلال والغنج ، أو كما وصف إحداهن عمر بن أبي ربيعة بقوله [من الرمل] :

وَلَقَدْ قَالَـتْ لِأَتْـرَابٍ لَـهَا ۝ كَالمَـهَا يَلْعَبْـنَ فِـي حُـجْرَتِهَا

خُذْنَ عَني الظـِّلّ لاَ يَتْبَعُنِي ۝ وَ مَضَـتْ تَسْعَـى إِلَـى قُبتِهَا [1]

<< وهذا دلال أي دلال ، أن تطلب المرأة من جواريها أن يأخذن الظل عنها ، وأكبر الظن أنها لا ترمز بذلك إلى شيء سوى الظل نفسه ، فالحديث حديث دلال ولعب >>[2] .

وكانت النتيجة ذلك الانحلال في الأخلاق والإسراف في اللهو والمجون بما هو معروف عن حياة المدن << فالنزول في الحضر يدعو إلى الترف والتنعم وإلى اللهو بما يتيسر للمرء في المدن من أوقات الفراغ ومن تقليد المترفين وأصحاب الملك وأهل السلطان ،و من الاحتكاك بالأمم التي لا ترفع مثلها العليا في الأخلاق والشرف .. وخصوصا إذا كان في المدن من يتصدى لبيع اللهو وأسبابه على الشبان الأغرار ، فتفسد حينئذ أحوال الحياة وتتدنى المثل العليا وتقل الشجاعة والخير في الطباع ، وقد كان من نتائج ذلك أن انتشرت مجالس الشراب والغناء واللهو، وخصوصا في ضواحي المدن وفي الأديرة>> [3] .

وعلى كل حال نرى في شعر عائشة بنت عمارة صورة المرأة التي يطبعها الظرف وحسن الحديث ، مع رغبة دائمة في التندر والحديث إلى الرجال ... وهذا كله من جراء تأثير الحياة الحضرية ، فعلى الرغم من أن أبا الطاهر عمارة بن يحيى بن الشريف الحسني كان فقيها فاضلا[4] وربت عائشة في كنفه ورعايته ، إلا أن رياح التمدن كانت تعصف بكل جهود الحفاظ ودواعي الاحتشام ، نقول هذا بكل تحفظ وكثير من الحذر ، لأن أبيات عائشة السالفة يمكن إدراجها أيضا ضمن روح المداعبة التي لا يخلو أحد منها.

---

[1] عمر بن أبي ربيعة : ديوان عمر بن أبي ربيعة ، ص 122 .

[2] د. شوقي ضيف : التطور والتجديد في الشعر الأموي ، ص 226 .

[3] د. عمر فروخ : بشار بن برد وفاتحة العصر العباسي ، دار لبنان للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، 1399 ه / 1979 م ، ص 25 .

[4] الغبريني : عنوان الدراية ، ص 76 .

- حفصة الركونية :

وفي العصر الموحدي نجد الشاعرة حفصة الركونية [1] التي كانت تراسل الشعراء والقواد وتقرض الشعر ، وأثنى عليها ابن الخطيب فوصفها بأنها << فريدة الزمان في الحسن والظرف واللوذعية >>[2] ، وذكرها المقري بقوله : << الشاعرة الأديبة المشهورة بالجمال والحسب والمال >>[3] ، وقد انتقلت من غرناطة إلى مراكش ولقيت الحظوة عند أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي الموحدي ، وطبيعي أن تجلب امرأة – بتلك الصفات – الأنظار إليها ويتنافس عليها المتنافسون ، وقد وقعت بين أمير المؤمنين والشاعر أبي جعفر العنسي وحشة وجفاء بسبب عشقهما لها ، وقد كانت هي نفسها تميل إلى هذا تارة وإلى الآخر مرة أخرى .

وقد << بلغها أن أبا جعفر بن سعيد علق بجارية سوداء فأقام معها أياما ، فكتبت إليه: [من المنسرح]:

يَا أَظْرَفَ الناس قَبْلَ حَالٍ　　　أَوْقَعَهُ وَسْطَـهُ القَـدَرْ

عَشِقْتَ سَوْدَاءَ مِثْلَ لَيْـلٍ　　　بَدَائِعَ الحسْن قَدْ سَتَـرْ

لَا يَظْهَرُ البِشْرُ فِي دُجَاهَا　　　كَلَا وَلَا يُبْصَـرُ الخَفَـرْ

بِاللهِ قُلْ لِي وَأَنْتَ أَدْرَى　　　بِكُلِّ مَنْ هَامَ فِي الصوَرْ

مَن الذِي هَامَ فِي جِنَـانٍ　　　لَا نَوْرَ فِيهِ وَلَا زَهَرْ ؟ ! [4]

ونلحظ هنا صورة المرأة الشاعرة وقد استعرت بين جوانحها نار الغيرة .

---

[1] **حفصة الركونية** : (نحو 530-586 هـ / نحو 1135 – 1190 م) :

حفصة بنت الحاج الركونية الأندلسية ، مولدها في غرناطة ، شاعرة ، انفردت في عصرها بالتفوق في الأدب والظرف والحسن وسرعة الخاطر بالشعر ، جاء في معجم الأدباء لياقوت : << شاعرة أديبة من أهل غرناطة مشهورة بالحسن والأدب والجمال والمال ، جيدة البديهة رقيقة الشعر ، أستاذة وليت تعليم النساء في دار المنصور أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي ... ، وتولع بها أمير المؤمنين عبد المؤمن المذكور ، وتغير بسببها على أبي جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي ، وكان عاشقا لها متصلا بها يتبادلان رسائل الغرام ، ويتجاوبان تجاوب الحمام ، وقد أدى ولع عبد المؤمن بها إلى قتل أبي جعفر .... ماتت حفصة بمراكش سنة ست وثمانين وخمسمائة >>.

- ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج3 ، ص 228-231 .

- المقري : نفح الطيب ، ج5 ، ص 104 .

[2] لسان الدين ابن الخطيب السليماني : الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق وتقديم : عبد ا عنان ، دار ، المنصور، الرباط ، المغرب ، دت ، ج 1 ، ص 501 .

[3] المقري : نفح الطيب ، ج5 ، ص 104 .

[4] ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج3 ، ص 229-230 .

وتتضمن الأبيات هجوا ممزوجا بعتاب قاس تخفيه ألفاظ مصطنعة حتى لا تظهر غيرة الشاعرة وضعفها الشديد ، وهي ترى أن من يعشق الجارية السوداء كمن يعشق السرى في الليل فهو يسير على غير هدى ، وحاله كحال فاقد البصر الذي لا يميز بين السواد والبياض، وبين مواطن الجمال والقبح ، فكأنها تردد بيت المتنبي المشهور:[من البسيط]:

وَمَا انْتِفَاعُ أَخِي الدُّنْيَا بِنَاظِرِهِ … إِذَا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الأَنْوَارُ وَالظُّلَمُ [(1)]

ثم إنها تعجب من إعجاب أبي جعفر بها طالما أن السواد يحجب أسارير وجهها ، فلا تبدو آيات الفرح أو علامات الرضى فيه ، كما أن ملامح الخفر والحشمة قد طمست أيضا ، وماذا يبقى للإنسان إذا ذهبت عنه كل هذه الصفات؟! ، والمحصلة أن هذه السوداء لا تعرف شيئا عن الهوى ولا يمكن أن تُسعِد أحدا ، وبالتالي فهي كالحجر الأصم أو كما قال الشاعر:[من الطويل]:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْشَقْ وَلَمْ تَدْرِ مَا الهَوَى … فَكُنْ حَجَرًا مِنْ يَابِسِ الصخْرِ جَلْمَدَا [(2)]

ويستمر عجب الشاعرة من هذا العشق المزعوم ، وتورد مثالا عن شخص يحب روضة خالية من الأزهار والرياحين ، وإنما تعني أن هذه السوداء ليس فيها من عناصر الأنوثة الفتانة ما يجعل الرجل يرغب فيها ، وبذلك يقابل القوام والخصر والصدر والجيد في المرأة ، الزهر والنوار والرياحين في الطبيعة .

ونجد لها أبياتا أخرى تتجلى فيها غيرتها على عشيقها وسط زحام الجواري حيث لا تكاد عينها ترمقه أحيانا بسبب التفافهن حوله ، فتقول :[من الوافر]:

أَغَارُ عَلَيْكَ مِنْ عَيْنِي وَقَلْبِي … وَمِنْكَ وَمِنْ زَمَانِكَ وَالمَكَان

وَلَوْ أَني جَعْلتُكَ فِي عُيُونِـي … إِلَـى يَوْمِ القِيَامَةِ مَا كَفَانِي [(3)]

وقد كانت تصرح في غير موضع بغيرتها الشديدة على من تحب ، ويبدو أن الجواري كن ينافسنها في الظفر به ، ولعل سبب هذا التحول من مرحلة كتمان الحب والتحفظ على المشاعر إلى عهد المجاهرة به ، هو إحساس المرأة بأنها لن تظفر برجل طالما بقيت متسترة كاتمة لحبها خاصة وأن الجواري لم يتركن رجلا إلا وعلقنه وأوقعنه في حبائلهن، وحتى إن ظفرت به فإنها تحس بأن أيامها قصيرة معه إذ سرعان ما يفتتن بغيرها

---

(1) المتنبي : ديوان المتنبي : ج2 ، ص120 .

(2) عمر بن أبي ربيعة : ديوان عمر بن أبي ربيعة : ص 191 .

(3) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج3 ، ص231 . و قد ورد البيتان في النفح مع بعض التغيير ، فبدل " عيني و قلبي " نجد " عيني رقيبي " ، و بدل " جعلتك " نجد "خبأتك " . (المقري : نفح الطيب ، ج5 ، ص108) .

ويهجرها إلى أحسنهن قواما وجمالا ، ولعل ما يشي بشدة تعلقها به عبارة " جعلتك في عيوني " فهي تضعه دائما نصب أعينها حتى لا يجاوزها إلى غيرها .

ولعل هذا الانقلاب الذي مس وجدان المرأة بما جعلها تبوح بما كانت تضن به قديما لم يقتصر على بلاد المغرب ،ولم يخص نساءه فقط ، بل مس المشرق أيضا .

وقد وصف لنا ابن أبي ربيعة تعرض نساء مكة والمدينة له ولغيره بقوله :[من الرمل]:

بَيْنَمَـا يَذْكُرْنَنِي أَبْصَرْنَنِـي	دُونَ قِيْدِ المِيْل ، يَعْدُو بِي الأَغَرْ
قَالَتِ الكُبْرَى :أَتَعْرِفْنَ الفَتَى	قَالَتِ الوُسْطَى : نَعَمْ هَذَا عُمَـرْ
قَالَتِ الصغْرَى وَقَدْ تَيمْتُـهَا	قَدْ عَرَفْنَاهُ ، وَهَلْ يَخْفَى القَمَرْ![1]

و قوله في موضع آخر : [من السريع] :

قَالَتْ لِتِرْبٍ لَـهَا تُحَدِّثُهَا :	لَنُفْسِدَنَّ الطَـوَافَ فِـي عُمَـرِ
قُومِي تَصَدَّيْ لَـهُ لِيُبْصِرَنَا	ثُمَّ اغْمُزِيهِ يَا أُخْـتُ فِي خَفَـرِ
قَالَتْ لَهَا : قَدْ غَمَزْتُهُ فَأَبَى	ثُمَّ اسْبَطَرَّتْ تَسْعَى عَلَى أَثَـرِي[2]

فالمرأة في العصر الأموي وبعده ، أخذت تقبل على الحياة الجديدة ، وليس معنى هذا أنها أخذت في التبذل والمشاع ، بل إنه التكيف مع وضع يفرض عليها سلوكا يعد جريئا قياسا إلى ما كانت عليه حتى تظفر بالرجل لأن << كثيرا من الشبان خرجوا من وطنهم للغزو والجهاد ولم يعودوا ، إما لأنهم قتلوا في الفتح ، أو لأنهم آثروا الأرض الجديدة التي نزلوا فيها ... ودائما عقب الحروب تحدث مثل هذه الهزات في نفسية المجتمع >>[3] .

وقد كانت أرض المغرب مسرحا للثورات والشغب والحروب المتواصلة بين الدول والإمارات الناشئة هنا وهناك ، وقد فقدت – بسبب تلك الحروب – طاقات شبانية هائلة ، بالإضافة إلى هجرة العديد من المغاربة إلى شتى البقاع فرارا من نيران الحروب المستعرة وحتمية التعرض إلى القتل ، ومن ذلك كان الاختلال في مكونات المجتمع

---

[1] ديوان عمرو بن أبي ربيعة ، ص 280 .

[2] ترب :رفيقة من عمرها ، أي أنها قالت لصاحبتها : سنستعين بعمر و نفسد الطواف ، إشارة إلى العزم على وصله و بذلك تفسد الغاية التي من أجلها كان الطواف .

خفر : حياء .

اسبطرت : أسرعت

- المصدر نفسه : ص 172.

[3] د. شوقي ضيف : التطور والتجديد في الشعر الأموي ، ص 225 .

المغاربي ، فكثرت الجواري والمسبيات المجلوبات من شتى البقاع وتزاحمن في القصور والبيوت وقل الرجال والشباب وهذا ما دفع المرأة إلى الاعتماد على نفسها للظفر بالرجل.
وتبعا لذلك انحطت صورة المرأة عما كانت عليه سابقا ، فبعد أن كانت تذيق الشعراء والأدباء والرجال عامة ويلات الهجر وعذاب الصد والإعراض ،أصبحت الآن هي من يغار ويذاق ذلك العذاب ، يقول عبده بدوي : << كان الشعراء عادة يجرون على الطريقة التي تجعل الأنثى مركز القصيدة ، فهي تبدو دائما في إطار جمالي ساحر ، ومن حول هذا الإطار يسهر الشاعر ويأرق ، ويشكو ويبكي ، لكن تغيرت الصورة بعد أن اختلط العرب بغيرهم ، وكثرت الجواري المبذولة للمريدين ... ذلك أن المرأة قفزت إلى عالم الحرية ، ولأن الترف أغرق الكثيرين ،ولأن المرأة لم تعد مستحيلا وإنما أصبحت في الإمكان ذلك أنها إلى جانب العربيات ، والروميات ، والفارسيات >> [1] .
وعلى كل لا نكاد نعثر على صور كثيرة للشواعر المغربيات اللائي يجهرن بعشقهن وحفصة الركونية تكاد تنفرد في هذا المجال ، ولكن لا يجب أن ننسى أنها شاعرة مغربية أندلسية في آن واحد ، وإذا علمنا أن النساء المغربيات أكثر احتشاما والتزاما في الشعر نظرا لطبيعة المنطقة المحافظة (خاصة في عصرالموحدين)، فإن الأندلسيات خلاف ذلك ، حيث تمتعن بنصيب وافر من حرية الحركة والتعليم ، وكان لهن حضور مجالس الأنس حيث يجتمع الرجال فزال عنهن مانع الحياء والحشمة ، وأضحين متهتكات لا يقمن اعتبارا لحدود الشرع وضوابطه أو حتى لعادات الحفاظ لدى المجتمع الإسلامي وهذا ما يؤكده هنري بيريس Péres Henri في دراسة له عن الشعر الأندلسي العربي، حيث يرى<< أن المرأة الأندلسية خلال فترة ملوك الطوائف كانت تتمتع بوضعية أكثر ليبيرالية من وضعية أخواتها في المشرق الإسلامي ، وهو أمر يكشف عن الجذور الغربية العميقة لنفسية أهل الأندلس وعاداتهم ، والذين لم يتعربوا ولم يستشرقوا إلا سطحيا >>[2] .

---

[1] د. عبده بدوي : دراسات في النص الشعري ، عصر صدر الإسلام وبني أمية ، دار قباء ، القاهرة ، مصر ، 2000 م ، ص 126 .

[2] بيير غيشار : التاريخ الاجتماعي لإسبانيا المسلمة ، من الفتح إلى نهاية الحكم الموحدي ، ، ترجمة : مصطفى الرقي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1999 م ، ج2 ، ص 280 .

غير أن بيير غيشار Piére Guichar يرى أن هذا الرأي لا يعد قطعيا ، إذ أن السلوك الذي صدر عن بعض النساء ارتبط – ضمنيا- بوضعن الاجتماعي المهني ، وهو بذلك يقصد فئة الجواري الإماء اللواتي تم إعدادهن للرقص والغناء والتسلية ، أما وضعية المرأة الحرة فكانت شبيهة بأختها في بلاد المشرق الإسلامي ، حيث تخضع لواجب المحافظة على الشرف وعلو النسب [1] .

وبذلك تتميز الحرة عن فئة الجواري المبذولات للرجال في كل حين ، فليس للمرأة الحرة أن تخالف القاعدة وتنزل إلى مرتبة دونية ، كما ليس للجواري أن يساوين أنفسهن بالحرائر ويرتقين إلى منزلة أسمى ، تلك هي القاعدة العامة التي تحكم علاقة الحرائر والجواري برجال القصر أو السواد من العامة ، وطبعا هنا يمكننا ملاحظة بعض الاستثناءات كعلو شأن بعض الجواري في قصر الإمارة حيث أصبحن الموجهات الحقيقيات لسياسة الدول والعنصر الفاعل في تغيير أو تثبيت القرارات التي يصدرها الحاكم أو الأمير ... وهذا نتيجة الكلاف بهن بسبب الجمال الذي خصصن به ، أو حسن الرأي والتدبير الذي عرف عنهن .

كما نلاحظ انحطاط منزلة بعض الحرائر الكريمات اللائي خصصن بنسب رفيع ومكانة لائقة لكنهن آثرن التهتك وأكثرهن من نساء الأندلس من مثل ولادة بنت المستكفي با [2] التي كانت شريفة إلا أنها جنت على نفسها وأتاحت للألسنة التقول عليها والطعن في شرفها[3] ، وذلك لكثرة ارتيادها مجالس الرجال ، ولعل هذا "الكسر" للقاعدة النمطية شجع كثيرات من حرائر المغرب على تقليدها والخروج من الضائقة النفسية التي أجبرن عليها.

---

[1] بيير غيشار : التاريخ الاجتماعي لإسبانيا المسلمة ، ج2 ، ص 280 .

[2] **ولادة بنت المستكفي با** (؟- 484 هـ / ؟- 1091 م) :

ولادة بنت المستكفي با محمد بن عبد الرحمن الأموي : شاعرة أندلسية من بيت الخلافة كانت تخالط الشعراء وتساجلهم ، اشتهرت بأخبارها مع الوزيرين ابن زيدون وابن عبدوس ، وكانا يهويانها ، وهي تود الأول وتكره الثاني ، حتى وقع بينهما ما وقع وكتب ابن زيدون رسالته التهكمية المعروفة إلى ابن عبدوس .

وفي شعر ولادة رقة وعذوبة إلا ما كانت تهجو به ، توفيت بقرطبة .

- الزركلي : الأعلام ، ج8 ، ص 118 .
- محمد المنتصر الريسوني : الشعر النسوي في الأندلس ، ص 73 .

[3] لقد كانت تنظم أبياتا توحي بالمجون والصلف ، وإن كان يظن أنها إلى العبث والظرف أقرب إلى الجد من مثل قولها : [من الوافر]:

=

وإذا عدنا للحديث عن حفصة الركونية أمكننا الجزم أنها سيدة ذات حسب ونسب كما أكد ذلك ياقوت وغيره ، ولكن رغم ذلك آثرت الاتصال بالرجال حيث كانت تعقد مجالس الأدب والفكر بغرناطة ، وما لبث صيتها أن ذاع فاستقدمت إلى حاضرة الموحدين بمراكش ، وعلى الرغم من التشدد الذي كان يظهره الخلفاء الأوائل للدولة الموحدية حيال المرأة إلا أنها استطاعت التأثير فيهم ، بل ودفعتهم إلى التنافس فيما بينهم للظفر بحبها ووصالها ، ولاشك أن حفصة كانت تحذو حذو ولادة وتسلك طريقها للظفر بالمكانة والسؤدد .

ويمكن القول إن صورة المرأة الشاعرة بالمغرب لا تتقارب في ملامحها مع صورة نظيرتها بالمشرق والحفاظ الذي يطبع مشهد المرأة المشرقية – نسبيا - مرده ثقافة أصيلة وامتداد حضاري ومهد إسلامي مشرقي ، أما " الضبابية " التي تلف صورة المرأة المغربية فمرده ثقافة وافدة لم يكتب لها أن تستقر وتؤثر في النفوس على الرغم من الجهود المبذولة من قبل العلماء ، وامتداد محصور في مناطق متناحرة ، بالإضافة إلى تأثير الثقافات الوافدة التي وجدت طريقها للتأثير على أهل المغرب طالما أنها صادفت فراغا روحيا وفكريا لديهم ، وقد كانت موانئ المغرب تعج بالجواري الروميات والنبيذ الأوروبي وكل ما يساهم في انتشار الرذيلة والمجون [1] .

ونرى في شعر حفصة الركونية صورة المرأة التي أضناها الحب وهي تنظم شعرا لتبثه إلى من أذاقها ويلات الهجر والإعراض ، ويروى أنه << كان أبو جعفر بن سعيد يوما في منزله وقد خلا ببعض أصحابه وجلسائه ، فضرب الباب فخرجت جاريته تنظر من الباب فوجدت امرأة ، فقالت لها : ما تريدين ؟، فقالت :ادفعي لسيدك هذه البطاقة ، فإذا فيها :

[من الخفيف] :

زَائِرٌ قَدْ أَتَـى بِجِيـدِ غَـزَالٍ طَامِـعٌ مِنْ مُحِبهِ بِالوصَـال

= **أَنَا وَاللـهِ أَصْلُـحُ لِلْمَعَالِـي وَأَمْشِي مِشْيَتِـي وَ أَتِيهُ تِيهَـا**

وَأُمْكِنُ عَاشِقِي مِنْ صَحْن خَدِّي وَأُعْطِي قُبْلَتِي مَـنْ يَشْتَهِيهـَا

ويعقب المقري على ذلك بقوله : << وكانت مع ذلك مشهورة بالصيانة والعفاف>> .

- المقري : نفح الطيب ، ج5 ، ص 133 .

غير أن بعض النسوة كن يهاجينها من مثل مهجة بنت التياني التي قالت عنها : [من السريع]:

وَلاَدَةُ قـــَدْ صِـرْتِ وَلاَدَةً مِنْ غَيـْرِ بَعْـلٍ فُضِـحَ الكَاتِـمُ

- المصدر نفسه : ج5 ، ص 210 .

[1] د. حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، ج2 ، ص 531 .

بِلِحَاظٍ مِنْ سِحْـرِ بَابِلَ صِيغَتْ   وَ رُضَابٍ يَفُوقُ بِنْتَ الدَّوَالِي
يَفْضَحُ الوَرْدَ مَا حَوَى مِنْهُ خَدٌّ   وَكَـذَا الثغْـرُ فَاضِـحٌ لِلآلِي
أَتُرَاكُـمْ بِإِذْنِكُـمْ مُسْعِفِيــهِ   أَمْ لَكُـمْ شُغْلٌ مِنَ الأَشْغَـالِ ؟ [1]

وزاد ابن سعيد :

مَا تَرَى فِي دُخُولِهِ بَـعْدَ إِذْنٍ   أَوْ تَرَاهُ لِعَارِضٍ فِـي انْفِصَالِ [2]

وهنا تبدو صورة المرأة التي تعرض نفسها على عشيقها عرضا ، وتشبه جيدها بجيد الغزال في حسنه و اعتداله وتثنيه ، ولعل ما يكشف شغفها بوصال أبي جعفر كلمة " طامع" ، ومن الغريب أن نجد النساء يترجين وصال الرجال ، ويطلبون ذلك توسلا ، وقد كانت الصورة النمطية التي انطبعت في ذهن الناس أن " طمع الوصال " مرارة يكابدها الرجل لا المرأة .

ثم ما تفتأ تعدد محاسنها لمن تتوق إليه ، فهي ذات عينين جميليتين ، تسحر بهما كل من ينظر إليهما ، كما تسحر أبنية بابل ومناظرها كل من يقف عليها أو يمر بها ، ولا تقف الشاعرة عند هذا الحد ، فما تلبث أن تدخل غمار الغزل المتماجن حيث تحث الحبيب على لقائها لأن ريق شفتيها عند الخلوة لا يقاوم ، فهو براء السقم و به يزول الغم والنكد ، وينتشي ذائقه نشوة من يتذوق الخمرة .

ويبلغ تذلل المرأة مداه حينما تترجى المحبوب بقولها " أتراكم بإذنكم مسعفيه " ولا نكاد نجد شبيها لهذا القول بين شعر النساء مهما بلغت درجة وجدهنّ ، وفي هذه الأبيات قلبت حفصة معاني الغزل ، وأعادت توزيع أطراف الترسل بشكل معاكس ، حيث إن وصف المعاناة من هجران الحبيب ثم بيان صفاته الجسدية وملكاته الحسية الوجدانية ثم ترجي المحبوب لأن يلين قلبه ويعطف على من تحب ولو بنظرة عابرة أو بسمة عارضة هو اختصاص رجولي معبر عنه بغزل يوجهه الرجل للمرأة .

إلا أن حفصة سطت على المعاني الشعرية للرجال لأنها رأت أنها أعرف بنفسها وبالتالي فهي أولى أن تصفها قبل الرجال (قلب المعنى المألوف) .

وقريب من معاني الأبيات السابقة ما أوردته في هذه الأبيات الموجهة دائما إلى الشاعر

---

[1] ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج3 ، ص 230-231 .

[2] ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، ج2 ، ص 139 .

أبي جعفر : [من الوافر]:

أَزُورُكَ أَمْ تَزُورُ ؟ فَـإِنَّ قَلْبِي ... إِلَى مَــا تَشْتَهِي أَبَــدًا يَمِيلُ

فَثَغْرِي مَــوْرِدٌ عَــذْبٌ زُلَالٌ ... وَفَرْعُ ذُؤَابَتِي ظِـلٌّ ظَلِيـلُ

وَ قَدْ أَمَلْتُ أَنْ تَظْمَا وَتَضْـحَى ... إِذَا وَافَـى إِلَيْكَ بِـيَ المَقِيلُ

فَعَجِلْ بِالجَـوَابِ فَمَا جَمِيــلٌ ... إِبَاؤُكَ عَنْ بُثَيْنَةَ يَا جَمِيــلُ [1]

إنها << تقول أبياتا معبرة فيها عن استسلامها لحبيبها بكليتها ، إذ تقدم له نفسها دونما تحفظ ، فثغرها معين عذب حلو ، وذوائب شعرها ظل وارف ، ومتى ألح على صاحبها ظمأ في يوم قائظ ، فعندها ما ينفع أواره ، ويريح جسمه >>[2] .

وفي البيت الأخير ، تقابل حالها مع حبيبها بحال بثينة مع جميل بن معمر وهي مزاوجة غير صحيحة ، لأن جميل كان يأمل في وصال بثينة وقد أعياه ذلك ، أما حال الشاعرة هنا فهي معكوسة تماما حيث نجدها في موقف ضعف تسترجي أبا جعفر أن يمنحها بعضا من وقته ومكانا في مجالس أنسه ، بينما نراه هو غير مكترث بها نظرا لتزاحم الجواري والقيان في مجلسه ينتقي منهن ما شاء لفراشه ، فحياة جميل البدوي غير حياة أبي جعفر الحضري ، وهذا العشق المعبر عنه لم يكن سطحيا أو مرتبطا بمصالح ضيقة أو أملته حاجة عارضة ، بل كان حبا صادقا ، وخير دليل على ذلك أنه حينما قتل أبو جعفر انزوت في ركن من بيتها مشغولة بمصابها فيه ذاهلة عما حولها ، ولم تحفظ المصادر المعروفة كثيرا شعر الرثاء الذي قالته فيه لكننا لا نشك<< في أن عاطفة شاعرتنا إزاء هذا الموقف المأساوي الرهيب قد تصدعت أيما تصدع ، فجاشت بشعر رثائي ينم كل حرف فيه عن نفس معذبة ، ويتصاعد من كلماته بخار قلب محترق تعجز قوافي الشعر وأوزانه عن استيعابها ، وليس هذا القول ضربا من المجاز ، وتحليقا في سماوات الخيال على عادة الشعراء والأدباء ، وإنما هو ضرب من الحقيقة التي لا يمكننا أن ننكرها أو نحاول تجاهلها،لأن الفن الرثائي عموما وليد شعور صادق معبأ بلفح التجربة المرة الضارية ولا سيما إذا صدر عن النساء >> [3] فهن << أشجى الناس قلوبا عند المصيبة

---

[1] المقري : نفح الطيب ، ج5 ،ص 109-110 .

[2] محمد المنتصر الريسوني : الشعر النسوي في الأندلس ، ص 126 .

[3] المرجع نفسه : ص 129 .

وأشدهن جزعا على هالك ، لما ركب ا   عز وجل في طباعهن من الخور وضعف العزيمة >>[1] .

وينقل المقري بيتين لها ، ويبدو أنها قالتهما بعد وفاته : [من الطويل]:

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ نَجْمًا لَمَا كَانَ نَاظِرِي وَقَدْ غِبْتُ عَنْهُ مُظْلِمًا بَعْدَ نُورِهِ

سَلامٌ عَلَى تِلْكَ المَحَاسِنِ مِنْ شَجٍ تَنَاءَتْ بِنُعْمَاهُ وَطِيـبِ سُرُورِهِ [2]

كما أثر عنها قولها متحسرة عليه : [من الخفيف]:

هَدَّدُونِي مِنْ أَجْـلِ لُبْسِ الحِـدَادِ لِحَبِيـبٍ أَرْدُوهُ لِـي بِالحِـدَادِ

رَحِمَ اللـهُ مَـنْ يَجُـودُ بِدَمْـعٍ أَوْ يَنُوحُ عَلَـى قَتِيـلِ الأَعَادِي

وَسَقَتْـهُ بِمِـثْـلِ جُـودِ يَدَيْـهِ حَيْثُ أَضْحَى مِنَ البِلادِ الغَوَادِي[3]

ولا شك أنها لاقت في حزنها على القتيل الحبيب أذى كبيرا ، وحيكت ضدها مؤامرات ودسائس كانت تهدف إلى إلحاقها به ، وذلك ما يبرز في قولها " هددوني " وإن كنا لا نعلم بالضبط من الذي هددها ونغص عيشها إلا أنه من المرجح أن يكن الجواري اللائي حسدنها قبل على مكانتها ومنزلتها لدى أبي جعفر .

وفي الأبيات نلمح تأثيرات متباينة لثقافات متعددة ومشارب مختلفة في نفسية الشاعرة ، فهي متأثرة بعادات الأوربيات اللواتي يتشحن بالسواد حينما يفقدن عزيزا ، بينما نجدها أيضا ملمة بالثقافة الشعرية العربية فتدعو لقبور الموتى بالسقيا ، وهي صفة دعاء قديمة اختص العرب بها ، يقول جرير في رثاء زوجته أم حزرة : [من الكامل]:

فَجَزَاكِ رَبـكِ فِي عَشِيرِكِ نَظْـرَةً وَ سَقَـى صَـدَاكِ مُجَلْجِلٌ مِدْرَارُ[4]

فَسَقَى صَدَى جَدَثٍ بِبُرْقَةَ ضَـاحِكٍ هَزِمٌ أَجَـشٌّ ، وَ دِيمَـةٌ مِـدْرَارُ[5]

---

[1] ابن رشيق : العمدة ، ج2 ، ص 841 .

[2] المقري : نفح الطيب ، ج5 ، ص 108 .

[3] محمد المنتصر الريسوني : الشعر النسوي في الاندلس ، ص 130 ، نقلا عن :

Lousi Di Giacomo : une poétesse grernodine des temps des almohades hafsa bint alhajj , institut des hautes études marocaines ; 1949 , p95 – 101 .

[4] الصدى : جثمان الميت ، المجلجل : السحاب المصوت ، المدرار : الغزير الماء .

[5] الجدث : القبر ، برقة ضاحك : موضع . هزم : سحاب ، أجش : في صوته جشة أي بحة . الديمة : مطر يدوم في سكون بلا رعد وبرق .

- جرير : ديوان جرير ، شرح : د. يوسف عيد ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، ص 239-240 .

و من كل هذا تتبدى لنا صورة امرأة حوت عوالم فكرية و أدبية عديدة ، و ساهمت في نقل مشهد الشعر النسوي المغربي الذي يكتنفه الغموض و يعتريه النقص في عديد المصادر و المراجع التاريخية .

- خدوج الرصفية :

ونجد أمثلة أخرى عن صورة المرأة العاشقة التي تنظم وتبوح بما يختلجها من مشاعر من مثل خدوج[1] الرصفية [2] التي تقول في شعر لها : [من الخفيف]:

جَمَعُوا بَيْنَنَا فَلما اجْتَمَعْنَا   فَرَّقُونَا بِالزُّورِ وَالبُهْتَانِ [3]

مَا أَرَى فِعْلَهُمْ بِنَـا اليَـوْمَ إِلا   مِثْلَ فِعْلِ الشيْطَانِ بِالإِنْسَانِ

---

[1] **خدوج الرصفية :** شاعرة من أهل تونس في المائة الخامسة للهجرة ،عاصرت ابن رشيق القيرواني ،وقد أشار إليها في الأنموذج بقوله : << هذه امرأة من أهل رصفة بساحل البحر ، و اسمها خديجة بنت أحمد بن كلثوم المعافري . و هي شاعرة حاذقة مشهورة بذلك في شبيبتها ، وقد أسنت الآن وكفت على كثير من ذالك >>.

- ابن رشيق : الأنموذج ، ص 123.

وأما ترجمتها في الخريدة : << امراة من أهل رصفة لقبت بهذا اللقب ،واسمها : خديجة ابنة أحمد بن كلثوم العامري ، وهي شاعرة حاذقة مشهورة ، ولها ترسل لا يقع مثله إلا لحذاق المترسلين >>

- العماد الأصفهاني : الخريدة ، ج1 ، ص 326 .

اشتهرت بحبها لأبي مروان عبد الملك بن زيادة ا الطبني الذي قتل سنة 475 ه ، ورد في الخريدة والأنموذج: << كان أبو مروان هذا من أهل الأندلس ، شاعرا يودها و يشبب بها فغار لذلك إخوتها ، وفرقوا بينهما ، واشتهر أبو مروان هذا فقتله إخوتها >>.

- ابن رشيق : الأنموذج ، ص 124 / العماد الأصفهاني : الخريدة ، ج1 ، ص 327 .

غير أن عديد الباحثين ينفون أن يكون عشيقها هو أبو مروان المذكور ، ذلك أن ابن بسام ذكر ترجمته في الذخيرة (ج2 ، ص 52) دون أن يشير إلى خبر اتصاله بخدوج ، ويذكر بالمقابل أنه قتل بقرطبة سنة 457 ه من طرف نسائه.

- العماد الأصفهاني : الخريدة ، ج1 ، ص 327 . هامش رقم 4 .

ويرجح محققا الأنموذج أن أبا مروان هذا هو : عَرِيب – بفتح العين المهملة وكسر الراء – بن محمد بن مطرف بن عريب القرطبي ، أبومروان ، قتل خطأ على باب داره في شهر ربيع الآخر سنة 409 ه ، له سماع بالمشرق ، وكان من أهل الأدب والشعر حسن الإيراد للأخبار .

- ابن رشيق : الأنموذج ، هامش رقم 9 ، ص 124 .

[2] نسبة إلى رُصفة ، بضم الراء ، ضبطها ياقوت في معجم البلدان (ج3 ، ص 50) ، ويذكر د. حسن حسني عبد الوهاب أن << اسمها عند الرومان والقرطاجنيين RUSPEA وأن مكانها هو عين موضع بلدة الشابة الحالية التي تقع بالساحل التونسي بين تونس والمهدية>>.

- د.حسن حسني عبد الوهاب : شهيرات التونسيات ، ص 54 ،هامش رقم 1 .

[3] في الخريدة : فرقوا بيننا ولما اجتمعنا ...

لهْفَ نَفْسِي عَلَيَّ يَا لهْفَ نَفْسِي   مِنْكَ إنْ بِنْـتَ يَا أَبَا مَرْوَان[1]

وهي تقول إن الوشاة لا يدعون أحدا إلا ونغصوا عليه عيشه ، ولا تلبث ألفة الأحباب إلا أن تنفلت بسبب وشاياتهم وافتراءاتهم ، وهي تشبه أفعالهم بفعل الشيطان للإنسان إذ يزين له فعل المعاصي والمحرمات ثم ما يلبث أن ينقلب عليه ويتبرأ مما أشار به عليه : << **وَإذْ زَينَ لهُمُ الشيْطَانُ أَعْمَالهُمْ وَ قَالَ لا غَالِبَ لكُمُ اليَوْمَ مِنَ الناس وَإني جَارٌ لكُمْ فَلما تَرَاءَتِ الفِئَتَان نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إني بَريءٌ مِنْكُمْ إني أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إني أَخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ العِقَابِ** >>[2] .

ثم تبرز خوفها من ذهاب أبي مروان أو فتك الأعادي به ، ويلاحظ أنها كانت تدرك ببصيرتها تسارع الأحداث على نحو لا تشتهيه ، وقد رأت سيوف إخوتها تتربصن بأبي مروان وتتحين الفرصة لتغمد في جسده .

ويبدو أنها كانت مرهفة الحس ، فلما فرق إخوتها بينها وبين حبيبها << عملت لذلك أشعارا >> [3] .

وصادف أن وجدها أحد إخوتها تكتب رقعة في العتاب والشكوى من هجر الحبيب << فهم بقتلها فكتبت إليه تنعى حظها>>[4] محاولة استعطافه ليلين قلبه ويصفح عنها: [من الكامل]:

أَأُخِي الكَبيرَ وَ سَيِدِي وَرَئِيسِي   مَا بَالُ حَظي مِنْكَ حَظّ نَحِيس

أَبْغِي رِضَاكَ بِطَاعَةٍ مَقْرُونـَةٍ   عِنْدِي بِطَاعَةِ رَبيَ القُـدُّوس

فَـإذَا زَلَلْتُ وَجَدْتُ حِلْمَكَ ضَيقًا   عَـنْ زَلتِي أَبَدًا لِفَرْطِ نُحُوسِي

وَلقَدْ رَجَوْتُ بِأَنْ أَعِيشَ كَريمَةً   فِـي ظِلّ طَوْدٍ دَائِم التعْرِيس

بِبَـقَاءِ عِزّكَ لا عَدِمْـتُ بَقَاءَهُ   فَإذَا أَنَا أَصْلَى بِحَـرّ شُمُوس

يَا سَيدِي مَا هَكَذَا حُكْمُ النهَـى   حَقٌ الرّئِيس الرّفْقُ بِالمَرْؤُوس

---

[1] في الخريدة : لهف نفسي عليك بل لهف نفسي ....
ابن رشيق : الأنموذج ، ص 123-124 .

[2] الأنفال : 48 .

[3] العماد الأصفهاني : الخريدة ، ج1 ، ص 327 .

[4] د. فوزي عيسى : شاعرات الأندلس والمغرب ، ص229 .

فَإذَا رَضَيْتَ لِيَ الهَوَانَ رَضَيْتُهُ   وَجَعَلْتُ ثَوْبَ الذُّلّ خَيْرَ لُبُوسِي[1]

ولا شك أن غرض الاستعطاف الممزوج بالشكوى والتبرم من نوائب الدهر وحدثانه قليل في الشعر المغربي ، وأبيات خدوج تذكرنا بشعر النابغة الذبياني في استعطاف النعمان بن المنذر اللخمي في الجاهلية .

ونلاحظ براعة الشاعرة وحسن اختيارها للألفاظ المعبرة التي تستهدف التأثير في الأخ ، أولها لفظة " الكبير " التي تدل على علو منزلة الأخ وإكبار الأخت له ، ولا شك أن للشاعرة معرفة لا يستهان بها بشعر الأقدمين بحيث حصرت في أبياتها هذه غرر الألفاظ التي وظفها الأقدمون ، فلفظة " الكبير" وردت في السياق نفسه عند الأعشى:[من الخفيف]:

مَـا بُكَـاءُ الكَبِـيرِ بِالأَطْـلَالِ   وَسُؤَالِي ، فَهَلْ تَرُد سُؤَالِي [2]

وكذلك قول أبي نواس : [من مجزوء الرمل]:

يَـا كَبِيـرَ الذنْـبِ عَفْوُ الـ   ـلّـهِ مِـنْ ذَنْبِـكَ أَكْبَـرْ[3]

وهي تدل على كل داهية من الأمور ، فكان الأخ داهية ومالكا لزمام الأمور .

وكذلك كلمة " سيدي " التي عادة ما يجريها الشعراء للدلالة على ا سبحانه وتعالى ، يقول أبو نواس : [من الوافر]:

أَنَـا العَبْـدُ المُقِرُّ بِكُلّ ذَنْبٍ   وَأَنْـتَ السيدُ المَـوْلى الغَفُـورُ[4]

وكذلك في قول أبي الفضل بن النحوي : [من البسيط]:

فَقُلْتُ يَا سَيِدِي يَا مُنْتَهى أَمَلِي   يَا مَنْ عَلَيْهِ لِكَشْفِ الضر أَعْتَمِدُ[5]

وقلما نجد شعرا للاستعطاف يقال للإخوة ، أي يقال لمن هو في منزلة القائل أو دونه ، ذلك أن الشكوى تكون للملوك والأمراء والوزراء ...

---

[1] في الخريدة تغيير بسيط في البيت الأخير : " وإذا " مكان " فإذا " ، و " رأيت " مكان " وجعلت " ، ولم ترد الأبيات كلها واقتصر الأصفهاني على البيت الأول والثاني والسادس والسابع .

ابن رشيق : الأنموذج ، ص 124-125 .

[2] الأعشى الكبير أبو بصير ميمون بن قيس : ديوان الأعشى، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، دت ، ص38 .

[3] د. أحمد فريد الرفاعي : عصر المأمون ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، مصر ، ط4 ، 1346 ه / 1928 م ، ج3 ، ص221 .

[4] أبو نواس الحسن بن هانئ : ديوان أبي نواس ، ص68 .

[5] د . شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، ج9 ، ص297 .

غير أن خدوج لم تكن لها وسيلة لإخماد ثورة الأخ إلا أبيات الضراعة تتوسل بها إليه حتى تقع في قلبه بمكان قبل أن يقع قائم سيفه من يده .

- ميمونة الهذلية :

ونجد الشاعرة المجاهدة ميمونة الهذلية [1] تنظم أبياتا قبل وفاتها ، ويرجح أنها أمرت بأن تنقش على لوح قبرها بعد مماتها وهذه الأبيات :[من البسيط]:

يَا مَنْ رَأَى القَبْرَ أَني قَدْ بُلِيتُ بِهِ   وَالتربُ غَيرَ أَجْفَانِي وَآمَاقِـ ـ ـي

فِي مَضْجَعِي وَمُقَامِي فِي البِلَى عِبَرٌ   وَفِي نُشُورِي إِذَا مَا جِئْـ ـتُ خَلاقِي

أُنْظُرْ بِعَيْنِكَ هَلْ فِي الأَرْضِ مِنْ بَاقٍ   أَوْ دَافِعِ المَوْتِ أَوْ لِلْمَوْتِ مِنْ رَاقِي

المَوْتُ أَخْرَجَنِي قَسْرًا فَيَا أَسَفِـي   لَمْ تُنْجِنِي مِنْهُ أَبوَابِـي وَأَغْلَاقِـي

وَ صِرْتُ رَهْنًا بِمَا قَدَّمْتُ مِنْ عَمَلٍ   مُحْصًى عَلَيَّ وَمَا خَلفْتـهُ بَـ ـاقِي[2]

إن قضية الموت شغلت بال الإنسان منذ القدم ، فالجاهلي كان يرى هذا "العدو" ينزل فجأة على البشر ليسلبهم الحياة دون أن يستطيعوا دفاعا أو حراكا ، لذلك كان يهجم على اللذات قبل أن يهجم الموت عليه ، وذلك ما يجاهر به طرفة بن العبد في قوله : [من الطويل]:

أَلَا أَيهَا اللائِمِي أَحْضُـرَ الوَغَـى   وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذّاتِ هَلْ أَنْـتَ مُخْلِدِي[3]

فَإِنْ كُنْتَ لا تَسْتَطِيعُ دَفْعَ مَنِيتِـي   فَدَعْنِـ ـي أُبَادِرْهَا بِمَا مَلَكَـتْ يَدِي[4]

لَعَمْرُكَ إِنَّ المَوْتَ مَا أَخْطَأَ الفَتَى   لَكَالطِّوَلِ المُـرخى وَثِنياهُ بِـاليَـدِ [5]

---

[1] **ميمونة الهذلية** : ميمونة بنت حسان بن علي الهذلي السوسي: شاعرة مجاهدة هاجرت إلى مالطة وتركت موطنها سوسة بتونس ، وقد ظلت تسكنها حتى توفيت غريبة بها ، وما كان يعرف عنها شيء لولا الأبيات السالفة التي وجدت على لوح رخامي ، وكذلك هذا النص الذي وجد مكتوبا على اللوح الآخر للقبر والذي يدلنا على تاريخ وفاتها : << بسم ا الرحمن الرحيم ، وصلى ا على النبي محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ، العزة والبقاء ، وعلى خلقه كتب الفناء ، ولكم في رسول ا أسوة حسنة ، هذا قبر ميمونة بنت حسان بن علي الهذلي السوسي ، توفيت رحمة ا عليها يوم الخميس السادس عشر من شهر شعبان الكائن في سنة تسع وستين وخمسمائة ، وهي تشهد أن لا إله إلا ا وحده لا شريك له >>.

- د. حسن حسني عبد الوهاب : شهيرات التونسيات ، ص 95 .

[2] المرجع نفسه : ص 95 .

[3] يقول : أيها الإنسان الذي يلومني على حضور الحرب وحضور اللذات هل تخلدني إن كففت عنها .

[4] يقول : فإن كنت لا تستطيع دفع موتي عني فدعني أبادر الموت بإنفاق أملاكي ، يريد أن الموت لابد منه فلا معنى للبخل بالمال وترك الملذات .

[5] يقول : أقسم بحياتك أن الموت في مدة إخطائه الفتى ، أي مجاوزته إياه ، بمنزلة حبل مطول للدابة ترعى فيه وطرفاه بيد صاحبه ، يريد أنه لا يتخلص منه كما أن الدابة لا تفلت ما دام صاحبها آخذا بطرفي طولها

- أبو عبد ا الحسين بن أحمد الزوزني : شرح المعلقات السبع ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، دت ، ص 82-86 .

وحينما جاء الإسلام تغيرت نظرة الإنسان للموت ، فأصبح يطلبه بعد أن كان يفر منه ، وذلك ابتغاء مرضاة ا   ورجاء جنته الموعودة .

وأما الشعراء فقد واكبوا هذه الأفكار الجديدة عن سنن الحياة والموت ، وقد كان تفجعهم على الموتى أقل نظرا لتعمق مفاهيم الدين الجديد في النفوس ، وبشرى الميتين بحياة أخرى تكون نعيما دائما ، ونلمس هذا التغير في مراثي الخنساء لأخيها صخر في الجاهلية، وإحجامها عن التفجع لما استشهد بنوها الأربعة في معركة القادسية أثناء الفتوح.

أما رثاء النفس فقليل في الشعر ولا نكاد نعثر إلا على نماذج قليلة يتحدث فيها الشعراء الإسلاميون عن حسرتهم على تفريطهم فيما يرضي ا   أيام العمر وإفراطهم في ارتكاب النواهي وخوفهم من عذاب ا   ومن ظلمة القبر ووحشته .

وإذا تأملنا أبيات ميمونة الهذلية نرى فيها جملة من الإحالات الدينية والأدبية ، ففي قولها " لم تنجني منه أبوابي وأغلاقي " إشارة إلى الآية الكريمة << **قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ** >>[1] أو قوله تعالى : << **أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ** >>[2] ، والبيت الأخير مستقى من عديد الآيات الكريمة التي تتحدث عن الثواب على فعل الخيرات والعقاب على فعل المحظورات كقوله تعالى : << **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** >>[3] ، أو قوله تعالى في إحصاء ذنوب وحسنات الإنسان : << **وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ، كِرَامًا كَاتِبِينَ ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ** >>[4]

هذه المعاني طرقها أيضا عديد الشعراء في العصرين الأموي والعباسي ، وخاصة لما نشط أدب الزهد ، في مواجهة أدب المجون والقصف ، ونجد أبا العتاهية يصف الموت وسطوته وضعف الإنسان في مواجهته : [من البسيط]:

لا تَأْمَنِ الْمَوْتَ فِي طَرَفٍ وَلا نَفَسٍ   وَلَوْ تَسَتَرْتَ بالأَبْوَابِ وَالحَرَسِ

وَاعْلَمْ بِأَنَّ سِهَامَ المَـوْتِ قَاصِـدَةٌ   لِكُـلِّ مُـدَّرِعٍ مِـنا وَمُتَـرِسِ [5]

وحتى أبو نواس شاعر الخمرة والمجون نراه يطرق أحيانا معاني الزهد فيقول:

---

[1] آل عمران : 54 .

[2] النساء : 78 .

[3] الزلزلة : 7-8 .

[4] الانفطار : 10-11-12 .

[5] أبو العتاهية : ديوان أبي العتاهية ، ص89 .

[من البسيط]:

أَلا رُبَّ وَجْهٍ فِي التُرَابِ عَتِيـق   وَ يَا رُبَّ حُسْنٍ فِي التُرَابِ رَقِيق

وَ يَا رُبَّ حَزْمٍ فِي التُرَابِ وَنَجْدَةٍ   وَ يَا رُبَّ رَأْيٍ فِي التُرَابِ وَثِيـق

فَقُلْ لِقَرِيبِ الدَّارِ إِنَّـكَ رَاحِـلٌ   إِلَى مَنْزِلٍ نَائِي المَحَلِّ سَحِيـق

وَمَا الناسُ إِلا هَالِكٌ وَابْـنُ هَالِكٍ   وَ ذُو نَسَبٍ فِي الهَالِكِينَ عَرِيـق

إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَبِيبٌ تَكَشفَـتْ   لَـهُ عَنْ عَدُوٍّ فِي ثِيَابِ صَدِيـق [1]

إن هذه الأشعار تدور غالبا حول معاني الزهد والدعوة إلى ترك مباهج الدنيا وهجر المعاصي والمحرمات والإقبال إلى ا باتباع الطريق القويم ، إنها حركة شعرية أثرت في السواد الأعظم وجعلت المجتمع يؤوب إلى رشده بعد أن عصفت به حياة التمدن بكل معطياتها السلبية << فقد كانت المساجد مكتظة بالوعاظ والنساك وأهل الحديث والفقه والورع ، ومن حولهم العامة ، وقد صدقت كثرتهم ربها مخافة وعيده ، مؤمنة أن القيامة موعدها وموقفها مع ذي الجلال ، وأن العمر – وإن طال – قصير ، وأن الدنيا ينبغي أن تكون دار زاد لدار المعاد ، وما يني الوعاظ والنساك من المحدثين يزجرونهم عن التعلق بمتاعها الزائل واضعين نصب أعينهم الموت وتبعات الحياة الموبقة ، وأن العاقل من عرف أن الناس سفر وعما قليل راحلون فإما عذاب مستديم وإما نعيم مقيم ، فأسرع يغتنم بقية أجله بخير عمله مقدما كل ما يستطيع من الباقيات الصالحات >>[2] .

وإذا كانت الحركة الزهدية قد تركت أثرها بأرض المشرق على الرغم من الموبقات التي كان يحياها المجتمع هناك بفعل تأثيرات الثقافات الوافدة وامتزاج المسلمين بعناصر لم يتمكن الإسلام من محو ضلالاتها التي كان يحياها ويمارسها أفرادها، فإن أرض المغرب كانت أكثر تقبلا وتهيؤا لتطبيق دعوات الإصلاح الاجتماعي والأخلاقي بين أطياف المجتمع نظرا لطبيعة الإنسان المغربي المحافظ والذي زادته تعاليم الدين الإسلامي حفاظا وصرامة ، وعلى الرغم من التأثيرات الأجنبية التي مست الديار التونسية مثلا التي كانت قريبة من سواحل الجنوب الأوربي إلا أن المد الإسلامي لم يترك مجالا لعمل تلك الثقافات الأجنبية وزادتها بعثة الفقهاء العشرة أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز إحكاما وتعزيزا .

---

[1] د. أحمد فريد الرفاعي : عصر المأمون ، ج 3 ، ص 220 .

[2] د. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، ج3 ، ص 399 .

ومن هنا كانت تونس شعاعا للدعوة الإسلامية يعم نوره أرجاء المغرب الكبير ، و يمكن على ضوء هذا فهم توجه الشعراء المغاربة إلى النظم في موضوعات مغايرة متصلة بالتأمل و التفكير و التدبر في ملكوت ا و الزهد في مباهج الدنيا و يمكن فهم أبيات ميمونة الهذلية وفق هذا السياق ، يقول شوقي ضيف : << هذه الدار التونسية الكبيرة للدين الحنيف أخذت تتحول سريعا إلى دار كبرى لعبادة ا الواحد الأحد ، و أخذت المساجد تبنى في كل بقعة و في كل بلد ، و كان الفاتحون يقرئون البربر القرآن و يفقهونهم في الدين ، و ينشرون فيهم تعاليم الإسلام و ما يدعو إليه من العبادة و النسك ، و قد تميز أفراد البعثة التي أرسل بها عمر بن عبد العزيز سنة مائة للهجرة بالزهد في عرض الدنيا الزائل و كان منهم إسماعيل بن عبيد الذي اشتهر في القيروان باسم تاجر ا ، لأنه كان يتجر و يجعل ثلث كسبه ينفقه في وجوه الخير ، و هو يمثل شخصية زهاد الدين الحنيف الأولين ... و نلتقي بعده في القيروان بزهاد كثيرين تعنى كتب الطبقات بالترجمة لهم و الحديث عنهم >> [1] .

و الملاحظ أن هؤلاء الزهاد لم يكونوا عالة على المجتمع باعتبار منحهم كل وقتهم و مجهودهم للتفقه و التدريس ، بل كانوا يكدون لكسب قوتهم بأنفسهم ، و أكثر من هذا أنهم كانوا أولي بأس في الحرب و على دراية بأفانين القتال ، فقد كانوا مجاهدين مرابطين في ثوب زهاد ناسكين ، يقول شوقي ضيف : << إنهم كانوا دائما يخرجون في وقت من السنة للعبادة في الرباطات والمحارس التي كانت متخذة على طول الساحل التونسي لإقامة المجاهدين المتربصين بالقراصنة الغربيين أعداء ا حين يغيرون فجأة في موضع على الساحل التونسي الطويل ، و معروف أن زيادة ا الأول الأغلبي حين أعد حملته المشهورة لفتح صقلية في سنة 212هـ/827 م جعل قائدها أسد بن الفرات قاضي القيروان وكبير فقهائها في زمنه .

و في ترجمة سحنون أكبر فقهاء القيروان بعده أنه كان يرابط وقتا في السنة بالقرب من ميناء سوسة ، و مع أنه كان على شيء من الثراء فقد كان يتخشن في ملبسه و مطعمه مع الورع الصادق و الزهادة في الدنيا، و كان ابنه محمد الذي خلفه في حلقته لإقراء الطلبة يخرج وقتا في السنة – مثل أبيه – للمرابطة و حراسة المسلمين ، و تروى له مقتلة في

---

[1] د. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، ج9 ، ص162-163 .

قراصنة الروم ، فقد تصادف أن لقيهم ذات مرة و قد أشرفوا – في غيبة الرجال – على نهب بعض الأموال و سبي الحريم ، فتقلد سيفه و أخذ بيده رمحه و امتطى جوادا له ، و رآه بعض المرابطين فأسرعوا إليه ... و اشتبكوا في حرب مع القراصنة >> [1] .

ويبدو أن الشاعرة ميمونة كانت متأثرة بهذا الجو المشحون الذي تختلط فيه المشاعر الإيمانية الحقة بنفحات الثورة والجهاد في سبيل ا ، لهذا آثرت ركوب البحر إلى مالطة للقتال ، مع إظهار الزهد واعتزال الدنيا ، وهي مثال حي على حقيقة الزهاد والنساك في الحقب الإسلامية الأولى الذين << لم يكونوا يعيشون للزهد وعبادة ربهم فقط ، بل كانوا دائما يحملون السلاح ويتقدمون الصفوف في حرب أعداء ا والوطن ، مؤمنين بأن جهاد أعداء ا لا يقل عن عبادته نسكا وقربى إليه ، ولم يكونوا عالة على المجتمع ، بل كانوا دائما يحترفون حرفا تدر عليهم أرزاقهم >>[2] .

وإذا تعمقنا في دلالات معاني الأبيات السابقة لميمونة الهذلية نلاحظ فهما عميقا لسنن الوجود وقضية البعث والحساب التي أقرها الدين الإسلامي ، وكما ذكرنا سابقا ، لم يعد الإنسان – بعد فهمه لهذه الفكرة – يتحسر كثيرا على فراق الأحبة والولد لأنه يعلم علم اليقين أن الحياة الباقية خير من الحياة الفانية مصداقا لقوله تعالى << **وَ للدّارُ الآخِرَةُ خيْرٌ لِلذِينَ يَتقُونَ** >>[3] .

وإذا علمنا أن الشاعرة ميمونة عاشت في القرن السادس للهجرة جزمنا بأن أهل المغرب انتقلوا من قضية فهم مبادئ الدين الإسلامي إلى قضية الإبداع الفكري والأدبي الذي يتماشى مع ما أقره الدين ، بل إن المشهد الأدبي والديني العام أخذ يجنح إلى التعمقات الصوفية والتأملات الروحانية .

ويمكننا القول إن شعراء القرون اللاحقة ابتداء من القرن الثالث للهجرة كانوا أكثر فهما لقضايا الدين الإسلامي التي تعمقت مفاهيمها في نفوسهم وتجلت في أشعارهم أكثر من شعراء القرنين الأول والثاني للهجرة الذين كانوا حديثي العهد بالدعوة الإسلامية ، ففي تونس مثلا نجد الزهاد << يتكاثرون في القيروان أثناء القرن الثالث الهجري ، حتى لنراهم

---

[1] د. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي : ج9 ، ص163

[2] المرجع نفسه : ج9 ، ص 163-164 .

[3] الأنعام : 32 .

يتخذون مسجدا سموه مسجد السبت كانوا يقصدونه يوم السبت للذكر والعبادة ، وكانوا ينشدون فيه الأشعار بتطريب فرادى وجماعة ، وكأن ذلك كان مقدمة لما سيصير إليه ذكر ا في البلدان المغربية ، إذ سيصبح اجتماعات دورية للذكر في المساجد بعد أن كان مرتبطا بجهاد أعداء الدين والوطن ومراقبتهم على الساحل التونسي >>[1] .

ولم يكن المغرب الأوسط بعيدا عن المد الصوفي فقد << كان أتباع الطريقة القادرية في الجزائر أكثر عددا >>[2]، ولا عجب أن نجد كبار المتصوفة أمثال إبراهيم بن دهاق (ت 611 هـ/ 1214 م) ، وابن عربي (ت 638 هـ / 1241 م) ، وابن سبعين(669 هـ / 1271 م) ينزلون تلمسان ، ليدرسوا ويدرسوا فيها ويلقون المواعظ في مساجدها ، يقول شوقي ضيف : << ونزلوا جميعا في تلمسان ، و بها تتلمذ ابن دهاق على أبي عبد ا الشوذي، ونزل بها فترة ابن عربي وابن سبعين وتجولا في بعض مدائن الجزائر>>[3].

وإذا أجرينا مقارنة بسيطة بين مرثيتي مالك بن الريب التميمي وميمونة الهذلية سنجد بونا شاسعا وفرقا جوهريا في المعاني المطروحة لدى كل منهما ، هذا الفرق يؤيد ما أشرنا إليه من تغير في النظرة إلى الوجود ، يقول مالك بن الريب من قصيدة له يرثي بها نفسه ويصف قبره ، وكان خرج مع سعيد بن عفان أخي عثمان بن عفان – لما ولي خراسان- فلما كان ببعض الطريق ، أراد أن يلبس خفه ، فإذا بأفعى بداخله فلسعته فلما أحس بالموت ، استلقى على قفاه ، ثم أنشأ يقول : [من الطويل]:

تَقُولُ ابْنَتِي لما رَأَتْ وَشْكَ رِحْلَتِي سِفَـارُكَ هَذَا تَارِكًا لَا أَبَا لِيَـا

فَيَا صَاحِبَيْ رَحْلِي دَنَا المَوْتُ فَاحْفِرَا بِرَابِيَـةٍ إِنِّـي مُقِيـمٌ لَيَالِيَـا

وَخُطَّا بِأَطْرَافِ الأَسِنةِ مَضْجَعِـي وَرُدَّا عَلَى عَيْنَيَّ فَضْـلَ رِدَائِيَـا

غَرِيبٌ بَعِيـدُ الدَّارِ ثَـاوٍ بِقَفْـرَةٍ يَدَ الدَّهْرِ مَعْرُوفًا بِأَنْ لَا تَدَانِيَ

يَقُولُونَ: لَا تَبْعُدْ وَهُمْ يَدْفُنُونَنِـي وَأَيْنَ مَكَانُ البُعـْدِ إِلَّا مَكَانِيَـا

وَ بِالرَّمْلِ مِنا نِسْوَةٌ لَوْ شَهِدْنَنِي بَكَيْنَ وَفَدَّيْنَ الطَّبِيـبَ المُـدَاوِيَا

فَمِنْهُنَّ أُمي وَابْنَتَاهَا وَخَالَتِــي وَ بَاكِيَةٌ أُخْرَى تَهِيـجُ البَوَاكِـيَا [4]

---

[1] د.شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، ج9 ، ص 164 .

[2] المرجع نفسه : ج10 ، ص74 .

[3] المرجع نفسه : ج10 ،ص 74 .

[4] ابن عبد ربه: العقد الفريد ،ج4 ، ص26 .

هذه الأبيات لا يبدو فيها تأثير القيم ومعاني الدين الإسلامي البتة ، بل هي على صلة وثيقة بحياة البداوة والصحراء في الجاهلية ، حيث لا مكان للحديث عن عودة الأموات إلى حياة أخرى ، فالأدب هناك شديد الصلة بالواقع المعاش ، حيث الفروسية والإغارة وخطاب الأسنة والرماح ، فالشاعر بدء << لم يكن مختارا في نظم قصيدته ، لم يختر موضوعها ، وإنما الموضوع هو الذي اختاره فهي لحظة النهاية التي ليس منها بد ، غير أنها نهاية لم يتصورها الشاعر وقد عاش حياته طولا وعرضا وعمقا ، يشعر ، ويغامر ، ويقاتل ... فيبلغ الذروة في كل ما يفعل ويعيش ، لم يتصور أن يكون الموت حتف أنفه* ، بالمرض وليس بالسيف أو الرمح ، وحيدا بعيدا عن أهله وخلانه ... من هنا كانت القصيدة رثاء للنفس ، ورثاء للحياة العزيزة التي يتعلق بها ويعشقها ، ورثاء للماضي العزيز ، وندما على مغامرة فراق الوطن وحنينا مستمرا إليه باستدعاء رموزه والتشوق لساكنيه ومظاهر الحياة فيه >> [1] .

إن رقة الوجه في التراب كما عبر عن ذلك أبو نواس وميمونة وغيرهما دليل على استيلاء النقص على جملة البشر ، ولن يبقى من الوجوه إلا الوجه الأسمى الأبدي ، يقول تعالى : << **كُلٌّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَ يَبْقَى وَجْهُ رَبِكَ ذُو الجَلاَلِ وَ الإِكْرَامِ** >>[2] .

إن حتمية الموت و البعث و الحساب شغلت بال الشعراء في المغرب الإسلامي ،و أحدثت هذه الرؤى الجديدة حول قضية الوجود انقلابا في موضوعات الشعر لا يقل شأنا عما حصل بالحجاز عندما ظهرت الدعوة الإسلامية بعد أن كان الاعتقاد السائد أن لا حياة بعد الموت ، قال تعالى محدثا على لسان الكفار : << **إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ** >>[3] .

---

* أي مات ولم يقتل ، وأصله أن يموت الرجل على فراشه فتخرج نفسه من أنفه وفمه ،

قال خالد بن الوليد عند موته : لقد لقيت كذا وكذا زحفا وما في جسدي موضع شبر إلا وفية ضربة أو طعنة أو رمية ، وها أنا ذا أموت حتف أنفي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء .

- الميداني : مجمع الأمثال ، ج2 ،ص286 .

[1] د. عبده بدوي وآخرون : الأدب وروح العصر ، منشورات ذات السلاسل ، الكويت ، 1405 ه / 1985 م ، ص 51-52 .

[2] الرحمن : 26-27 .

[3] المؤمنون : 37 .

هذا الانقلاب الفكري والعقائدي جسده الشعراء في أشعارهم ، والفارق أن شعراء المغرب أحسنوا التعبير عن هذه المعاني الدينية الجديدة ، في الوقت الذي نجد فيه شعراء الجزيرة العربية مذبذبين لا يستقيم لهم القول حول هذه المعاني التي اختلفت جوهريا عن المبادئ العامة لحياة الإنسان في الجاهلية ، أي أننا نلمس ضعفا في الشاعرية العربية عبر عنه الأصمعي حينما قارن بين فحولة شعر حسان وجودته في الجاهلية وضعفه في الإسلام بقوله : << الشعر نكد بابه الشر ، فإذا دخل في الخير ضعف ، هذا حسان فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره >>[1] .

لكن الشعر بأرض المغرب لم يعتره الضعف المذكور ، نظرا لأن أهله لم يكن لهم سابق نظم قبل قدوم الفاتحين ، فحينما نظموا الشعر العربي بادروا بتضمينه المعاني الإسلامية التي ترسخت في نفوسهم ، ولم يكن يصطرع في نفوسهم ذلك الصراع الذي عاشه الشاعر المخضرم في الحجاز بين حياة الحرية المطلقة التي كان يحياها في الجاهلية وبين الحرية " المقيدة " التي أصبح يعيشها مع اعتناقه الإسلام دينا .

ونرى بعد ذلك الشعر المغربي تغلب عليه النزعات الزهدية المحافظة حتى سيطر الشعراء الفقهاء على المشهد الأدبي لفترة ليست بالهينة بأرض المغرب .

ونلاحظ اختلافا واضحا فيما جنح إليه خيال الشاعرين وهما على وشك مغادرة الدنيا ، فبينما نجد ميمونة ترثي مآلها بعد الممات فتقول :

وَ صِرْتُ رَهْنًا بِمَا قَدَّمْتُ مِنْ عَمَلٍ   مُحْصًى عَلَيَّ وَمَا خَلَّفْتُهُ بَاقِـي

فهي تتوجس خيفة مما أحصاه الكتاب الذي لا ينطق إلا بالحق عن عمل الإنسان خيره وشره ، وبالتالي فتفكيرها منصب حول الحياة البعدية وليس الحياة الآنية أو القبلية والألفاظ التي وردت تشي بما يختزل الشاعرة من هواجس وأفكار ، ونجد الألفاظ ذات الدلالة الدينية والرموز العقائدية تسيطر على أجواء المقطوعة الشعرية من مثل : البلى ، عبر ، نشوري ، الموت ، أسفي ، محصى .

ونجد في المقابل مالك بن الريب يقول :

خُذَانِـي فَجُرَّانِي بِثَـوْبِي إِلَيْكُـمَا   فَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ اليَوْمِ صَعْبًا قِيَادِيَـا

ونراه مشغولا بالنهاية التي سيؤول إليها بعد أن ملأ الدنيا صخبا ، وهو يتعجب من هذه النفس التي ضاقت عنها أرجاء الدنيا الفسيحة في الحياة كيف أنها ستقبر في مكان أضيق

[1] ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ج1 ،ص 296 .

مما كانت تتصوره ، ثم إنه يشعر بالمهانة لأنه " سيجر " إلى مكن الغسل والدفن وهو لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا بعد أن كان صعب القياد شديد المراس قوي الشكيمة والعزيمة << فالمقابلة بين حالة " الهوان " التي يراها حالة بجسده قبل الموت ، وحالة " التأبي " التي عاشها معتزا بكبريائه وبطولته ، تقوي كل منهما الأخرى : الذلة القادمة ، والعزة الماضية ، وتعميق الشعور بطبيعة اللحظة البرزخية التي يقف فيها الشاعر متأملا ، لا يملك غير الأسى ، بين ما كان ، وما يوشك أن يكون >>[1] .

والقضية إجمالا << أن الشاعر بدأ يحس الإعياء ، فتتداخل الرؤى في ذاكرته ، فهو يعود إلى مخاطبة صاحبيه و يكمل وصيته لهما ، بعد أن ذكر من صفاته أعظمها أهمية في تقييم رجال عصره ، ويتحسر على تركه وحيدا في قبره الوحيد في الصحراء ، ثم يوصيهما بأن يذكراه مهما طال الزمن على فراقه .. ويطلب من زوجته ما طلب من صاحبيه من قبل أن تذكره وتبكيه ، و إذا حال البعد بينها وبين زيارة قبره فلتتخذ من قبور الآخرين مزارا رمزيا تستحضر فيه صورة قبره المنفرد في الصحراء وقد عبثت به الريح وغطته بالتراب الناعم >> [2].

بقي أن نتساءل عن السبب الذي أدى إلى هذا الاختلاف في الرؤى لدى الشاعرين على الرغم من اتفاق وتشابه ظروف الإبداع الشعري لكليهما حيث أنهما نظما شعرهما قبل الموت وقد كانا قصيين عن الوطن والأحبة أي أنه يمكن إدراج شعرهما كبواكير " لأدب المهجر " المعروف في العصر الحديث ، فإذا نظرنا إلى الأمر من زاوية اجتماعية أمكننا القول أن حياة الرجل تختلف اختلافا جوهريا عن حياة المرأة ، فالرجل يكدح ويصول ويجول وينأى ويتغرب لذلك يعايش الكثير من الأحداث وتطأ رجلاه شتى البقاع ويلتقي

عديد البشر، ويتشرب مختلف الثقافات لذلك حينما تحين ساعة الرحيل يستحضر اللاشعور كل اللحظات الجميلة التي عاشها واستمتع بها ، وكل الأهوال والمحن التي كابدها وقاساها ، فتنقلب هذه الذكريات إلى فيض شاعري يغمر النفس ، ومن ثمة تكون الكلمات طوع الإرادة التي تستحضر كامن الذكريات في المخزون اللاشعوري ، يقول عز الدين إسماعيل : << لا بد أن تمر هذه الخبرات من خلال منشور عقله فتنعكس في

---

[1] د. عبده بدوي وآخرون : الأدب وروح العصر ، ص 60.

[2] المرجع نفسه : ص 56 .

نفسه بزاوية انكسار تحددها طبيعة ذلك المنشور ، فإذا أنتج عملا فنيا صدر في ذلك من هناك من تجربته الخاصة >> [1] .

أما المرأة وهي العنصر الذي يكمل الرجل ، قال تعالى : << **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** >> [2] ، وهذا دليل على أن كيانها ليس منفصلا مستقلا بذاته ، هذه المرأة لم تحظ بما حظي به الرجل ، فكان لزاما أن تستتر وتحتجب ، وألا تسافر إلا بمحرم ، وألا تتزوج إلا بولي ... ومن ذلك كان هامش التحرك لديها قليلا قياسا إلى الرجل ، ولم تحفل حياتها بما يوجب العطب والمخاطرة وركوب الأهوال وتحمل الصعاب فكانت حياتها النفسية في مستوى ثابت على العموم ، لهذا كان تفكيرها ينصب على الحياة الأخروية .

أما تحسر الرجل على قوته ونجدته التي كان يعتد بها في شبابه ، فيقابله عند المرأة اعتداد بالجمال والحسن واعتدال الجسم والقوام ، وهذا جل ما تتميز به في ربيع عمرها وريعان شبابها ، وكما رأينا لا يفوت ميمونة الهذلية ذكر شبابها الفائت ، ووجهها الذي ذهبت محاسنه وصيرته السنون واختلاف الدهور إلى شحوب وتجاعيد ، وجسمها الممتلئ شبابا وصحة إلى وهن وضمور ، والنتيجة مظهر بائس في أرذل العمر ينبه الإنسان إلى حقيقة ضعفه بعد تلذذ في الدنيا وغضارة من العيش ، إنها سنة الخليقة كما يراها الإنسان في النبات الذي ينمو ثم يذبل وييبس ، وفي الحيوان الذي يقوى ثم يضعف ، فكذلك شأنه ، قال تعالى : << **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَ شَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ** >> [3] .

يقول د. حسين حسني عبد الوهاب معلقا على أبيات ميمونة : <<فأنت ترى هذه المهاجرة الإفريقية كيف تتأوه على فقدان عز مسكنها المزخرف بمالطة ، وكيف تتحسر مما يؤول إليه جمالها الزاهر لما يضم القبر عليها جوانبه المظلمة ،ويملأ عينيها الدعجاوين >>[4] .

---

[1] د. عز الدين إسماعيل : التفسير النفسي للأدب ، ص24 .

[2] الروم : 21 .

[3] الروم :54 .

[4] د. حسن حسني عبد الوهاب : شهيرات التونسيات ، ص96 .

- جارية تميم :

بقي لنا أن نلقي الضوء على شعر فئة أخرى من النساء اللائي حظين بمكانة مرموقة منذ أن أنشئت القصور وتعددت مظاهر الحضارة والبذخ ألا وهي فئة الجواري ، وقد توزعت اهتمامات الجواري في قصور الأمراء واختلفت أهواؤهن ، فالبعض منهن كن يشعرن بمكمن نقص أمام الحرائر لذا كن ينافسهن في الظفر بقلوب الرجال ومن ثمة تبوأ منزلة زوجة الأمير ، وقد كان هذا الطموح السياسي يتغذى من منابع مختلفة ويتحرك وفق تجاذبات وعلل لمصالح خارجية كما رأينا ذلك في دراستنا لواقع مكانة المرأة في الحياة السياسية .

غير أن بعض الجواري كن يتمتعن بحس مرهف وملكة شاعرية ، وقد آثرت هذه الفئة التعبير عن حالتها الاجتماعية ووضعها الذي تحياه في خدمة القصر .

وربما حنت إلى مسقط رأسها فنظمت شعرا في الحنين إلى الأوطان وذم التغرب طالما أنهن كن مجلوبات من شتى البقاع والأصقاع .

وتحتفظ المصادر الأدبية بذكرى قينة كانت جارية لتميم [(1)] بن المعز بن باديس الصنهاجي ولكن اسمها جُهل وخفي لأسباب لا نعلمها ، وجل ما نعرفه عنها أنها كانت فائقة الجمال ، رائعة الغناء ، وأن أصلها من بغداد وجلبت إلى القيروان ثم انتقلت إلى المهدية بانتقال قصر الإمارة إلى هناك ، ولا شك أن جارية بهذا الجمال وحسن الغناء أو البراعة فيه قد أثرت في الأمير تميم بحيث كان يؤثر لقاءها والاستمتاع بغنائها وحسن حديثها وظرفها ، ويمكن القول أنها أخذت بمجامع قلبه وكانت آثر حظياته وإلا لما احتفظ التاريخ بذكراها من بين مئات الجواري اللائي كن خادمات في قصور القيروان والمهدية ، ولعل أعظم تشريف لها وأقوى دليل على حظوتها نسبتها إليه للدلالة عنها فقيل لها " جارية تميم " ويذكر صاحب كتاب " مسالك الأبصار " أن تميم أعجب بغنائها << فقال لها : تمني ما

[(1)] **تميم بن المعز الصنهاجي** : (422-501 هـ / 1031 -1108 م) :

تميم بن المعز بن باديس بن المنصور ، أبو يحي الصنهاجي : من ملوك الدولة الصنهاجية بإفريقية الشمالية ، ولد في المنصورية ، وولاه أبوه المهدية سنة 445 هـ ، ثم ولي الملك بعد وفاة أبيه سنة 454 هـ ، وكانت الدولة في اختلال واضطراب فجدد معالمها ، واسترد مدائن سوسة وصفاقس وتونس بعد أن كان الهلاليون وغيرهم من الثائرين قد غلبوا أباه عليها وأخرجوه إلى المهدية . توفي تميم بالمهدية ، وله ديوان شعر كبير .

- الزركلي : الأعلام ، ج2 ، ص 88 .

شئت ، فقالت : أتمنى أن أغني هذه النوبة في بغداد ، فوفى لها بما وعد ، وحملت إلى بغداد، وعندما وصلت القافلة إلى القادسية على نهر الفرات ارتفع صوتها بالغناء ، و غنت [من مجزوء الكامل]:

لمـا وَرَدْنـَا القَادِسـ ـ ... يةَ حَيْثُ مُجْتَمَعُ الرِّفَاق
وَشَمَمْتُ مِنْ أَرْضِ الحِجَا ... زِ نَسِيمَ أَنْفَـاس العِرَاق
أَيْقَنْتُ لِي وَلِمَـنْ أُحِـبُّ ... بِجَـمْعِ شَمـْلٍ وَاتفـَاق
وَضَحِكْتُ مِنْ فَرَحِ اللقـَا ... ءِ كمَا بَكَيْتُ مِـنَ الفِرَاق
لَمْ يَبْقَ لِـ ـي إلا تَجَشـُّ ... مُ هَـذِهِ السبْـحِ الطِّبَاق
حَتـى يَطُـ ـولَ حَـدِيثُنَا ... بِصِفَاتِ مـَا كُنـّـَا نُلاَقِي

فتصايح الناس من أقطار القافلة: أعيدي با أعيدي ، فما سمع لها كلمة حتى وصلت القافلة إلى الياسرية ، وبينها وبين بغداد خمسة أميال في بساتين متصلة ينزل بها الناس فيستوفوا ليلتهم ثم يبكرون لدخول بغداد،فاختفت الجارية ولم يجدوا لها أثرا بعد ذلك >>[1]

وإذا تحدثنا بدءً عن الغناء والموسيقى بتونس ، نقول أن القطر ليس له معرفة قديمة بها ، وإنما عرفها بانتقال الفاتحين إليه وإقامتهم فيه ، ولا شك أن الفاتحين الأوائل حتى أواسط القرن الثاني للهجرة حملوا معهم الشعراء والمغنين من بغداد لكي يؤنسوا وحشتهم في هذه الديار البربرية ، ومن هؤلاء يزيد ين حاتم المهلبي (154 – 170هـ) الذي حكم وأقام بالقيروان واستحالت المدينة في عهده << إلى مركز نشاط أدبي بمن استقدمهم معه من الشعراء والمغنين من بغداد ، فعرفت من حينئذ بالقطر التونسي آلات الطرب مثل الطنبور والمزاهر (الدفوف) وشبابات القصب >>[2] ، ثم تحقق الموسيقى القيروانية قفزة نوعية عندما يحل أشهر مغني بغداد زرياب بالقيروان على زيادة ا الأغلبي سنة 205 هـ قبل أن يتم رحلته المشهورة إلى قرطبة ، ولا شك أن أهل القيروان احتفوا بمقدمه ونزوله أيما احتفاء وقد سمعوا منه غير ضرب وصوت ، ولكن الذي أفاد منه كثيرا كن جواري القصر اللائي يقتصر دورهن على إمتاع الأمير وحاشيته في مجالس أنسه وأيام بهجته ، وقد نقل زرياب صنعته وفنه للجواري وأهل الطرب الشغوفين بأفانين الضرب

---

[1] ابن فضل ا العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تحقيق : غطاس عبد ا خشبة ، دار الكتب والوثائق القومية المصرية ، القاهرة ، مصر، 2005 ، ج10 ، ص 506-507 .

[2] د. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، ج9 ، ص 154 .

على الآلات الموسيقية ، وتجسد ذلك << بأن نسمع أن في القيروان حيا خاصا للملاهي والطرب ، يقصده أهلها للفرجة وكان مجمعا للمغنين والضاربين على الآلات الموسيقية ، وكان أهل الخلاعة والمجون يختلفون إليه ، ويذكرون من أسماء المغنين فيه قاسما الجوعي وأبا شرف >> [1] .

وقد كان عهد العبيديين والصنهاجيين بالقيروان امتدادا للصخب الغنائي والموسيقى الذي ملأ جو الأغالبة ، ولوحظ في عهدهم استقدام المغنين من بغداد والأندلس ، وقد قصدهم القيان والمغنون والشعراء لأن حاضرتهم توسطت حواضر الشرق والغرب ، وكان من يحث السير قاصدا أحد طرفي العالم الإسلامي يلزمه التوقف فيها للتزود والارتياح قليلا من عناء السفر فيحصل له لقاء مع المغنين فيأخذ عنهم ويحفظ منهم الترانيم التي يحدو ويستعين بها على طول الرحلة ، يقول شوقي ضيف : << ويتكاثر هؤلاء الجواري المغنيات كما يتكاثر المغنون أو قل يأخذون في التكاثر لعهد العبيديين ، وتتسع الموجة في عهد الدولة الصنهاجية وما كان في قصورها من مجالس الأنس ، ويشترك في الغناء غير تونسي يتقدمهم عبد الوهاب حاجب المنصور الأمير الصنهاجي (374 -386هـ) وكان شاعرا ويتغنى في شعره ويلحنه ، ويتحدث مرارا مؤرخ القيروان إبراهيم الرقيق عن مجالس غنائه ،ويفد على يحي حفيد المعز بن باديس في عاصمته المهدية (501-508ه) أمية بن أبي الصلت الشاعر الأندلسي ، وكان متقنا لعلم الموسيقى الأندلسية ، فنقل إلى المغنين في المهدية ألحان المغنين في الأندلس >> [2] .

ونجد بعدها أن القيروان تصبح منبرا للموسيقى الأندلسية التي تفوقت على أنواع الموسيقى الأخرى نظرا لعذوبتها وسلاستها ومسايرتها للترف المعيشي الذي أغرق الكثيرين ، يقول روبار برنشفيك:<< ولقد كانت الموسيقى الرائجة في البلاط والمدينة هي الموسيقى الأندلسية التي جلبها أبو الصلت أمية بن عبد العزيز إلى إفريقية في العهد الصنهاجي ، قبيل الغزوة الموحدية ، وهي موسيقى راقية ومهذبة ، مازالت آثارها باقية إلى يومنا هذا في البلاد التونسية تحت اسم " المالوف " ، وقد استعرض محمد الظريف في القرن الرابع عشر في "ناعورةالطبوع"أسماء المقامات الموسيقية الثلاثةعشرةالمعروفة في العصر

---

[1] د. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، ج 9 ، ص 154 .

[2] المرجع نفسه : ج9 ، ص 154 .

الحاضر[1] ، ومما لا شك فيه أن السكان الريفيين قد احتفظوا بموسيقى أبسط من الموسيقى الأندلسية ، وهي ذات أصل عربي أو بربري أو عربي بربري ، لم تنقرض تماما آنذاك >>[2] .

وأيا كانت التأثيرات التي خضعت لها الموسيقى القيروانية ، فالعاملون عليها ونقصد بهم خاصة الجواري والقيان قد علا شأنهن وأصبحن عملة نادرة يشتريها الأمراء والقواد بأموال باهضة ، ونلفت الانتباه هنا أن الجواري اللائي يحسنّ الغناء أصبحن هن أيضا يزاحمن كريمات وحرائر القصر نظرا لظرفهن وموافقتهن لأهواء الرجال << فقد أشاع هؤلاء الجواري والقيان في المجتمع كثيرا من ضروب الرقة والظرف ، فقد جعلت كثرة معاشرتهن الرجال لهن يتعودون كيف يتلطفون لقلوبهن ، وكيف يستنزلوهن بالكلام الرقيق إلى ودهم ، وكيف يحيطونهن بأشراك الحديث الساحر الذي يشغف قلوبهن ويملؤها بالعطف والحنان ، وكان لذلك أثره البالغ في الشعر والشعراء ، فقد شاعت في كثير من معانيهم الرقة المفرطة والإشارة الدالة واللمحة المعبرة >>[3] .

ولهذا لا نستغرب أن تقع جارية تميم من قلب مالكها بمكان ، وأن تستأثر بعطاياه ، وأن تسحر لبه ، وتمنع رقاده .

ولم تكن لذة السماع وحدها ما يرغب الرجل أو الأمير في القينة بل كانت المشاهدة أسبق في الحكم لها أو عليها لديه ، أي أن الصورة الحسنة والمظهر اللافت والجمال الأخاذ شرط أساس يجب أن تحوزه حتى يقتنيها الأمير ويستمتع بعد ذلك بغنائها ، فلابد إذا من اجتماع لذتي البصر والسمع ، ولعل ما جعل فئة القيان أثيرة لدى الرجال هو سهولة مشاهدتها ويسر النظر إليها في أسواق النخاسة ودور اللهو المنتشرة في كل مكان ، وهذا ما ساعد على استئثارهن بالرجال على عكس الحرائر اللائي كن يرخين من جلابيب الستر ما يمنع الرجال من أن يرمقنهم ، وقد سبق الجاحظ الكثير في تفسيره لهذا الواقع الاجتماعي الثقافي الذي تولد جراء احتكاك الشعوب وكثرة الجواري المسبيات

---

[1] هذه أسماء تلك المقامات حسب الترتيب التي وردت به : الرهاوي ، الذيل ، الرمل ، الأصبهان ، السيكة ، المحير ، المزموم ، العراق ، الحسين ، النوى ، الرصد ، الماية ، الأصبعين .

- عنوان الأريب : ج 1 ، ص 104 .

[2] روبار برنشفيك : تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، ج2 ، ص 434 .

[3] د. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، ج3 ، ص 63 .

اللائي أثرن في تركيبة المجتمع العربي فقال : << قال بعض من احتج للعلة التي من أجلها صار أكثر الإماء أحظى عند الرجال من أكثر المهيرات * : أن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تأمل كل شيء منها وعرفه ، ما خلا حُظوة الخَلوة ، فأقدم على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة ، والحرةُ إنما يستشار في جمالها النساءُ ، والنساء لا يبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن قليلا ولا كثيرا ، والرجال بالنساء أبصر ، وإنما تعرف المرأة ظاهر الصفة ، وأما الخصائص التي تقع بموافقة الرجال فإنها لا تعرف ذلك . وقد تُحسن المرأةُ أن تقول كأن أنفها السيفُ وكأن عينها عين غزال ، وكأن عنقها إبريق فضة ، وكأن ساقها جُمّارَة ** وكأن شعرها العناقيد ، وكأنها أطرافها المِدارَى *** وما أشبه ذلك ، وهناك أسباب أخر بها يكون الحب والبغض >>[1] .

وإذا نظرنا إلى الألفاظ المختزنة في أبيات جارية تميم نجدها ألفاظا خاصة بقاموس الحياة الحضرية الممتلئة رقة وعذوبة تتتابع في سلاسة مع إيقاع الوزن المجزوء لبحر الكامل ، فألفاظ وجمل مثل: " مجتمع الرفاق " و " نسيم أنفاس العراق " و " فرح اللقاء " .. وغيرها تأتي بوزن خفيف ومرن يحيل إلى خفة حركة الشاعرة على ظهر الدابة تحت السير إلى أرضها ووطنها وأهلها الذين افتقدتهم واشتاقت إلى رؤيتهم ، وهي تتنقل في أفكارها ويجنح بها خيالها إلى القادسية مرة وإلى الحجاز تارة وإلى العراق طورا ، وهذا الانتقال ينطوي على تلهف واشتياق شديدين تختزنهما الشاعرة بين جوانحها إلى تلك المضارب والأوطان ، ثم نلاحظ اختلال الإيقاع و نفور المعنى من خلال لفظة" تجشم" التي لا تناسب بتاتا الجو الغنائي الذي طبع المقطوعة الشعرية فهي تعكر صفو الألفاظ

---

* المهيرات : جمع مهيرة وهي الغالية المهر ، والمهر : الصداق ، والجمع : مهور

- ابن منظور : لسان العرب ، ج13 ، ص 199 .

** جمارة : جمارة النخل : شحمته التي في قمة رأسه تقطع قمته ثم تكشط عن جمارة في جوفها بيضاء كأنها قطعة سنام ضخمة ...، وفي الحديث : كأني أنظر إلى ساقه في غرزه كأنها جمارة ، الجمارة : قلب النخلة وشحمتها ، شبه ساقه ببياضها

- المصدر نفسه : ج2 ، ص 326 .

*** المدارى : رجل أمدر : عظيم البطن والجنبين متتربهما ، والأنثى : مدراء ، ورجل أمدر : إذا كان منتفخ الجنبين والمدرية : رماح كانت تركب فيها القرون المحددة مكان الأسنة .

- المصدر نفسه : ج13 ، ص50 .

[1] الجاحظ : رسائل الجاحظ ، ج3 ، ص 157-158.

المنتقاة للجو الاحتفالي الحضري ، وهنا يؤثر مزاج الشاعرة على أدائها اللفظي فتورد لفظة ثقيلة على السمع وهذا يحدث أحيانا لكبار الشعراء [1] ، يقول ابن قتيبة منبها على ضرورة انتقاء الألفاظ المناسبة للشعر : << قال أبو محمد : وفيما ذكرت منه : [من العيوب] ما دلك على ما أردت من اختيارك أحسن الروي ، وأسهل الألفاظ ، وأبعدها من التعقيد والاستكراه ، وأقربها من إفهام العوام ، وكذلك أختار للخطيب إذا خطب ، والكاتب إذا كتب ، فإنه يقال : أسيرُ الشعر والكلامِ المطمعُ ، يراد الذي يطمع في مثله من سمعه ، و هو مكان النجم من يد المتداول >> [1] .

وإذا تأملنا قليلا في عروض المقطوعة وجدنا فيها اختلافا جوهريا عن العروض والأوزان المعهودة لدى شعراء الوصف والرثاء ، فالأوزان التي يستعملها المغنون والقيان خفيفة سريعة، فهم قد أثروا في الأغاني وأوزانها << وذلك أنهم كانوا يقبلون على الأوزان الخفيفة و يطلبونها ، مما جعل أصحاب الأغاني في عصرهم يهجرون – إلى حد ما –

---

[1] كقول امرئ القيس يصف صاحبته : [من الطويل]:

غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إِلَــى العُــلَا تَضِلُّ العِقَاصُ فِي مَثْنًى وَمُرْسِلِ

- الزوزني : شرح المعلقات السبع ، ص 30 .

نلاحظ ثقل في كلمة " مستشزرات " التي يعتريها تنافر الحروف ، يعرفه الهامشي بقوله << هو وصف في الكلمة يوجب ثقلها على السمع وصعوبة أدائها باللسان : بسبب كون حروف الكلمة متقاربة المخارج >>

- أحمد الهاشمي : جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، دار مكتبة الحياة ،بيروت ، لبنان ، د ت ، ص 8 .

أو كقول جرير : [من الكامل]:

وَتَقُولُ بُوزَعُ قَدْ دَبَبْتَ عَلَى العَصَا هَلا هَزَأْتِ بِغَيْـرِنَا يَـــا بُوزَعُ

- جرير : ديوان جرير : ص 420 .

ويقال إن جرير أنشده لبعض خلفاء بني أمية من قصيدة له ، فلما بلغ إلى قوله بوزع قال له : << أفسدت شعرك بهذا الاسم وفتر >>

- ابن قتيبة : الشعر والشعراء ،ج1 ، ص 71 .

يقول ابن شرف أن البيت موجود في قصيدة تعد أحلى << وأملح قصائد جرير ، وأجزلها وأفصحها ، لكنها ثقلت كلها بهذه اللفظة " بوزع " >>

- أبو عبد ا محمد بن شرف القيرواني: أعلام الكلام ، الدار التونسية للنشر ، تونس، دت، ص 38 .

والضابط الصحيح لفصاحة الكلمة هو الذوق السليم ، يقول السيد أحمد الهاشمي << ولا ضابط لمعرفة الثقل والصعوبة سوى الذوق السليم ، والحس الصادق الناجمين عن النظر في كلام البلغاء وممارسة أساليبهم >>

- أحمد الهاشمي : جواهر البلاغة ،ص8 .

[1] ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ج1 ، ص 104 .

الأوزان الطويلة من مثل الطويل والكامل ويقبلون على الأوزان السهلة من مثل الوافر والخفيف والرمل والمتقارب والهزج >> [1] .

وتخرج الأوزان الخفيفة لشعراء الغناء غالبا عما أقره الخليل فتكون التفعيلات خاضعة للزحافات والعلل تماشيا مع النغم الموسيقي الذي يجب أن يطرب السامع << ولم يكتف الشعراء بهذه التغييرات الداخلية في الأوزان ، بل اتجهوا إلى عمل آخر وهو الحذف في تفاعيل الوزن ، ومن هنا كثرت المجزوءات لا في الأوزان الطويلة المعقدة فحسب ، بل أيضا في الأوزان الخفيفة السهلة >> [2] .

وقد كانت أبيات جارية تميم المجزوءة إذًا خاضعة لنظرية الغناء الشعري الجديدة التي تبيح السطو على المعاني وخرق نظام الوزن والخروج أحيانا عن قواعد اللغة في سبيل إرضاء المستمعين الضامئين إلى هذا النوع من الطرب بعد حياة الشظف والخشونة ، وليس أدل على ذلك من قول السفْر للجارية لما أنشدتهم أبياتها: " أعيدي با أعيدي " ، يقول شوقي ضيف : << نحن نظن ظنا أن هذه الأغاني حدثت فيها تعديلات كثيرة في أوزانها تحت تأثير نظرية الغناء الجديدة ، ولنتصور الآن أن الملحنين عندنا والمغنين يسعون جادين إلى إحداث نظرية غنائية جديدة فيها أثر الألحان الأجنبية ، أليس ذلك يتطلب من الشعراء جهدا حتى يلائموا بين أوزان شعرهم وهذه النظرية الجديدة ؟ ، وأقصر ما في المسألة وأقلها خطرا ، أن المغنين من دأبهم أن يمدوا في حروف بعض التفعيلات أو يهمسوا ، وهذا من شأنه أن يحدث تغييرا طفيفا أو كثيرا في موسيقى المقطوعة التي يغنونها >> [3] .

والحق أن ما ذهب إليه شوقي ضيف من أن نظرية الغناء الجديدة ألزمت الشعراء والمغنين بأن يقفوا شعرهم على الأوزان الخفيفة المجزوءة صحيح إلى حد ما ولكن لا يجب إغفال جانب الحروف والأصوات التي قد تغير مجرى هذا الحكم وتقلبه من الأساس ، حيث تصبح الأوزان الطويلة صالحة للغناء بل وتسمو على الأوزان القصيرة إذا ما توفر فيها انسياب الألفاظ وعذوبة النغم وهدوء الجو النفسي الذي يزينه الروي المهموس

---

[1] د. شوقي ضيف : الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية ، ص 85 .

[2] المرجع نفسه : ص 226 .

[3] المرجع نفسه : ص 225 .

الممدود، ويعقد عز الدين إسماعيل موازنة سريعة بين أبيات شعر لأبي العتاهية وأخرى لابن المعتز حتى يبين صحة ما يذهب إليه ، يقول : << لنستمع مثلا إلى هذه النغمات ، بل الدمدمات التالية من أبي العتاهية : [من البسيط]:

أَمَعَ المَمَاتِ يَطِيبُ عَيْشُكَ يا أَخِي ؟ — هَيْهَاتَ لَيْسَ مَعَ المَمَاتِ يَطِيبُ

كُلُّ ابْنِ أُنْثَــى حَافِـظٌ وَرَقِيبُ — رُعْ كَيْفَ شِئْتَ عَنِ البِلَى ، فَلَهُ عَلَى

كَيْفَ اغْتَرَرْتَ بِصَرْفِ دَهْرِكَ يَا أَخِي — كَيْفَ اغْتَرَرْتَ بِهِ وَأَنْتَ لَبِيبُ؟ [1]

إن صيغ النداء والتعجب والاستفهام والأمر ، وتكرار ذلك ، مع تكرار بعض العبارات ، كل ذلك يوفر لهذه الأبيات نبرة خطابية عالية ، ولا نهاية للشواهد في هذا الباب ، فكل الشعر الوعظي ينتمي إليه .

ومن جهة أخرى ينبغي أن ننتبه كذلك إلى أن الأوزان الطويلة ليست بذاتها ما يجعل الشعر خطابيا ، وإنما المعول على ما يملأ به الشاعر هذه الأوزان من صيغ ومرتكزات صوتية .

ومن ثم لا نعجب إذا نحن وجدنا الشعراء يستخدمون هذه الأوزان الطويلة نفسها أحيانا في مجالات بعيدة بطبيعتها عن الخطابية ، كالنسيب والخمريات والزهديات وما أشبه ، لنستمع على سبيل المثال إلى هذا الصوت من ابن المعتز [2]: [من البسيط]:

طَالَ النهَارُ ، فَأَيْنَ اللَّيْلُ وَالسهَـرُ — إِنِّـــي لَيَدْرِي وَ بَدْرُ اللَّيْلِ مُنْتَظَرُ

يَاطُولَ شَوْقِي إِلَى نَوْمِ الرَّقِيبِ وَقَدْ — خَلَا حَبِيبِي لِي حَتى بَـدَا السـحَرُ

يَا قَلْبُ صَبْرًا عَلَى يَوْمِ الفِرَاقِ فَقَدْ — حُقَّ الذِي مِنْهُ حَقًّـا كُنْتُ انْتَظِـرُ

يَا شَوْقُ خُذْ مِنْ حَيَاتِي وَاتْرُكَنْ زَمَا — نَ البَيْنِ مَا فِي حَيَاتِي بَعْدَهُمْ وَطَرُ

---

[1] أبو العتاهية : ديوان أبي العتاهية ، ص65 .

[2] **ابن المعتز** : (249 – 296 هـ / 863 – 908 م) :

أبو العباس عبد ا بن الخليفة المعتز بن المتوكل ،ولد في سامرا ، ولا تعرف سنة ميلاده معرفة ثابتة ،تخرج على جماعة من العلماء منهم المبرد وثعلب ، نشأ ابن المعتز نشأة أمير مترف << في ميادين من النور والبنفسج والنرجس ...وفاخر الفرش ، ومختار الآلات ، ورقة الخدم >> كما يقول الأصفهاني ، وانطلق في غمار اللهو، وأمعن في الشراب وسماع الغناء ، ولما توفي المكتفي سنة 863-908 م ، استخلف المقتدر وشبت فتنة عظيمة ، فالتأم العلماء والقضاة وخلعوا المقتدر منادين بابن المعتز خليفة ، ولما رأى علمان المقتدر أن الأمر سيفلت منهم ،ثاروا على أصحاب ابن المعتز ، وتغلبوا عليهم ، وقبضوا على الخليفة الجديد بعد يوم وليلة من خلافته ، ثم ما لبثوا أن قتلوه .

- حنا الفاخوري : تاريخ الأدب العربي ، ص 549 – 550

وهذا الشعر كما يقول الناقد << على الرغم من طول الوزن لا ترتفع فيه النبرة الخطابية على نحو ما لمسنا في أبيات أبي العتاهية ، بل توشك النغمة العامة هنا أن تكون ضربا من الأنغام الرومنسية الهادئة الحالمة >>[1].

ومن هنا نستنتج أن مبدأ طول أو قصر البحور والأوزان الشعرية لا يستقيم دائما في بيان أنه يصلح للغناء أو لا يصلح ، و يعطي الناقد خلاصة لما قام به من موازنة فيقول :
<< والشعر الكثير الذي كان يختار للغناء في ذلك العصر كانت تتوافر فيه هذه النبرة الهادئة الهامسة في بعض الأحيان ، بغض النظر عن طول الوزن وقصره ، فمن الصعب علينا أن نتصور أحد ملحني ذلك العصر يصنع لحنا في أبيات أبي العتاهية السابقة ،أو في غيرها من شعر المدح الجهوري الصوت ، في حين يسهل هذا التصور بالنسبة لأبيات ابن المعتز هذه ، و من ثم فإننا نرى أن الفكرة المستفيضة القائلة بأن الشعراء اجتزوا الأوزان و قصروها من أجل أن يسهل تلحينها وغناؤها ، فكرة تحتاج إلى إعادة نظر >> [2] .

وإذا استبعدنا فرضية خضوع الشاعر لأهواء وأمزجة الآخرين حين يجتزئ أوزانه الغنائية ، فإنه لا يبقى لنا خيار لتفسير علة الاجتزاء إلا أن الشاعر يفعل ذلك إرضاء لذاته ألا ومسايرة لحالته النفسية والتدفق الشعوري مع الألفاظ والعبارات التي يوردها ويوظفها ، أي أن أريحية النفس يقابلها في الشعر سلاسة النظم وانسياب في اللفظ وسرعة في الأداء بما يحتم عليه لا شعوريا استخدام أوزان خفيفة وإيقاعات سريعة للتعبير عن كوامن النفس وخلجات الشعور، ونلاحظ أن الأريحية تتولد من اللهفة للقاء الأحباب أو رؤية المعشوق أو الحنين إلى الأرض التي درج فيها الإنسان وهذه حقيقة الانفعالات التي تصنف وفقها الأوزان في مجموعات << كل مجموعة ترتبط بحالة عامة من أحوال النفس ، وفي إطار هذه الحالة يختار الشاعر وزنا من إحدى هذه المجموعات اختيارا تلقائيا هو الوزن الذي يوائم حركته النفسية ، فهو إذن غير مقيد كل التقيد وإن كان يتحرك في إطار محدود . وعلى ذلك ، وتماشيا مع الفكرة القديمة ، تستحضر نفس الشاعر الوزن الذي يتفق وحركتها من بين مجموعات الأوزان التي تناسب ألوان الانفعال المختلفة ، فإذا

---

[1] د. عز الدين إسماعيل : في الشعر العباسي ، الرؤية والفن ، ص 417-418 .
[2] المرجع نفسه : ص 418 .

كان المسيطر عليه هو انفعال الحزن مثلا استحضر وزنا من مجموعة الأوزان التي تتفق بصفة عامة مع هذا النوع من الانفعال >>[1] .

وهذا ما نلحظه في بيتي جارية تميم :

لمــا وَرَدْنَا القَادِسِيــةَ حَيْثُ مُجْتَمَــعُ الرِّفَاق

وَشَمَمْتُ مِنْ أَرْضِ الحِجَا زِ نَسِيمَ أَنْفَاسِ العِرَاق

أما حين تضطرب الجوانح ويدلهم الأفق وتستوحش النفس فينعكس ذلك أيضا – وفي اللاشعور – على نظام البيت ، فيستحيل الانسياب اللفظي إلى تموجات وتعقيدات تثقل السمع وتنفر الشاعر قبل القارئ أو المستمع ، كمثل بيت جارية تميم حينما تذكرت طول الطريق وبعد المسافة عن ديار الأهل فانعكس ذلك سلبا على الجو الغنائي الانسيابي الذي كانت تتصف به المقطوعة ، ونجد أمثلة أخرى حول تأثير الجو النفسي على الأداء الشعري ، فحينما يقول أبو العتاهية : [من الكامل]:

يَا سَاكِنَ الدُّنْيَا لقَدْ أَوْطَنْتَهَا وَأَمِنْتَهَا ، عَجَبًا ! وَكَيْفَ أَمِنْتَهَا ؟[2]

نرى كلمة " عجبا " في عجز البيت أضرت بموسيقى البيت على الرغم من أن البيت مصروع بكلمتي أوطنتها – أمنتها ، ولكن خفي جمال التصريع بسبب الاعتراض الذي تسببت فيه لفظة " عجبا " والانقطاع الذي أحدثته بين دفتي البيت رغم أنها في الوقت نفسه الجسر الذي يربط بينهما .

وطبعا لا يمكن أن ينفصل تفسير هذا الانقطاع والاختلال للموسيقى عن موضوع البيت والحالة النفسية التي كان يكابدها الشاعر ، فالانقطاع الموسيقي في لفظة " عجبا " يقابله دعوة للانقطاع عن ملذات الدنيا ومباهج الحياة الزائفة .

وعبثا يفعل من يحاول فصل الجانب النفسي عن الإيقاع الموسيقي في القصيدة كما هو الدرس العروضي القديم الذي يقر بالزحافات والعلل دونما تفسير لحالات الشعور التي رافقت تلك الزيادة أو النقصان في الوزن ، ونحن حينما نسمع مقطوعة شعرية تغنى كما في أبيات جارية تميم لا نعجب لأن الجانب الموسيقي الذي يترتب عنها جميل فقط وإلا لكان سماع قطعة موسيقية بحتة بآلات الطرب المعروفة أجدى من سماع الكلمات الشعرية

---

[1] د.عز الدين إسماعيل : التفسير النفسي للأدب ، ص 59 .

[2] أبو العتاهية : ديوان أبي العتاهية ، ص175 .

تلك ، بل لأن الشاعرة نجحت في نقل معاناتها وتجربتها في ديار الغربة ، ثم حاولها مع الركب القادمين إلى الأرض التي رعت فيها ، فهي نجحت في نقل ما يختلجها من شعور عبر بوابة الموسيقى << ومن ثم كانت خطورة تشكيل الصورة الموسيقية للقصيدة ، لأن الشاعر إن لم يوفق من خلال هذه الصورة إلى خلق حالة التوافق بين الحركة التي تموج بها النفس والحركة التي تموج في الأشياء – وإن يكن ذلك على نحو غاية في الجفاء – فإن الصورة الموسيقية عندئذ – مهما يكن فيها من تناسق ونظام خاص – تفشل في تحقيق غايتها الفنية ، وتبقى تشكيلا صوتيا من طرف واحد ، أي أنها لا تعيننا على ربط نفوسنا بالوجود الخارجي وتنسيق المختلط من ذبذبات هذه النفوس وفقا للإيقاع الخفي في ذلك الوجود >>[1] .

---

[1] د. عز الدين إسماعيل : التفسير النفسي للأدب ، ص64 .

- سارة الحلبية :

وإذا نحن عرضنا لصورة المرأة المغربية من خلال شعرها الذي دار معظمه في حيز ضيق بتناوله مواضيع اجتماعية تدور بين أفراد تربطهم صلات محدودة ، كأن ترثي فقيدا أو تصف حبيبا أو تستعطف أخا ، فإنه لا يفوتنا القول بأن جهود المرأة في العمل الشعري لم تقتصر على هذه الإخوانيات بل اتسع مجال نظمها ليقتحم العوالم الشعرية التي ظلت حكرا على الرجال كالوفادة على الملوك والأمراء واستمناحهم بالمديح وانتظار أعطياتهم وجوائزهم .

وقضية وفود النساء الشاعرات على الملوك والأمراء والقواد لمدحهم وطلب نوالهم ليست جديدة أو غريبة في الشعر العربي فقد سبق وأن وفدت ليلى الأخيلية على الحجاج ومدحته[1] ونالت صلته .

والملاحظ أن وفود المرأة على الأمراء لم يكن جراء اللهث على أموال الخزانة كما هي عادة الشعراء الرجال ، وإنما دفعها إلى ذلك الأحوال الاقتصادية السيئة والفقر المدقع الذي كان ضاربا بأطنابه في البوادي والقفار حيث يقيم الناس ، وقد كانت قصور الخلفاء هي سبب إملاق هؤلاء ، حيث تؤخذ منهم الصدقات وتصرف في غير وجهها وعلى غير مستحقيها ، فالأقلية تعيش النعيم والسواد الأعظم يعيش الجحيم ، وقد أكدت ليلى ذلك للحجاج حينما بينت السبب الحقيق لمقدمها : << قالت : أصلح ا الأمير ، أضر بنا العريف في الصدقة ، وقد خربت بلادنا وانكسرت قلوبنا ، فأخذ خيار المال >>[2]

فالوضع الاقتصادي المزري والشطط في جمع الصدقات والمغارم هو الذي دفع المرأة الشاعرة إلى طلب الرفد ولولا ذلك ما كان الأمراء الأمويون ليروا شريفات العرب متذللات يطلبن المعونة لهن ولعشيرتهن ، يقول شوقي ضيف : << لم يعبر الشعر الأموي

---

[1] من قولها في مدحه : [من الطويل]:

إِذَا هَبَطَ الحَجاجُ أَرْضًـا مَرِيضَةً   تَتَبعَ أَقْصَى دَائِهَا فَشَـ ـفَاهَا

شَفَاهَا مِنَ الدّاءِ العُضَالِ الذِي بِهَا   غُـ ـلَامٌ إِذَا القَنَاةَ سَـ ـقَاهَا

وقد وصلها الحجاج بخمسمائة درهم وكسوة ، ووصلها الحاجب عبيدة بن موهب بأربعمائة دينار .

- د. إحسان النص : اختيارات من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، ج4 ، ص 364-365 .

[2] المرجع نفسه : ص 365 .

عن المال والمادة والحياة الاقتصادية من الوجهة العامة فحسب ، وإنما عبر أيضا عن النظم الاقتصادية الموضوعة ، وكان قد دخلها اضطراب كثير في هذا العصر ، فمن فمن جهة كثرت الإقطاعات للولاة والعمال وزعماء العرب ومن جهة فرض على الناس كثير من الضرائب الاستثنائية ، وكان الولاة يتفننون في ذلك ، فتارة تفرض باسم أجور عمال الخراج ، وتارة تفرض باسم نفقات العقود وسك النقود وغير ذلك >>[1] .

وكذلك كان الحال مع العباسيين ، بل لعل الأوضاع ازدادت سوءا بالنسبة لعامة الناس ، فالقصور استأثرت بخيرات البلاد على حساب العامة المحرومة << التي كانت تحيا حياة بؤس تقوم على شظف العيش لينعم الخلفاء والوزراء والولاة والقواد وكبار رجال الدولة ، وأمراء البيت العباسي الذين بلغوا هم وأبناؤهم نحو ثلاثين ألفا لعهد المأمون .

وطبيعي أن يعم البؤس والشقاء من جانب ، بينما يعم النعيم والترف من جانب آخر ، بل لقد كان للشقاء والبؤس أكثر الجوانب في الحياة العباسية، فالجمهور يعيش في الضنك والضيق – لا الرقيق منه فحسب الذي كان يعمل في القصور والضياع – بل أيضا جمهور الناس من الأحرار ، وكأنما كانوا جميعا أرقاء في هذا النظام .

ولعل هذا البذخ وما صحبه من اعتصار الشعب هو السبب الحقيقي في كثرة الثورات على العباسيين ... وأيضا لعله السبب الحقيقي في تعلق الناس بالمهدي المنتظر من أبناء علي الذي ينشر العدل الاجتماعي في الأرض >>[2] .

والملاحظ أن المرأة الشاعرة في العصرين الأموي والعباسي رغم حالة الفقر التي كانت تعيشها إلا أنها لم تكن تلح في طلب النوال ، أو يطيب لها المقام في قصور الأمراء والأعيان ، ربما لأن ذلك ليس مجالها الطبيعي أو لأنها كانت لا تحتمل نظرات الازدراء والترفع التي كانت ترمقها بها عيون كريمات القصور، أو أنها لا تستطيع منافسة المداحين من الرجال ... ، ولهذا لا نعجب حين نرى ليلى الأخيلية تغادر مسرعة إلى خراسان والحجاج لم يهنأ بنزولها والحديث إليها بعد رغم الحفاوة التي أظهرها والأعطيات التي أمر لها بها [3] .

---

[1] د. شوقي ضيف : التطور والتجديد في الشعر الأموي ، ص 124 .

[2] د. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، ج3 ، ص 51 .

[3] د. إحسان النص : اختيارات من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، ج4 ، 365 .

وإذا كان هذا حال المرأة المشرقية فإن وضع المرأة المغربية يعد أكثر سموا وشموخا ، بحيث لم يعرف في المصادر التي درجنا على تصفحها أنها كانت تقبل على الأمراء بالمدح لتحصل على صلاتهم، ولا نملك سببا قاطعا يفسر هذه القطيعة النسوية لعالم المدح ولكن يمكن تقديم تفسيرات نفسية واجتماعية ، فمن جهة قد يبدو لنا مشهد امرأة وهي تمدح ملكا مشهدا غريبا بعض الشيء ، ذلك أن المرأة الكريمة تظل منزلتها سامية وقدرها مبجلا فحتى الممدوح لا يرضى أن تنزل إلى الدرك الذي يحتم عليها استجداءه واستمناحه ، فيبادر إلى إكرامها حتى قبل أن تسأل حاجتها وتلك شيم تحسب للملوك والأمراء ، من مثل ما نجده مع حرقة بنت النعمان عندما وفدت على سعد بن أبي وقاس وقد عرضنا قصتها معه في الفصل الأول من البحث .

وقد نقول من جهة أخرى أن المرأة ظلت في صورة نمطية لدى عامة الناس ، تلك الصورة التي تضعها دائما في موضع القوي الذي يقهر الرجل بجماله ويصليه نار الهجر والحرمان ، وبالتالي كانت دائما هي الممدوح من خلال الأشعار التي قيلت فيها واصفةً جمالها ومناعتها وصعوبة وصالها ، وهذا ما انطبع في أذهان ومخيلة البشر عنها منذ القدم ، ولم يكن من السهل أن تقلب هذه المعادلة لتصبح هي المادحة والرجل هو الممدوح ، وحتى إن أرادت هي أن تفعل ذلك فليس من السهل عليها إيجاد مضامين جادة وذات بال لمديحها ، ذلك أن الرجل ملم بأحوال ممدوحه ، وقد يشهد معه المعارك والحروب ، ومن ثمة تؤتى له ملكة القول فيصف قوته وجلاده وفعله في الأعداء ، وقد يتقلب معه في السفر و جوب البلدان والمدائن فيصف حلمه و جوده و عدله في الرعية وقسمته بالسوية وتكون هذه المعاني المدحية أكثر توهجا يزينها حسن القول النابع من صدق العاطفة ، أما المرأة فهي مشغولة بأمور البيت والعيال ، ناهيك أنها لا تستطيع مشاهدة الحروب والوقائع إلا إذا تحتم عيلها ذلك كأن تكون من أهل الممدوح أو حظاياه ، وبالتالي لن تتأتى لها معاني المدح المطلوبة ،

ويمكننا الزعم أيضا أن المرأة البربرية على جانب كبير من الشموخ والتسامي الفكري حيث تأبى الركوع بأي شكل من الأشكال حتى ولو كان بقصيدة تلقيها على مسامع الأمير، وحتى الرجال معروفون بغيرتهم على الحريم وحرصهم على صونه والذود عنه ، وقد سبق وأن أشرنا إلى ثورة البربر على ولاة الأمويين بالمغرب الذين كانوا يبعثون إلى الخليفة وحاشيته بسنيات البربر ، وعلى الرغم من أن الخليفة في دمشق أو عماله على

الولايات لم يكونوا يردنهن كجواري أو إماء بل كزوجات ينجبن أولياء العهد وقد اشتهرت منهن غير واحدة [1] إلا أن البربر رفضوا هذا الأمر ، وبلغ بهم الأمر حد الذهاب إلى الخليفة هشام بن عبد الملك في دمشق لإبلاغه شكواهم ، وقد نقلوها لحاجبه الأبرش لما تعذر عليهم لقاءه[2].

وعلى هذا أمكننا القول أن الشاعرة المغربية عدلت عن طرق أبواب الأمراء بالمدح ، وتركت هذا الفن للرجال ينظمون ويخوضون فيه كما خاضوا من قبل ، وبينما الأمور تجري على هذا النسق إذ تنزل ببلاد المغرب شاعرة مشرقية فتتصدى بالقول في ميدان المديح ، إنها سارة الحلبية ، ونحن << لا نعلم عن الظروف التي دفعت هذه الشاعرة إلى ترك موطنها والرحيل إلى الأندلس والمغرب >> [3] .

غير أن الذي يهمنا هو أن هذه الشاعرة نزلت بسبتة وظلت تنتقل منها إلى فاس وغيرها وقد توفيت بهذه الأخيرة وبذلك عدت شاعرة مغربية .

وقد طارت لها شهرة واسعة في الأندلس والمغرب بسبب ما حازته من براعة في النظم وجودة في الخط وخبرة في الطب ، ونجد أحد أدباء الأندلس ممن عاصروها يصفها بقوله << ومن المتظرفات من أهل زماننا هذا ، ممن فاقت نساء عصرها سارة الحلبية أديبة شاعرة وطبيبة ماهرة ، تتصرف بيدها في جميع الصناعات فتجيد في ذلك وتكتب الخط المستحسن وتحل الذهب بصناعة رائقة فتكتب ، وكان لها إقدام في الكلام ، و وفادات على الملوك والأشراف >>[4] .

ويبدو أن الشاعرة بدأت عملها مبكرا وفي أول نزول لها ببلاد المغرب حيث نجدها تفد على المستنصر با الحفصي [5] وتمدحه بقولها : [من الكامل]:

---

[1] ابن حوقل : صورة الأرض ، ص 94-95.

[2] الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج7 ، ص184.

- د. عبد الحميد حسين حمودة : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، ص 136-137 .

[3] د. فوزي عيسى : شاعرات الأندلس والمغرب ، ص 245 .

[4] د .حسن حسني عبد الوهاب : شهيرات التونسيات ، ص 114 ، نقلا عن : أنس العاشق ورياض الحب الوامق (مخطوط محفوظ بمكتبة لينغراد رقم 835) .

[5] **المستنصر الحفصي** : (642-694 هـ / 1244 – 1295 م) :

عمر بن يحي بن عبد الواحد الحفصي الهنتاني ، أبو حفص ، المستنصر الثاني : صاحب تونس ، من ملوك الدولة الحفصية ، كان مع أخيه إبراهيم بن يحي حين تغلب الدعي بن أبي عمارة على إفريقية ، ونجا بعد مقتل إبراهيم وأبنائه ، فرحل إلى قلعة سنان بقرب تونس ، وتسامع العرب به فجاؤوه مبايعين سنة 683 ه ، فقاتل بهم المتغلب بن أبي =

الشـ ـرْقُ يَزْهُو بِكُمْ وَ المَـغْرِبُ وَ كَذَا الزَّمَانُ بِتِيهُ بِكُمْ وَ يَطْرَبُ
وَ المُلْكُ وَ المَجْدُ وَالمَفَاخِرُ وَالندَى كُـلٌّ فَخْرٍ عَلَـى مَجْدِكَ يُنـْسَبُ [1]

وهذه المعاني مألوفة لدى شعراء المدح،وهي تقول أن البلاد كلها بشرقها وغربها تنعم في ظل الحاكم العادل،وقد طرب الزمان وترنم كل من عاش في عهده ، وإنه لأهل للفضائل ومحراب للمجد والمفاخر،ويقصر كل فخر أمام فخاره العظيم ، وينسب كل عمل مفيد أو شيء جميل إليه فهو كالبحر الذي تصب فيه الجداول والأنهار بما تحويه من خيرات .

ولا تنسى الشاعرة تذكير الممدوح بأنه أهل للجود والكرم من خلال لفظة " الندى " وهو تلطف في طلب الرفد لأن عطاء الممدوح سيشمل الجميع ولن يكون هناك داع للإسفاف والإلحاح في الطلب .

والملاحظ أن البيتين لا يستقيم فيهما الوزن العروضي،فبحر الكامل وهو الأقرب وزنا عند تقطيع البحر،لا تتوافق تفعيلاته ، ونحن بدورنا لا ندري أوقع تصحيف أو تبديل في ألفاظ البيتين على يد الرواة،أم أن الشاعرة نظمتهما على وجه السرعة وقت دخولها على الأمير ولم تسعفها ناصية اللغة وملكة التعبير فجاء شعرها مهلهلا قلقا كما نجده نحن حينما نقرؤه وقد أكملت الشاعرة طريقها إلى المغرب الأقصى ، وصادف قدومها حكم آل العزفي بسبتة وهذه الأسرة من أعرق أسر سبتة جاها وعلما وفضلا ، وبرز فيها عديد العلماء والفقهاء و الأدباء [2] ولم يكن للشاعرة بد من الاتصال بهم والحصول على نوالهم ، غير

= عمارة واستعاد تونس ، وقتل المتغلب في السنة نفسها ، فالتفت عليه البلاد وتلقب " المستنصر با " وهو ثاني أصحاب هذا اللقب من الحفصيين وكان عاقلا شجاعا ، توفي بتونس .

- الزركلي : الأعلام ، ج5 ، ص 69 .
- د . حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، ج2 ، ص 246 وما بعدها .

[1] د. حسن حسني عبد الوهاب : شهيرات التونسيات ، ص114 .

[2] منهم القاضي والعالم الجليل أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن الحسين العزفي (607 – 677 هـ / 1211 - 1279 م) وهو أول من ولي الإمارة من بني أبي عزفة بسبتة ، وقد ثار فيها وقتل واليها ، وتأمر وملك طنجة ، ودامت دولته ثلاثين سنة أو تزيد (647 -677 م) ، وكان فقيها فاضلا له نظم .

- الزركلي : الأعلام ، ج5 ، ص 323 .

ومنهم أيضا ابنه أبو طالب عبد ا بن العزفي (638 -713 هـ / 1240 -1313 م) : والذي ولي سبتة سنة 678 ه ، واستمرت دولته 27 سنة ، وخلع باستيلاء الأمير فرج بن إسماعيل بن الأحمر عليها سنة 705 ه واعتقل ثم توفي بفاس، وكان فقيها ، حافظا للحديث ، له علم بالتاريخ ، يقول عنه ابن الخطيب : << كان من أهل الجلالة والصيانة ، حافظا للحديث ، ملازما لتلاوة القرآن ، عارفا بالتاريخ ، معظما عند الملوك ، جميل الشارة >> .

- ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، ج 3، ص 383 – 384 .

أنها لم تكن تطمع في أموالهم قط ، بل كانت ترى فيهم خير من يفهم رسالة الشعر ودلالة الكلمة ، لهذا كان آل العزفي بالنسبة لها أكثر من مصدر للمال إنهم أهلها الحقيقيون وخير من يقدر منزلتها ويرفع مكانها ، ومما يدل على ارتياحها للقائهم واطمئنانها بينهم- بعد طوال سفر وشديد عناء وإملاق وملل ممن طرقت بابهم وهم لا يعيرونها بالا- قولها تخاطب نفسها :[من البسيط]:

بُشْرَاكِ يَا نَفْسُ نِلْتِ السؤْلَ وَالأَمَلَا وَعَادَ دَهْرُكِ بَعْدَ الجُـ ـورِ مُعْتَـدِلا

وَ نِلْتِ مَا كُنْتِ طُولُ الدَّهْـرِ تَأْمُلِهِ وَعَنْكِ أَضْحَى العَنَا وَالبُؤْسُ مُرْتَحَلا [1]

وهذه شهادة منها بأن سبب مقدمها إلى سبتة - بل وإلى المغرب - كله كان شظف العيش الذي عانته ببلادها والبؤس الذي لاقته وهاهو يرتحل عنها بعدما لقيت ضالتها .

ثم تكيل المدح والثناء على الأمير أبي حاتم ، فتقول :

وَقَدْ وَصَلْتُ إلى بَحْرِ الندَى عَلَمِ الـ ـهُدَى أَبِي حَاتِمٍ اْبْنِ السـادَةِ الفُضُلَا

هُـ ـوَ الَّذِي لَمْ يَزَلْ و اللهُ يَكْـلَؤُهُ يُرْجَى لِدَفْـ ـعِ مَلَـ ـمٍّ مُؤْلِمٍ نَـزَلَا

هُوَ الَّذِي لا يَزَالُ الدَّهْـ ـرُ يَخْدُمـُهُ وَ لَيْسَ يَعْصِيهِ فِيمَا قَـ ـالَ أَوْ فَعَلا

هُوَ الَّذِي صَـ ـدْرُهُ لِلْعِـلْمِ مُنْشَرِحٌ وَ أَوْدَعَ اللـهُ فِيهِ عِلْـمَ مَا جُـهِلا [2]

و هي تشبه الممدوح بالبحر الذي لا ينفد عطاؤه و لا يجف معينه ، ثم إنه نبراس الهدى ، و لم يكن نبوغه وليد الصدفة ، بل هو ميراث اكتسبه من الآباء و السادة الفضلاء من بني أبي عزفة ، و هو إلى جانب تضلعه في العلوم و الآداب خبير بميدان الحروب و استعمال السلاح و ركوب الخيل ، إنه خير من يرجى لدفع الملمات ، والملاحظ في هذا الصدد أن الأسر الحاكمة ببلاد المغرب الإسلامي كانت تولي اهتماما بالغا للجانب العسكري و الحربي في تربية و تكوين أبنائها ، فإلى جانب تحفيظ القرآن و دراسة الحديث و الإلمام بقدر من الفقه و الأدب توجد الفروسية و التدرب على استخدام مختلف الأسلحة و ركوب الخيل ... مما يساهم في إعداد شخص متكامل في تكوينه الديني و الدنيوي ، و هذا ضروري للرجل خاصة و أن أرض المغرب ظلت مسرحا للثورات و الشغب التي أذكى نيرانها الخوارج و الشيعة و غيرهم من أصحاب الملل و النحل بالإضافة إلى هجومات

---

[1] أحمد بن القاضي المكناسي : جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس ، دار المنصور ، الرباط ، المغرب ، 1973 م ، ص 525 .

[2] المصدر نفسه : ص525 .

دول الصليب على السواحل فكان لزاما أن يتسلح القائد بالعزيمة و الإقدام و الإلمام بأفانين القتال ، و لا عجب أن نجد آل العزفي أرباب حرب و قوادا أفذاذا ، منهم يحي بن عبد ا بن محمد [1] الذي قيل << أنه أول من ركب بالرمح و السيف من بني العزفي >> [2] .

و إذا تأملنا الأبيات نلاحظ وجودا قويا للجانب الصوتي المتواتر و الممثل في التكرار على مستوى الألفاظ و الجمل من مثل جملة " هو الذي " في صدور الأبيات << و أهم القضايا التي يمكن أن نخلص إليها من هذه الملاحظة هي أن ظاهرة التكرار الصوتي في القصيدة – سواء على مستوى اللفظ المفرد أو على مستوى الجملة – يتضمن دلالات معنوية تعبر عن تجربة نفسية متواترة يصعب التنصل منها ، أو الانفعالات من قبضتها >> [3] .

و اعتمادا على ذلك نرى كيف أن الشاعرة يصعب عليها الانفلات من هذا الممدوح ، فهو قد أصبح مالكا لها ، سيدا عليها لكثرة عطاياه و مزاياه فكأنه استرقها ، و هذا الشعور " بالاسترقاق من فيض العطاء "هو الذي عبر عنه المتنبي في صدر بيت له بقوله :

[من الطويل] :

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الكَرِيمَ مَلَكْتَهُ وَ إِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللئِيمَ تَمَرَّدَا [4]

و التكرار إذا يحيل على حالة نفسية ملازمة للشاعر تظهر في إيقاعات نظمية تضفي جوا موسيقيا رتيبا حيث نحس بارتباط نغمي بين البيت و ما يسبقه و ما يليه << هذا بالإضافة إلى نقط ارتكاز نغمية تبرز من وقت لآخر لكي توجه الحركة النفسية التالية مع الحركة الموسيقية >> [5] .

و تبرز نقاط الارتكاز هذه في أواخر صدور الأبيات ، حيث نجد الحروف مضمومة موافقة لبداية الصدر المضموم أيضا ، و هذا ما يساعد على الانتقال السلس لأعجاز

---

[1] **يحي العزفي** : (677-719 هـ / 1279-1319 م) :

يحي بن عبد ا (أبي طالب) بن محمد (أبي القاسم) بن أحمد بن محمد بن ابي عزفة اللخمي العزفي ، أبو عمرو : من أمراء العزفيين ، بويع سنة 710ه ، فأقام سنة و نصف و خلع ثم بويع ثانية سنة 714هـ ، فاستمر إلى أن توفي ، و كان فقيها فاضلا ، مع براعة الخط و جودة الشعر ، مقداما شجاعا

- الزركلي : الأعلام ، ج 8 ، ص154 .

[2] المالكي : أزهار الرياض ، ج2 ، ص377 .

[3] نور الدين السد : الشعرية العربية ، دراسة في التطور الفني للقصيدة العربية حتى العصر العباسي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 2007م ، ج2 ، ص228- 229.

[4] ديوان المتنبي : ج2 ، ص 183 .

[5] عز الدين إسماعيل : التفسير النفسي للأدب ، ص88 .

الأبيات المشبعة ، و بالتالي وجود ثلاث نقاط ارتكاز رئيسية تعمل على توجيه الموسيقى وفق الحالة النفسية هي :

- أول حرف في الصدر
- آخر حرف في الصدر
- آخر حرف في العجز

ولا تنس الشاعرة تذكير الأمير بالحالة الصعبة التي آلت إليها ، فتحثه على البذل شاكية ظلم الزمان و تقلب الإخوان فتقول : [من البسيط] :

مَـوْلايَ جِئْتُكُمْ لِلْفَضْـل قَاصِـدَةً ... عَـنْ صَقْعِ أَرْضِكُمْ لا أَبْتَغِـي بَـدَلاَ

فَـإِنَّنِي امْرَأَةٌ جُرِّعْتُ مِنْ زَمَنِـي ... صَـابًا وَ كَانَ شَرَابِي قَبْلَ ذَا عَـسَلا

و يبدو أن مدح سارة لم يقتصر على أحدهم بل شمل آل العزفي جميعا ، و بذلك كانت مداحة الأسرة النبيلة بامتياز و اقتدار ، و لها قصيدة في مدح صفية أخت أبي الفضل القاسم بن محمد العزفي تقول فيها : [من الطويل] :

إِذَا مَا ذَكَرْتُ الشرْقَ طِرْتُ لَهُ شَوْقًا ... وَ شَوْقِي لِمَنْ بِالشرْق أَذْكَرَنِي الشرْقَا

وَ آنَسُ لَمْحَ البَرْق مِنْ نَحْوِ تُونُسَ ... فَيَـسْتَأْنِسُ المُشْتَاقُ إِذْ يَـأْنَسُ البَرْقَا

لَقَدْ سَارَ مَسْرَى الشمْسِ فَخْرُ صَفِيةٍ ... وَ نَوَّرَ إِشْرَاقًا لَـهَا الغَـرْبُ وَ الشرْقَا

وَ مَنْ أَصْبَحَتْ تَرْقَى إِلى المَجْدِ وَ العُلى ... مَرَاقِـيَ لَمْ يُرْقَ إِلَيْهَا وَ لَـنْ تُرْقَـى

وَ أَبْدَتْ سَمَـاحًا لَمْ يَكُنْ قَبْلَهَا يَـدًا ... سُلالَةَ فَخْرِ العَالَمِينَ الرِّضَـى الأَتْقَـى

وَ شَـادَتْ بِنَاءً لِلْمَـعَالِي بِجُـودِهَا ... فَلِلهِ مَـا أَتْـقَى وَ لِلهِ مَـا أَنْقَى[1]

تتذكر الشاعرة وطنها ويهيج شوقها إليه ، ويزداد كلما ذكر لها ، وهي تأسف لغربتها وبعدها عن منازل الأحبة غير أنها تأنس للمح البرق حينما يلمع من جهة تونس ، فكأنه يطمئنها بأن ديار الأهل مازالت بخير وأن أهلها يسقون الوابل المدرار، والحنين إلى المنبت ليس أمرا عارضا أو شعورا قصيا عن النفس ، بل هو كامن في الجوارح وعود إلى الأصل و << صحيح أن الإنسان يغادر وطنه الذي ولد فيه وترعرع ، ولعب فيه وجد ، وصادق فيه كل شجرة كان يستظل بظلها ، وكل ربوة كان يتسلقها ، وكل صخرة كان يدحرجها أو يستريح عليها ، وكل حبة تراب كانت أقدامه تطؤها في جدها وهزلها ، صحيح أنه يغادر وطنه إلا أن قلبه وروحه وخياله ومشاعره وكل خلية من خلاياه تبقى

---

[2] ابن القاضي : جذوة الاقتباس ، ص 525 .

في أرض هذا الوطن شجرة مباركة لا يستطيع أحد أن يجتثها ، بل تنمو مع الأيام ، وتشده إليها شدا قويا لا يستطيع أن يتحرر من أسره ، مهما رأى في غير هذا الوطن من مال وسلطان وجاه ومنفعة ، لأن شعور الغربة يبقى منغصا عليه كل هناءة >> [1] .

ويصطبغ جو الغريب بالأسى ، ومرارة الوحدة والتفرد ، ولا شك أن هذه الحالة النفسية لا تقف عند حد ولا تستقر في مستوى بل تزعزع كيان الشاعر ، فتمنع رقاده وتطيل سهاده وتصل ليله بنهاره ، قلب نفور ، وجسد يخور ، أو كما عبر عن ذلك أبو حيان التوحيدي بقوله : << الغريب في الجملة كله حرقة ، وبعضه فرقة ، وليله أسف ، نهاره لهف ، وغذاؤه حزن ، وعشاؤه شجن ، وخوفه وطن >>[2] .

بل إن ألم التغرب يضاهي ألم القتل نفسه ، وهذا ما يستنبطه الجاحظ من القرآن حين يقول : << ومما يؤكد ما قلنا في حب الأوطان قول ا عز وجل حين ذكر الديار يخبر عن مواقعها من قلوب العباد ، فقال : " **وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلا قَلِيلٌ مِنْهُمْ** "[3] فسوى بين قتل أنفسهم وبين الخروج من ديارهم>>[4] .

و نلاحظ أن ذكر البروق يتكرر لدى شعراء الغربة ولو بمعان مختلفة ، ونحن لا نعلم بالتحديد سبب تأثير هذه الظاهرة الطبيعة والحوادث الكونية في نفسية الشاعر المضطرمة غير أنه يمكننا بوجه عام القول ن الطبيعة أعظم معلم للإنسان ، وأن البرق يظل صاحب من لا صحبة له في أقاصي الدنى ، حتى ولو كان أسيرا ينتظر الفرج والعودة إلى الوطن كما عبر عن ذلك البارودي حينما ذكر مكان سجنه بسرنديب ومظهر البروق التي تبدو من الخارج : [من البسيط] :

إِذَا الْبُرُوقُ ازْمَهَرَّتْ خِلْتَ ذِرْوَتَهَا شَهْمًا تَدَرَّعَ مِنْ تِبْرٍ بِأَدْرَاعِ [5]

هذا القاسم المشترك في التعبير عن الظواهر الطبيعية في أثناء الغربة قد يفسر على أنه دلالة لاستمرارية الحياة بأرض الوطن ، وعلامة على أن الجمال ما زال يسكنه ويمتع

---

[1] د. عبده بدوي وآخرون : الأدب وروح العصر ، ص 104-105 .

[2] أبو حيان التوحيدي : الإشارات الإلهية ، تحقيق : د. وداد القاضي ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، 1973 ، ج1 ، ص 39 .

[3] النساء : 66 .

[4] الجاحظ : رسائل الجاحظ ، ج2 ، ص 389 .

[5] البارودي : ديوان البارودي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1998م ، ص 123 .

قاطنه ، فلفظة " البرق " ظلت تستعمل لمعنى الجمال والإحساس بالسكينة بعد طول عناء كما نجد هذا البيت الذي يرويه الجاحظ متحدثا ربما عن المرأة :

تَأَلَّـقَ البَرْقُ نَجْـدِيا فَقُلْـتُ لَـهُ يَا بَرْقُ إني عَنْكَ اليَوْمَ مَشْغُولُ [1]

ثم تخلص الشاعرة لمدح السيدة الفاضلة صفية ، ويلاحظ هنا حسن التخلص[2] الذي طبع حديثها وقد نقول أن الحديث عن البرق لم يكن حديثا عن جمال الوطن وأريحية النفس فقط وإنما كان ممهدا للحديث عن جمال هذه السيدة العزفية ، وبذلك انتقلت الشاعرة من غرض الوصف والحنين إلى غرض المدح أحسن انتقال وجمعت بين حاشيتي الكلام بأحلى لفظ وأقواه في الدلالة على الجمال الموحد بين وميض السحاب وتراب الأرض المفقودة وجمال المرأة الموجودة ، يقول حازم القرطاجني عن شروط عملية الانتقال في الأغراض : << فالذي يجب أن يعتمد في الخروج من غرض إلى غرض أن يكون الكلام غير منفصل بعضه من بعض ، وأن يُحتال فيما يصل بين حاشيتي الكلام ويجمع بين طرفي القول حتى يلتقي طرفا المدح والنسيب أو غيرهما من الأغراض المتباينة التقاء محكما ، فلا يختل نسق الكلام ولا يظهر التباين في أجزاء النظام >> [3] .

وإذا كان انتقال الشعراء من شتى الأغراض لغرض المدح يتم عبر الألفاظ المدوية التي تجسد عظمة الممدوح من مثل :الليل ، البحر، الورد...فان انتقال الشاعرة سارة كان بلفظ رقيق يجسد رقة الممدوحة وجمالها الساحر.

---

(1) الجاحظ : الحيوان ، ج2، ص65 .

(2) **حسن التخلص** : هو عملية الانتقال من غرض إلى غرض آخر بكيفية لا يشعر معها المتلقي أو السامع بالانقطاع في المعنى والتباين في معاني القصيدة ، جاء في خزانة الأدب أن << حسن التخلص هو أن يستطرد الشاعر المتمكن من معنى إلى معنى آخر يتعلق بممدوحه بتخاص سهل يختلسه اختلاسا رشيقا دقيق المعنى بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني لشدة الممازجة والالتئام والانسجام بينهما حتى كأنما أفرغا في قالب واحد ، ولا يشترط أن يتعين المتخاص منه ، بل يجري ذلك في أي معنى كان ، فإن الشاعر قد يتخاص من نسيب أو غزل أو فخر أو وصف روض ...أو معنى من المعاني يؤدي إلى مدح أو هجو .. ولكن الأحسن أن يتخاص الشاعر من الغزل إلى المدح>>.

- تقي الدين أبو بكر علي بن عبد ا الحموي : خزانة الأدب وغاية الأرب ، دار الكتب العلمية ، يروت ، لبنان ، 1986م ،ص 329 .

(3) أبو الحسن حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق و تقديم : محمد الحبيب ابن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1981 ، ص 318-319 .

وتستوقفنا المعاني المدحية التي عرضتها الشاعرة قليلا ،ونحن نجد بداية أن مديح النسوة ليس غريبا، والمألوف أن الرجل هو الذي يمدح المرأة ، فإما أن يكون مديح عاشق فيسمى غزلا، أو وصفا للمنعة والحياء والتقوى الذي يميز بعض نساء الممدوح وأهله وهذا نجده كثيرا في الشعر العربي القديم .

غير أننا لا نكاد نعثر على نصوص لشواعر يمدحن نساء مثلهن ، ولا نملك تفسيرا دقيقا حيال الأمر ، غير أنه يمكن العودة لقول الجاحظ الذي سبق وأن عرضناه حتى نتبين بعض العلة ، يقول : << والنساء لا يبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن قليلا ولا كثيرا ، والرجال بالنساء أبصر >>[1] .

نعم قد يكون هذا تفسيرا ، فالمرأة تكون دائما تحت عين الرجل ، يرمقها و يبصر محاسنها ومساوئها ثم يحكم عليها بالصلاح أو الطلاح ، أي أن حكمه يكون منصفا وصادقا في مجمل الأحيان لأنه " بها أبصر " ، أما حكم المرأة على المرأة فلا ينظر إليه ولا يعتد به " لأنها لا تبصر شيئا من حالها " طبعا الحال التي تكون فيها موافقة لأهواء ومطامح الرجال .

وحتى أمزجتهن والغالب على أحوالهن فهو التقلب والغيرة والوشاية والخذلان ، وهذا بسبب التنافس بينهن للظفر بالرجال أو الفوز بهم للتمتع بمزايا الأميرات ورغد الملك وهناءته ، لذلك لم تكن المرأة تنظر إلى مثيلتها إلا بعين الريبة والشك ، ولم تكن تذكرها إلا بلسان سليط يكشف عيوبها – الموجودة أو غير الموجودة فيها- وذلك لتستر محاسنها على الرجل المتطلع إليها والراغب فيها ، وهذا حال النساء دائما ، هذا بالإضافة إلى الحسد الذي يملؤهن ، فهن يحسدن بعضهن البعض على الجمال والحظوة لدى الرجل أو الأمير فتجدهن يدبرن لقتل بعضهن [2] وهذا كله نتج من تزاحم الجواري والحرائر في القصور وحتى في بيوت العامة والأعيان وما ولد بينهن من تنافس وخلاف .

---

[1] الجاحظ : رسائل الجاحظ ، ج3 ، ص 157 .

[2] من مثل ما وقع " لشجن " جارية المتوكل وقد " كان يميل إليها ميلا تاما ، و يفضلها على سائر حظاياه ، ويصفها لهن ، فعاتبنه على تفضيله إياها ، وميله إليها وأثرته لها عليهن ، فأقبل يصفها ويذكر أحوالها ، وتمام ظرفها وكمال مروءتها ثم قال : وهذا المهرجان قد قرب وقته ، ولا بد لكن من أن تهدين إلي فيه هدايا ، وتهدي هي أيضا ، وننظر إلى هديتها وهداياكن ، فتعلمن أن هديتها أطرف من هداياكن جميعا .

فلما كان في يوم المهرجان أهدين إليه هدايا نفيسة واحتفلن في ذلك ، وجاءت هدية " شجن " وهي عشرون غزالة مربية بعشرين سرجا صينيا ، وعلى كل غزال خرج صغير من ذهب مشبك فيه المسك والعنبر وأنواع الطيب المرتفعة ،=

وعلى هذا لم يكن مديح النساء لبعضهن البعض موجودا ، وما كان منه فهو تملق لا أكثر. والشاعرة سارة تصف في أبياتها المجد والعلا اللذان حازتهما الممدوحة ، وهي أيضا كالشمس التي يعم إشراقها أرجاء الأرض ، ولابد أن الممدوحة تتصف بالجمال الخَلْقِي الذي يعكس إشراقة تبهر كل من يراها ، يضاف إليه جمال النفس والتقى طالما أنها من أسرة أثر عن أفرادها الصلاح والتعبد .

ونعثر لها على نص مدحي آخر قالته في فرد آخر من العائلة نفسها وهو أبو الوفاء إبراهيم العزفي ، والملاحظ أن ألم الغربة ظل يعتصر قلبها وينفر قرارها فلا تكاد تطرق مدحا أو وصفا إلا وضمنته حديثا عن حنينها إلى الوطن ، ولنتأمل هذه الأبيات التي قالتها فيه: [من الكامل]:

البَيْنُ شَرَّدَنِـي عَـن الأَوْطَـان   **وَالبَيْنُ أَسْلَمَنِـي لِكُـلِّ هَـوَان**

يَـا هَلْ لِقَلْبِي المُبْتَلَى مِنْ رَاحَةٍ   **أَمْ هَلْ تَذُوقُ الغَمْضَ لِي أَجْفَانِي؟**

لَوْ أَنَّ مَا بِي بِالحَصَا فُلِقَ الحَصَا   **أَوْ بِـالحَدِيدِ لَـسَالَ بِالجَـرَيَان**

لَـوْ أَنَّ ثَهْلانًا تَحَملَ بَـعْضَ مَا   **حُملْتُ لَانْـهَدَّتْ رُبَـى ثَـهْلان**

مَنْ عَاصِمِي؟ مَنْ نَاصِرِي؟ مَنْ مُنْقِذِي؟   **يَا قَوْمُ مِما شَفَنِـي وَ بَرَانِـي**

هَلْ ثَمَّ غَيْرُ أَبِي الوَفَاءِ لِكَشْفِ مَا   **قَدْ حَلَّ بِي مِنْ جُورِهِ وَ دَهَانِي؟** [1]

و قد خرجت الشاعرة من باب المدح إلى باب الشكوى ، فهي تتحدث عن تشردها و تفردها و ما لحقها من هوان يتمثل في استجداء الناس علّهم يسعفونها ببعض ما تسد به حاجتها ، و قد هجر النوم أجفانها فهي في سهر دائم وأرق ملازم ، و كيف يذوق النوم من جسده بأرض و عقله و فؤاده بأخرى ؟ ، و نرى أن الصخر لا يتحمل الذي تحملته فتراه ينصدع و يتفتت ، و حتى الحديد المعروف بصلابته و قد قال عنه الحق عز وجل : << **وَأَنْزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَ مَنَافِعُ لِلناس** >> [2] تراه يذوب فيسيل سيلان الماء لو تعرض للظروف التي عرضت للشاعرة .

= مع كل غزال وصيفة بمنطقة من ذهب في رأسه جوهرة ياقوت أو زمرد أو غيرها من الجواهر الجليلة القدر ، فقال المتوكل لحظاياه ، واستملح ذلك : من كان يحسن منكن مثل هذا أو يقدر عليه .

قال جحظة : فحدثني علي بن يحي أنهن عملن في قتلها بشيء سقينها إياه فماتت .

- د. قصي الحسين : جمهرة قصص العرب ، ج4 ، ص 291-292 .

[1] ابن القاضي : جذوة الاقتباس ، ص526 .

[2] الحديد : 25

و لا تنسى هي رغم هذا الجو الكئيب أن تذكر الجبال النجدية و أبرزها جبل ثهلان الذي ورد ذكره كثيرا في شعر الأقدمين ، منهم الفرزدق الذي يقول عنه : [من الكامل] :

فَادْفَعْ بِكَفِّكَ إِنْ أَرَدْتَ بِنَاءَهَا ثَهْلانَ ذَا الهَضَبَاتِ هَلْ يَتَحَلْحَلُ

هذا الجبل المعروف بصموده و شموخه و ثباته سيتقوض و تنهد جوانبه لو أصابه الخسف الذي أصاب الشاعرة .

و تتضمن الأبيات إحالات و إشارات قرآنية تؤكد مدى الضياع و العدمية التي تحس بهما الشاعرة ، فالاستفهام في قولها " من عاصمي؟ " يحيل على الآية الكريمة : << **قَالَ سآوي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ المَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ اليَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا المَوْجُ فَكَانَ مِنَ المُغْرَقِينَ** >> [1] ، وكذلك في قولها:" من ناصري ؟ " هو إحالة للآية : << **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَينَةٍ مِنْ رَبي وَ آتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ**>[2] .

وهذه المعاني وردت كلها في القرآن لتدل على الضعف في مواجهة القدرة الإلهية ، وكأنما ترى الشاعرة في تلك المصائب قدرا مقضيا عليها لا تستطيع له دفاعا ، ومن يدافعه يكون كمن يذود عن نفسه وأهله أمام قضاء مسطور في الكتاب .

واستدركت أمرها في البيت الأخير ، وعلمت أنها تجاوزت الممدوح ، فحاولت أن تقصر مفتاح الفرج عليه ، لكن هذا الاستدراك لم يكن ليغير من الأمر شيئا طالما أنها تعتقد جازمة باستحالة الخروج من وضعها المأساوي .

ويبدو أن سارة الحلبية قد انخرطت في المراجعات والمبادلات الشعرية بين شعراء المغرب ، وكان الشاعر الكبير مالك بن المرحل[1] أكثر الأدباء صلة بها ، وقد تبادلا

---

[1] هود : 43 .

[2] هود : 63 .

[1] **مالك بن المرحل** : (604 -699 هـ / 1207 – 1300 م) :

مالك بن عبد الرحمن بن فرج بن أزرق ، أبو الحكم ابن المرحل : أديب من الشعراء من أهل مالقة ، ولد بها وسكن سبتة ، وولي القضاء بجهات غرناطة وغيرها ، من موالي بني مخزوم ، مصمودي الأصل ، نزل جده الخامس في وادي الحجارة بمدينة الفرج ، وعاش هو بين سبتة وفاس وتوفي بهذه الأخيرة ، وكان من الكتاب وغلب عليه الشعر حتى نعت بشاعر المغرب ، من كتبه " الموطأة " أرجوزة نظم نظم بها " فصيح ثعلب " وشرحها محمد بن الطيب في مجلدين ضخمين ، ود" ديوان الشعر " ، وله " التبين والتبصير " في نظم كتاب التيسير " عارضه بن الشاطبية " ، و" الواضحة " في نظم الفرائض ، وكتاب " الدوبيت " و " العروض " و " أرجوزة في النحو " وغير ذلك .

- الزركلي : الأعلام ، ج5 ، ص 263 .

المراسلات الشعرية غير مرة مما يدل على سمو منزلتها والتقدير الذي حظيت به عند أفذاذ الشعراء ، و مما كتب إليها مالك : [من السريع]:

قُلْ لِلتِي كَادَتْ بِرَائِق شِعْـ رِهَا تَحْكِي ابْـنَ سَـارَهْ

الآنَ إِنْ سَـارَتْ رِكَـ ـا بُكِ فِي البِلَادِ دُعِيتِ سَارَهْ

بَـلْ أَنْـتِ هَاجَرُ إِذْ هَجَـرْ تِ بِتُونُسَ دَارَ الإِمَـارَهْ [1]

فيشبهها في حكمتها وفصل مقالها وجودة نظمها بابن سارة الشاعر الأندلسي الشهير .

و إن ركابها تسري في البلاد طولا وعرضا فحق أن تدعى لذلك " سارة "بل يكمن أن ندعوها " هاجر" نسبة إلى هاجر القبطية زوجة نبينا إبراهيم عليه السلام التي هاجرت معه إلى جبال فاران بأرض مكة [2] .

وتعبر سارة عن سعادتها بخطاب وصلها من مالك وتعبر عن مشاعرها الدافئة اتجاهه فتقول : [من الكامل]:

وَرَدَ الخِطَابُ فَسَرَّنِي مَضْمُـونُهُ وَ وَدِدْتُ أَني فِي الفُؤَادِ أَصُونُهُ

وَاشْتَقْتُ كَاتِبَهُ كَمَا اشْتَاقَ الكَرَى مَنْ لَا تَنَامُ مِنَ الغَرَامِ جُفُـونُهُ [3]

وهي تعبر عن سرورها بخطاب كبير شعراء المغرب وفقيهه البارز ، وإن مجرد أن يراسل مالك بن المرحل الشاعرة فهذا يدل على المنزلة الكبيرة التي حازتها في ميدان العلم والفقه وكانت هي أيضا كثيرا ما تثني على ابن المرحل مبدية اعتزازا بمعرفته وإعجابا بعلمه وأدبه ، فتخاطبه بقولها : [من مجزوء السريع]:

يَا ذَا العُلا يَا مَالِكِـي أَنْعِمْ عَلَيَّ بِمَالِـكِ

العَالِمِ المُتقَنِ البَحْـ رِ المُحِيطِ السالِكِ

يَا نَفْسُ إِنْ جَادَ الزَّمَا نُ بِهِ بَلَغْتِ مَنَالَكِ

وَ لَطَالَمَا قَدْ نِلْتِ مَـا أَمَلْتِ مِنْ آمَـالِكِ [4]

وهي تدعو ا أن يهبها علما مثل علم مالك ، هذا الأخير الذي يشبه البحر المحيط في ما يكتنزه من معارف وعلوم ، ويبدو تفاؤلها في موضعه طالما أنها حققت الكثير من آمالها

---

[1] ابن القاضي : جذوة الاقتباس ، ص 523 .

[2] أبو الفداء إسماعيل ابن كثير الدمشقي : قصص الأنبياء ، تقديم : عبد القادر الأرناؤوط ،دار الفيحاء ، دمشق ، سوريا ، ط1، 1421هـ/2001م ، ص 156-157 .

[3] ابن القاضي : جذوة الاقتباس ، ص 523 .

[4] المصدر نفسه : ص 522 .

بدء باحتضان أهل سبتة وفاس لها واحتفائهم بها وخاصة آل العزفي الذين أغدقوا لها العطاء ، ثم مشاركتها في الحركة الأدبية التي كان ينشطها أقطاب الأدب في المغرب الأقصى ، ولم يبق لها إلا حزازة في النفس ومرارة في القلب تنغص عليها عيشها وهي بعدها عن الوطن واشتياقها الدائم إليه ، وإن كنا لا نعلم علة بقائها بالمغرب مشتاقة دون أن تعود لبلادها خاصة وأنها حازت على المال اللازم لشد الرحال .

ونجد لها نصوصا شعرية تظهر فيها معرفتها الدقيقة والواسعة بأعلام الشعر العربي في المشرق والبلاغة التي حوتها أشعارهم وجعلتهم مضرب المثل في أوطانهم على مر الزمان ، تقول في مراجعة لها على أبيات بعث بها إليها أحد الشعراء وتصف فيها حديقة غناء : [من الكامل]:

وَحَدِيقَةٍ غَنَّا أَجَلْتُ نَوَاظِرِي ... فِيهَا فَأَشْرَقَ نُورُهَا بَعْدَ العَمَى

سَحَبَتْ عَلَى سَحْبَانَ ذَيْلَ بَلاغَةٍ ... تَرَكَتْهُ مِنْ فَرْطِ الفَصَاحَةِ أَعْجَمَا

وَابْنُ المُرَاغَةِ رَاغَ عَنْ إِحْسَانِهَا ... قَصْرًا فَلَمْ يَفْضُضْ بِمَنْطِقِهَا فَمَا

وَأَبُو فِرَاسٍ إِذَا تَدَفَّقَ صُنْعُهُ ... أَنْسَتْ بِوَبْلِ صَنِيعِهَا لما هَمَى

وَكَذَا الجَمَالُ إِذَا تَكَامَلَ خَلْقُهُ ... مَلَكَ العُقُولَ وَكَيْفَ شَاءَ تَحَكَّمَا [1]

و هي تقول أن هذه الحديقة الغناء حوت كل المظاهر البهيجة ، و ازينت بأنواع الورود و الرياحين ، و إن من يقف أمامها ستعقد الدهشة لسانه فلا يستطيع وصف جمالها ، و حتى الشعراء و البلغاء و الكتاب الحاذقون تجف أقلامهم و حلوقهم أمام هذا السحر الذي يأسر الألباب و العقول .

و نلاحظ هنا ذكر الشاعرة لأعلام صناعة الكلام و النظم في المشرق العربي ، منهم سحبان بن وائل [2] خطيب العرب في الجاهلية ، و ابن المَرَاغَةِ و هو لقب لجرير الشاعر

---

[1] ابن القاضي : جذوة الاقتباس ، ص 529 .

[2] **سحبان بن وائل** : رجل من باهلة ، و كان من خطبائها و شعرائها ، و هو الذي يقول : [من الطويل] :

لقَدْ عَلِمَ الحَي اليَمَانُونَ أَنني ... إِذَا قُلتُ " أَما بَعْدُ " أَني خَطِيبُهَا

و قد ضرب به المثل في حسن الخطابة و بلاغة القول فقيل " أخطب من سحبان بن وائل " .

- الميداني : مجمع الأمثال ، ج1 ، ص80 .

الأموي المشهور لقبه به الأخطل الذي كان يهاجيه [1]، وقد كان جرير يأتي بعذب الكلام ومستملح الأوصاف وكثيرا ما ذكر الطبيعة في شعره وعرج على البساتين واصفا عبق الرياحين ولكن هذا الشاعر الفذ سيقصر عن وصف هذه الجنة الغناء ، وحتى أبو فراس الحمداني صاحب الأشعار الرقيقة لن يكون حاله أفضل من حال سابقيه .

وعلى كل نحس أن الشاعرة نظمت أبيات هذه المقطوعة لتثبت لمن حولها اطلاعها الواسع على أشعار الأقدمين ، هذا إذا لم نقل أنه فخر خفي بشعراء الوطن خاصة وأن الحركة الأدبية بالمغرب لم تكن بعيدة في تفاعلها عن نظيرتها بالمشرق ، وكان نفر من الشعراء المغاربة يحتذون طريق فطاحل الشعراء في جزيرة العرب بينما كان آخرون يحاولون التجديد في الموضوعات الشعرية والأساليب التعبيرية الموروثة و بالتالي تجاوز عقدة النقص التي كانوا يعانونها أو يرمون بها على الأقل .

ولا يمكن إغفال ما أضافته الشاعرة في باب الموضوعات ، ذلك أن القصيدة العربية عرفت في العصر العباسي تجديدا واضحا على مستوى الافتتاحات والمقدمات ، فبعد أن كانت مقصورة على ذكر الغزل أو الخمر أو الوصف محصورة في قوالب متوارثة ، استطاع الشعراء العباسيون النهوض بالقصيدة والتمرد على القوالب الجاهزة وأساليب القدماء البالية ، وكان ذلك حاجة ملحة تمليها تطورات الحياة والنظم الاجتماعية والثقافية قبل أن تكون جدالا واهيا أو كفرا بجهود القدماء كما توهم البعض ، وتعبر هذه الحادثة التي نقلها الرواة في شأن بشار بن برد عن الحاجة الملحة للتجديد ، فقد << قيل لبشار : إنك لتجيء بالشيء الهجين المتفاوت ، قال : وما ذاك ؟ ، قيل : بينما تقول شعرا يثير النقع وتُخْلَع به القلوب مثل قولك : [من الطويل]:

إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِيةً	**هَتَكْنَا حِجَابَ الشمْسِ أَوْ تُمْطِرَ الدِّمَا**
إِذَا مَا أَعَرْنَا سَيدًا مِنْ قَبِيلَـةٍ	**ذُرَى مِنبَرٍ صَلَـى عَلَيْـنَا وَسَلَـمَا**

تقول : [من مجزوء الوافر]:

رَبَابَـةُ رَبةُ البَيْتِ	**تَصُبُّ الخَلَّ فِي الزَّيْتِ**
لَهَا عَشْرُ دَجَاجَاتٍ	**وَدِيكٌ حَسَـنُ الصوْتِ**

فقال : لكلٍّ وجهٌ ، فالقول الأول جد ، وهذا قلته في ربابة جاريتي ، وأنا لا آكل البيض

---

[1] ابن منظور : لسان العرب ، ج13 ، ص80 .

من السوق ، وربابة لها عشر دجاجات وديك ، فهي تجمع لي البيض ، فهذا عندها أحسن من " قفا نبك " عندكَ >> [1] .

فقد قفز الشعر إلى عوالم جديدة مرتبطة بالتأثيرات الاجتماعية الحاصلة ، وقد تصدى مجموعة من الرواة والنقاد المحدثون للدفاع عن المذاهب الجديدة في وجه تيار المحافظين على القوالب القديمة ، وقد كانت أشعار أبي تمام وابن المعتز وبشار وأبي نواس محل جدل كبير لأن أصحابها أتوا بمضامين جادة وجديدة في نفس الوقت وقد كانت معبرة أصدق تعبير عن حالة المجتمع الجديد وقضاياه الراهنة المستقاة من الواقع المعاش، يقول د. عز الدين إسماعيل << ومرة أخرى يجد الذوق الأدبي الجديد من يدافع عنه ، لا لمجرد الدفاع عن الجديد في ذاته ، بل لأن ذلك الجديد كان قوي الارتباط بواقع الشاعر المادي والنفسي ، فهو إذن تعبير عن تجارب حية عاشها الشاعر في بيئته الجديدة ، فقد كان بعض المتزمتين يعيبون شعر عبد ا بن المعتز بهلهلة نسجه وافتقاره إلى الجزالة والفخامة ، وهبوطه لذلك عن مستوى الفحول من قدامى الشعراء .

وقد تصدى أبو الفرج الأصفهاني للدفاع عنه ، فكان في دفاعه منتصرا للمبدأ نفسه ، أعني مبدأ أن يكون الشاعر صادقا مع نفسه فيما يقول ، معبرا عن تجاربه الواقعية الحية بما يناسب ذلك من وسائل التعبير ، وألا يفصل نفسه عن واقعه وعصره لكي يعيش في إطار زمن كان قد صار تاريخا ، أو واقع كان لا يحيا إلا فيما بقي من كلمات ، وهذا ما نستشفه في يسر من دفاع أبي الفرج حين يقول عن شعر ابن المعتز : " إن كان فيه رقة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهلة المحدثين فإن فيه أشياء كثيرة تجري في أسلوب المجيدين ، ولا تقصر عن مدى السابقين ، وأشياء ظريفة من أشعار الملوك في جنس ما هم بسبيله ، ليس عليه أن يتشبه فيها بفحول الجاهلية ، فليس يمكن واصفا لصبوح في مجلس شكل ظريف ، بين ندامى وقيان ، على ميادين من النور والبنفسج والنرجس ، ومنضود من أمثال ذلك ، إلى غير ما ذكرته ... أن يعدل بذلك عما يشبهه من الكلام السبط الرقيق ، الذي يفهمه كل من حضر ، إلى جعد الكلام ووحشيه ، وإلى وصف البيد والمهامه ، والظبي والظليم ، والناقة والجمل ، والديار والقفار ، والمنازل الخالية المهجورة ، ولا إذا

---

[1] د. أحمد فريد الرفاعي : عصر المأمون ، ج2 ، ص 259 .

عدل عن ذلك وأحسن قبل له مسيء ، ولا أن يغمط حقه كله إذا أحسن الكثير ، وتوسط في البعض ، وقصر في اليسير" >> [1] .

وإذا أضحت المقدمات الجاهلية لا تفي بالغرض ولا تشجع على القول ولا تستهوي الأفراد و الأدباء ، وبرزت إلى الوجود المقدمات الطبيعية الحكمية ومقدمة الرحلة البرية منها والبحرية وأخرى هزلية ، وكذلك برزت مقدمة الظعن في شكل جديد وهي مقدمة الحنين كما نجد ذلك في أشعار سارة الحلبية .

إن ذكر الديار أمر حتمي في الشعر وليس معنى هذا أن الشعراء عجزوا عن الإتيان بمعان وموضوعات جديدة كل الجدة فعمدوا إلى موضوعات الأقدمين يحورون فيها ويضيفون إليها مساحيق لتجميلها وإحياء دارسها بل << إن عودة الشعراء إلى التراث الشعري وارتكازهم عليه في بناء قصائدهم ، يعني الرجوع إلى التراث الحضاري للأمة بمختلف وجوهه وتجلياته ، وهو رجوع يدل على اعتزاز بالانجازات التاريخية والفكرية والفنية للأمة ، وهذا دليل وعي حضاري ، يؤكد حضور الأمة في الماضي واستمرار ماضيها في الحاضر ، ولكن ليس بالمستوى نفسه وبالصورة نفسها وبالرؤية نفسها >> .[2]

---

[1] د. عز الدين إسماعيل : في الشعر العباسي ، الرؤية والفن ، ص 316-317 .

[2] نور الدين السد : الشعرية العربية ، ج2 ، ص31 .

إن صورة المرأة في الشعر النسوي المغربي تبدو كلوحة فنان تشكيلي رسم فيها منظرا طبيعيا ، فتبدو مظاهر الفرح و البهجة في سندس الشجر و أريج الأزهار وشدو الحمائم ، كما تبدو مظاهر الحزن في تساقط الأوراق و تلبد السحاب و عصف الرياح , و كذاك حال المرأة المغربية : سرور و فرح ، حزن و ترح ، شدو و إعجاب ، و تلهف و عتاب...

وإذا نحن عرضنا صورا عدة لشعر المرأة المغربية ، وتبدو في كثير من الأحيان متناقضة من حيث احتواؤها على الزهد والتحفظ تارة (كما هو الحال عند ميمونة الهذلية) والتبذل تارة أخرى (كما هو الحال عند حفصة الركونية وغيرها) ، ويبدو تفسيرها والتعليق عليها متناقضا في الظاهر ، لكن الحقيقة أن المجتمع المغربي هو الذي كان متناقضا ، يعج بأقطاب الدين والإصلاح من علماء ودعاة ، وتملؤه أيضا عربدة الأشقياء ، وطرب المغنين والقيان في دور اللهو والعبث ، وقد كان المشهد المغربي جزءً من مشهد العالم الإسلامي العام في العصر العباسي ، مشهد تتضارب فيه الرؤى وتصطرع فيه عوالم الخير والشر ، وتستعر فيه نيران الفتن الطائفية والعقائدية ، وينفر فيه جمع إلى جيادهم ، يصلون ليلهم بالنهار والنهار بالليل بالجهاد والمرابطة عند الثغور ، ويقصف فيه آخرون بدور المجون والخلاعة لا تكاد عقولهم تصحو من كأس إلا و وصلوها بأخرى ، هذه حقيقة حياة المجتمع في ذلك العصر ، أو كما عبر عن ذلك أحمد أمين بقوله :

<< وتنصف إن أنت اعتقدت أن الحياة كانت ذات صنوف وألوان ، وأن المدنية العباسية كانت ككل المدنيات : مسجد وحانة ، وقارئ و زامر ، ومتهجد يرتقب الفجر، ومصطبح في الحدائق ، وساهر في تهجد ، وساهر في طرب ، وتخمة من غنى ، و مسكنة من إملاق ، وشك في دين ، وإيمان في يقين ، كل هذا كان في العصر العباسي ، وكل هذا كان كثيرا >> [1] .

---

[1] أحمد أمين : ضحى الإسلام ، كتاب يبحث في الحياة الاجتماعية و الثقافات المختلفة و الحركات العلمية و الفرق الدينية في العصر العباسي الأول ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1425هـ/2004م ، ج1 ، ص 129 .

الفصل الخامس

- الفصل الخامس : صور متفرقة

* صورة الجواري
* صورة الزوجة
* صورة البنت
* صورة العمة
* صورة المرأة في الحرب

- صورة الجواري :

يمكن القول أننا إزاء صور عدة للشعر المنظوم في الجواري ، وربما كان لتعدد المهام المنوطة بهن واختلاف أصلهن وطباعهن وجمالهن ومكانتهن من نفوس مالكيهم السبب في وجود تجارب شعرية مختلفة في هذا الصدد ، ولاشك أن المعاملة الحسنة التي ميزت العلاقة بين المالك والمملوك في الإسلام قد أضفت إلى تشكل علاقات جديدة سمت أحيانا عن العلاقات المعروفة بين الأحرار، ونجد هناك من الشعراء من أحب جاريته حبا ربا عن حبه لزوجته المهيرة ، ومنهم من رثاها وبكاها بكاء حارا لموتها ، ومنهم من وصفها في دور اللهو والحانات حيث كان أغلبهن يعملن فيها ، وسنحاول رصد بعض هذه التجارب الشعرية لنتبين حقيقة المكانة والوضعية التي كانت تتبوؤها وتحياها لدى الشاعر وفي المجتمع المغربي ككل .

و الطارفي [1] كان يعجب بالجواري ، ويصف إحداهن بقوله : [من البسيط] :

يَا رُب جَارِيَةٍ يَصْبُو الحَلِيمُ لَهَا   فَنَصْتُهَا بِسَوَادِ الشعْرِ مِنْ كَثَبِ

يَسْعَى بِشَاكِلَةٍ مِنْ لَوْن وَجْنَتِهَا   كَأنمَا قَاجَأَتْـهَا عَيْنُ مُرْتَقِبِ [2]

وهو يصف حسن هذه الجارية حتى أن الحليم المتمالك نفسه وشهوته يصبو إليها ويلح على طلابها ، فإن كان في الجارية حسن الحديث وظاهر الجواب وحدة المزاج ، وسرعة الحركة من غير طيش ولا إفراط ملكت القلوب : << وهذه شمائل إذا اتفقت في الجواري الصانعات المحسنات خلبن العقول ، وخلسن القلوب ، وسعرن الصدور ، وعجلن بعشاقهن إلى القبور >> [3] .

ومما يلاحظ أن الشعراء درجوا على استعمال لفظ " المشاكلة " في التعبير عن الحب أو ذلك الشعور السامي اتجاه الحبيبة ، والحقيقة أن هذه الكلمة ليست هينة في قاموس الشعراء إذ أن إدراجها يعبر عن وجهة ثقافية صرفة للثقافة العربية الإسلامية في مقابل الألفاظ والعبارات التي افتتن بها الفلاسفة المتأثرون بالثقافة الفارسية أو الفلسفة اليونانية

---

(1) **الطارفي** : عبد العزيز بن محمد القرشي الطارفي ، نسبة إلى " طارف " بإفريقية ، منشؤه وتأدبه بالبادية من ساحل البحر ، تعرف قريته "ببني طارف " ، ولقي بالحضرة رجالا ، وهو شاعر مجود فخم الكلام .

- ابن رشيق : الأنموذج ، ص167 .

(2) المرجع نفسه : ص168 .

(3) التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة ، ج2 ، ص 182 .

<< فللمشاكلة مقدار هام لدى علماء المسلمين ، بصدد حب نفس لنفس وصورة لصورة ، إذ هي بديل للنصفية التي ذكرها أفلاطون في المائدة " Banquet " ، وموجزها أن الآلهة خلقت النفوس على شكل دوائر ، ثم قطعت كل دائرة نصفين ورمتها في الكون ، فإذا أحب إنسان إنسانة فيعني ذلك أن نصفا التقى بنصفه ، وهذا ما رمى إليه كتاب طوق الحمامة ، وكتاب الزهرة بإشارة ثم باستفاضة لم تتسن لأفلاطون ، وعندما التأم جمع من العلماء المسلمين في مجلس البرمكي ، قرروا أن الحب مشاكلة ردا على النصفية ، وأثبتوا أن المشاكلة أدق من النصفية ، وأكثر علمية وأن النصفية تخريفية .
ومقابلة شكل بشكل نوع من التفاعل كما يقرر أبو حيان ، ومن قبله رسم أبو تمام تلك بقوله : والنفوس شكول >> [1] .

ولم يكن الشعراء المغاربة بعيدين عن هذا الجدل الفلسفي وإلا لما كان حرصهم كبيرا على إيراد الألفاظ التي تواضع عليها العلماء واللغويون وهذا دليل على حسن اطلاعهم ومشاركتهم في بعث النهضة اللغوية والأدبية العربية .

ولتميم بن المعز أبيات يصف فيها جارية نصرانية ، يقول : [من الوافر] :

أَلَيْـسَ اللهُ يَعـْـلَمُ أَن قَلْبِي ... يُحِبكَ أَيهَا الوَجْهُ المَلِيـحُ ؟

وَأَهْوَى لفْظَكَ العَذْبَ المُفَدى ... إِذَا دَرَسَ الذِي قَالَ المَسِيحُ

أُظَاهِرُ غَيْرَكُمْ بِالـوُد عَـمْدًا ... وَوُدكُمُ هُوَ الـوُد الصحِيحُ

وَفِيكُمْ أَشْتَهِي عِيدَ النصَارَى ... وَأَصْوَاتًا لَهَا لَـحْنٌ فَصِيحُ [2]

وقد تكاثرت الجواري والإماء النصرانيات في قصور الصنهاجيين بالقيروان والمهدية ، وكان استقدامهن من جزائر البحر المتوسط كصقلية وسردانية ومالطة ، هذه البلاد قدر للمسلمين فتحها وإرسال جميلات النصارى للعمل في قصور المهدية ، يقول أحمد أمين : << كانت هذه الجواري المختلفة الأنواع توزع على الفاتحين ، وتباع في أسواق النخاسين وتهدى كما تهدى الطرف اللطيفة ، وتمنح كما يمنح المال ، وكانت الحرائر من الأمم المختلفة تتزوج من غير جنسها ، وكان هؤلاء ينسلن نسلا عديدا ، وكان نسلهن أكثر من نسل العربيات الخالصات ، لقلة عدد العربيات إذا نسب لغيرهن ، بل كان ولع الناس

---

[1] د.علي شلق : أبو حيان التوحيدي والقرن الرابع الهجري ، دار الاجتهاد والدار العربية للعلوم ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1424هـ / 2003 م ، ص 536-537 .

[2] العماد الأصفهاني : الخريدة ، ج1 ، ص146 .

بالاختلاط بغير العرب أقوى وأشد ، وميلهم إلى الإماء أكثر من منه إلى الحرائر ... فالجمال في كثير من نساء هذه الأمم المفتوحة أوفر ، والحسن أتم ، قد صقلتهن الحضارة وجلاهن النعيم ، هذا إلى ما حبتهن به طبيعة الإقليم من بياض البشرة ، وصفرة الشعر وزرقة العيون ونحو ذاك >> [1] .

وقد افتتن أهل إفريقية بجمال الأوربيات فأعتقوا كثيرات منهن وتزوجوهن , وهاهو الأمير تميم يتغزل بإحداهن ، وهي على ما خصت به من جمال الخلق ليست مستهترة مثل باقي الجواري اللائي يتهتكن ويتهالكن على الرجال ، فتقرأ الإنجيل وتعاليم المسيح مما يزيدها وقارا وحياء ، ولا عجب أن تملك هذه الجارية قلبه فيخصها بود صحيح غير موارب ولا متقلب ، ومن فرط حبه لها أصبح يشتهي عيد النصارى حيث تدق النواقيس ويردد الجمع الكنائسي تلك الأدعية والصلوات بلحن جميل يستوقف كل مار ويستجلب كل طرف وأذن

وله أيضا في جارية بوجهها أثر جرح : [من الطويل] :

وَمَجْرُوحَةٍ فِي الوَجْهِ أَحْسَنَ مَنْ مَشَى   وَتَرْنُو بِعَيْنَيْ ظَبْيَةٍ تَكْلأُ الرشَـا

وَمَا جُرْحُهَا فِـي الوَجْـهِ مما يَشِينُهَا   وَمَـا ضُربَ الدينَارُ إلا لِيُنْقَشَـا

مُـهَفْهَفَةٌ تُصْـبِي الـحَلِيمَ بِـدَلـهَا   فَلَوْ حَدثَتْ صَخْرًا مِنَ الصم لانْتَشَا

تُرِيكَ النقَـا وَالغُصْـنَ إما تَعَرضَتْ   مُثَقلَةَ الأَرْدَافِ مَهْضُـومَةَ الحَشَا

مَسِيحِيةٌ فِيهَا مِـنَ الحُسْنِ مُسْـحَةٌ   فَشَا حُسْنُهَا مِثْلُ الذِي بِي قَدْ فَشَا [2]

يصف هذه الجارية المسيحية وقد بان أثر الجرح في وجهها ، وعلى الرغم مما يحدثه الجرح من تشوه في الصورة إلا أنه لا يبدو كذلك على وجه الحسناء بل إنه يزيدها شهرة وبهاء طالما أنه طبع على خدها أو جبهتها ، وليس هذا فقط ما يزينها بل لها خصر لطيف وبطن ضامر ، فإذا مرت انتشى الصخر الأصم ، وحق أن تدعى مسيحية لأن فيها مسحة من ملاحة لم تؤتى لغيرها من الجواري .

وعلى كل فقد أثرت الجواري المجلوبات في الحياة الاجتماعية لسكان المغرب أيما تأثير ، وأتاحت للرجل متسعا للمفاضلة بين جمال البربريات والعربيات والروميات ، والمرأة

---

[1] أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج1 ، ص18 .

[2] العماد الأصفهاني : الخريدة ، ج1 ، ص152 .

بشكل عام كانت تحت تأثير هذه الحركة الكثيفة للأجناس البشرية بين حواضر الشرق والغرب ، وكان أن اختلاط النسب فقلما تجد ولدا صريح النسب ، يقول أحد أمين :

<< أثرت في المرأة بكثرة الأجناس المختلفة ذوات الخصائص المختلفة ، وقد حمل النساء من هذه الأجناس خصائص الجمال والقبح في المظهر وفي الأخلاق وفي العادات ، وغزون البيوت بما كان يعرضه النخاسون منهن في سوق الرقيق ، وبما كان يحمله الغزاة معهم في حروبهم مع الروم ومع الترك ومع الفرس ومع الزنج ، وما كانوا يتخاون عنه فيعرضونه في الأسواق >> [1] .

ومن شعره أيضا يشبب بأخرى : [من المتقارب] :

تَلوتْ عَلي بِوَعْدٍ كَـمَا   تُلوي عَلى الخَد أَصْدَاغَهَا

أَيَا دُمْيَةَ الدير فِي بَيْـعَةٍ   نَمقَ فِيهَا الـذِي صَاغَهـَا

بِقَلْبِي أُمُورٌ طَوَاهَا الهَوَى   أُرِيدُ إِلى فِيـكِ إِبْلاغَـهَا

إِلى شَفَةٍ قَدْ بَهَاهَا الهَوَى   فَسَبحْتُ ،مَا شِئْتَ ،صَباغَهَا [2]

يصف هذه الجارية التي وعدته اللقاء ثم أخلفت الوعد و<< هي نصرانية جميلة فتنته بحسنها ، وسلبت عقله بجمالها ، فهو يحيا بوصلها ويموت بهجرها ، ولهذا يرجوها أن تقترب منه ليرتاح من بلواه >> [3] ، ولا يجد حيلة ليبوح بلواعج القلب فيرجو أن تقابله حتى يبلغها كامن وجده ، وحرقة فؤاده ، ولكن هيهات فليس للوصال سبيل ، وليس له إلا دموع على الخدين تهيل .

ويبدو أ سحر الروميات لم يكن يقاوم ، فتميم بن المعز يكاد يقصر غزله على الجواري الروميات ، وهاهو يحاول استمالتهن بقوله : : [من الكامل] :

مَـنَعَ التَنَسكَ وَالـوَقَارَ وَبَـجْمَهُ   مُـقَلٌ تُقلبُـهَا بَنَاتُ الـرومِ

مُقَلٌ لـهَا فِـعْـلُ المُـدَامِ وَتَارَةً   فِعْلَ الحُسَامِ بِمُهْجَةِ المَهْزُومِ

بِيضٌ كَأن شُـعُورَهَا وَوُجُـوهَهَا   لـيْلٌ يُبَلِّجُهُ ضِـيَاءُ نُـجُومِ

---

[1] أحمد أمين : ظهر الإسلام ، كتاب يبحث في الحياة الاجتماعية والحركات العلمية والأدبية والفرق الدينية منذ العصر العباسي الثاني حتى العصور المتأخرة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1425هـ/2004م ، ج1 ، ص68 .

[2] العماد الأصفهاني : الخريدة ، ج1 ، ص152 .

[3] د. علي عالية : شعر الفلاسفة في الأندلس في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، أطروحة دكتوراه في الأدب العربي القديم ، جامعة باتنة ، الجزائر ، 1425هـ/2005م ، ص82 .

حَـدثْنِنـي وَخِـلالَ ذاكَ تَبسـمٌ كالدر مَنْثُورِ عَلَى مَـنْظُـومِ
لِلهِ لـيْلتُنَـا وَنَـحْـنُ نُدِيـرُهَا كَأسًا مُعَتقةً مِـنَ الخُـرْطُومِ
وَالطبْلُ يَخْفِقُ وَالمَزَامِـرُ حَوْلَهُ تَتَخَالفُ العِيدَانُ فِي المَزْمُومِ
فَلِئِنْ صَبَوْتُ فَقَدْ صَبَا أَهْلُ النهَى وَلِئِنْ هَفَوْتُ فَلَسْتُ بِالمَعْصُومِ [1]

فقد ذهب الوقار والحياء ، وبطلت العبادة وامتنع التنسك بسبب الجواري النصرانيات اللائي يسلبن العقول ويأسرن القلوب بطرفهن الفتان ، وزاد فتنتهن حسن غنائهن وبراعة ضربهن على الآلات الموسيقية ، والشاعر يحاول أن يجد حلا لهذا التناقض الذي وقع فيه فهو يحرص على طهارة الثوب والنفس وعدم الانسياق وراء شهوات النفس وبالمقابل يجد نفسه ضعيفا في مواجهة هذا الجمال فكيف الخلاص والحيلة ؟ .

وهو يطرب لصوت الدف والمزامر وتخالف العيدان في المزموم ، ولا شك أن الموسيقى المغربية كانت تدين بالفضل للجواري النصرانيات اللائي نقلن إلى المغرب ضروب العزف الأوروبي << فالروميات تحملن عادات قومهن في الغناء وضروب الظرافة ، وهكذا بقية الأمم ثم أتين المملكة الإسلامية فنشرن عاداتهن ، ووقعت أبصارهن على عادات غيرهن فخضع ذلك كله لقانون الانتخاب ، ومن أجل ذلك كان الغناء منتخبا ، وهذا ما يفسر النزاع الشديد الذي حكاه الأغاني من طائفة تتعصب للقديم ، وأخرى تتعصب للجديد ، وما القديم إلا ما ألف من غناء معبد وأمثاله من مغني الدولة الأموية ، وما الجديد إلا ما أدخل عليه من نغمات فارسية ورومية ، وكذلك سائر الفنون >> [2] .

وإذا كانت الجواري الروميات قد أحدثن هذه الثورة الموسيقية في قصور الشرق فالأولى أن يكون الغرب ساحتها الأولى لأن سواحل المغرب أقرب للرومان من بغداد والشام .

وله أيضا يصف جارية : [من مجزوء الوافر] :

لَهَا وَجْهٌ لَهَا شَعَرٌ كَمِثْلِ الرومِ وَالزنْجِ
لَهَا جَفْنَان قَدْ شُحِنَا بِنَبْلِ السحْرِ وَالغَنْجِ
لَهَا ثَغْرٌ لَهَا رِيقٌ كَمِثْلِ الخَمْرِ وَالبَنْجِ
لَهَا نَهْدَان قَدْ نَجُمَا كَنَابَيْ فِيل شِطْرَنْجِ [3]

---

[1] العماد الأصفهاني : الخريدة ، ج1 ، ص156 .
[2] أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج1 ، ص 82 .
[3] العماد الأصفهاني : الخريدة ، ج1 ، ص 168 .

ويبدو تأثره بالجمال الرومي في أقصى صوره وأعلى درجاته ، حيث لا يرى جارية جميلة إلا وظنها رومية أو أحب أن تكون رومية ، وريقها كأنه الخمر في لطافته وإغوائه ولا يعوزها مع الجمال الخلقي مظاهر الأنوثة التي تغري الرجال ، وقد يسأل سائل لم كل هذا الإعجاب بالنصرانيات الروميات وقد كانت القصور والرياض والأسواق مليئة بأجناس كثيرة من الجواري الهنديات والفارسيات والحبشيات وغيرهن ؟،ولماذا خصصن بالتشبيب دون غيرهن ؟، والواقع أنه اجتمعت فيهن خصائص نفسية وجسدية موافقة لرغبات الرجال ، فلم يكن يكثرن من التبرم ولا يلححن في المسألة أو اللجاجة في الطلب ، هذا إلى الأمانة التي أثرت عنهن ، وحسن القيام بالأعمال المنوطة بهن ، وإتقانهن لصنائع كثيرة مما لا تحسنه غيرهن من الجواري ، بالإضافة إلى الجمال الخلقي طبعا فجعل الأجناس التي كانت حازها العامة والأمراء في ديارهم وقصورهم كانت سمراء الوجه والبدن (العربيات – الهنديات – الحبشيات – الفارسيات) مما جعلهم يشتاقون للفتيات البيض الشقر وهذا مخصوص على الروميات ، يقول أحمد أمين << وانتشرت الجواري الروميات في القصور ، وكانت لهن ميزات قال ابن بطلان : الروميات بيض شقر ، سباط الشعور، زرق العيون، عبيد الطاعة وموافقة وخدمة ، ومناصحة ووفاء وأمانة ومحافظة ، يصلحن للخزن لضبطهن وقلة سماحتهن ، لا يخلو أن يكون بأكفهن صنائع دقيقة >>[1] .

ولأبي الصلت أبيات في جارية سوداء اسمها عزة : [من السريع] :

يَا عَز عَز الوَجْدُ صَبْري بِمَا ... أَصْبَحْتِ مِنْ حُسْنِكِ تُبْدِينَهْ
مَـا أَنْتِ إلا لُـعْبَةٌ مَا بَـدَتْ ... لِلْمَرْءِ إلا أَفْسَـدْتِ دِيـنَهْ
وَقَدْ أَقْدْتِ المِـسْكَ فَخْرًا بِأَنْ ... أَصْبَحَ يُحَاكِيكِ وَتَحْكِينَـهْ
لاشَـك إِذْ لَـوْنُـكُـمَا وَاحِدٌ ... أَنكُمَا فِي الأَصْلِ مِنْ طِينِهْ [2]

إنها تبدي مفاتن جسدها ، وقد أفسدت دين الرجل أذهبت ثواب العبادة المرجى وقد كان للبعض ميل على الجواري السود رغم نفور السواد الأعظم منهن ، وذلك لأن <<

---

[1] أحمد أمين : ظهر الإسلام ، ج1 ، ص 53 .

[2] العماد الأصفهاني : الخريدة ج1 ، ص 259 .

الزنجيات مساويهن كثيرة ، وكلما زاد سوادهن قبحت صورهن ، وتحددت أسنانهن ، وقل الانتفاع بهن ، وخيفت المضرة منهن ،والغالب عليهن سوء الأخلاق وكثرة الهرب >>[1].

ولم يكن يستخدمن في القصور والحانات كثيرا لأنهن لا يبهجن الناظرين ولا يطربن السامعين لغلبة السواد عليهن ، والغالب أنهن كن يعملن في الزراعة ويعتمد عليهن في التجارة لأن << فيهن جلد على الكد ... وفيهن خيرية ومياسرة وسلاسة وانقياد ، يصلحن للائتمان على النفوس >> [2] .

ونجد الشاعر ابن حمديس الصقلي يصف جارية حسناء تسقي السكارى المنتشين فيقول : [من الكامل]:

يَا حُسْـنَ سَاقِيَةٍ تَمُـد أَنَامِلاً　　　بِعَرُوس رَاحٍ فِي عُقُودِ حَبَابِ

تَـسْقِيكَ شَمْسَ سُلافَةٍ عِنَبِيةٍ　　　طَلَعَتْ عَلَى فَلَكٍ مِنَ العُنـابِ

وَمُنَبهٍ فِي حِجْرِ مَنْ شَدَوَاتُهَا　　　تُثْنِي الهُمُومَ بِهَا عَلَى الأَعْقَابِ

وَكَأنمَا الأَجْسَامُ مِنْ إِحْسَانِهَا　　　مُلِئَتْ بِأَرْوَاحٍ مِـنَ الإِطْـرَابِ

وَكَأنمَا يَـدُهَـا فَـمٌ مُتَكَلـمٌ　　　بِالسحْرِ فِيهِ مِقْوَلُ المِـضْرَابِ [3]

يصف حسن هذه الجارية التي تسقي الشاربين من كؤوس الخمر العنبية، وقد ملئت نفوس الحاضرين طربا ، فهم يتجرعون أهنأ الكؤوس على صوت الشادن الطرب ، وحق للشعراء أن يفتنوا بجمال الجواري المغربيات لما عرف عنهن من صباحة ودماثة خلق وقوة نتاج وقدرة على إدخال السرور في القلوب << فالأمة البربرية المغربية لا تبارى في حسن الإنتاج ، وهي لدماثة خلقها ولين عريكتها صالحة لأن تعود نفسها القيام بأي نوع من العمل ، والمثل الأعلى للجارية أن تكون من أصل بربري فارقت بلادها وهي في التاسعة من عمرها ، ومكثت ثلاث سنين في المدينة ، ومثلها في مكة ، ثم رحلت للعراق في السادسة عشرة من عمرها لتتثقف بثقافته ، فإذا بيعت في الخامسة والعشرين كانت قد جمعت بين جودة الأصل ، ودلال المدنيات ، ورقة المكيات ، وثقافة العراقيات >> [4] .

---

[1] العماد الأصفهاني : الخريدة ج1 ، ص 236 .

[2] أحمد امين : ظهر لاسلام ، ج1 ،ص 59 .

[3] ابن حمديس : ديوان ابن حمديس الصقلي ، ص 21 .

[4] أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج1 ، ص73 .

هذا الاستعداد النفسي والبدني للعمل وإتقانه في أي أرض وتحت أي ظرف هو الذي دفع النخاسين إلى اقتنائهن والمزايدة في أثمانهن ليستغلوهن في الحانات والمواخير ، وقد كانت الواحدة منهن تختزل عمل عشرة من الجواري غير البربريات ، فهي ترقص وتغني وتسقي الشاربين وتقوم على أمر الحانة ، وهذا ما يقلل من حجم الإنفاق الذي يبذله صاحب الحانة .

ولا شك أن الجواري كن عماد الليالي الملاح ، بما أوتين من براعة في اللحن وشدو في الصوت ورقة في الغناء إضافة إلى الرقص على أنغام الآلات الموسيقية المعروفة في ذلك العهد ، وقد كانت الراقصات يتفنن في إثارة الرجال << وذلك أن الراقصة منهم تشير بأنملها وهي تغني إلى كل عضو وما يحل به من تعذيب الهوى فإن ذكرت دمعا أشارت إلى العين ، وإن وصفت وجدا أشارت إلى القلب ، وهي مع ذلك تعبر عن تدلل المحبوب وتذلل المحب بما يليق بهما من الإشارات الحسنة والحركات المنبهة على ما أرادت >>[1]

يقول ابن حمديس في وصف راقصة : [من الطويل]:

وَرَاقِصَـةٍ بِالـسحْرِ فِي حَـرَكَاتِهَا　　تُقِيمُ بِهِ وَزْنَ الغِنَـاءِ عَلَى حَـد

مُـنَغـمَـةً أَلْـفَاظَـهَا بِـتَرَنـمٍ　　كَسَا مُعْبَدًا مِنْ عِـزهِ ذِلةَ العَـبْدِ

تَدُوسُ قُلُوبَ السامِـعِينَ بِرَخْصَـةٍ　　بِهَا لَقَطَاتٌ مَا لِلحُون مِنَ الـعَد

بِقَد يَمـُوتُ الغُصْنُ مِـنْ حَـرَكَاتِهِ　　سُكُونًا،وَأَيْنَ الغُصْنُ مِنْ بَرَهِ القَد [2]

وَتَحْـسَبُهَا عَـما تُـشِـيرُ بِأَنْمـُلٍ　　إِلَى مَا يُلاَقِي كُل عُضْوٍ مِنَ الوَجْدِ

بِنَا لاَ بِهَا مَا تَشْتَكِي مِنْ جَوَى الهَوَى　　وَأَدْمُعِ أَشْـوَاقٍ مُـخَدَدَةِ الـخَد [3]

إن هذه القينة فتنت القلوب بجسدها الممتلئ الذي يراوح يمينا وشمالا في حركات متناسقة توافق ضرب الدف وعزف المزامير ، و تشير بأناملها إلى الشبان والحاضرين وبحركات توحي بالوجد والغرام ، وهي تعلم علم اليقين أن حبال شركها نال من جيوب الشبان وعقولهم فتراهم يلاحقونها وهي تأبى عليهم وتعد فتخاف الوعد ، ولكن الحاجة الملحة للمال هي التي تدفعها لأن تعبث بجسدها ، غير أنه وُجد << من هؤلاء القيان من كن

---

[1] ابن حمديس الصقلي : ديوان ابن حمديس ، ص 133 .

[2] البره : الامتلاء .

[3] ابن حمديس الصقلي : ديوان ابن حمديس ، ص 133 .

يتاجرن بالعشق والغناء ، فيوقعن في حبالهن الشبان الموسرين حتى يستنزفن مالهم ثم يلفظنهم ، وقد وصف واصف هذه الحالة أدق وصف فقال : إن القينة منهن إذا رأت في مجلس فتى له غنى وكثرة مال ويسار، وحسن حال مالت إليه لتخدعه ... ومنحته نظرها وأشارت إليه بكفها وغمزته بطرفها ، وغنت على كاساته ، ومالت إلى مرضاته ، حتى توقع المسكين في حبالها ، وتحويه بلطف تملقها ، وتستعين بالمكر والخداع ، ثم ترسل إليه تخبره عن سهرها وقلقها ، وتبعث إليه بخاتمها وخصلة من شعرها ، وكتاب قد نمقته بظرفها ، ونقطت عليه قطرات من دمها وختمته بغالية من العنبر ... حتى إذا حوت عقله وسلبت قلبه أخذت في طلب الهدايا من ثياب وحلي وشكت من غير ألم لتتوالى عليها هداياه ، حتى إذا نفد اليسار وتلف المال وأحست بالإفلاس أظهرت الملل ، وأعلنت البدل وتبرمت من كلامه وضجرت بسلامه وأخذت في الجفاء والعتاب وصرفت عنها هواه ومالت إلى سواه >> [1] .

أما فيما يخص الرثاء فإننا نلاحظ حضورا لافتا للنظم في هذا الباب ، ورغم أن الجواري كن كثيرات ولم يحظين بمنزلة المهيرات إلا نادرا ، وقلما ظفرت جارية بقلب مالكها فأعتقها وتزوجها لأنه كان يؤتى بها للقيام بشأن السيدة الكريمة التي تستعين بها في البيت أو في طريق الرحلة , إلا أننا نعد من مراثي الجواري أضعاف ما قيل في رثاء الزوجات الحرائر وهذا ما يقلب الحكم تماما ، ثم إن رثاء الجواري يبدو أكثر حرارة وأصدق تعبيرا ، ومنه جاز القول أن منزلة الجواري تراوحت بين السمو والانحطاط من مكان لآخر، ومن شاعر إلى غيره من الشعراء .

ومن المراثي التي نظمت في الجواري مرثية لابن حمديس في جارية له تدعى " جوهرة " ماتت غريقة في المركب ، يقول منها : [من البسيط] :

أَيا رَشَاقَةَ غُصْنِ البَانِ مَا هَـصَرَكْ وَيَا تَأَلفَ نَظْمِ الشمْلِ مـَنْ نَثـَرَكْ ؟
وَيَا شُؤُونِي ، وَشَأْنِـي كُلـهُ حَزَنٌ فُضي يَوَاقِيتَ دَمْعِي وَاحْبِسِي دُرَرَكْ
مَا خِلْتُ قَـلْبِي وَتَبْـرِيحِي يُقَلبُــهُ إِلا جَنَاحَ قَـطَاةٍ فِي اعْتِقَـالِ شَرَكْ
لاَ صَبْرَ عَنْكِ وَكَيْفَ الصبْرُ عَنْكِ وَقَدْ طَوَاكِ عَنْ عَيْنِي المَوْجُ الذِي نَشَرَكْ

---
[1] أحمد أمين : ظهر الاسلام ، ج1 ، ص 96 .

هلا ، وَرَوْضَةُ ذَاكَ الحُسْنِ نَاضِرَةٌ ... لا تَلْحَظُ العَيْنُ فِيهَا ذَابِلاً زَهَرَكْ

أَمَاتَكِ البَحْرُ ذُو التيارِ مِنْ حَسَدٍ ... لما دَرَى الدر مِنْهُ حَاسِدًا ثَغَرَكْ

وَقَعْتُ فِي الدمْعِ إِذْ أُغْرِقْتِ فِي لُجَجٍ ... قَدْ كَانَ يَغْمُرُنِي مِنْهُ الذِي غَمَرَكْ

أَي الثَّلاثَةِ أَبْكِي فَقْدَهُ بِدَمٍ ... عَمِيمَ خُلْقِكِ أَمْ مَغنَاكِ أَمْ صِغَرَكْ ؟

مِنْ أَيْنَ يَقْبُحُ أَنْ أَفْنَى عَلَيْكِ أَسًى ... وَالحُسْنُ فِي كُل فَن يَقْتَفِي أَثَرَكْ ؟

كُنْتِ الشبِيبَةَ إِذْ وَاتَتْ وَلا عِوَضٌ ... مِنْهَا وَلَوْ رَبِحَ الدنْيَا الذِي خَسِرَكْ

مَا كُنْتُ عَنْكِ مُطِيلاً بِالهَوَى سَفَرِي ... وَقَدْ أَطَالَتْ لِحَيْنِي فِي البِلَى سَفَرَكْ

هَلْ وَاصِلِي مِنْكِ إلا طَيْفُ مَيتَةٍ ... تُهْدِي لِعَيْنِي مِنْ ذَاكَ السكُون حَرَكْ

أُعَانِقُ القَبْرَ شَوْقًا وَهْوَ مُشْتَمِلٌ ... عَلَيْكِ لَوْ كُنْتُ فِيهِ عَالِمًا خَبَرَكْ

وَدِدْتُ يَا نُورَ عَيْنِي لَوْ وَقَى بَصَرِي ... جَنَادِلاً وَتُرَابًا لاصِقًا بَشَرَكْ

أَقُولُ لِلبَحْرِ إِذْ أَغْشَيْتُهُ نَظَرِي ... مَا كَدرَ العَيْشَ إلا شُرْبُهَا كَدَرَكْ

هَلا كَفَفْتَ أُجَاجًا مِنْكَ عَنْ أَشَرٍ ... مِنْ ثَغْرٍ لمْيَاءَ لَوْلا ضَعْفُهَا أَسَرَكْ [1]

هَلا نَظَرْتَ إِلَى تَفْتِيرِ مُقْلَتِهَا ... إِني لأَعْجَبُ مِنْهُ كَيْفَ مَا سَحَرَكْ

يَا وَجْهَ جَوْهَرَةَ المَحْجُوبَ عَنْ بَصَرِي ... مَنْ ذَا يَقِيكَ كُسُوفًا قَدْ عَلا قَمَرَكْ ؟

يَا جِسْمَهَا كَيْفَ أَخْلُو مِنْ جَوَى حَزَنِي ... وَأَنْتَ خَالٍ مِنَ الروحِ الذِي عَمَرَكْ ؟

لَيْلِي أَطَالَكَ بِالأَحْزَان مُعْقِبَةً ... عَلَي مَنْ كَانَ بِالأَفْرَاحِ قَدْ قَصَرَكْ

مَا أَغْفَلَ النائِمَ المَرْمُوسَ فِي جَدَثٍ ... عَما يُلاقِي مِنَ التبْرِيحِ مِنْ سَهِرِكْ

يَا دُولَةَ الوَصْلِ إِنْ وَلَيْتِ عَنْ بَصَرِي ... فَالقَلْبُ يَقْرَأُ فِي صُحْفِ الأَسَى سَمَرَكْ

لَئِنْ وَجَدْتُكِ عَني غَيْرَ نَائِيَةٍ ... فَإِن نَفْسِي مِنْهَا رَبُّهَا فَطَرَكْ

إِنْ كَانَ أَسْلَمَكِ المُضْطَرِ عَنْ قَدَرٍ ... فَلَمْ يَخُنْكِ عَلَى حَالٍ وَلا غَدَرَكْ

هَلْ كَانَ إلا غَرِيقًا رَافِعًا يَدَهُ ... نَهَاهُ عَنْ شُرْبِ كَاسٍ مَنْ بِهَا أَمَرَكْ

مَا عَدَاكِ حِمَامٌ عَنْ زِيَارَتِهِ ... فَكَيْفَ أَطْمَعَ فِيكِ النفْسَ وَانْتَظَرَكْ

إِنْ كَانَ لِلدمْعِ فِي أَرْجَاءِ وَجْنَتِهِ ... تَبرحٌ فَهْوَ يَبْكِي بِالأَسَى خَفَرَك

وَمَا نَجَوْتُ بِنَفْسِي عَنْكِ رَاغِبَةً ... وَإِنمَا مَدَّ عُمْري قَاصِرٌ عُمُرَكْ [2]

---

[1] الأشر : التحزيز في الأسنان .

[2] ابن حمديس الصقلي : ديوان ابن حمديس ، ص212-213 .

ولنحاول تقديم قراءة للأبيات وفق ما توحي به عروضها لنتبين مدى تأثير نفسية الشاعر المشحونة أو المرتاحة على المكونات اللغوية سرعة أو بطأ في الأداء ، وبعد تقطيع

الأبيات التي كانت من بحر البسيط وجدنا زحاف الخبن [1] قد مس جميع أعاريض الأبيات تقريبا ، مع وجود علة القطع [2] أحيانا ، وقد كان مستوى تواجد الزحاف في الأبيات مرتبا وفق ما يلي :

الدائرة	الأبيات	عدد الزحافات في كل بيت
1	21	2
2	2 – 3 – 5 – 9 – 12 – 15 – 16 – 18 – 19 – 22 – 25 – 27	3
3	4 -6 – 7 – 10 – 20	4
4	8 – 11 – 13 – 14 -17- 23 – 24	5
5	1-26-28	6

ففي البيت الواحد والعشرين يتحدث الشاعر عن طول نوم الجارية في القبر بينما يسهر هو حزنا عليها وأسفا على فراقها وقد اجتمعت في البيت معاني الطول والامتداد الزمني (طول النوم + طول السهر) ، وهذا ما ترجم عنه بامتداد التفعيلات وعدم تعرضها للنقص فكأن الزمن الشعري يساير الزمن النفسي .

وتبدأ صور الحزن في الظهور والغيوم في التشكل رويدا رويدا ، فهو يدعو أحزانه أن تدفع فيض الدموع المختزلة في المآقي إلى السيلان والانسكاب ، ويصور قلبه الكسير على أنه طائر علق في شباك الصياد ولا يستطيع خلاصا ، وكذلك هو يحاول جاهدا نسيان أمر هذه الجارية أو الانفلات من أسر ذكراها ، والواقع أن صورة القطاة العالقة

---

[1] **الخبن** : لغة خبن الثوب : قلصه بالخياطة ، وخبن الشعر : حذف ثانيه من غير أن يسكن له شيء إذا كان مما يجوز فيه الزحاف كحذف السين من مستفعلن ، والفاء من مفعولات ، والألف من فاعلاتن ، وكله من الخبن الذي هو التقليص.

- ابن منظور : لسان العرب ، ج4 ، ص 18-19 .
- أحمد سليمان ياقوت : التسهيل في علمي الخليل ، ص 11 .

[2] **القطع** لغة : أبانة بعض أجزاء الجرم من بعض فصلا .

- ابن منظور : لسمن العرب ، ج11 ، ص 199 .

والقطع في الشعر : حذف ساكن الوتد المجموع من آخر التفعيلة وتسكين ما قبله .

- د. أحمد سليمان ياقوت : التسهيل في علمي الخليل، ص 20 .

ليست بجديدة فقد صورها مجنون بني عامر ليعبر عن أساه وطول ليله حينما أزمع أهل ليلى الرحيل أو جهزوها لتنقل إلى زوجها فقال : [من الوافر] :

كأن القَلْبَ لَيْلَةَ قِيلَ يُغْـدَى بِلَيْلَى العَامِـرِيةِ أَوْ يُرَاحُ

قَطَـاةٌ غَرهَا شَـرَكٌ فَبَاتَتْ تُجَاذِبُهُ وَقَدْ عَلَقَ الـجَنَاحُ

لَهَا فَرْخَان قَدْ تُركَا بِوَكْـــرٍ فَعُشهُمَا تُصَـفقُهُ الريَـاحُ

فَلاَ فِي اللَيْلِ نَالَتْ مَا تُرَجي وَلاَ فِي الصبْحِ كَانَ لَهَا بَرَاحُ (1)

وقد قال الشعراء قبله في هذا المعنى ، وكذلك اللاحقون الذين حاولوا محاكاة هذه الأبيات << فلم يبلغوا هذا المقدار >>(2) ، ولعل ابن حمديس من هؤلاء .

ويتذكر الشاعر هذه الجارية التي ماتت في ريعان شبابها زهرة مفتحة لم تذبل ، ويأسى كيف أن الكائنات تموت بعدما ينتهي عمرها ، فأوراق الشجر تذهب بعدما تيبس وتتساقط من الأغصان والإنسان يموت بعدما يشيب ويهرم ، ولكن هذه الجارية لم تبلغ وطرها من الحياة ولم يهنأ بها هانئ بعد ، وتتشابه الأبيات في الدلالة والمعنى حيث أن الحسن الذي يسعى الناس للتجمل به تراه يقتفي أثرها محاولا الاقتباس من جمالها ليضيفه إلى جماله ، فالنقص يعتريه والكمال يخصها وحدها دون سائر النساء ، ولم يبق للشاعر سوى طيف خيالها يحرك بعض هذا السكون الرهيب الذي طبع ذاته والمكان من حوله ، ويوجه عتابه للبحر ويقول إن كدر عيشه كان حينما شربت الغريقة ماءه المالح الأجاج ،ورغم أنها حاولت دفعه عن فمها إلا أن ضعفها في مواجهة الأمواج العاتية لم يمكنها من ذلك ، وقد أسرع البحر إلى إغراقها لأنه يخشى أن يضعف أمام سحرها الفتان وثغرها الذي يقطر شهدا .

وينادي الشاعر وجه الجارية المحجوب عن بصره منذ أن غيب الثرى ، ويعجب كيف أن القمر يودع بين جنبين ضيقين في بطن الأرض، وكأن هذا التراب هو الكسوف الذي يعتري القمر في بعض المرحل الزمنية ، ويخاطب جسدها ويسأل كيف يتخلص من هذا الحزن وقد خلا من الروح التي عمرته دهرا قصيرا ثم هجرته وتركته لا ينفع محبا ولا يشفي غليلا ، وينادي أيضا زمن الوصل وأيام الأنس المنقضية إن كان فيها بقية أن تعجل بها ، فهو لا يريد أن يرى مظاهر الفرح والإقبال على الدنيا بعد اليوم ، فالكون يجب أن

---

(1) المبرد : الكامل ، ص 530 .

(2) المصدر نفسه : ص 530 .

يلبس ثوب الحداد السرمدي ، وجملة هذه النداءات موجهة لمن لا يعقل فهي تعبر عن أمان في النفس يستحيل تحقيقها أو أن المنادى لا يعيره بالا وغير مستعد للتفاوض بشأن مطالب المحزون ، وهل كان الميت إلا غريقا ضعيفا رافعا يده إلى السماء أُخِذ وهو يدعو ا المغفرة ، فإن كان هناك دمع يسيل على الخدين فهو يبكي هذا الذي استحيا أن يطلب النجدة من أحد فرفع يديه داعيا ا دونما أن يلوم البحر لأن الحق تعالى هو الذي أمره بإغراقه ، وهنا تبرز براعة الشاعر حينما قلب صورة الغريق الذي يطلب النجاة بيديه إلى صورة أروع وأعمق في الدلالة على إيمان الجارية وحسن ظنها با وخفرها من أن تحتفظ بمهجة طلبها صاحبها .

على كل هذه الأبيات تحمل نبرة خطابية أعلى وترنيمات شجية ولكنها أقل تموجا نظرا لارتياح الشاعر حينما يذكر جمالها وحسن صنيعها لما أوشكت على الغرق لذلك كان الامتداد الزمني للتفعيلات متوسطا .

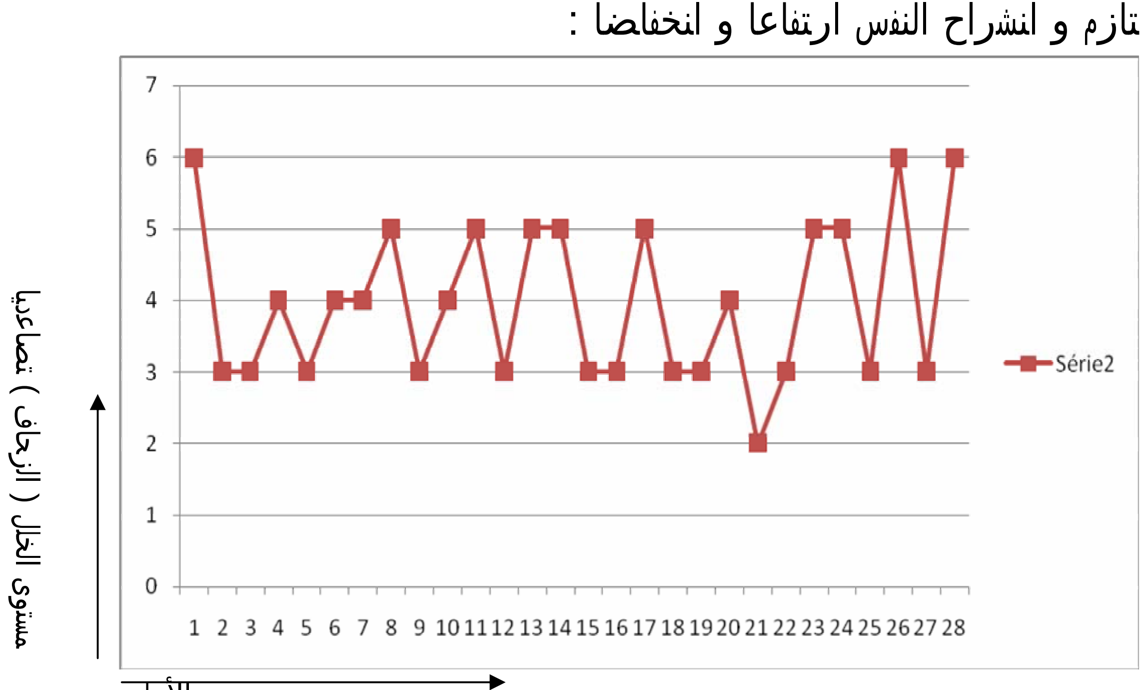
ويبدأ الزمن بالتسارع والنفس بالاضطراب وهذا في البيت الثامن حينما يجهش بالبكاء ويتسارع الدمع على المآقي بل ويتزاحم عليها ، ويشعر هو بأنه مقصر في حقها فيجب أن يكون الدمع أحمر قانيا وحتى الدم لا يوفيها حقها من البكاء ، ويستعجل بعدها في البيت الحادي عشر أن تسرع إليه بالعودة لأن هواه لا يحتمل بعدها ، والتعجل في طلب العودة انعكس على التفعيلات التي جاءت مستعجلة محذوفة والإيقاع متسارعا .

ويسرع إلى القبر ليشتمل عليه ضما وتقبيلا ، ويود لو أسرعت إليه المنون فيدفن بجنبها حتى يزول شوقه المضني .

ثم يوجه الخطاب في البيت السابع عشر إلى البحر الذي أسرع ينخر جسد الغريق ، وقد أذهب عينها الحوراء ، وهذا أمر واقع مع الغرقى حيث إن أول ما يذهب من أجسادهم عيونهم ، لأن مقلة العين ليست مرتبطة أشد الارتباط بعضل الجسم كاليد أو الرجل مثلا ، ونلاحظ سرعة الأداء والإيقاع في هذه الأبيات الذي مس أغلب تفعيلتها الزحاف ، فالشاعر مرتبط بحالات نفسية طارئة ونبض متسارع من مثل حالات : البكاء ، الشوق ، سرعة تحلل جسد الميت في البحر .

ويبلغ مستوى التسارع أوجه حينما يلومها على سيرها إلى حتفها برجليها والناس تتجنب الخطر أينما وجد ، وإذا كان يأسى لفراقها فإنه يعدها بأنه سيمسي قريبا إلى جنبها .

ويمكن قياس المستوى النفسي العام للشاعر في القصيدة من خلال هذا المخطط الذي يبين تأزم و انشراح النفس ارتفاعا و انخفاضا :



ويتضح من خلال هذا أن الصبر لم ينفعه فكما بدأ القصيدة مغضبا اختتمها حانقا أيضا ، وإن كان في أغلب الأحيان في مستوى نفسي مستقر نوعا ما ، ونحن لا نعلم هل قيلت هذه القصيدة عند وصول خبر موتها فجأة أم أنها نظمت بعد مرور زمن على وفاتها ؟، لكن من المرجح أن تكون القصيدة غير مرتجلة ولا آنية ، أي أن الشاعر سعى لأن يكسوها أفضل الحلل التعبيرية من بيان وبديع وهذا ما يؤثر على الجانب النفسي بحيث يقل من حدته وهيجانه وتشي مختلف أبيات القصيدة ذات المستوى الثابت (كما هو مبين في الرسم) بذلك .

وربما كانت الدموع التي ذرفها عليها هي التي ولدت هذا الارتجاج في الحالة النفسية رغم محاولة الشاعر أن يضعها في موضع مستقر ، فالإيقاع الصوتي في الشعر له دلالته النفسية المؤثرة ، ويخطئ من يتصور أن الإيقاع وجد ليكون ميزانا يحتكم إليه في فصل النصوص الشعرية عن النثرية فقط ، فهو كما يرى برغسون Bergson >> امتداد للأعراض الجسمية التي تصاحب الانفعال لدى الفنان ، ويكون ظهورها بوساطة المحاكاة ، وللإيقاع وظيفة هامة بالنسبة لتذوق العمل الفني فهو يساعد على تحطيم الفواصل بين شعورنا وشعور الفنان ، فيتيح لنا الدخول معه في عالم شعوري واحد<<[1] .

وله أيضا في رثاء جوهرة : [من البسيط] :

---

[1] د. مصطفى السويف : التفسير النفسي للأدب ، ص 206 .

يَهْـدِمُ دَارَ الحَيَاةِ بَانِيـهَا		فَـأَي حَـي مُخُـلَّدٌ فِيـهَا
وَإِنْ تَرَدتْ مِنْ قَبْلِنَا أُمَـمٌ		فَهْيَ نُفُوسٌ رُدتْ عَوَارِيهَا
أَمَا تَرَاهَـا كَأَنـهَا أَجَـمٌ		أَسْـوَدُهَا بَـيْنَنَا دَوَاهِيـهَا
إِنْ سَالَمَتْ وَهْيَ لاَ تُسَالِمُنَا		أَيامُـنَا، حَـارَبَتْ لَيَالِيهَا
وَاوَحْشَتَا مِنْ فِرَاقِ مُؤْنِسَةٍ		يُمِيتُنِي ذِكْرُهَا وَيُـحْيِيـهَا
أَذْكُرُهَا وَالدمُـوعُ تَسْبِقُنِي		كَأَنَنِي لِلأَسَـى أُجَارِيـهَا
يَا بَحْرُ أَرْخَصْتَ غَيْرَ مُكْتَرِثٍ		مَنْ كُنْتُ لِلْبِيَاعِ أُغْـالِيهَا
جَوْهَرَةٌ كَانَ خَاطِرِي صَدَفًا		لَهَا أَقِيـهَا بِـهِ وَأَحْمِيـهَا
أَبتهَا فِي حَشَـاكَ مُـغْرَقَةً		وَبِت فِي سَاحِـلَيْكَ أَبْكِيـهَا
وَنَفْحَةُ الطيبِ فِي ذَوَائِبِهَا		وَصِبْغَةُ الكُحْلِ فِي مَآقِيـهَا
عَانَقَهَا المَوْجُ ثُم فَـارَقَهَا		عَنْ ضَمةٍ فَاضَ رُوحُهَا فِيهَا
وَيْلِي مِنَ المَاءِ وَالترَابِ وَمِنْ		أَحْكَامِ ضِديْنِ حُكمَا فِـيهَا
أَمَاتَـهَا ذَا وَذَاكَ غَيرَهَـا		كَيْفَ مِنَ العُنْصُرَيْنِ أَفْدِيهَا [1]

إن الدنيا دار فناء وليس لأحد أن يخلد فيها ، ولو كتب البقاء للإنسان لبقيت الأمم السابقة ، وهي لا تسالم أحدا بل تبادر بالحرب في كل وقت وحين ، ويستوي الخطر في الليل والنهار فلا يكاد الإنسان يستريح من ضجعة بليل أو نهار ، والشاعر يستهل رثاءه للجارية بحرف الندبة "وا" وهو أبلغ تعبير عن جلل المصاب ، و يقول إن الدنيا أقفرت لذهابها والوحشة عمت كيانه وأفق السماء ، فذهب السرور وعاد الحزن والكرب ، ولا يمر ذكرها بوجدانه إلا سبقته العبرة تنهمل من المآقي ، ولا يعرف سبيلا لكفكفة الدموع فالقلب لا يطاوع ، وهذا البحر الغادر يذهب بكل حسن ولا يفرق في سطوه بين جميل وقبيح ، وقد سلب جوهرة وهي- كاسمها- درة فريدة كان يسترخص كل غال يبذل له فيها ، فالتجار يلحون عليه ببيعها و المشترون يرفعون من ثمنها أملا في الظفر بها ، ولكن مالكها يأبى التنازل عها ، هذا الجمال الممنع أخذه البحر غصبا بلا ثمن ، وقد شفى كمد حساد الشاعر الذين حسدوه عليه من قبل .

---

[1] ابن حمديس الصقلي : ديوان ابن حمديس ، ص517-518 .

وقد ذهلت نفسه و انهد كيانه وأرجف قراره ، فلا يجد إلا ساحل البحر يذرف فيه دموعه ويبيت مستشرفا لعل هذا المارد يشفق عليه ويمن بأن يعيد ما اختلسه واغتصبه دون وجه حق أو مراعاة لوجدان الآخرين .

وما فتئت الفقيدة تتطيب وتكتحل على عادة النساء ولكنها تفضل عليهن بعبق أريجها الذي يملأ البحر والساحل حتى وإن كانت هي في أعماق المحيط , والشاعر يستعير صورة رائعة يبين فيها كيف غدر البحر بمحبوبته ، فالموج وهو يلتف بها ويجذبها إلى الأعماق كان كرجل لقي حميما له فضمه ضمة حبست-لشدتها- أنفاسه وذهبت بمهجته ، ولا يمنع هنا أن نتصور ما كان يعانيه البحر حيث ما فتئ يحسد البر على استئثاره بهذه الجارية الحسناء ، وقد كان يتلهف لأن تنزل ضيفة عليه ، وما إن تحقق حلمه ووطئت رجلاها مياهه حتى عمه الاضطراب فلم يجد وسيلة لإظهار حفاوته إلا بهذا الموج المتلاطم الذي لم يراع ضعف هذا الضيف النازل ، ومن هنا كان البحر معذورا لأنه كان حسن النية والمقصد إلا أن وسيلته كانت خطرة مهلكة .

والشاعر يأمل – بطول مكوثه في الساحل – بأن يتفضل البحر عليه ويرد الأمانة التي استودعه إياها واستقرت في أحشائه ، وذلك حتى يتمكن من إلقاء آخر نظرة عليها ومن ثمة دفنها وبناء القبر الذي سيظل مبكى بالنسبة إليه ، ولكنه يأسف لأن عامة الناس يموتون حتف أنفسهم فيكون التراب أول وآخر مثوى لهم ولكن الجارية ذات الجسد الناعم قد اجتمع عليها العنصران : الماء والتراب ، فالأول أهلكها وأماتها ، والثاني سيغير صورتها ويبلي عظامها ويمحي أثرها ، أليس جورا بأن يجتمع الضدان على جسد واحد ؟ .

ربما كان ابن رشيق محقا حين توجس خيفة من أن تجتمع عليه الأضداد ويقع له مثل ما وقع للجارية ، وقد قال : [من البسيط] :

خُلِقْتُ طِينًا وَمَاءُ البَحْرِ يُتْلِفُهُ وَالقَلْبُ فِيهِ نُفُورٌ مِنْ مَرَاكِبِهِ [1]

ويتمنى الشاعر لو استطاع أن يحمل عن الميتة بعض هذه المعاناة ولو كان الجسد خاليا من الروح ، ويريد أن يفدي ماله ومتاعه حتى يقيها "فعل العنصرين بجسدها" ولكنها مشيئة وقضاء موكل بالعباد فلا مناص من التسليم به .

وغير بعيد عن أجواء الحزن نلمس في المعاني الرثائية للشعر المغربي أبعادا فلسفية ،

---

[1] ابن رشيق القيرواني : ديوان ابن رشيق ، ص44 .

لأنه تجاوز الحديث عن الحياة القبلية للمرثي إلى الحديث عن الحياة البعدية ، وشعر الرثاء قبل هذا كان ينعى في الميت شجاعته وجوده ونجدته وسائر خلاله وشمائله التي تتصل بحياته الاجتماعية والخلقية ، أما الشاعر المحدث -ابتداء من العصر العباسي- فلا يلتفت كثيرا إلى حياة الفقيد ، وما يهمه هو مآل الجسد والروح ، ولعل تضارب آراء الديانات والثقافات الفارسية والهندية واليونانية والعربية الإسلامية هو الذي أدى إلى انحراف خيال الشاعر وغيره من الشعراء الراثين عن معنى الرثاء الحقيقي الذي يحتفي بالميت إلى المعاني الجدلية الأخرى والمشبعة بآراء الفلاسفة ورجال الدين الذين تشغلهم قضايا النشور والبعث ومآل الجسد والروح الإنسانية أكثر من شيء آخر .

ولكن يجب القول أن هذه المعاني أضافت لجو الرثاء زخما فكريا وفلسفيا جديدا ولولاها لبقي الشعر يلوك المعاني المستهلكة ، ثم إن حياة الفتوة والحرية والإغارة ولت بلا رجعة وحلت حياة الأمن والنظام التي تحد الحرية وتكبح الانطلاق ، لذلك استعاض الشعراء عن المعاني القديمة بالمعاني الجديدة التي تحمل الجدل .

ولابن عبدون [1] قصيدة يرثي فيها جاريته وابنه ، يقول : [من الكامل] :

قَبْرٌ بِسُوسَةَ قَدْ قَبَرْتُ بِهِ النهَى   أَدْرَجْتُ قَلْبِي فِي مَدَارِجِ لَحْدِهِ

أَسْكَنْتُهُ سَكَنِي وَرُحْتُ كَأَنَّنِي   فِي الأَرْضِ لاَ بَشَرًا أَرَى مِنْ بَعْدِهِ

عَجَبًا لِمَنْ أَلْقَى عَلَيْهِ رِدَاءَهُ   أَوْ مَد كَفًّا فِي الصَّعِيدِ لِرَدِّهِ

صَمتْ عَلَي مَسَامِعِي فِي رَجَّةٍ   وَصَعِقْتُ مِنْ صَعْقِ الصرَاخِ وَرَعْدِهِ

وَجَهِدْتُ أَنْ أَبْكِي وَلَمْ أَجِدِ البُكَا   فَسَكَت سَكْتَةَ صَارِمٍ فِي غِمْدِهِ

هَبْنِي بَكَيْتُ لهُ وَمَا يُجْدِي البُكَا   مَاءٌ بِخَدِي وَالترَابُ بِخَدِهِ

مَا الشأْنُ فِي جَزَعِي عَلَيْهِ وَحَسْرَتِي   الشأْنُ فِي قُرْبِ الخَيَالِ وَبُعْدِهِ

طَالَ انْتِظَارِي لِلْهُدُوءِ وَلَيْسَ لِي   جَفْنٌ يُطَابِقُ جَفْنَهُ فِي بُرْدِهِ

هَيْهَاتَ قَدْ مَنَعَ الهُدُوءَ لنَاظِرِي   قَبْرَان ذَا وَلَدٌ وَذَاكَ لِلَحْدِهِ[2]

يقول إنه دفن حشاشته في مدارج لحدها ، ومضى معجبا كيف يحيا بلا قلب ، وقد زال

---

[1] **ابن عبدون** : محمد ابن عبدون الوراق السوسي ، ليس سوسيا على الحقيقة بل من أكابر أهل القيروان وبها مقامه ، لكن أباه سكن سوسة فعرف بذلك ، وهو شاعر وطيء الكلام ، كاف بعذوبة اللفظ و التسال إلى المعنى البعيد بلطافة .

- ابن رشيق : الأنموذج ، ص390 .

[2] المرجع نفسه : ص394-395 .

كل جمال كان يراه واسودت الدنيا في عينيه فلم يعد يرى بشرا من حوله، وكان الناس يملؤون الرحاب ويغصون في الأسواق ، وهو يعجب كيف طاوعه بنانه حين ألقى الرداء على هذا الجسد المكفن بالجمال ، ويذهل لهذا البصر كيف لم يرتد إلى داخل الجفون حينما رأى هذا النور يخفت للأبد .

وقد أجهد الشاعر نفسه ليبكي عليها لكنه لم يستطع فهول الفجيعة أذهل كل جارحة وجعلها لا تطيع أمر صاحبها ، وليته كان قد فجع بمن ملكت فؤاده فقط بل إنه فقد ولده الذي كان ذخره وأمله ، وقد أفلا كما أفلت عينا الضرير ، وإن هو كفكف دمعه على هذا القبر حادت عينه إلى القبر الآخر فأثارت كامن أشجانه واعتصر قلبه من جديد ليذرف الدموع مرة أخرى .

ونجد الجزنائي [1] ينفرد عن شعراء ورجال عصره عندما عشق جاريته الرومية "صبح" ، وقد غربت في عنفوان شبابها ، فرثاها رثاء حارا يدل على عظم الحب الذي أكنه لها ، ومما قاله فيها : [من الرجز] :

يَا صَـاحِبَ القَبْرِ الـذِي أَعْلامُـهُ   دَرَسَتْ وَلَكِنْ حُبهُ لَمْ يَـدْرُس

مَا اليَأسُ مِنْكَ عَلى التصَبرِ حَامِلِي   أَيأسـْتَنِي فَكَأنَنِـي لَمْ أَيأَس

لما ذَهَبْـتَ بِكُل حُسْنٍ أَصـْبَحَتْ   نَفْسِي تُعَانِي شَجْوَ كُل الأَنْفُس

يَا صُبْـحُ أَيـامِـي لَيَـالٍ كُلهَـا   لا تَنْجَلِي عَنْ صُبْحِكِ المُتَنَفس [2]

فيأسف على أفول هذا النجم الساطع ، وهذه الدوحة الكريمة ، وتزداد لوعته حينما يرى معالم القبر تنمحي وتعفو ، ولكنه يعزي نفسه لأن حبها لا يزال متوهجا في قلبه ، والحق << أنه رثاء فريد من نوعه ، وقلما فاه إنسان برثاء أشد تلوعا ، وأشد عمقا ، وأكثر انصهارا من هذا الرثاء ، لقد درست آثار القبر ولكن حب صاحبه لا يزال حيا في قلب الشاعر ، وهو يزداد حياة وعنفا بتقادم الزمان وتراخي الأيام ، واليأس من عودة المحبوب

---

[1] الجزنائي : أبو العباس أحمد بن شعيب الجزنائي الفاسي ، ولد بتازا ونشأ بفاس ، وتتلمذ لعدد كبير من شيوخها منهم عبد ا بن آجروم ، ورحل إلى تونس فأخذ الطب والهيأة على العلامة يعقوب بن أحمد ، وكان كاتبا في ديوان الإنشاء عند أبي الحسن المريني ، وتسرى جارية اسمها صبح وقد أحبها حبا شديدا لجمالها وظرفها ،ولكنها ما لبثت أن ماتت فحزن عليها أشد الحزن ، وله فيها شعر كثير .

كان الجزنائي من أساطين الأدب والعلم لذلك العهد وقد برع في الكيمياء ، توفي في تونس سنة 749هـ/1348م .

- محمد رضوان الداية : أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن ، ص254 .

[2] حنا الفاخوري : تاريخ الأدب في المغرب العربي ، ص227 .

الفقيد لم يستطع أن يحمل الشاعر على التصبر ، فهو يائس من محبوبه وغير يائس من وجوده ألما ولوعة في نفسه ... ويرى أن حبيبته ذهبت بكل حسن ، وأن الباكين في الكون على جمال مفقود إنما يبكون عليها ، وأنه عندما يتلوع عليها إنما يحمل في تلوعه تلوع الباكين أجمعين ، يا للروعة في الابتكار ، والعمق في التحليل ، والسحر في التعبير والتمثيل >> [1] .

وله أيضا في رثائها : [من مجزوء الكامل] :

يَا قَبْرَ صُبْحِ حَل فِيـ ـكَ لِمُهْجَتِي أَسْنَى الأَمَانِي
وَغَدَوْتَ بَعْدَ عِيَـانِهَا أَشْهَى البِقَـاعِ إِلَى العِيـَان
أَخْشَى المَـنِيةَ إنـهَا تُثْنِي مَكَانـَكَ عَـنْ مَكَانِي
كَمْ بَيْنَ مَـقْبُورٍ بـِفَا سَ وَقَـابـِرٍ بِالقَـيْـرَوَان [2]

لا يرجو من الزمان إلا أن يدعه قريبا من قبر هذه الجارية ، ولم تعد مباهج الدنيا ومناظرها الطبيعية الخلابة لتؤثر فيه أو تشرح صدره فهو في حزن دائم متصل ، وذوت نفسه على جدث الحبيبة فلم يرج له حياة بعدها ، وقد خشي أن يبعده الموت عن قبرها ، ولابد أنه نظم هذه الأبيات قبيل وفاته << في تونس ، في أثناء الطاعون الجارف الذي اجتاح الأندلس والمغرب ومناطق أخرى في سنة 749هـ >> [3] ، وكانت الجارية قد توفيت قبل ذلك ودفنت بفاس ، لهذا يأسف على التنائي والبون الشاسع بين موضع قبرها بفاس وموضع قبره الذي سيكون بالقيروان وقد كان يرجو أن يكونا متجاورين ليستأنسا في وحشتهما الأبدية .ومما قاله فيها بعد ارتحاله إلى تونس : [من مجزوء البسيط] :

يَا غَائِبًا فِي الضمِير مَا بَرِحَا إِني مُحِل الهَـوَى وَإِنْ نَزَحَا
لَمْ تُضْمِرِ الصبْرَ عَنْكَ جَارِحَةٌ وَلاَ فُـؤَادِي لِسَلْوَةٍ جَنـَحَا
مُسْتَعْبِرُ المُزْن فِيـكَ أَدْمُـعَهُ يَظَل يَبـْكِيكَ كُلـمَا سَنَحـَا
وَلاَ أَرَى البَرْقَ عَـادَ مُبْتَسِمًا بَعْدَكَ ،بَلْ زَنْدُ شَوْقِـهِ قَدَحَا
وَمَا تَغَنى الحَمَامُ مِـنْ طَرَبٍ بَلْ يُعْلِنُ النوْحَ كُلمَا صَدَحَا [4]

---

(1) حنا الفاخوري : تاريخ الأدب في المغرب العربي ، ص227 .

(2) المرجع نفسه : ، ص229 .

(3) محمد رضوان الداية : أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن ، ص254 .

(4) ابن الأحمر : نثير الجمان ، ص255 .

فهو يكابد شوقه وألم الفرقة عنها بعدما ملكت فؤاده وأسرت لبابه ، وحتى الغمام يبكي لفراقها كلما مر بأرضها وينهمر المطر علامة على حزنه ، وحتى لمعان البرق لم يؤثر في النفوس وكذلك صوت الحمائم وترنمه ، عاد نوحا وشجنا ، فالكون كله حزين ، ونلاحظ أن الشاعر يشرك عناصر الطبيعة في أحزانه ومشاعره << ويكثر مثل هذا المزج بين مشاعر الشاعر ومشاعر الطبيعة مما يجعلنا نحس تعاطفا شديدا بينه وبين عناصرها ، مذيبا فيها أهواءه وما يثير الشوق في قلبه من دقائق الحب و عواطفه في الوداع >> [1] .

[1] د. شوقي ضيف : فصول في الشعر ونقده ، ص 155 .

- صورة الزوجة :

ظفرت الزوجة بمنزلة خاصة عند الرجل ، فهي غرسه ومنبت أولاده ، ومستودع سره والقائم بشأنه ، وقد زادت مكانتها سموا بما أقره الإسلام لها من حقوق ، وهي سكن الرجل ، قال تعالى : << **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدةً وَرَحْمَةً إِن فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكرُونَ** >> [1] ، وقال أيضا : << **وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطيبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ** >> [2] .

والزوجة هي الكيان الذي يضمن الاستمرارية وتعاقب الأجيال << ولاشك في أن المرأة بما تحققه من متعة لزوجها ، وبما تحمله من أطفال ، وما تعده من غذاء ، وما تبدو فيه من جمال في صباها ، ومن قدرة على تحقيق المعجزات ، كانت تضيف شيئا كثيرا إلى طبيعتها ، فهي تتميز بحيوية أولية >> [3] .

و تضطلع الزوجة بمسؤوليات جسام في الحياة الاجتماعية ، فما إن تزف إلى بيت زوجها حتى تنتقل من حياة البنت المدللة إلى حياة الزوجة المكافحة وكلها عزم على بناء أسرة متماسكة وسعيدة ، يقول أحمد محمد الحوفي : << إذا ما انتقلت المرأة من بيت أبيها إلى بيت زوجها فقد شهدت بيتا آخر جديدا ، تقيم فيه عمرها ، وتغرس آمالها ، وتصل حياتها بزوجها ، تبثه أمانيها ، وتشكو إليه آمالها ، بل تمتزج بهذا الزوج عواطفها ، فتجاوبه ويجاوبها ، هو رجلها ، وهو حاميها وعائلها ، ووالد بنيها ، فهي إذا تحبه ويسعدها أن يحبها ، ولقد تسلك في تحببها إليه أن تتبعل له ، وأن تنجب ، وأن تتذرع بجمالها وحسن خلقها >> [4] .

ولابن الصفار السوسي [5] أبيات من قصيدة له يصور فيها طل أسفاره ، واشتياق زوجه

---

[1] الروم : 21 .

[2] النحل : 72 .

[3] جاك بيرك : العرب ، تاريخ ومستقبل ، ص226 .

[4] د. أحمد محمد الحوفي : المرأة في الشعر الجاهلي ، ص215 .

[5] **ابن الصفار السوسي** : علي بن أحمد بن الصفار السوسي ، شاعر متسع القافية ، سالم الطبع ، عالم باللغة ، لا تنقطع مدته ، لقي الموفق مجاهد بن عبد ا كرتين إحداهما بنية الغزو فامتدحه وأقام عنده مدة في ضيافته ، وقد عاش الشاعر في القرن الخامس الهجري ,

- ابن رشيق : الأنموذج ، ص265 .

إليه ، وهي تنحو عليه باللائمة لأنه لا يقيم عندها ولا يرعى أولاده المشتاقين إليه ، يقول:

بَكَتْ وَشَكَتْ وَاسْتَرْجَعَتْ وَتَوَجعَتْ ... فَظَلْتُ لَهَـا مُسْتَرْجِـعًا مُتبَـاكِيَـا

وَقَالَتْ : أَمَا يَنْهَاكَ أَنْ تَذْكُرَ النوَى ... نُهًى قَدْ نَهَتْ عَنْكَ الصبَا وَالتصَابِيَا

وَهَذَا أَوَانُ الحِلْمِ فَاسْمَعْ وَكُنْ لَـهُ ... مُطِيـعًا وَكُنْ لِلْغَي وَالجَـهْلِ قَـالِيَا

أَلَسْتَ تَرَى عَارًا عَـلَيْكَ بِأَنْ تَرَى ... لِمَنْ لاَ يَرَى حُـبا كَـحُبكِ عَاصِـيَا

وَمَنْ لِصِغَارٍ مِـنْ عِيَالٍ تَرَكْتَـهُمْ ... كَزُغْبِ القَطَا يَبْغُونَ طَـعْمًا وَسَاقِيَا

وَإنْ يَجِدُوا لِلْعَـيْشِ بَعْـدَكَ لَـذةً ... وَإنْ يَشْرَبُوا مِنْ بَعْدِكَ المَاءَ صَافِيَا

فَقُلْتُ لَهَـا : إِن الذِي لَيْسَ غَيْرُهُ ... إِلَهٌ كَفَـاهُـمْ حَافِـظًا وَمُـرَاعِيَـا

وَحَسْبِي بِهِ مُسْـتَخْلَفًا وَمُصَاحِبًا ... أَمَامِـيَ مَـحْفُوظًا بِـهِ وَوَرَائِـيَا [1]

يصف حال زوجته لما آب من سفره ، وقد بكت وشكت له ألم الفراق وشدة شوقها إليه ، وما لبث هو أن أسبل دموعه أيضا لكنه لم يكن بكاء حقيقيا بل كان تباكيا حتى يخفف عنها حرقة الوجد ، وهي تلومه على طول غيابه بينما هنا من يحزن على فراقه ، فكأنها تنظر إلى زوج الحطيئة لما عزم على السفر وقال لها : [من الكامل]

عُدي السِنِينَ لِغَيْبَتِي وَتَصَبرِي ... وَدَعِي الشهُورَ فَإنهُن قِصَارُ

فقالت له : [من الكامل] :

اذْكُرْ صَبَابَتَنَا إِلَيْكَ وَشَوْقَنَا ... وَارْحَمْ بَنَاتِكَ إِنهُن صِغَارُ [2]

والزوجة تسدي النصح له وتقول إن زمن الصبا والطيش والتشرد مع الفتيان والشذاذ الصعاليك في القفار قد ولى بلا رجعة لأنه كبر على هذا النزق وهذه الأفعال ، ويبلغ غضبها أوجه إلى أن تعتبر سلوكه "عارا" على رجل مسؤول عن عيال جياع كزغب القطا ينتظرون من يملأ بطونهم الخاوية ، ثم تخفف من نبرة حديثها القاسية وتؤكد له أن لا هناءة لها ولأبنائها أن حدث له مكروه أو نكبته الحوادث في بعض الديار القاصية التي يؤمها ويقصدها ، وهذا ما يدل على مقدار حب الزوجة لزوجها << ويتجلى هذا الحب في أن الزوجة كانت تعظم فجيعتها في زوجها أكثر من فجيعتها في أخيها وخالها ... ومهما

---

[1] ابن رشيق : الأنموذج ، ص266 .

[2] الميداني : مجمع الأمثال ، ج2 ، ص226-227 .

تكن المرأة كلفة بالشجاعة والبطولة فإنها لابد أن تتخوف على زوجها الردى ، لئلا تحرم حمايته وإعزازه وعشرته ، ولئلا تترمل وييتيم بنوها >> [1] .

ولكن الشاعر بعد هذا العتاب الطويل والعذل القاسي لا يلين له جانب ولا تخضع له جارحة أو يحنو له كبد ، ويجيبها بأن هؤلاء الأولاد سيحفظهم ا << **فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الراحِمِينَ** >> [2] .

والزوجة نالت حظها من المدح والثناء ، فالشعراء أثنوا على خصالها الحميدة ، وتفجعوا لفقدها وأسفوا لفراقها حينما تخطفتها المنون ، ولابن الأبار قصيدة يرثي فيها زوجته ، يقول منها : [من الطويل] :

رُوَيْدَ اللَيـالِي كَمْ تُصِر عَلى الغَدْرِ ... أَتَجْـهَلُ إِتْلافَ الـنفَائِسِ أَمْ تَـدْرِي ؟

تَدِب بِفَجْعِ الخـلِ بِالخـلِ دَائِـبًا ... وَتَسْرِي لِشَتَ الشمْلِ فِي السر وَالجَهْرِ

وَمَا أَنْشَبَتْ فِي ضَيْغَمِ الغَابِ نَابَـهَا ... فَأَفْلَـتَهَا يـَوْمًا وَلاَ ظَـبْيَةَ الخـِدْرِ

فَيا لَيْتَـهَا وَالهَجْرُ مُـودٍ بِوَصْـلِهَا ... كَفَتْنَا سُرُورَ الوَصْـلِ أَوْ حَزَنَ الهَجْرِ

وَيَا لَيتـَهَا كَانَتْ كَأَشْعَبَ فِـي الذِي ... تَعَلّـَمَ دُونَ الطي مِـنْ صَنْعَةِ النشْرِ

فَلَمْ يَسْتَفِدْ أُلْفَ التهـَدي إِلَى الأَذَى ... وَلَمْ يَعْتَمِدْ عُـنْفَ التصَدي إِلَى الضرِ

لَقَـدْ أَثْكَلَتْنِـي حُلَّـةٌ ظَعَنْـتُ بِـهَا ... وَلَكِنْ أَقَامَتْ بَـعْدَهَا لَوْعَـةُ الصدْرِ

ذَوَتْ غُصْنًا ، مَاءُ النعِـيمِ يُمِيـلُهُ ... بِمِلْءِ الحَـشَايَا وَالحَشـَا وَقْدَةَ الجَمْرِ

وَأَسْلَـمَـهَا الجَيْشُ العَـرَمْرَمُ لِلردَى ... كَأَنْ لَمْ تَكُنْ أَحْمَى مِـنَ النجُمِ الزهْرِ

يُـذَكرْنِيهَا [3] الشمْسُ وَالبَدْرُ كُلَـمَا ... رَمَيْتُ بِلَحْظِي طَـلْعَةَ الشمْسِ وَالبَدْرِ

هَـوَتْ فِي الثرَى وَهْيَ الثرَيا مَـكَانَةً ... فَلَهْفِي لِمَـا سَاءَ الهَـوَى آخِرَ الدهْرِ

حَنِينِـي لأَجْـدَاثٍ أَطَاقَـتْ بِرَسْمِـهَا ... كَأَصْدَافِ دُرٍ لَمْ تَرُمْ سَاحِلَ البَحْرِ [4]

وَحَجي إِلَيْهَا وَاعْتِـمَارِي جَعَـلْتُهُ ... وَذَاكَ لَعَمْـرِي مُنْتَهَى شَرَفِ العُمْرِ

أُعِدْ نَظَرًا فِيمَا دَعَانِي إِلَى الأَسَـى ... وَمَا عَادَنِي فِـي عِيدِ الفِطْرِ وَالنحْرِ

تَجِدْنِيَ مِـنْ مِيـقَاتِهـَا يَا لـِـيَوْمِهَا ... مُهِلًا ، وَلَكِـنْ بِالمَرَاثِي مِنَ الشعْرِ

---

[1] د. أحمد محمد الحوفي : المرأة في الشعر الجاهلي ، ص215 .

[2] يوسف : 64 .

[3] في الديوان : "يذكر فيها " ، ولعل الصواب ما أثبتناه .

[4] في الديوان : " أحداث " ، ولعل نقطة الجيم سقطت من الطبع .

وَقَاذِفَ دَمْـعٍ كَالجِـمَارِ مُـ ـوَرِّدًا إِذَا مَا أَفَاضَ النَّاسُ فَاضَ عَلَى النَّحْرِ
وَلاَ تَلُـمْنِي أَنْ حَـلَلْـتُ مُقَـضِّـيًا مَنَاسِكَ أَشْجَـانِي وَضَـحَّيْتُ بِالصَّبْرِ
فَقَلْبِـيَ لَـوْ رَامَ الـسلُـو ثَنَيْتُـهُ عَنِ القَرِّ مَا بَيْنَ الضُلُوعِ إِلَى النَّفْرِ [1]
وَفَـاءً بِـعَهْدٍ لاَ أُخِـلُّ بِحِفْـظِهِ إِلَى عَرْصَةِ الأَمْوَاتِ فِي عَرْصَةِ الحَشْرِ[2]

إن هذه الأيام تصر على الغدر بمن هادنها وسالمها ، وهي تذهب بكل حسن ونفيس ، ويتساءل الشاعر : أكان ذلك عن قصد منها وعلم؟ ، إنه ينكر عليها هذا السلب لمهج البشر بغير إذن أو رضى أو استشارة ، ولا يكاد يمر يوم إلا وتحل الفجائع بأهل المرء وولده وخلانه ، فأصبح لا ينام إلا وهو خائف من بطش الحتوف ، والموت لم يخص بالبشر وحدهم بل يشمل حتى الوحوش في البرية التي تسببت في موت الإنسان وهاهو الدهر يعاجلها بالمنية أيضا ، وتلك الحسناء الممنعة في خدرها ويحيط بها الحرس والعسس مانعين كل طامع أو مستشرف إليها ، هذه الحسناء لم يشفع لها حسنها ولم تفدها كثرة الحرس ولا جلادهم في تجنيبها الموت ، فتخطفتها المنون في ربيع العمر زهرة مفتحة لم تذبل بعد .

والشاعر يأسف لأن هذه الأيام الغادرة والمنون القاهرة لم تسعفه –على ألمه- بوصل زوجته ، ولا استمهلته حتى يقضي بعض أيام الأنس معها وهو الذي طالما انتظر اللحظة التي يلتئم فيها شملهما بَعد طول انتظار وبُعد مزار، إذ ما كاد يلم بها حتى تداعى الهجر وأرجف الزمان وعم الكرب والبلاء فلا ترى في الكون إلا شحوبا ، وليت هذه الأيام كانت كأشعب الطفيلي الذي يغشى الولائم والموائد بالتلطف والحيلة وحسن الحديث والفكاهة ، يعرف كيف يلجم أصحاب الوليمة رغم أنه ليس بذي حق ، فليت الأيام كانت مثله في تلطفه لكنها عكس ذلك تماما ، فهي تبطش وتفتك بلا رحمة أو هوادة وهذا ما يزيد الإنسان بغضا لها ، والموت لا يهتم برضى أو سخط الناس وكأن الشاعر يردد قول أبي ذؤيب الهذلي : [من الكامل] :

أَمِنَ المَنُونِ وَرَيْبِهَا تَتَوَجعُ وَالدهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ [3]

---

[1] القر هنا بمعنى الاستقرار والثبات ، من القرار .
[2] ابن الأبار : ديوان ابن الأبار ، ص209-210 .
[3] ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ج1 ، ص103

ولقد أفقدته زوجته التي كانت تشد على عضده وتبهج أيامه وترد عنه غوائل دهره فبات حزينا لا يقر له قرار ولا تستقر به أرض أو يلين له جنب ومضجع ، ولم تكن هذه الزوجة مستعجلة الموت مثل سائر العجائز اللائي ذهبت صحتهن واعتورهن المرض وأقعدهن الجهد ، بل إنها كانت في ريعان الشباب غصنا مورقا وهذا ما يزيد من لوعة الزوج ويؤجج الأسى في قلبه ، وهو يعجب كيف أن هذه المرأة قبرت في الأرض وهي بمنزلة الأنجم الزهر في أعلى السماء ، وهل يستطيع النجم إلا أن يكون بعيد المنال ؟ لا يرضي إلا بالعلا مكانا يحتله .

وقد غرق في بحر من الأسى والجزع ، فما تشرق شمس أو يطلع قمر إلا وذكر زوجته الفقيدة ، ويؤكد أنه لا يزال غير مصدق بأن الثريا نزلت من موضعها السماوي المشع لتحل بين أطباق الثرى ، فأي زمان هذا الذي تزاحمت فيه الأضداد وقبر فيه الأنجاد ؟ ، غير أن نزول "الثريا" كان نعمة للأجداث التي أحاطت بها في المدفن وقد ربت على باقي القبور والمدافن ذلك أنها تضم رفات هذه المرأة الجليلة وإذ أم يكن نزال تلك القبور في مكانتها وسموها .

والشاعر يجعل حجه واعتماره لقبرها الذي تتساوى قداسته وشرف مكانه مع البقاع المقدسة بمكة والمدينة في الحجاز ، ولكن فرح الناس بعيدي الفطر والنحر يقابله حزن وترح لديه ، والشاعر يمزج مزجا رائعا بين ما يقوم بها الناس في شعائر الحج وبين ما يقوم به هو في حجه عند قبرها ، فإذا قذف الحجيج الجمرات في العقبة قذف هو دمعه المورد على جوانب القبر ولكنه ليس رجما بالحجارة بل مدد من الدموع الموردة ، وإذا ما أفاض الناس حول البيت المحرم "فاض" دمعه هو على النحر ، ثم "يتحال" الشاعر من حجه ويضحي "بالصبر" عوض الأضحية المعروفة عند نقصان شعيرة الحاج في مكة ، وهو يتبع هذه الشعائر مرارا وذلك وفاء بعهد قطعه على نفسه ألا يبرح قبرها أمد الدهر . ويلاحظ أن سمات التجديد غلبت على معاني الشاعر وإن كان ذكر الحج حاضرا في رثاء الزوجات قديما ، كما نجد ذلك عند جرير حينما رثى زوجته بقوله : [من الكامل] :

صَلى المَلائِكَةُ الذِينَ تُخُيـرُوا　　　وَالصالِحُـونَ عَلَيْكِ وَالأَبْـرَارُ

وَعَلَيكِ مِنْ صَلَوَاتِ رَبكِ كُلمَا　　　نَصِبَ الحَجِيجُ مُلَبدِينَ وَغَارُوا [1]

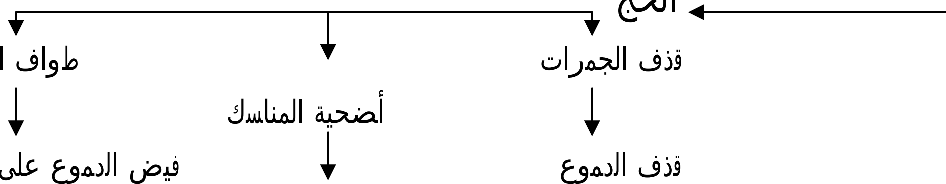
---

[1] نصب : قصد وتعب . التلبيد : أن يجعل المحرم في رأسه شيئا من صمغ ليتلبد شعره .

- جرير : ديوان جرير ، ص 241 .

ولكن معاني ابن الأبار تعمقت في مظاهر الحج لتمزج بين عظم المقامين ، ولا بد أن نشير إلى أن الخيال هو الذي يعطي هذه الصور المركبة ، ويجب أن تمزج قوة الخيال أو التخييل بحرارة العاطفة وصدق التجربة الشعورية ، والخيال ليس << مجرد تصور أشياء غائبة عن الحس ، إنما هو حدث معقد ذو عناصر كثيرة يضيف تجارب جديدة ، إن التجربة الأولى ليست إلا بذرة تعطي فرصة الدخول في أجواء بعيدة وقريبة من أجل أن تجرى عليها صفة التفكيك تلك ، وإعادة التنظيم والبناء والدخول في مجالات كثيرة مغايرة حتى تغدو تلك التجربة الأولى مجرد مناسبة >> [1] .

ومن هنا جاز أن نعتبر قراءة أبيات جرير وعقد الصلة بين رثاء الزوجة وحدث الحج تجربة أولى ، استغلها ابن الأبار لتعطيه فرصة الدخول إلى أجواء بعيدة وفق ما يلي :



إنها إسهامات مغربية خالصة في عالم الشعرية العربية ، ولعل حكم النقاد على الشعر المغربي بالتبعية والتقليد للشعر المشرقي لا يستقيم أمام هذه الإضافات الجديدة في عالم الخيال الشعري .

---

[1] د.مصطفى ناصف : الصورة الأدبية ، ص 18 .

- صورة البنت :

للبنت منزلة لا تقل عن منزلة الزوجة أو الأم ، وإن كنا لا نعثر على نصوص شعرية ذات بال في هذا الموضوع .

وللفقيه محمد الصنهاجي [1] يعزي الفقيه أبا القاسم محمد بن أبي زكريا الأندلسي في بنت توفيت له ، فيقول : [من المتقارب] :

تَأس أَبا القَاسِمِ فِي الذِي ... أُصِبْتَ بِهِ مِنْ مَمَاتِ البَنَاتْ

بِقَوْلِ النبِي عَلَيْهِ السلامُ ... دَفْنُ البَنَاتِ مِنَ المَكْرُمَاتْ [2]

وهو يدعوه إلى الصبر على فقد هذه البنت ، وأن يحتسب ثوابها عن ا ، ويسوق حديثا منسوبا للنبي -صلى ا عليه وسلم- مضمنا في عجز البيت الثاني " دفن البنات من المكرمات " ليسليه عن مصابه ، وإن كان هذا الاستشهاد في غير محله ولا يحمل القيم الإسلامية ، بل يحمل الأفكار الجاهلية الذين كانوا يئدون البنات مخافة أن يكبرن فيجلبن العار لأهلهن .

ولعل هذا الحكم كان شريعة في عرف الأقدمين ، وقد عدد عبيد ا بن عبد ا بن طاهر وسائل الستر التي يرجوها كل أب لابنته ، وفضل القبر عليها جميعا في قوله :

[من الطويل] :

لِـكُل أَبِي بِنْتٍ يُـرَجى بَقَاؤُهَا ... ثَلاثَةُ أَصْهَارٍ إِذَا ذُكِرَ الصهْـرُ

فَبَيْتٌ يُغَطيهَا ، وَبَعْلٌ يَصُونـُهَا ... وَقَبْرٌ يُوَارِيهَا ، وَخَيْرُهُمُ القَبْرُ [3]

لا يمكن أن تعبر مثل هذه النماذج الشعرية عن نظرة الرجل أو الأب للبنت ، ونحن نعلم كيف قلب الإسلام نظرة الأب لابنته حيث رغبه في العناية بها ووعده الثواب الجزيل إن هو قام بشأنها وتعهدها بالصون والحفظ والرعاية .

ولابن حمديس مرثية رائعة في بنت له توفيت تبين بحق المكانة التي حظيت بها البنت لدى الرجل المغربي ، يقول : [من الطويل] :

فَـيَا غَرْسَةً لِلأَجْرِ كُنْـتُ نَقَلْتُهَا ... إِلَـى كَنَفِي صَـوْنًا وَأَلْحَفْتُهَا ظِلي

---

[1] **محمد الصنهاجي** : الأستاذ النحوي المقرئ محمد بن محمد بن محمد بن داود الصنهاجي ، وهو ابن صاحب الآجرومية المشهورة في النحو ، وكان حافظا للطريقتين التاريخية والأدبية ، توفي سنة 772هـ .

- محمد رضوان الداية : أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن ، ص416 .

[2] ابن الأحمر : نثير الجمان ، ص425 .

[3] د. أحمد محمد الحوفي : المرأة في الشعر الجاهلي ، ص292 .

وَأَنْكَحْتُهَا مِنْ بَعْدِ صِدْقِ حَمِدْتُـهُ كَرِيمًا فَـلَمْ تَذْمُـمْ مُعَـاشَرَةِ البَعْل

أَتَانِي نَعِي عَنْكِ أَذْكَى جَوَى الأَسَى عَلَي اشْتِعَالَ النارِ فِي الحَطَبِ الجَزْلِ

وَجَاءَكِ عَني نَعْيُ حَي فَـلَمْ يُجِزْ اكِ الكُحْلُ فِـيهِ مَا لَبِسْتِ مِنَ الكُحْلِ

عَلَى أَن أَسْمَاعَ البِلادِ تَسَامَعَـتْ بِهِ وَهْوَ يَجْـرِي بَيْنَ أَلْسِنَةِ السبْلِ

فَنُحْتِ عَلَى حَي أَمَاتَ شَـبَابَهُ زَمَـانُ مَشِيبٍ لا يُـجَدِدُ مَا يُبْلِي

فَمِت بِمَا شَـاءَ الإِلَهُ وَلَمْ أَمُتْ لِيَكْتُبَ عُمْرِي مِنْ حَيَاتِي الذِي يُمْلِي

وَفَارَقْتُ رُوحًا كَانَ مِنْكِ انْتِزَاعُهُ أَدَق دَبِيبًا فِي الجُـسُومِ مِـنَ النمْلِ

أَرَانِي غَرِيبًا قَدْ بَكَيْتُ غَرِيـبَةً كِلانَا مَـشُوقٌ لِلْمَـوَاطِنِ وَالأَهْـلِ

بَكَتْنِي وَظَنتْ أَنني مِـت قَبْـلَهَا فَعِشْتُ وَمَاتَـتْ وَهْيَ مَحْزُونَةٌ قَبْلِي

أَقَامَتْ عَلَى مَوْتِي الذِي قِيلَ مَأْتَمًا وَأَبْكَتْ عُيُـونَ الناسِ بِالطلِ وَالوَبْلِ [1]

وَكُل عَلَى مِـقْدَارِ حَسْرَتِهِ بَكَـى عَلَي وَلاقَى مَـا اقْتَضَاهُ مِـنَ الشكْلِ

أَسَاكِنَةَ القَبْرِ الذِي ضُـم قُـطْرُهُ عَلَى البِر مِنْـهَا وَالدِيَانَةِ وَالفَـضْلِ

أَصَابَكِ حُزْنٌ مِنْ مُصَابِي قَاتِـلٌ فَهَلْ أَجَلٌ لاقَاكِ قَدْ كَانَ مِنْ أَجْـلِي؟

وَخَلفْتِ فِي حِجْرِ الكَآبَةِ لِلبُـكَى بَنَاتٍ لأم فِـي مُـفَارَقَةِ الشـمْـلِ

يُرَيْنَ كَأَفْرَاخِ الحَمَامَةِ صَـادَهَا أَبُو مِلْحَمٍ فِـي وَكْرِهِ كَأَبِي الشـبْلِ [2]

بَكَتْكِ قَوَافِي الشعْرِ مِنْ غُزْرِ أَدْمُعٍ بُكَاءَ الحَمَامِ الوُرْقِ فِي قُضُبِ الأَثْلِ [3]

وَكُل مَهَاةٍ حَـوْلَ قَبْرِكِ بِالفَـلا لِمَا بَيْـنَ عَيْنَيْهَا وَعَيْنَيْكِ مِنْ شَكْلِ

فَرَوى ضَرِيحًا مِنْ كِفَاحٍ عَن الثرَى لَهُ وَابِـلٌ بِالخِصْبِ مَـا خُط بِالمَحْلِ [4]

أَيَا رَب إِن الخَلْـقَ لا أَرْتَجِيهُمُ فَكُـل ضَعِـيفٍ لا يُمِـر وَلا يُحـْلِي

بِحِلْمِكَ تَعْفُو عَنْ تَعَاظُمِ زَلتِـي وَفَضْلِكَ عَنْ نَقْصِي وَحِلْمِكَ عَنْ جَهْلِي [5]

إن هذه البنت كانت غرسا صالحا يورق ويثمر الأجر ، وقد تعهدها بحسن المعاملة والتنشئة الصالحة ، ثم زوجها كريما فلم تشك ضيق العيش أو تذمم معاشرة البعل على عادة النساء ، وإذا بالناعي ينعى إليه خبر موتها فانقلبت مسرته حزنا ، وفرحه أسى

---

[1] الطل : المطر الضعيف . الوبل : المطر الغزير .

[2] أبو ملحم : النسر . أبو الشبل : الأسد .

[3] الأثل : شجر يكثر قرب المياه .

[4] المحل : انقطاع المطر ويبس الأرض .

[5] ابن حمديس الصقلي : ديوان ابن حمديس ، ص365-366-367 .

وحرقة لاسيما أنه كان قد بلغ الثمانين من الغمر ولم يعد يقوى على احتمال المصائب ، وكانت هي نفسها تظن قبل موتها أنه مات لطول مقامه بمصر [1] .

غير أن النبأ المزعوم بموته قبل ذاك كان أكثر وقعا في نفس البنت البارة ، فلم تتزين ولم تكتحل بعدها حتى قبضها ا إلى جواره ، ولم يكن نبأ النعي ليخفى على أحد فقد تسقطته الآذان وتسامعت به أطراف البلاد ، وجرى في ألسنة السفر المصبحين والمدلجين ، وهو يرثي لحاله وحال ابنته ، فقد فرقت بينهما الأيام بعدما كانا مجتمعين في صقلية ، إذ ذهب هو إلى مصر وبقي هناك قصيا غريبا ، وأقامت هي في القيروان وماتت بها ، فالغريب يبكي الغريب وكلاهما مشتاق لوطنه ولقاء أهله .

ثم يقول إن البنت لما سمعت –كذبا- بموته أقامت مأتما وظلت تنتحب حتى رقت لها قلوب الحاضرين من المشيعين فما عهدوا بنتا تبكي هذا البكاء الحار على أبيها ، ويرى أن سبب موتها كان من فرط ذاك الحزن ، فماتت حسرة وألما وتركت بناتها الصغيرات لوحدهن فتفرق شمل الأسرة ولم يعد زوجها يدري ما يصنع حيال أمر الأولاد ، فهؤلاء كأفراخ الحمائم لا يستطيعون حيلة وتكاد المنون تتخطفهم لولا لطف ا .

وقد رثى الفقيدة جمع من شعراء القيروان لما لها من فضل على الناس ، وحتى الحيوان الذي لا يعقل بكى عليها وأسف لها لأنها كانت محسنة إليه أيضا .

ولابد لنا أن نتقصى نفسية الشاعر المتقلبة بين أبيات القصيدة ، وقد اخترنا جانب العروض لنلج إلى مختلف الظواهر النفسية التي لا تبدو من خلال القراءة السطحية والعابرة ، وإذا كانت العروض القديمة تتوقف عند حد التقطيع الصوري للأبيات وتبيان مدى استقامة الوزن من اختلاله ، فإن الدرس العروضي الجديد ينطلق من آخر ما يتوصل إليه الدرس القديم ، أي انطلاقا من الزحافات والعلل التي تطرأ على التفعيلات ليسبر أغوار النفس عبر جملة من المعطيات يمليها أساسا هذا الحذف أو تلك الزيادة .

وأبيات القصيدة من بحر الطويل، وقد مس تفعيلات الأبيات زحاف واحد وهو القبض[2]

---

[1] د. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، ج9 ، ص406 .

[2] القبض : خلاف البسط ، والقبض في زحاف الشعر : حذف الحرف الخامس الساكن من الجزء .

- ابن منظور : لسان العرب ، ج11 ، ص10-11 .

وقد تم حساب تواجد الزحاف في كل بيت ومن ثمة تقسيم الأبيات إلى دوائر عروضية حسب درجة كل زحاف فيها ، والذي نجده :

الدائرة	الأبيات	عدد الزحافات في البيت الواحد
1	11 - 19	1
2	2 - 3 - 10	2
3	1 - 5 -8 -9 - 13 - 14 - 15 - 17 -18 - 20	3
4	4 - 7 - 12 - 16	4
5	6 - 21	5

فالأبيات التي يقل فيها الزحاف تعبر عن أريحية نسبية للشاعر وسط الجو الجنائزي في مقابل الأبيات التي يكثر فيها والمعبرة عن رغبة في التخلص من الفكرة أو الحالة الشعورية الراهنة .

ونجد مثلا في البيت الحادي عشر ارتياح الشاعر لأن البنت أثبتت حبها له فأقامت مأتما عليه وها دليل على وفائها وتقديرها لجهد الأبوة ، وينبسط لدوام سقوط المطر على قبر البنت أو هكذا يتمنى على الأقل ، فاتصال الحزن ودوام سقوط المطر يقابله امتداد في التفعيلات .

أما في البيت الثاني والثالث عشر فقد بدأت نفسية الشاعر وحالته بالانقباض ، وأطبق الحزن عليه منذ سمع بنعيها من جهة ، ومنذ أن سمعت هي أيضا بإشاعة خبر موته ، ولهذا بدأ إيقاع الأبيات يتسارع شيئا فشيئا .

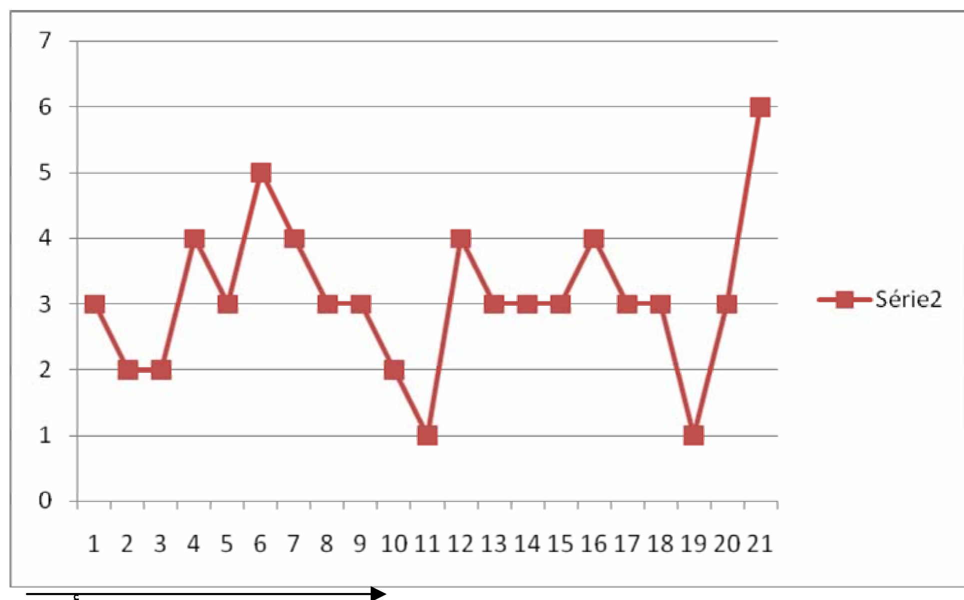
وفي غالب الأبيات التي ضمت ثلاثة زحافات فإن الشاعر يتحدث تباعا عن حاله بعدما بلغه خبر نعيها ، فإذا الحال قد ساءت ، والكرب قد عم ، والأفق اسود ، والكون ادلهم ، والأمل قد ارتد صريعا فلا حاجة للبقاء بعد أن ذهب الذين كانوا له سندا وإن في خياله ووجدانه .

ونجد الإيقاع الوزني يتسارع أكثر في البيت الرابع والسابع والثاني عشر والسادس عشر ، وفيه يبلغ التأزم النفسي مرحلة ما قبل الذروة ، حيث إن الشاعر يتحدث عن حالة البنت التي فجعت بوالدها فلم تستقر على حال ولم يهدأ لها بال فهي وجلة ذاهلة تتسارع عندها الأفكار وتعتريها الخشية مما سيكون من الأيام المقبلة ، وكذلك في البيت السابع حيث يتحدث الشاعر عن سرعة انتشار خبر موته المزعوم ، والشيء نفسه بالنسبة لأبناء وبنات

الفقيدة الذين أسرع إليهم اليتم ، وداهمتهم المكاره والخطوب تريد الفتك بهم بعد أن فقدوا حاميهم وسندهم في الملمات.

ويبلغ التسارع ذروته حين يتحدث الشاعر عن مظاهر حزن البنت على أبيها وسرعة انهمار الدموع من العينين ، وسرعة اللطم والضرب على الصدر حيال خبر الفجيعة ، وكذلك في البيت الأخير الذي يعبر عن رغبة في التخلص سريعا من الذنوب والآثام التي ارتكبها عبر التوبة النصوح خاصة وأنه على مشارف الموت .

وإذا فالحالة النفسية هي التي تتحكم في مكونات القصيدة من قوة التركيب وعمق الدلالة أو ضعفه وسطحيتها ، والوزن والقافية يخضعان أيضا لهذه لقوة المسيطرة على مفاتيح النص الشعري ، لذلك يقول الشاعر محمد مجذوب << أصبحت مقتنعا بأن اختيارهما إنما يرجع إلى عمل الموجة نفسها أكثر مما يرجع إلى إرادة الشاعر >> [1]



الأبيات

ويكشف الرسم درجة التوتر والاضطراب الكبيرة التي عاناها الشاعر ، فهو لا يكاد يهدأ إلا وينفر من جديد ، ولم تفلح "المسكنات" التي اعتمد عليها (الرضا بقدر ا ، احتساب الأجر عند ا) في إدخال السرور إلى قلبه وتهدئة ثائر أعصابه ، إذ نجد الجو النفسي المشحون يطرد متصاعدا في آخر القصيدة ، وهذا يدل على عظم مصاب الشاعر في ابنته والذي لم يجد له عزاء حتى في درر الشعر التي نظمها فيه ، وحتى هذه الأخيرة

---

[1] د. مصطفى سويف : الأسس النفسية للإبداع الفني ، في الشعر خاصة ، ص241 .

زادته أسى وحسرة لأنها تذكره بصفاتها وخلالها وذلك ما انطبع في وجدانه ولا يكاد يبارحه البتة .

- صورة العمة :

و لابن حمديس قصيدة في رثاء عمته التي توفيت بسفاقس (تونس) ، وبعد مقدمة حكمية طويلة تتناول قضية الموت والفناء ، وهذا المارد الذي سطا على أرواح البشر فسلبها من أجساد مالكيها دون أن يجد هؤلاء وسيلة لإبعاده أو حيلة للفكاك منه ، ونحس من خلال حديثه وكأنه يرثي الإنسانية جمعاء فيذكر مصرع الجبابرة والأقدمين ويخلص إلى العبرة من ذلك وهو أن الموت كان يبدو وكأنه عدو البشرية الأوحد ، ولكنه في الحقيقة متنفسها الوحيد بعد أن تضيق الحال وتشتد الكروب و يكثر الظلم ، فالموت راحة من هذه المتاعب أو كما قال المعري :

ضَجْعَةُ المَوْتِ رَقْدَةٌ يَسْتَرِيحُ فِيهَا الْمَرْءُ وَالعَيْشُ فِيهَا مِثْلُ السهَادِ [1]

ينتقل ابن حمديس بعدها إلى الرثاء الخالص للعمة فيقول : [من الطويل] :

سَقَى اللهُ قَبْرًا ثَاوِيًا بِسِفَاقِس سَوَاجِمَ يَرْضَى التُرْبُ فِيهَا عَن السحْبِ [2]

فَقَدْ عَمهُ الإِعْظَامُ مِنْ قَبْرِ عَمةٍ أَنُوحُ عَلَيْهَا بِالنحِيبِ إِلَى النحْبِ [3]

بِدَمْعٍ يَمُد البَحْرُ فِي السيفِ نَحْوَهُ يَدًا الحُزْنُ مِنْهُ وَاصَلَ السكْبَ بِالسكْبِ [4]

وَلَوْ آمَنُ الإِغْرَاقَ أَضْعَفْتُ سَحهُ وَلَكِن قَلْبِي الرطْبَ رَق عَلَى قَلْبِي [5]

بِرَغْمِي نَعَتْهَا أَلْسُنُ الركْبِ لِلْعُلَى فَكَيْفَ أَرُد النعْيَ فِي أَلْسُنِ الركْبِ

غَرِيبَةُ قَبْرٍ عَنْ قُبُورِ بِأَرْضِهَا مُجَاوِرَةٌ فِي خُطةِ الطعْن وَالضرْب

كَرِيمَةُ تَقْوَى فِي صَلاةٍ تُقِيمُهَا وَصَوْمٍ يَحُط الجِسْمُ مِنْهُ عَلَى الجَدْبِ

زَكَتْ فِي فُرُوعِ المَكْرُمَاتِ فُرُوعُهَا وَأَنْجَبَتِ الدنْيَا بِآبَائِهَا النجْبِ

وَلما عَدِمْنَا مِنْ بَهَالِيل قَوْمِهَا مَآتِمَ تَبْكِيهَا بَكَيْنَا مَعَ الشهْبِ [6]

---

[1] أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ص112 .

[2] السواجم : سجمت العين أو السحابة الماء : أسالته وصبته .

[3] النحيب : البكاء الشديد . النحب : الموت ، يقال : فلان قضى نحبه :أي مات .

[4] السيف : ساحل البحر أو كل ساحل .

[5] سحه : سيلانه وانصبابه الغزير .

[6] البهاليل : جمع بهلول وهو السيد الجامع لكل خير .

حَمِدْنَا بُكَـاءَ الزهْرِ بِنْـتِ مُحـَمدٍ وَهَلْ نُدِبَـتْ إلا ابْـنَـةَ السَّـيِدِ النَدْبِ

مَضَتْ وَلَهَا ذِكْرٌ مِنَ الدين وَالتقَـى تُـفَسـرُهُ لِلْعُـجْـمِ أَلْسِنَـةُ الـعُرْبِ

أَيُصْبِحُ قَلْبِي بِالأَسَى غَـيْرَ ذَائِـبٍ وَقَلْبُ الثرَى قَاسٍ عَلَـى قَلْبِهَا الرطْبِ

وَكُنْتُ إِذَا مَا ضَاقَ صَدْرِي بِحَادِثٍ فَزِعْتُ بِنَجْوَاهُ إِلى صَـدْرِهَـا الرحْبِ

وَتُذْهِبُ عَنـي هَـم نَفْسِي كَأَنـهَا شَفَتْ غُلةَ الظمْآن بِالبَـارِدِ العَـذْبِ [1]

وهو يدعو لقبر العمة بالسقيا ووابل المطر حتى ترتوي الأرض المجدبة بماء المزن ، وقد كانت قفرا قبل حلول جسد الفقيدة بها ولكنها ستحيا اليوم لأن الدفين كان سخيا كريما فيجب أن تبكيه السحائب دائما وهو في ثرى الأرض ، وحق أن يعلو نحيب الناس وهم يقفون على هذا القبر .

ولو أن ساحل البحر بكى لفقدها وأعوزته الدموع لأمده البحر حتى تظل الدموع تسكب أمد الدهر ، وهذا يدل على عظم الفجيعة بفقد العمة .

وإن الأرض لم تعد تقوى على استيعاب مياه السحائب والبحر لذلك وجب أن يضعف السيلان حتى لا يغرق القبر بالباكين من حوله ، وقد طار خبر نعيها في الأقطار ، وسارت بذكر مناقبها الركبان ، و الشاعر لا يريد تصديق خبر موتها فهو يحاول صد الركب عن نشر هذا الخبر "الكاذب" ولكن لن ينفع حذر من قدر ، فشهرة المرأة كانت أسبق من عزيمته ولم يستطع رد ألسنة الركب إلى جحورها ، وانطلق النبأ المزلزل ليضرب الآفاق ، ولتلبس الإنسانية ثوب الحداد , ويدلهم الأفق وتتلبد السماء ،ويبكي الطير والحيوان والإنسان .

وبما أنها توفيت بسيفاقس وكانت أرض أهلها بصقلية فقد ماتت غريبة قصية عن وطنها إلا أنها ما فتئت تجاهد في سبيل ا وتضرب أعداء الأمة بالمشورة والحزم ، ويزين ذلك تقوى ظاهر وورع كبير يتجسد في الصلاة التي تقيمها لوقتها ولا تفوتها بحال ، وصوم دائم حتى اعتل الجسد ونحل ولم يعد يقوى على احتمال مزيد من جهد الصيام المتواصل .

وإنها لمن فرع أصيل ومحتد كريم لهذا كانت أما للبشرية وأما للأولاد النجباء الصالحين خاصة ، فالخلف يتبع السلف وليس ينجب الكريم إلا الكريم ، ولما توفتها المنون غريبة ولم يقم قومها الأجواد مأتما لها ولم تندب النادبات عليها ، اضطر الشاعر لأن يقيم العزاء

---

[1] الغلة : العطش الشديد .

- ابن حمديس الصقلي : ديوان ابن حمديس ، ص35-36 .

ثلاثة أيام كان يبكي فيها الفقيدة بكاء حارا ، وهذا البكاء محمود لأن المبكي عليه له منزلة جليلة ، فالعمة تضاهي السيدة فاطمة بنت محمد رسول ا – عليه الصلاة والسلام- في أخلاقها وورعها وسيرتها العطرة المحمودة ، وقد مضت إلى جوار ربها بعدما أسرت الألباب فكانت العرب تروي مآثرها للعجم الذين وصلتهم أصداء سيرتها من الركب فجاءوا يقتفون أثرها وقد صدق الخُبْر الخَبَر.

والشاعر يأسى لأن باطن الأرض لا يرحم جسد الفقيدة ، فماهي إلا أيام حتى ينخر الدود العظام ويبلي ذلك الحسن وتندثر تلك المعالم المنيرة ، وفت في عضده رؤية هذه النهاية وهو لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلا،وكانت جوانحه تتقد وقلبه يحترق فلا يقر له قرار ولا تستكين له جارحة،ويعظم فيها صدرها الرحب وحسن تدبيرها وسعة حلمها،فكلما ضاقت الدنيا عنه لجأ إليها فأزالت همه وكشفت كربته وأوسعت ما ضاق من حاله .

ثم يتحدث الشاعر عن اليوم الذي قبرت فيه ويعزي ابنها أبا الحسن فيقول :

فَيَا لَيْتَنِي شَاهَدْتُ نَعْشَكِ إِذْ مَشَى حَوَالَيْهِ ، لا أَهْلِي حُفَاةً وَلا صَـــحْبِي

وَدَفْنَكِ بِالأَيْدِي الغَرِيبَةِ وَالْتَقَـتْ مَعَ المَوْتِ فِي إِخْفَاءِ شَخْصِكِ فِي حَدْبِ [1]

فَأَبْسُطَ خَدِي فَوْقَ لَحْـدِكِ رَحْمَةً وَتُسْقِي عَلَيْهِ التربَ عَيْنـايَ بِالهـُدْبِ [2]

أَرَى جِسْمَكِ المَرْمُوسَ مِنْ رُوحِهِ عَفَا وَأَصْبَحَ مَعْمُورًا بِهِ جَـدَثُ التربِ [3]

فَلَوْ أَن رُوحِي كَانَ كَسْبِي وَهَبْتُهُ لِجِسْمِكِ ، لَكِنْ لَيْسَ رُوحِيَ مِنْ كَسْبِي

وَلَوْ تُنْظَمُ الأَحْسَابُ يَوْمًا قَـلائِدًا لَقُلِّدَ مِنْهَا جَـوْهَـرُ الحَـسَبِ الـلبِ

أَبَا الحَسَن الأَيامُ تَصْرَعُ بِالمـُنَى وَتُعْقِبُ بِالبَـلْوَى وَتَـخْدَعُ بِـالحُـب

مُصَابُكَ فِيهَا مِنْ مُصَابِي وَجَدْتُهُ وَحُزْنُكَ مِنْ حُزْنِـي وَكَرْبُكَ مِنْ كَرْبِي

فَصَبْرًا فَلَيْسَ الأَجْرُ إلا لِصَابِـرٍ عَلَى الدهْرِ إن الدهْرَ لَمْ يَخْلُ مِنْ خَطْبِ

أَلَمْ تَرَ أَنا فِي نَـوًى مُـسْتَمِرةٍ نَـرُوحُ وَنَغْـدُو كَالمُصِرِ عَلَى الذنْبِ

فَلا وَصْلَ إلا بَيْنَ أَسْمَائِنَا التِـي تُسَافِرُ مِـنا فِـي مُعَنْوَنَـةِ الكـُتْبِ

فَدَائِمَةُ السقْيَا سَمَـاءَ مَدَامِـعِي لِخَدي ، وَأَرْضُ اللحْدِ دَائِمَةُ الشرْبِ [4]

---

[1] الحدب : الغليظ المرتفع من الأرض .

[2] الهدب : جمع أهداب : شعر أشفار العينين .

[3] المرموس : الموضوع في الرمس أي القبر .

[4] ابن حمديس الصقلي : ديوان ابن حمديس ، ص36-37 .

وهو يأسف لأن النوى أبعد العمة أيضا عن أهلها فتوفيت قصية عن وطنها ، وقد أهيل عليها التراب بالأيدي الغريبة ولم يتكفل أهلها بهذه العملية ، وتمنى الشاعر لو حضر جنازتها وأهال عليها التراب بيديه ويبسط خده فوق اللحد ويبكي بحرارة ، ورجا أيضا لو أن روحه كانت من كسبه وطوع بنانه فمنحها إياها حتى تبقى حية لأمد طويل ، ولكن الأرواح ليست من كسب العباد وحتى الأجساد هي تبلى وتندثر في التراب ولا يبقى إلا عمل المرء يرفع إلى السماء في انتظار يوم الحساب ، ثم يدعو ابنها أبا الحسن إلى التجلد والصبر ويقول أن مصابه فيها ليس لأقل من مصابه ، وأن لا عزاء في هذه الدنيا التي تبادر المرء كل يوم بثكل أو يتم .

ولا شك أن اغتراب الشاعر كان وسيلة لإبعاد الحزن عن نفسه، وحتى لا يرى كل يوم أحبابه سائرين إلى القبور المشرعة ، ولكنه حتى في غربته تصل أخبار الموت فيأسى على الفقيد ، ويزيد من فجيعته أنه لم يقم بواجب العزاء حياله ، لذلك يقول أنه مصر على الغربة التي هي في الحقيقة إصرار على الذنب لأن النوى لا يسقط حق الأهل وذي القربى عند الرجل الكريم .

ويرى الشاعر أن لا وصل بين الأهل والخلان إلا بالاشتراك في الأسماء ، وحين يتصفح أحد كتابا ويجد به اسما موافقا لاسم أحد خلانه فأنه يتذكره برهة لكن سرعان ما ينساه .

وفي الأخير يدعو الشاعر بأن تستمر عيناه في سكب الدموع على هذه العمة البارة ، فلا شيء يعزي نفسه به سوى هذه العبرات .

والذي نستشفه من مراثي ابن حمديس أنه كان يرثي لحاله في ديار الغربة أكثر من رثائه للآخرين ، وقد لوح بذلك أكثر من مرة من مثل قوله في رثاء ابنته :

أَرَانِي غَرِيبًا قَدْ بَكَيْتُ غَرِيبَةً   كِلانَا مَشُوقٌ لِلْمَوَاطِنِ وَالأَهْلِ

وقد قدم في قصائد أخرى نماذج شعرية رائعة لشعر الغربة والحنين << وما تعرف العربية شاعرا عاش يتفجع على وطنه ويحن إليه كما تعرف في ابن حمديس >>[1]،وربما كان لفقده أهله تباعا الأثر البالغ في تأزيم وضعه وتقتيم الصورة المشرقة التي ما فتأ يرسمها عن وطنه ، وقد نقول أن فقدان البنت والعمة وغيرها زاده إصرارا على التغرب وأي معنى أن يعود الغريب إلى وطنه ليجد أهله قد قبروا جميعا غير أن يتشفى أعداؤه

---

(1) د. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، ج9 ، ص 406 .

وحساده فيه ويموت كمدا على حاله ومآله ، وحتى حينما نبت بالشاعر الدار والمقام في مصر أواخر أيامه نجده يحل ببجاية وبها ويلبي نداء ربه سنة 527هـ / 1133م .

- صورة المرأة في الحرب :

لقد اكتوت المرأة في المغرب بنار الحروب ردح طويلا من الزمن ، ولم تكن تهنأ بالمقام في أرض إلا وترى الخيل والأجناد يستبيحونها فيدمرون ويحرقون ويقتلون ، وكان حظها من ذلك السبي أو التشريد أوالإفراد عن الحليل والأهل ، ولم تكن لها إلا الدموع تذرفها بغزارة على فقدان الولد والأهل ، ولم يكن لها إلا العويل والنحيب تستجدي به الغالب والعدو القاهر عله يشفق عليها ويرق لها فينقذها من مهانة السبي ، يقول الجاحظ : << والمرأة إذا ضعفت عن كل شيء نزعت إلى الصراخ والولولة ، التماسا للرحمة ، واستجلابا للغياث من حماتها وكفاتها أو من أهل الحسبة في أمرها >> [1]

وابن رشيق ينقل لنا الحالة المزرية التي آلت إليها نساء القيروان عقب الهجوم الكاسح الذي تعرضت له من جحافل أعراب بني هلال سنة 449ه/1057م ، يقول : [من الكامل]

فَتَكُـوا بِأُمَةِ أَحْمَـدٍ أَتُـ ـ ـرَاهُمُ … أَمِنُوا عِـقَابَ اللهِ فِي رَمَضَان

نَقَضُوا العُهُودَ المُبْرَمَاتِ وَأَخْفَرُوا … ذِمَمَ الإِلَهِ وَلَمْ يَفُـوا بِضَمَـان [2]

فَاسْتَحْسَنُوا غَدْرَ الجِـوَارِ وَآثَرُوا … سَبْيَ الحَرِيمِ وَكَشْفَـةَ النِسْوَان

سَامُوهُمُ سُوءَ العَذَابِ وَأَظْـهَرُوا … مُتَعَسِفِينَ كَوَامِـنَ الأَضْـغَـان [3]

وَالمُسْلِـمُونَ مُقَسمُـونَ تَنَالُهُـمْ … أَيْـدِي العُصَاةِ بِـذِلةٍ وَهَـوَان

مَا بَيْنَ مُضْـطَرٍ وَبَيْـنَ مُعَـذبٍ … وَمُقَتلٍ ظُلْمًا ، وَآخَرَ عَـ ـان [4]

يَسْتَصْرِخُونَ فَلا يُغَاثُ صَرِيخُهُمْ … حَتـى إِذَا سَئِمُوا مِنَ الإِرْنَـان [5]

بَـ ـادُوا نُفُوسَـهُمُ فَلما أَنْفَـذُوا … مَا جَمَعُوا مِنْ صَامِتٍ وَصِوَان [6]

وَاسْتَخْلَصُوا مِنْ جَوْهَرٍ وَمَلابِس … وَطَرَائِـفٍ وَذَخَـ ـائِرٍ وَأَوَان [7]

---

[1] الجاحظ : الحيوان ، ج6 ،ص227 .

[2] أبرم الأمر وبرمه : أحكمه ، وعهود مبرمات : محكمات . أخفر الذمة : لم يف بها

[3] سامه الخسف : أولاه إياه ، تعسف على فلان : ظلمه . الأضغان : الأحقاد الشديدة

[4] عان : أسير .

[5] الإرنان : الصيحة الشديدة والصوت الحزين عند البكاء .

[6] باد الشيء : انقطع وذهب ، الصامت من المال ، الذهب والفضة ، الصوان : ما يصان به أو فيه الكتب والملابس.

[7] استخلص الشيء : حازه واختاره . الطرائف : النفائس من كل شيء .

خَرَجُوا جُفَـاةً عَائِذِينَ بِرَبِّـهِمْ   مِنْ خَوْفِهِمْ وَمَـصَائِبِ الأَلْوَان

هَرَبُوا بِكُل وَلِيـدَةٍ وَفَطِيـمَةٍ   وَبِكُل أَرْمَلَةٍ وَكُل حَصَـان [1]

وَبِكُل بِـكْرٍ كَالْـمَهَاةِ عَـزِيزَةٍ   تَسْبِي العُقُولَ بِطَرْفِهَا الفَتَان [2]

خُودٍ مُـبَتلَةِ الـوِشَاحِ كَأنـهَا   قَمَرٌ يَلُوحُ عَلى قَضِيبِ البَان [3]

وهو يقول إن هؤلاء الأعراب الجفاة فتكوا بمسلمي القيروان الآمنين في ديارهم وقراهم واستباحوا حرمهم وأموالهم ومتاعهم فهل أمنوا عقاب ا لهم خاصة وأن هجومهم هذا كان في شهر رمضان ؟ ، وهم بعد هذا قد نقضوا العهود والمواثيق التي أبرموها مع المعز بن باديس والتي تقضي باستسلام المدينة وخروج المعز منها إلى المهدية شريطة عدم إيذاء أحد أو مس أي شخص بسوء [4] لكنهم احتالوا على أهل القيروان الصامدين والمدافعين على أبواب المدينة وأسوارها ، فما إن فتحوا لهم الأبواب حتى أعملوا فيهم قتلا وذبحا ، وبنسائهم قتلا وسبيا ، وبمتاعهم حرقا وغصبا .

على أن مأساة النساء كانت أكبر وقد حل بهن ما يحل بكل نساء الدنيا حين تغتصب الأرض ويموت الحامي ، فينكشف الستر ويهدم الخدر<< وربما كان العرب أحرص على الأسر والسبي من حرصهم على الغنائم الأخرى ، لأن في الأسر والسبي إذلالا للعدو وقهرا ، ولأنهم ينتفعون بالأسارى والسبايا ...فيستخدمون الأسرى في العمل عبيدا ، ويتزوجون السبايا بغير صداق ويستولدونهن ، وهم إلى ذلك كله كلفون بأن يفخروا بأنهم أثخنوا في عدوهم ، وظفروا به ، وليس بعد الأسر والسبي دليل على مقدرتهم وصولتهم << [5] .

إن الأعراب قد أظهروا كوامن الأحقاد ، والشاعر يتساءل عن سبب هذه الضغائن وذلك التشفي وليس لهم وتر أو ثأر مع أهل القيروان ، ولكنها سطوة الغالب ، وقانونه الذي يفرضه وليس لأحد أن يعترض عليه أو يناقشه فيه .

---

[1] الحصان من النساء : العفيفة المتزوجة .

[2] البكر : العذراء ، المهاة : البقرة الوحشية .

[3] الخود : الشابة الناعمة الحسنة الخلق ، وامرأة مبتلة : منقطعة الخلق عن النساء ، لها عليهم فضل ، البان : شجر لين سبط القوام .

- ابن رشيق : ديوان ابن رشيق القيرواني ، ص 161-162-163-164 .

[4] د حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، ج1 ، 604-605 .

[5] د. أحمد محمد الحوفي : المراة في الشعر الجاهلي ، ص 464 .

وقد غادر أهل القيروان مدينتهم العامرة ، وتركوها لهؤلاء الغزاة لتصبح وطنهم الجديد بعدما كانوا مشتتين في مصر واليمن ، ولم يكن خروجهم منها كدخولهم إليها فحالتهم تدمي القلوب وتبعث على الشفقة ، فبعضهم أسير وبعضهم جريح ، وآخرون مقتولون حملهم أهلهم معهم ليدفنوهم خارج المدينة دونما عزاء مخافة أن يلحقوا بهم وهم خرجوا أيضا خشية وقوع المزيد من النساء في السبي ، والمرأة لا تطيق السبي وحتى إن وقعت فيه لا تستكين له أو ترضى بآسرها << وليس أدل على بغض المرأة للسباء من أن تعيش مع سابيها حينا من الدهر ، وتلد له ، ولكنها لا تزال متبرمة بأن يذكر الناس أنها سبية ، ولا تزال أنوفا من أن تسمى أمة ، فإذا ما برقت لها بارقة أمل في التحرر والفكاك من السبي انطلقت لا تلوي على شيء ، ولقد تحسن الحيلة في أن تسترد حريتها وقيمتها ، ثم تعاود عشرة زوجها وأولادها ، ولقد تبخع نفسها حتى لا تقع أسيرة >> [1] .

وهؤلاء الموتورون أهلكوا نفوسهم استصراخا وتذللا للغاصبين ، ولكن دون جدوى ، فلما نفد من أيديهم ما كانوا جمعوه من مال وأثاث ومؤن خرجوا من ديارهم معتصمين با ملتجئين إليه ، يبحثون عن مأمن لهم ، وأرض تقلهم وسماء تظلهم ، وقد حملوا معهم نساءهم وفتياتهم الجميلات اللائي يسبين العقول بطرفهن الفتان ، وتركوا المدينة للغزاة الذين << اكتسحوا المكسب وخربوا المباني ، وعاثوا في محاسنها وطمسوا من الحسن والرونق معالمها، واستصفوا ما كان لآل بلكين في قصورها ، وشملوا بالعبث والنهب سائر من فيها ، وتفرق أهلها في الأقطار فعظمت الرزية واستشرى الداء وأعضل الخطب >> [2].

ولا شك أن منظر البيوت المحترقة والمساكن المهدمة يثير الشجن والأسف في نفوس النساء وقد تعهدنها بالحفظ والصيانة دهرا طويلا ، وإذا عمل كل هذه السنين ومحصول كل هذه المجهود يذهب في طرفة عين ويختزل في لهيب متأجج وغبار متطاير وحطام متناثر ورماد ماثل ، وحق لهن أن ينظمن المراثي والترميمات الحزينة أسفا على الزمن الفائت والملك المضيع .

وتزداد صورة المرأة قتامة وسوداوية ، ووضعها تأزما وتدهورا كلما اشتعلت نيران الحروب فهي في كل الأحوال ضحية ، وهل ستذوق إلا ألم الثكل أو الترمل أو اليتم ،

---

[1] د. أحمد محمد الحوفي : المرأة في الشعر الجاهلي ، ص 482 .

[2] ابن خلدون: العبر : ج6 ، ص 16.

وفي أحسن الأحوال كانت تتحمل متاعب التنقل من مضرب لآخر بداعي الحفظ على سلامتها إلى أن تنجلي المعارك ويرد العدو على أعقابه .

إنها وضعية لا تبعث على الارتياح مطلقا ، فالحرب كانت لعنة تطارد الجميع وأرض المغرب كانت ميدانا حاسما لتسوية النزاع بالسيوف ولا شيء غيرها .

الـخـاتـمة :

-إن صورة المرأة في الشعر المغربي هي جزء أو جانب من الصورة الكاملة للمرأة في الشعر العربي عموما، وباقي أجزاء الصورة يكملها شعر الأندلسيين والمشارقة .

- حظيت المرأة في المغرب الإسلامي بمكانة مشرفة على كافة الأصعدة السياسية والاجتماعية و الثقافية :

ففي الجانب السياسي كان للكاهنة في المغرب الأوسط دور كبير في عرقلة جهود الفاتحين وإيقاف زحفهم نحو المغرب الأدنى والأندلس ، وقد استطاعت هذه المرأة بدهائها وحنكتها في تسيير المعارك أن تدوخ جيوش الخلافة الأموية زمنا طويلا ، إنها المرأة التي يضرب بها المثل في الاستبسال والدفاع عن الأوطان إلى آخر رمق.

ونجد بعدها المشاركة الفاعلة والدور الخطير الذي لعبته المرأة في الفتوحات ، والتدخل في توجيه دفة الصراع بين الدول التي حكمت المغرب الإسلامي طوال القرون الثمانية الأولى للهجرة ، وكما وجدنا من النساء من وقف في وجه الفتح وجدنا منهن أيضا من ساهمت في دفعه قدما بنفسها ومالها من مثل "أم حرام" ، وبدأت تدخلات المرأة في الشؤون السياسية مبكرا بغض النظر عن منزلتها الاجتماعية (جارية كانت أم حرة) فالأهم أن تكون موجودة في القصر ومحيطه ، ورأينا كيف استطاعت " كنزة " الجارية البربرية المحافظة على ملك الأدارسة بإشارتها على حفيدها تولية إخوته المدن والإقطاعات ، وكذلك السيدة "أم ملال" في البلاط الزيري والتي اضطلعت بشؤون الحكم في غياب أخيها نصير الدولة ، أما درة المرابطين "زينب النفزاوية" فإنه يعزى إليها كل فضل في تدعيم بنيان الدولة الناشئة بما بذلت من مال وقدمت من مشورة وتدبير .

واستمر تأثير المرأة سياسيا في العصر الموحدي وصادفنا "حبابة الرومية" التي حمت حوزة المسلمين في مراكش وجنبتهم فضائع كان الصليبيون سينزلونها بهم .

ولم يكن تاريخ المشاركة السياسية للمرأة هينا ، فقد جُرعت كؤوس الذل والمهانة والمنية حينما يقتل الحماة وتطأ خيل الأعداء أرض الوطن وتجلي سيوفهم رقاب أهله .

وفي الجانب الاجتماعي كان حرص المرأة على الملبس والزينة كبيرا ، وفتونها مضاعفا ، وتختلف تقاليد الزواج ومراسيمه من منطقة لأخرى ، ومن بلد لآخر ، وإن كانت المبالغة والإسراف السمة البارزة في هذه الأفراح ، أما عند الموت فالطقوس

الغريبة تفرض نفسها ولعل الجهالات القديمة كانت لا تزال مسيطرة على عقول المغربيات ، وهذا ما يفسر الحضور اللافت لمظاهر الجزع في حادثة الموت ، أو حضور طقوس الشعوذة والسحر التي درجت بعضهن على" إفادة "مختلف شرائح المجتمع بها ، ولكن نرى سلوك النساء" يعتدل "مع مرور الزمن بتمكن تعاليم الدين الإسلامي من نفوسهن ولا نصل إلى العصر المريني إلا وتصبح تلك المعطيات الاجتماعية السلبية شيئا من الماضي المنقضي ، وربما يفسر تمسك بعض النساء بالشعوذة الحاجة الملحة التي أملتها الظروف الاقتصادية والاجتماعية الصعبة التي كابدتها الطبقة الفقيرة فلم يكن لها وسيلة تسد بها رمقها سوى تحصيل بعض المال عبر هذه الطرق .

ونجد أثر الإسلام في النفوس يتجسد في مبادرة المرأة المغربية لصون هذا الدين وبناء المساجد ومراكز التعليم الديني من مثل السيدة "أم البنين الفهرية" التي شيدت بمالها الخاص جامع القرويين بفاس ولا يزال إلى اليوم مركز شعاع حضاري في الغرب الإسلامي ، واتجهت المرأة أيضا إلى ميدان التأليف فنهلت من منابع المعرفة الأدبية والعلمية وبرزت منهن الأديبة والمتفقهة والطبيبة .... حتى إن بعضهن بلغن درجة لم يبلغها الرجال الأفذاذ من مثل "عائشة المنوبية " التي يوجد للناس اعتقاد في شخصها وقبرها مزار إلى اليوم .

- وقد كانت لنا وقفة مطولة حيال صورة الأم في شعر المغاربة ، و تباينت التجارب الشعرية التي عثرنا عليها في هذا الصدد ، فمنهم من رزء بفقد أمه فرثاها بأشجى الأشعار ، ومنهم من استغل مدح أو رثاء أمهات الأمراء والخلفاء للتعبير عن مذهبه وأرائه السياسية والدينية ، بحيث يقوم هذا الشعر على المقابلة المباشرة بين نساء الممدوح ونساء المهجو فإذا مدح أو رثى أم الممدوح وصفها بالزهد والتقوى والصلاح وأن فقدها خسارة للعالمين ، وبالمقابل يهجو نساء وأمهات أعدائه ومناوئيه ويصفهن بالبطر والرياء وكثرة الفحش وقلة الخير وبأن موتهن راحة للعالمين من شرورهن وشرور أزواجهن وأبنائهن ، ولعل هذا النوع من الرثاء " السياسي "برع فيه ابن هانئ المغربي بشكل لافت ليجعل من ديوانه ملحمة شيعية لأمراء الفاطميين ونسائهم .

- إن صورة المرأة الحبيبة أخذت هامشا كبيرا من اهتمام الشعراء ولم تكن وحدها في قصائد الحب وقد جاء الغزل مزيجا مشتركا بين المرأة والطبيعة والخمر والغناء

والرقص فإذا وصفوا مفاتنها شبهوها بالمهاة في حسن العينين ، وبالغزال في الرشاقة والتثني ، والبدر في الجمال ...، وإذا امتنع على الشاعر وصال الحبيبة أشرك الخمر في همومه وأشجانه ، فشكى إليها ظلم الحبيبة وجور الزمان الذي يفرق بين الخلان واعتبرها خير مؤنس وأفضل صديق .

وكذلك الغناء والرقص فقد كان الشاعر يحاول تعويض حرمانه من التمتع بالحبيبة عبر التردد على الحانات والمواخير التي كانت تعرض اجساد الجواري الراقصات فيمتع ناظره ويشفي .

وهذا لا يعني أن كل الشعراء كانوا ينظرون على الحبيبة من زاوية مادية فقط ، بل أن بعضهم كان يرى في ذلك الحرمان النفسي والجسدي الذي يعانيه متعة نفسية رائعة يتمنى دوامها وهي التي تحيله إلى التعمقات الفلسفية الوجدانية الرحبة .

- وقد مدح الشعراء زوجاتهم وبناتهم وجواريهم ورثوهم رثاء مؤثرا ، وبكوهم بكاء حارا بعد موتهن ، ولعل الأمر اللافت هو أن الجواري لم يعانين المهانة والتحقير ، بل كن يَحُزْن منزلة خاصة في قلوب ملاكهن قد تضاهي منزلة الزوجة أو تفوقها ، ذلك أن الجواري كن ذا حسن وجمال فائقين وخاصة الروميات والتركيات والحبشيات اللائي جلبهن تجار الرقيق إلى بلاد المغرب و يعرضن في سوق النخاسة ليقتنيهن التجار والعامة ، وكان بلاط الأمراء والأعيان مكتظا بهن مما يدفع بالأمير إلى " تسريحهن" والتخاص منهن عبر تقديمهن مع المال كصلات للشعراء المادحين ، وبالطبع فقد كان الشعراء أقدر على وصف جمالهن ، ومنهن من ملكت فؤاد صاحبها حتى إذا ماتت ذرف عليها الدموع ورثاها بدرر النظم .

- وقد تباينت التجربة الشعرية لشواعر المغرب ، وبدت صورة كل شاعرة من خلال الحاجة والسبب الذي دفعها إلى النظم ، ومنهن العاشقة الولهانة التي أصناها الحب وأسقمها الوجد فهي تتوسل إلى الحبيب بشعره عله يشفق عليها ويصلها حتى يزول بعض وجدها ، وإن كان توسل المرأة للرجل في الحب والشعر أمرا مبتدعا طالما أن العادة جرت على أن الرجل هو الطالب الملح و المرأة هي المطلوب المتمنع .

ومنهن من حرصت على صلة الأخوة والقرابة فكانت تنظم الشعر وفاء لعهد الصبا وزمن الائتلاف في حضن الأسرة الواحدة ، وقد جعلتها المصائب بفقد الأخ مثلا تصدح بمراثي الزمن المحيل .

وأثر على بعضهن النظم في معاني الزهد والنظر في شؤون الحياة والموت ، ويخلص هذا الخطاب الزهدي بالدعوة إلى اتباع الطريق السوي والابتعاد عن المحرمات والشهوات وبلى الإنسان في القبر وتغير مهجته أعظم العبر على ضعفه واستيلاء النقص على جنسه ويلاحظ أن هذه المعاني الشعرية ذات الأبعاد الدينية البحتة قد قصرت على شواعر المغرب دون سواهن ، وقلما نجد لدى شواعر الشرق من تناولت غرض الزهد ، فالخطاب النسوي في الشرق خطاب مجون وعبث في معظمه .

ووجدنا أيضا شعر الحنين والغربة ، ذلك أن الجواري المجلوبات من الشرق والشمال يعانين ألم فراق أهلهن وبعد أوطانهن ، وقد كان لزاما أن تظهر صورة المشتاق إلى وطنه وهذا ما يدل على وفاء المرأة لأرضها وحنينها لعهد الصبا المتقادم .

وقد كانت هناك تجارب شعرية أخرى لم نلم بها أو لم تذكرها المصادر الأدبية والتاريخية نظرا لان النظرة الدونية لأشعار النساء كانت لا تزال مسيطرة على عقول النقاد ، فإذا كان أبو هلال العسكري يخرج أمير الشعراء محل العروبة المتنبي من دائرة الشعر وينفي عنه صفة الشاعرية ، فلنتصور مدى الضعف الذي ستكون عليه المرأة أمام الرواة والنقاد حيال تسجيلهم أو اعترافهم بشعرها وخاصة وأنهم الأداة الأولى والوحيدة التي سجلت وحفظت شعر الأقدمين إلى اليوم .

- عن هذا العرض الموجز قد اعتوره النقص ، ومسه الخلل نظرا لعوامل كانت في غير صالحه وتصب في غير مجراه وربما سيكون محفزا وملهما لمن يرغب في التعمق أكثر والبحث الممحص والدقيق في هذا الموضوع وهذا غاية ما أردناه وأقصى ما أملناه .

فـهرس المـصادر والمـراجع :

*** القرآن الكريم برواية حفص .**

* البخاري :أبو عبد ا محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري الجعفي : صحيح البخاري ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، د ت .

* أبو داوود : سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي : سنن أبي داوود ، مراجعة وضبط : محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر، بيروت ، لبنان ، د ت .

*ابن ماجة : أبو عبد ا محمد بن يزيد القزويني : صحيح سنن ابن ماجة ، مراجعة: محمد ناصر الدين الألباني ، مكتبة المعارف ، الرياض ، السعودية ، ط1 ، 1417هـ / 1997م .

أولا : المـصـادر :

1- ابن الأبار : أبو عبد ا محمد بن الأبار القضاعي البلنسي : ديوان ابن الأبار ، تعليق : عبد السلام الهراس ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ط2 ، 1406هـ /1986 م .

2- الأعشى : أبو بصير ميمون بن قيس ، ديوان الأعشى ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، دت .

3- البارودي : ديوان البارودي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1998م .

4- بشار بن برد : ديوان بشار بن برد ، تقديم وشرح : صلاح الدين الهواري ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1998 ، ج1-2 .

5- الثغري : أبو عبد ا محمد بن يوسف القيسي الأندلسي : ديوان الثغري التلمساني ، جمع وتحقيق وشرح : نوار بوحلاسة ، مخبر الدراسات التراثية ، قسنطينة ، الجزائر ، 2004 م .

6- جرير : أبو حزرة جرير بن عطية التميمي : ديوان جرير ، شرح يوسف عيد ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، د ت .

7- حسان بن ثابت الأنصاري : ديوان حسان بن ثابت ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، 1978م .

8- ابن حمديس : عبد الجبار بن حمديس الصقلي : ديوان ابن حمديس الصقلي ، تصحيح وتقديم ، إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، 1379 ه / 1960 م

9- ابن خفاجة : أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة الأندلسي : ديوان ابن خفاجة ، تحقيق : سيد غازي ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، مصر ، ط2 ، د ت .
10- الخنساء : تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية ، ديوان الخنساء ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، لبنان ، 1979 م .
11- ابن رشيق : أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني : ديوان ابن رشيق القيرواني ، شرح : صلاح الدين الهواري وهدى عودة ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، د ت .
12- أبو العتاهية : إسماعيل بن القاسم : ديوان أبي العتاهية ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، 1996 م .
13- العباس بن الأحنف : ديوان العباس بن الأحنف ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، 1696م
14-العفيف التلمساني : أبو الربيع عفيف الدين التلمساني الصوفي : ديوان العفيف التلمساني ، تحقيق وتقديم : العربي دحو ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1994 م .
15- عمر بن أبي ربيعة : ديوان عمر بن أبي ربيعة ، شرح : يوسف شكري فرحات ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1412 ه /1992 م .
16- الفرزدق: همام بن غالب : ديوان الفرزدق ، شرح : صلاح الدين الهواري ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، 1996 م.
17- لبيد بن ربيعة العامري : ديوان لبيد بن ربيعة ، شرح : مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1995م .
18- أبو نواس : الحسن بن هانئ ، ديوان أبي نواس، دار العودة ، بيروت، لبنان، د ت.
19- ابن هانئ الأندلسي : ديوان ابن هانئ الأندلسي ، شرح : أنطوان نعيم ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ،ط1 ، 1416 ه / 1996 م .
20- المتنبي : أبو الطيب أحمد بن الحسين الكوفي ، ديوان المتنبي ، شرح ناصيف اليازجي ، الموسوم بالعرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 2005 م .
21- ابن المعتز : ديوان ابن المعتز، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، دت .

22- المعري : أبو العلاء المعري: اللزوميات ، تحقيق : إحسان عباس ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، 1984 .
23- المهلهل : أبو ليلى عدي بن ربيعة التغلبي ، ديوان المهلهل ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، د ت .
24- الأبشيهي : شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي : المستطرف في كل فن مستظرف ، تحقيق : محمد سعيد ، دار ابن الهيثم ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 1426 هـ/2005 م .
25- ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن الأثير الجزري : الكامل في التاريخ ، مراجعة وتصحيح : محمد يوسف الدقاق ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط4 ، 2006م .ج3 .
26- ابن الأحمر : أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر الغرناطي ، نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان ، تحقيق وتقديم : محمد رضوان الداية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1396 هـ / 1976 م .
27- الأصفهاني : أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، د ت ،
28- الأصمعي : أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي ، الأصمعيات ، شرح تحقيق : سعدي ضناوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1424هـ/2004م .
29- ابن بسام : أبو الحسن علي الشنتريني ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق : إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، 1399 هـ / 1979 م ، ج1 .
30- البغدادي : عبد القادر بن عمر البغدادي ، خزانة الأدب و لب لباب لسان العرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1998 م .الأجزاء .
31- البكري : أبو عبيد ا بن عبد العزيز محمد بن أيوب البكري ، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، مكتبة المثنى ، بغداد ، العراق ، د ت .
32- البلاذري : أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري ، فتوح البلدان ، تحقيق وشرح : عبد ا أنيس الطباع ، وعمر طباع ، منشورات مؤسسة المعارف ، بيروت ، لبنان ، 1987 .

33- البلخي : أبو زيد أحمد بن سهل البلخي ، كتاب البدء والتاريخ ، تقديم : خليل عمران منصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1997 م .
34- التبريزي : أبو زكريا يحيى بن علي ، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، د ت .
35- التنسي : محمد بن عبد ا التنسي : تاريخ بني زيان ملوك تلمسان ، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان ، تحقيق وتعليق : محمود بوعياد ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، والمكتبة الوطنية الجزائرية ، 1985 م .
36- التوحيدي : أبو حيان علي بن محمد بن عباس التوحيدي ، الإشارات الإلهية ، تحقيق : وداد القاضي ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، 1973 م ، ج1 .
37- التوحيدي : أبوحيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة ، وهو مجموع مسامرات في فنون شتى حاضر بها الوزير أبا عبد ا العارض في نحو أربعين ليلة ، ضبط وشرح : أحمد أمين ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، د ت .
38- الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : البيان والتبيين ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، بيروت ، د ت ، ج1-2-3-4.
39- الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : الحيوان ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط3 ، 1388هـ/1969م .
40- الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : رسائل الجاحظ ، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 1399 هـ /1979 م ، ج2 -3 .
41- أبو حامد : محمد بن أبي حامد الغزالي : إحياء علوم الدين ، وبذيله : كتاب الإملاء في إشكالات الإحياء ، دار الثقافة ، الجزائر ، ط1 ، 1991 ، ج2 .
42- ابن حزم : أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي ، جمهرة أنساب العرب ، مراجعة : لجنة من الأساتذة بمعية عبد السلام محمد هارون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،لبنان ، ط1 ، 1983 م .
43- ابن حزم : أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والألّاف ، ضبط ومراجعة : أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،لبنان ، د ت .

44- الحموي : تقي الدين أبو بكر علي بن عبد ا الحموي : خزانة الأدب وغاية الأرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1986م .
45- الحموي : أبو عبد ا شهاب الدين الرومي الحموي ، ، معجم الأدباء ،
46- الحموي ، أبو عبد ا شهاب الدين الرومي الحموي : معجم البلدان ، تحقيق : فريد عبد العزيز الجندي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1410هـ/1990م .
47- الحميدي : أبو محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد ا الأزدي الحميدي الأندلسي ، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، تحقيق : روحية عبد الرحمن السويفي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،لبنان ، ط1 ، 1417 هـ / 1997 م
48- ابن الخطيب : لسان الدين السليماني ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق وتقديم : عبد ا عنان ، دار المنصور ، الرباط ، المغرب ، دت ، ج1-2
49- ابن حوقل : أبو القاسم بن حوقل النصيبي ، صورة الأرض ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، 1979 .
50- ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن ولي الدين ابن خلدون المغربي : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، مصر ، ودار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان، 1420ه/1999 م ، الأجزاء .
51- ابن خلدون : المقدمة : دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1423 هـ / 2003 م .
52- ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ،بيروت ، 1994 م ، ج2-5
53- الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : سير أعلام النبلاء ، و بهامشه إحكام الرجال من ميزان الاعتدال في نقد الرجال له ، تقديم : محمد بن عيادي عبد الحليم ، مكتبة الصفا ، القاهرة ، مصر ، 2003 م ، ج3 .
54- ابن رشيق : أبوعلي الحسن بن رشيق القيرواني ، أنموذج الزمان في شعر القيروان جمع وتحقيق : محمد العروسي المطوي وبشير بكوش ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، والمؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1406هـ/ 1986 م .

55- ابن رشيق : أبوعلي الحسن بن رشيق القيرواني : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق : عبد الحميد هنداوي ، المكتبة العصرية ، بيروت ،لبنان ،ط1، 1422هـ/2001 م ، ج1-2 .
و ج2 : تحقيق و تعليق : النبوي عبد الواحد شعلان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 1420 هـ / 2000 م .
56- الزوزني : أبو عبد ا الحسين بن أحمد الزوزني : شرح المعلقات السبع ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان . د ت .
57- ابن سعيد علي بن موسى المغربي : المغرب في حلى المغرب : تحقيق وتعليق : شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، د ت .
58- السلاوي : أبو العباس شهاب الدين أحمد بن خالد بن حماد الناصري الدرعي السلاوي : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، تقديم : محمد عثمان ، دار الكتب العلمي ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2007م ، ج1-2 .
59- ابن شرف : أبو عبد ا محمد بن شرف القيرواني : أعلام الكلام ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، د ت
60- الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ط5 ، 1993م .
61- ابن عبد الحكم : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبيد ا بن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، تحقيق: علي محمد عمر ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، مصر ، 1425هـ/2004م ، ج1-2 .
62- ابن عبد ربه الأندلسي : العقد الفريد ، دار المؤيد ، دمشق ، سوريا ، 1984 م .
63- عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين مع ما يتصل بتاريخ هذه الفترة من أخبار الشعراء وأعيان الكتاب ، ضبط وتصحيح : محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط7 ، 1987 م .
ط1 ، 2003 م .

64- ابن عذارى: أبو عبد ا محمد بن عذارى المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب ، تحقيق : ج-س كولان و ليفي بروفنسال ، دار الثقافة، بيروت ، لبنان ، ط5 ، 1418هـ/ 1998م .ج1-2-3-4 .
65- ابن عذارى :البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين :تحقيق : نخبة من الأساتذة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، و دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط1 ، 1406هـ/ 1985م .
66- العماد الأصفهاني الكاتب : خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء المغرب ، تحقيق : نخبة من الأساتذة ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ط2 ، 1973 م
67-العمري: ابن فضل ا العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأنصار ، تحقيق : غطاس عبد ا خشبة ، دار الكتب والوثائق القومية المصرية ، القاهرة ، مصر، 2005م.
68- الغبريني : أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني : عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تحقيق : رابح بونار ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1971 م .
69- الفاسي : ابن أبي زرع الفاسي : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، دار المنصور ، الرباط ، المغرب ، 1972 م .
70- ابن القاضي : أحمد بن القاضي المكناسي : جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس ، دار المنصور، الرباط ، المغرب ، 1973 م .
71- ابن قتيبة : أبو محمد عبد ا بن مسلم بن قتيبة الدينوري : الشعر والشعراء ، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ، دار الحديث ، القاهرة ، مصر ، 1427 هـ / 2006 م ، ج1 -2 .
72- القرطاجني : أبو الحسن حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق وتقديم : محمد الحبيب بن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1981م .
73- القرطبي : أبو عمر يوسف بن عبد ا بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي : بهجة المجالس وأنس المجالس و شحذ الذاهن والهاجس ، تحقيق : محمد مرسي الخولي ، دار الكتب العلمية ن بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1402هـ/1982 م ، ج2 .

74- قصي الحسين : جمهرة قصص العرب : دار مكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1990 م .

75- ابن كثير : أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي : قصص الأنبياء ، تقديم عبد القادر الأرناؤوط ، دار الفيحاء ، دمشق ، سوريا ، ط1 ، 1421هـ/2001م .

76- المبرد : أبو العباس محمد بن يزيد المبرد النحوي : الكامل في اللغة والأدب ، تحقيق : يحيى مراد ، مؤسسة المختار ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 1425 هـ / 2004 م

77- المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، شرح وتقديم : مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، دت .

78- المقري : أحمد بن محمد المقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق : يوسف البقاعي ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، 2006م .

79-الميداني: أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني : مجمع الأمثال ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، دت ، ج1-2 .

80- الوزان : الحسن بن الوزان الفاسي : وصف إفريقيا ، ترجمه عن الفرنسية : محمد حجي ومحمد الأخضر ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1983 م ، ج1 - 2 .

ثانـيا : المـراجـع :

81- آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام ، ترجمة : محمد عبد الهادي أبو ريدة ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، مصر ، 1419ه/1999 م .ج2 .

81- أحمد أمين : ضحى الإسلام ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، 2005م .

24- أحمد فريد رفاعي : عصر المأمون ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، مصر ، 1346ه / 1928 م ، ج2 -3 .

82- أحمد سليمان ياقوت : التسهيل في علمي الخليل ، دار المعرفة الجامعية ، القاهرة ، مصر ، 1991م .

25- أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، مصر ، 1425هـ / 2005 م .

83- أحمد محمد الحوفي : الغزل في العصر الجاهلي ، دار النهضة مصر، الفجالة ، القاهرة ، مصر، ط3 ، 1972 م .

84-أحمد محمد الحوفي : المرأة في الشعرالجاهلي، دار النهضة ، الفجالة ، القاهرة ، مصر ، 1980م .

85- ألفرد بل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ، من الفتح العربي حتى اليوم ، ترجمة : عبد الرحمن بدوي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط3 ، 1987 م .

86- إحسان النص : اختيارات من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1404 هـ / 1984 م ، ج2 -3 -4-5 .

87- بيير غيشار : التاريخ الاجتماعي لإسبانيا المسلمة ، من الفتح إلى نهاية الحكم الموحدي ، ترجمة: مصطفى الرقي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1999 م ، ج2 .

88- جاك بيرك : العرب تاريخ ومستقبل ، تعريب وتعليق ، خيري حماد ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، المطبعة الثقافية ، مصر ، 1971 م .

89- جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، 1979 م ، ج2 .

90- جوستاف لوبون : حضارة العرب ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، د ت .
91- حسان أبو رحاب : الغزل عند العرب ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 1424 ه / 2004 م .
92- حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، الدولة العربية في الشرق ومصر والمغرب والأندلس (1-132هـ / 622-746 م) ، دار الجيل ، بيروت ،لبنان ، ومكتبة النهضة العربية ، القاهرة ، مصر ، ط14 ، 1996 م ،ج1 .
93- حسن البنا عز الدين : الشعرية والثقافة ، مفهوم الوعي الكتابي وملامحه في الشعر العربي القديم ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط1 ، 2003 م .
94- حسن حسني عبد الوهاب : شهيرات التونسيات ، منشورات مكتبة المنار ، تونس ط3 ، د ت .
95- حسن عبد الرحمن سليم : فن الغزل في الشعر المملوكي ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 2007 م .
96- حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، من قبيل الفتح المغربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر ، من القرن السادس إلى القرن التاسع عشر الميلاديين ، دار العصر الحديث ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1992 ، ج1-2 .
97- حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، دار الرشاد ، القاهرة ،مصر ، ط6 ، 2003م .
98- حنا الفاخوري : تاريخ الأدب العربي : دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، د ت .
99- حنا الفاخوري : تاريخ الأدب في المغرب العربي ، دار الجيل ، بيروت ،لبنان ، ط1 ، 1417 هـ / 1996 م .
100- خير الدين الزركلي : الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط11 ، 1995 م ، ج1 8...
101- رابح بونار : المغرب العربي ، تاريخه وثقافته ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، ط3 ، 2000م .

102-رشيد بورويبة : الدولة الحمادية ، تاريخها وحضارتها ، ديوان المطبعات الجامعية ، الجزائر ، 1397 هـ / 1977 م .
103- روبار برنشفيك : تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، من القرن 13 إلى نهاية القرن 15 ، ترجمة : حمادي الساحلي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1988 م ، ج2 .
104- زكريا صيام : دراسة في الشعر الجاهلي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1984 م .
105- سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، من الفتح إلى بداية عصر الاستقلال ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، مصر ، 1999 م ، ج1 .
106- سعدون عباس نصر ا : تاريخ العرب السياسي في المغرب ، من الفتح العربي حتى سقوط غرناطة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2003 م .
107- سعدون عباس نصر ا : دولة الأدارسة في المغرب ، العصر الذهبي ، (182-223 هـ/ 788-835 م) ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1987 .
108- سوادي عبد محمد وصالح عمار الحاج : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 2004 م .
109- السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب الكبير : دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية ، در النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، 1981 م ، ج1-2 .
110- شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، العصر الإسلامي ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط7 ، 1976 م ن ج2 .
111- شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات ، الجزائر- المغرب الأقصى – موريتانيا – السودان ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 1995 م ، ج 10 .
112- شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، عصر الدول والإمارات ، ليبيا- تونس – صقلية – دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، 1992 م ، ج9 .
113- شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الاول ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط5 ، 1975 م ، ج3 .

114- شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني ، دار المعارف، القاهرة ، مصر، ط4 ، 1981 ، ج4 .
115- شوقي ضيف : التطور والتجديد في الشعر الأموي ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط10 ، 1995 م .
116-شوقي ضيف : فصول في الشعر ونقده : دار المعارف ، القاهرة ، مصر، 1988 م
117- شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط8 ، 1974 م .
118- شوقي ضيف : الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية ، دار المعارف ، لقاهرة ، مصر ، ط3 ، 1976 م .
119- طه حسين : حديث الأربعاء ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط11 ، 1975م .
120- عبد الحميد حاجيات : أبو حمو موسى الزياني ، حياته وآثاره ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط2 ، 1982 م .
121- عبد الحميد حسين حمودة : تاريخ المغرب بفي العصر الإسلامي ، منذ الفتح الاسلامي وحتى قيام الدولة الفاطمية ، الدار الثقافية للنشر ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 2007 م .
122- عبد الرحمن حجازي : الخطاب السياسي في الشعر الفاطمي ، دراسة أسلوبية ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 2005 م .
123- عبد الرحمن بن محمد الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط7 ، 1994 م .
124- عبد ا حمادي : مساءلات في الفكر والأدب ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1994 م .
125- عبد ا كنون الحسني : النبوغ المغربي في الأدب العربي ، دار المنصور ، الرباط ، المغرب ، د ت ، ج1-2-3 .
126- عبده بدوي وآخرون : الأدب وروح العصر ، منشورات ذات السلاسل ، الكويت ، 1405هـ / 1985 م
127- عبده بدوي : دراسات في النص الشعري ، عصر صدر الإسلام وبني أمية ، دار قباء ، القاهرة ، مصر ، 2000م .

128- عثمان الكعاك : موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي ، تقديم ومراجعة : نخبة من الباحثين ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ،

129- العربي دحو: الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات الأغلبية والرستمية والإدريسية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1994 م .

130- العربي دحو : مدخل في دراسة الأدب المغربي القديم ، دار الشهاب ، باتنة ، الجزائر ، 1986 م .

131- عز الدين إسماعيل : التفسير النفسي للأدب ، دار العودة ، بيروت ، لبنان ، ط 4 ، 1981 م .

132- عز الدين إسماعيل : في الشعر العباسي ، الرؤية والفن ، المكتبة الأكاديمية ، القاهرة ، مصر ، ط2 ، 1994 م.

133- عز الدين إسماعيل : الأدب وفنونه ، دار لفكر العربي ، القاهرة ، مصر ، ط8 ، 1425هـ/2004م .

134- عصمت عبد اللطيف دندش : أضواء جديدة على المرابطين ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1991 م .

135- علي شلق : أبو حيان التوحيدي والقرن الرابع الهجري ، دار الاجتهاد والدار العربية للعلوم ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1424 هـ / 2003م .

136- علي محمد محمد الصلابي : إعلام أهل العلم والدين بأحوال دولة الموحدين ، مكتبة الإيمان المنصورة ، مصر ، ط1 ، 2000م .

137- علي محمد محمد الصلابي : عمر بن عبد العزيز وملامح التجديد والإصلاح الراشدي على منهاج النبوة ، دار ابن الجوزي ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 1428هـ/2007م .

138- عمر رضا كحالة : أعلام النساء ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، 1994 م ، ج3-4-5.

139- عمر فروخ : بشار بن برد وفاتحة العصر العباسي ، دار لبنان ، بيروت ، لبنان ، 1399ه/ 1979م .

140- عمر فروخ : عمر بن أبي ربيعة المخزومي ، وفصل في تطور الغزل والنسيب في الشعر العربي ، دار لبنان ، بيروت ، لبنان ، 1403هـ/1983م.

141- عمر بن قينة : أدب المغرب بالعربي قديما ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1994 م .
142- فوزي عيسى : شاعرات الأندلس والمغرب ، جمع وتحقيق ودراسة ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، مصر ، 2008 م .
143- كرزاز فوزية : دور المرأة في الغرب الإسلامي من القرن الخامس الهجري إلى منتصف القرن السابع الهجري ، (ق 11 – ق 13 م) ، دار الأديب ، وهران ، الجزائر ، د ت .
144- محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية ، في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، مصر ، د ت .
145- محمد زغلول سلام : الأدب في العصر الفاطمي ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، مصر ، د ت .
146- محمد الطمار : تاريخ الأدب الجزائري ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط4 ، 2006 م .
147- محمد فريد وجدي : دائرة معارف القرن العشرين ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، 1984 م ، ج5 .
148- محمد عيسى الحريري : تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني ، (610ه-1213م/869هـ-1465م) ، دار القلم ، الكويت ، ط1 ، 1405 هـ / 1985م
149- محمد الغزالي : الجانب العاطفي من الإسلام ، دار الشهاب ، باتنة ، الجزائر ، 1990 م.
150- محمد الغزالي : قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة ، دار ريحانة الجزائر ، 1999م .
151- محمد المنتصر الريسوني : الشعر النسوي في الأندلس : تقديم :عبد ا كنون ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، 1978 م .
152- محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب ، مطبعة نهضة مصر ، الفجالة ، القاهرة س، مصر ، 1948 م .
153- محمد اليعلاوي : ابن هانئ المغربي الأندلسي ، شاعر الدولة الفاطمية ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1405هـ / 1985 م .

154- مريم قاسم طويل : مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر (403-483هـ/1012-1090م) ، مكتبة الوحدة العربية ، الدار البيضاء ، المغرب ، ودار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1994 م .
155- مصطفى سويف : الأسس النفسية للإبداع الفني ، في الشعر خاصة ، إشراف : يوسف مراد ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط2 ، 1959 م .
156- مصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب العرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1421 هـ / 2000م ، ج1-2-3 .
157- مصطفى ناصف : الصورة الأدبية ، دار الأندلس ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1401 هـ / 1981 م.
158- النبوي عبد الواحد شعلان : الحياة الأدبية في عصر النبوة والخلافة ، دار قباء ، القاهرة ، مصر ، ط2 ، 1998 م .
159- نخبة من الأساتذة : الاجتهاد والتجديد في التشريع الإسلامي ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، د ت .
160- نور الدين السد : الشعرية العربية ، دراسة في التطور الفني للقصيدة العربية حتى العصر العباسي ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ، 2007 م ، ج1-2 .
161- هاشم العلوي القاسمي : مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1995 م .
162- يوسف فضل حسن وآخرون : العرب وإفريقيا ، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع منتدى الفكر العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1984 م .

ثالـثا : المـراجع الأجـنبية :

155 - Charle André julien : histoire de l’ Afrique du nord des origines à la conquête arabe , paris , France 1914 , p 150 .

رابـعا : المعـاجم :

156- ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري: لسان العرب ، تحقيق : خالد رشيد القاضي ، دار الصبح ، بيروت ، لبنان ، وإيديسوفت ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط1 ، 2006 م .

خامـسا : الأطـروحات :

157- علي عالية : شعر الفلاسفة في الأندلس في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه دولة في الأدب العربي القديم ، جامعة الحاج لخضر ، باتنة ، الجزائر ، 1424 -1425 هـ / 2004 -2005 م .

158- محمد إحدادن : الحياة الأدبية والثقافية في المغرب الأوسط حتى نهاية القرن الخامس الهجري ، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الأدب العربي ، جامعة الجزائر ، الجزائر ، 1426-1427 هـ / 2005-2006-م .

فهـــــــــرس الموضــوعات :